جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة

يحررها نخبة من أساتذة الكلية

العدد ١٤

يشرف على تحريرها

أ. د. علي البدري

عميد الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

أ. د. عزيز نافع

وكيل الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك ونستفتح بالذى هو خير ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

وبعـــد :

فإن مجلة كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالقاهرة - تستقبل قراءها هذا العام بزاد طيب من المعارف فى خصوبة وثراء متنوع ، كعهد القارىء بها دائما ، ترفده بالطيب وتميره الشهى ، وتقدم له فى بذل وسخاء عصارة الفكر الرائق ، طريفا وتليداً فى أكواب رائقة وأثواب طلية ، ومعارض قولية فصاح.

* وأول ما يستقبل القارىء العزيز ما يقدمه قسم البلاغة والنقد ، وهو فى هذا العام يقدم بحثين من البحوث البلاغية المتخصصة .

البحث الأول بعنوان «من أسرار النغم فى فاتحة الكتاب ويقع فى إثنتين وثلاثين صفحة عدا المراجع بلغت تسعة وعشرين مرجعا وناهيك بموضوع قرآنى يستقبلك على مشارف نورانية تطل من بعيد هادية راشدة .

وقد افتتح الباحث الكلام عن البسملة وموقف العلماء منها فى الفاتحة ووقف عند كل كلمة من كلماتها وكل لفظ من ألفاظ الجلالة يبحث ويدقق مستعرضا آراء اللغويين والبلاغيين ، ثم بدأ فى أسرار النظم فى السورة جزءا جزءا وعبارة عبارة ، مبينا أسرار النظم وسماته والمنابع الأسلوبية وخصائصها والمواقع البلاغية وجمالياتها وألوان البيان وتوافق رءوس الآى .

* والبحث الثانى بعنوان كتاب «الحجة» لأبى على الفارسى» دراسة بلاغية » وهو للدكتور محمد شعبان علوان أستاذ البلاغة المساعد فى كلية الآداب بالجامعة الإسلامية فى غزة ـ فلسطين ـ ولقد قدم الباحث لبحثه فعرّف بالكتاب وأهميته ثم بصاحبه وشيوخه وتلاميذه واستعرض ما فى الكتاب من مباحث بلاغية فى علوم المعانى والبيان والبديع.

والبحث بمصادره ومراجعه التى زادت على الثلاثين وجبة بلاغية شهية فى فكر إمام لغوى عظيم .

* أما ما يقدمه قسم اللغويات فهو يتمثل فى موضوع جديد يتناول الأسماء العاملة غير المشبهة للأفعال والحروف للباحث الدكتور أحمد محمود عبد الستار ويقع فى سبع وعشرين صفحة عدا المراجع التى زات عن الثلاثين عددا ما بين تراثى ومعاصر ، فتعرض الباحث للمبتدأ والخبر باعتبارهما عاملى رفع وإلى الضمير الذى قال الكوفيون أنه يعمل الرفع فى المبتدأ ، كما تعرض للفاعل باعتباره هو والفعل يعملان النصب فى المفعول به .

* وتعرض لمستثنى منه باعتبار أنه هو الذى يعمل النصب فى المستثنى على ما ذكره ابن الحاجب فى الفعل ، كما ذكر المميز فى التمييز على أنه يشبه أفعل من ذكر شروط نصب المميز ، ثم صحح القول بأن المميز هو الناصب فى باب التمييز وهو العامل حتى وأن كان إسما جامدا ، وذكر أيضا المضاف باعتباره عامل الجر فى المضاف إليه ، والمتبوع فى التوابع إذ أن السيوطى يجوز أن يكون العامل فى التابع هو المتبوع نفسه.

* والباحث فى كل هذا له اجتهاده الخاص فى كل مسألة تعرض لها ثم توصل بهذا إلى جملة من النتائج .

* أما وجبة قسم الأدب والنقد وهو القسم الثالث فهى تتكون من بحثين

أحدهما للدكتور حسن عبد السلام وهو بعنوان « **أصداء شعر العقاد فى أدب المرحوم سيد قطب** »، والثاني بعنوان « **المنهج التكاملى فى البحث الأدبى بين النظرية والتطبيق** » للدكتو أحمد الأعرج .

* وقد مهد الباحث الأول فى بحثه بتلاقى العقاد وسيد قطب فى الاتجاه الأدبى ، فبينهما مايكون بين التلميذ والأستاذ من مشابه وأوجه تلاق فكلاهما نشأ فى بيئة محافظة وصاحب ثقافة متمكنة معتد برأيه ومبادئه ومشاربهما الثقافيه واحدة وتوجههما الأدبى النقدى واحد حتى ليكاد الباحث يجعلنا نعتقد أن التلميذ وأستاذه وصارا واحدا.

* ثم بدأ الباحث بعد هذا التمهيد الهام ينحو بنا إلى دوائر التلاقى بين الأديبين فبدأ بعناوين القصائد فذكر كثيرا من تلاقيهما فيها .

* ثم ثنى بموضوعات الشعر ومعانيه وأطال العرض والوقوف وقدم صورا من هذا التوافق الذى لم يلتفت إليه ناقد من قبل ، كما قدم القوافى المتعددة والمتعانقة عند كل منهما ، والباحث له رؤية نقدية نافذة فهو يعرض ويناقش ويحلل ويستنتج وقد جمع الباحث تلاقى الأديبين فى المعانى الفلسفية كالوجود والعدم والناس والأقدار ورثاء الحيوان وشعر الحب ، ثم استخلص بعد هذا العرض أن التلاقى إنما هو تأثر لا تقليد .

أما البحث الثانى فقد عرف البحث وذكر أن المادة التى يقوم عليهاهى الأدب ، وهذا الأدب له فنونه ومدارسه نثرا وشعرا ، كما ذكر أن البحث المنهجى وليد الثقافة وأنه لكل علم مناهجه ، ثم تحدث عن المنهج التاريخى فى البحث الأدبى واستعرض فى بعض مصادر الأدب فى ضوئه ، ثم المنهج النفسى والمنهج الفنى وعناصره حتى وصل إلى المنهج التكاملى فذكر أن الباحث فى ضوئه يستلهم عند التطبيق روح المناهج السابقة فيستكشف القيم الفنية فى العمل الأدبى فى ضوء هذه الروح المرفودة بالمناهج كلها .

* ولهذا فالبحث على هدى هذا المنهج يتطلب جهدا خاصا كما يتطلب اطلاعا كثيرا وجهدا ووعيا ، ثم راح يستعرض بعض كتب التراث مثل «طبقات الشعراء الفحول » لابن سلام تاريخيا وفنيا، وكذلك« الموازنة » و« العمدة » ثم ذكر بخطوات المنهج التى انتهت بالدراسة التحليلية من خلال استعراض نصوص أدبية طبق عليهاهذا المنهج .

* **والقسم الرابع** قدمه قسم « أصول اللغة » وهو زاد ـ والحمد لله وفير تمثل فى ثلاثة بحوث كبيرة شملت « رؤية لغوية جدية للإبدال فى الحروف الصامتة » للأستاذ الدكتور عبد الغفار حامد هلال و« الجيم للشيبانى » دراسة واحصاء للأستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الله ، و« علم التجويد ، أهميته ومنزلته بين علوم العربية » للدكتور رشاد محمد سالم .

* **والباحث فى البحث الأول** يشير إلى دراسة سابقة نشرت فى مجلة الكلية ، وهذه الدراسة تكملة لها بترتيبها ، وقد عرض حروف الجيم مع الحاء والشين والقاف والكاف والحاء مع الراء والعين والغين ، والخاء مع القاف والدال والذال والدال مع الطاء والذال مع الظاء والراء مع الزاى واللام والزاى مع السين والصاد والسين مع الشين والسين مع الصا والصاد مع الضاد والطاء والضاد مع الظاء والطاء مع الظاء والعين مع الغين والعين مع القاف والغين مع القاف ، والفاء مع القاف ، والكاف مع الكاف واللام مع النون ، والميم مع النون .

والباحث في هذا العرض سخى المعرفة ثرى المواهب يتفق عن سعة فهو يعرض آراء العلماء والأمثلة التوضيحية لها من المأثور عن القبائل العربية واللهجات والقراء فى وضوح وجلاء ووعى بالدراسة والتخصص ومسيرة اللغة واصولها .

* والباحث الثاني في بحثه قدم في إضاءة أسباب توجهه إلى هذا البحث وذكر في تواضع العالم أنه لم يكن أول باحث لهذا الباب ، وذكر أنه اعتمد في دراسته على الجانب الاحصائي التحليلي من أجل أن يصل إلى احكام قيقة، ولهذا ناقش جملة من القضايا منها ما يتصل بالمؤلف (الشيباني) والمؤلف (الجيم ماهية وهفا).

* وما يتصل بالمحتوى اللغوى لكتاب « الجيم من حيث المواد اللغوية والشواهد القرآنية والشعريةوالأمثال وقد أثبت الباحث جداول إحصائية وعرض كل لظواهر التكرار والخلط والاستقراء مع توصله إلى جملة من النتائج والتوصيات والبحث كبير .

* أماالباحث الثالث فقد نوّه في بحثه بعلم التجويد وعرف به وأكد على الصلة بينه وبين علمي اللغة والنحو وقسمه وذكر قسميه العلمى والعملي وانه لابد لقارى القرآن من علمه بالقسمين معا ثم ذكر أن التجويد يتوقف على أمور منها : « معرفة مخارج الحروف نعرف اللحن وقسمه إلى جلي وخفي وتحدث عن موضوع التجويد وعلاقته بالعربية وعن صلته بعلم الصوتيات وعن المخارج والصفات والجهر والهمس . ونحمد للقارىء اطلاعه على ستين مرجعا في بحثه .

* أما القسم الخامس : فقد قدمه قسم الصحافة وهو بحث بعنوان «الإتجاه التغريبي فيالصحافة المصرية » للدكتور جمال عبد الحي النجار . وفي مقدمة البحث أشار الباحث إلى أهمية الصحافة فى توجيه الرأى العام ، وكيف أن الاستعمار الانجليزى استغل دورها في تثبيت الإحتلال واتخذ لذلك خطوات كثيرة ، ثم ذكر الباحث أسباب اختياره بحثه وقد لخص تلك الأسباب في تخلص الإنجليز من الثورات المصرية فاتخذ صحفا ووالته صحف وكانت هذه الصحف متنوعة الإتجاه ، وكان الاحتلال يشجع أصحابها و يختارهم ممن يوالونه ، ثم حدد مفهوم التغريب وأنه التيار الذى كان يروج لفكر الغرب

ونظمه وعاداته وتقاليده ، وتحدث الباحث عن نوع الدراسة وأنها من نوع الدراسات الاستطلاعية أو الكشفية التى تهدف آساسا إلى استطلاع الظروف المحيطة بالظواهر للتعرف على أهم الفروض والتساؤلات التى يمكن اخضاعها للبحث العلمى الدقيق أو ليتمكن من صياغة المشكلة تمهيدا لبحثها بحثا متعمقا فى مرحلة تالية وذكر أنه سوف يستخدم المنهج التاريخى .

* ثم حدد مشكلة البحث وأنها تتمحور حول الكشف عن الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية من سنة ١٨٨٢م ـ ١٩١٤ م وقد اعتمد فى مصادر الدراسة على الكتب والمراجع التى الفت عن الفترة الزمنية التى يقع البحث فيها سواء كانت مراجع دينية أو تاريخية أو اجتماعية .

* وتحدث عن جذور الاغتراب ونشأته فى تتبع تاريخى للعصور التى وقع فيها البحث وحدد أنصار التغريب من المصريين أو الشوام وصحفه وقضاياه ثم ذكر فى مواجهة ذلك مقاومة الاتجاه التغريبى وصحف المقاومة.

والبحث شيق ، زكته المراجع المتنوعة

* **أما القسم السادس الأخير** فقد كان عطاء قسم التاريخ وعنوانه "الحرب والسلام ... حى الليبى بين الجهاد والقرصنة من سنة ١٧٩٦م إلى سنة ١٨٠٥م للأستاذ الدكتور حسين محمد الهنيدى ...

* وهو بحث ضاف كبير ، وفى مقدمة البحث حدد جغرافية ليبيا التى سيبحثها وهى طرابلس الغرب وما حولها .

* ثم بحث جذور القرصنة فى شمال افريقية والجهاد الإسلامى ضد القرصنة الأوربية وتطور حركة الجهاد وتفوق المجاهدين فى شمال افريقيا سواء فى ظل السيطرة العثمانية المباشرة أو التبعية الإسمية ، وكان التفوق شاملا على أوربا فى البحر المتوسط فكانوا يجيرون القادة الأوربيين ويعاهدونهم على حماية مصالحهم وتجارتهم فى البحر المتوسط .

* وتحدث البحث عن طرابلس باعتبارها إحدى نيابات شمال افريقية لظروفها التاريخية وعن طرابلس بين الجها د والقرصنة كما تحدث عن الحرب والسلم بين أمريكا وطرابلس الغرب ، وبدايةالأزمة الليبية الأمريكية وعن الحرب بينهما والإتفاقية التى أبرمت سنة ١٨٠٥م بين أحمد القرمانلى والولايات المتحدة الأمريكية وموارده الأربعة عشرة والمفاوضات السرية والمعاهدة بين أمريكيا ويوسف باشا فى يونيه سنر ١٨٠٥ م وموادها العشرين ، ثم وقف الباحث وقفة تحليل ونقد لعمليتى الحرب والسلام بين أمريكا وليبيا هذا. والبحث الكبير يرجع فيه الباحث إلى مصادر ومراجع قاربت المائتين والستين عددا .

* ولا ننسى مسك الختام وختام المسك الشعر ، وقد تمثل هذا العام في قصيدة تأبين للأستاذ الدكتور/ حسن جاد الشاعر الأديب والأستاذ فى الكلية هذا هو العطاء الذى تقدمه كلية اللغة العربية فى مأدبتها العامرة فى مجلة الكلية هذا العدد وهو عطاء موفور بحمد الله ، متنوع الطعوم والمشارب خصب متجدد ، تقدمه الكلية لقراء العربية المتخصص منهم وغير المتخصص فى سعة ورحابة ، آملة أن تكون أعدادها القادمة أكثر عطاء وتنوعا ، وأن تفى لقرائها بما عاهدتهم عليه منذ عددهاالأول بأن تكون على مستوى متميز من العمق والأصالة والموضوعية ، حتى تستحوذ على اهتماماتهم وتجدد ثقتها بهم، وتأمل دائما أن تكون عند حسن ظن الباحثين والقراء وأن يوافونا بمقترحاتهم فى هذا الشأن بغية الوصول إلى كل ما يؤملون حتى ترضى كل الأذواق أو نرضى عنا كل الأذواق .

والله الهادى إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ . د / سعد عبد المقصود ظلام

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

القسم الأول

قسم البلاغة

١ - من أسرار النظم فى فاتحة الكتاب .

د. فوزى محمد على غانم

٢ - كتاب الحجة لأبى على الفارسى (دراسة بلاغية)

د. محمد شعبان علوان



من أسرار النظم فى فاتحة الكتاب

بقلم الدكتور

فوزى محمد على غانم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالك يَوْمِ الدِّين * إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين ﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أنزل عليه القرآن ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فإن الغوص فى بحار « فاتحة الكتاب » لاستجلاء كل خصائص النظم، وسماته ، لمن الصعوبة بمكان ، ولا يمكن استخراج كل لآلئ السورة ، ويبقى - دائماً - فى نظمها من الدر ما يغرى بالبحث إلى أن تقوم الساعة ، فعجائبها لا تنقضى ، وهى بحر ، كلما ورده وارد نهل منه .

وهى سورة ذات أسماء كثيرة ، « تسمى الحمد ، وفاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ، والواقية ، والكافية ، والشفاء ، والشافية ، والرقية والكنز ، والأساس ، والنور ، وسورة الصلاة ، وسورة المناجاة ، وسورة التفويض (١).

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى جـ ١ ص ٣٢ طبعة دار الفكر ، طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

« ولم يثبت فى السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب ، والسبع المثانى ، وأم القرآن أو أم الكتاب » [1].

وعنوان بحثنا «من أسرار النظم فى فاتحة الكتاب» وسبب تسميتها «فاتحة الكتاب» لأن بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابه المصاحف وبها تفتح الصلاة»[2].

وقد ثبت فى السنة قول ﷺ « أيما صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج، ثم هى خداج ، ثم هى خداج » [3].

وقد جعلت فاتحة الكتاب فتحًا للقرآن الكريم ، لأنها جمعت مقاصده ومعانيه « فالقرآن الكريم يدور حديثه حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، وقد بدأت السورة بذكر العقائد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[4].

***

وبعد هذه الوجازة ننتقل ـ بعون من الله ـ إلى بحار نظم فاتحة الكتاب، ونستهل السورة قائلين « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

« الكلام على البسملة »

« البسملة » هى اسم لكلمة «بِسْمِ اللَّه» على طريقة النحت للاختصار ، ويقال لمن قال «بِسْمِ اللَّه» مُبَسْمِل، وقد جاء فى الشعر قول عمر بن أبى ربيعه:

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ص ١٣١ طبعة الدار التونسية للنشر .

(٢) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل جـ ١ ص ١٥ طبعة الحلبى ، طبعة ثانية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م وانظر تفسير البغوى تحقيق خالد العك ، ومروان سوار ، طبعة دار المعرفة / بيروت .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٤٧٩ طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت طبعة أولى ١٩٩١ م / ١٤١٢ هـ .

(٤) الأساس فى التفسير ـ لسعيد حوى جـ ١ ص ٣٨ طبعة دار السلام الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٩م .

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَداةَ لَقِيتُهَا ... أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبَسْمِلُ[١]

ووجدت للبيت رواية أخرى فى ديوانه ، وهو من الشعر المنسوب إليه :

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لَقِيتُهَا ... فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَدِيثُ الْمُبَسْمَلُ[٢]

ومعنى البسملة فى فاتحة الكتاب « أن جميع ما يقرر فى القرآن من الأحكـام ، والآيـات ، وغيرها هو لله ، ومنه ، وليس لأحد غير الله فيه شئ[٣]. ويرى بعضهم أن « بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ » آية فى أوائل جميع السور غير سورة «براءة» ، ويرى البعض أنها ليست آية من أوائل السور . لكن الذى لا خلاف عليه أنها من القرآن الكريم ، فهى جزء آية من قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [٤].

موقف العلماء من البسملة فى سورة الفاتحة :

قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل والتبرك بها ، وهو مذهب أبى حنيفة ومن تابعه ، ولذلك لا يجهر بها عندهم فى الصلاة ، وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة وعليه الشافعى وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها[٥]. وقيل: إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور أيضا من غير تعرض لكونها جزءً منها أولا ، ولا لكونها آية تامة أولا.

وقيل : إنها آية فى الفاتحة ، وبعض فى البواقى ، وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى ، وقيل : إنها بعض آية فى الكل[٦] . وقيل :

---

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للشيخ الجمل جـ ٤ ص ٦١٧ .

(٢) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٤٩٨ طبعة دار الأندلس طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

(٣) تفسير المنار للشيخ محمد عبده تأليف السيد رشيد رضا جـ ١ طبعة دار المعرفة بيروت طبعة ثانية .

(٤) سورة النمل آية ٣٠ .

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى جـ ١ ص٢٤،٢٥ طبعة الحلبى ١٣٩٢هـ .

(٦) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٨ ، ٩ .

إنها آية من الفاتحة دون غيرها ، وقيل : هى آية من الفاتحة وجزء آية من السور[1].

وبالتأمل فى هذه الآراء نستطيع أن نقول إن البسملة آية من سورة الفاتحة خاصة لأنها أولى السبع المثانى .

وافتتاح الفاتحة بالبسملة فيه براعة استهلال ، وحسن مطلع .

من أسرار النظم فى « بِسْمِ اللَّهِ »

الباء فى «بِسْمِ اللَّهِ» إما للاستعانة ، أو المصاحبة ، أو الالصاق ، أو الاستعلاء ، ويرى الألوسى أن «الباء» للاستعانة أولى ، بل يكاد أن تكون متعينة ، إذ فيها من الأدب ، والاستكانة ، وإظهار العبودية ماليس فى دعوى المصاحبة ، ولأن فيها تلميحا من أول وهلة إلى إسقاط الحول والقوة ، ونفى استقلال قدر العباد وتأثيرها ، وهو استفتاح لباب الرحمة ، ولأن المعنى أمس بقوله تعالى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] .

«والباء» تكون للاستعانة أولى ، وكأن العبد فى مستهل عمله يبدأ مستعينا «بِسْمِ اللَّهِ» وسر ابتداء البسملة «بالباء» هو (تعجيل للبشارة ، ورمز إلى أن المدار هو الرحمة . . . وقد تدرج سبحانه وتعالى بإظهارها فرمز بالباء، وأشار بالله ، وصرح أتم تصريح «بالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[3] .

«والباء متعلقة بمحذوف تقديره ، أقرأ، أو أتلو، أو أفتتح ، ولكن هل يقدر المحذوف مقدما على الجار والمجرور ، أو مؤخراً عنه ؟

يرى العلامة الزمخشرى أن المحذوف يقدر مؤخراً (لأنه الأهم من الفعل والمتعلق به ، لأنهم كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم يقولون : باسم اللات ، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بقديمه ، وتأخير الفعل . . . لأنك لو ابتدأت بالفعل فى التقدير لما كان الاسم مبتدأ به ، فيفوت الغرض من التبرك باسم الله أول نطقك)[4].

---

(١) روح المعانى للألوسي جـ ١ ص ٣٩ ، طبعة دار الفكر العربى ١٤٠٨هـ،١٩٨٧م.

(٢) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٤٧ .

(٣) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٥١ .

(٤) الكشاف للزمخشرى جـ١ ص٢٩ .

ويرى الألوسى أن المحذوف يقدر مقدما (لأن تقديره مؤخرا مؤخر عن ساحة التحقيق ، لأنه إما أن يقدر بعد «الباء» ، أو بعد «اسم» ، أو بعد «اسم الله» أو بعد البعد ، أما تقديره بعد «الباء» فلا يقوله من عرف «الباء» ، وأما بعد «الاسم» فلا ستلزمه الفصل ولو تعقلا ، حيث أوجبوا الحذف هنا بين المتضايفين ، وأما بعد «اسم الله» فلا ستلزمه الفصل كذلك بين الصفة والموصوف ، وأما بين الصفتين ، فيتسع الخرق ، وأما بعد التمام فيظهر نقص دقيق لأن فى الجملة تعليق الحكم بما يشعر بالعلية ، فكان « الرَّحْمَن الرَّحِيم» علة للقراءة المقيدة «بِسْمِ اللَّه» فإذا تأخر العامل المقيد المعلول ، وتقدمت عليه علته أشعر بالانحصار ، ولا يظهر وجهه ، وإذا قدرنا العامل مقدما كما هو الأصل ، أمنا من المحذور ، ويحصل اختصاص أيضا ، كأنه قيل مثلا : أقرأ مستعينا ، أو متبركا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» لأنه «الرَّحْمَن الرَّحِيم» ، وانتفاء العلة يستلزم انتفاء المعلول فى المقام الخطابى إذا لم تظهر علة أخرى ، فيفيد الاختصاص لاسيما عند القائل بمفهوم الصفة ، فيشعر بأن من لم يتصف بذلك خارج عن الدائرة [(١)].

والألوسى بهذا يرد ماذهب إليه الزمخشرى .

ويرى الشوكانى أنه لا فرق بين تقدير المحذوف مقدما ، أو مؤخرا ، فلكل دلالته «فمن قدره متقدما كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخرا كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص ، مع ما يحصل فى ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم ، والإشارة إلى أن البداية أهم لكون التبرك حصل به » [(٢)].

ونحن نميل إلى ماذهب إليه الشوكانى ، لأن تقدير المحذوف مقدما أو مؤخرا قد عاد على المعنى بقيمة بلاغية تكسب المعنى - على أى التقديرين - جمالاً.

كما أن حذف المتعلق - هنا - أفاد الايجاز والاختصار ، ولأنه موطن ينبغى ألا يقدم فيه شئ سوى ذكر الله ، فلو ذكر الفعل ، وهو لا يستغنى عن

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٥٠ .

(٢) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير جـ ١ ص ١٧، ١٨ طبعة الحلبى ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.

فاعله لم يكن ذكر الله مقدما ، وكان فى حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى ، كما تقول فى الصلاة «الله أكبر» ومعناها من كل شئ ، ولكن يحذف ليكون اللفظ فى اللسان مطابقا لمقصود القلب ، وهو أن لايكون فى القلب ذكر إلا ذكر الله عز وجل ، فطابق ذكر اللسان ذكر القلب[1].

وحذف الألف من «بسم الله» فى الخط «تخفيفا لكثرة الاستعمال»[2].

وقد قال المولى عز وجل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولم يقل «بِاللَّه» (على وجه التبرك بذكر اسمه ، وللفرق بين هذا وبين القسم ، ولأن التبرك والاستعانه بذكر اسمه، وللفرق بين اليمين والتيمن) [3].

كما آثر النظم الكريم لفظ الجلاله « الله » فى قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ دون غيره من الأسماء والصفات ،(لأن اسم «الله» عَلَمٌ على الذات العلية ، ولأن اسمه «الله» مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال ، والأسماء الحسنى تفصيل ، وتبين للصفات الإلهية التى اشتق منها اسم الله ، واسم الله دال علي كونه مألوها معبودا ، تأله الخلائق محبة وتعظيما ، وخضوعا ، وفزعا إليه فى الحوائج والنوائب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك ، والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله)[4].

وقدم اسم «الله» على «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (لأنه اسم ذات ، وهما اسما صفة)[5] واسم الذات يقدم على اسم الصفة . ثم لننتقل إلى رحاب «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

---

(١) البحر المحيط جـ ١ ص ١٧ ، وانظر النهر الماد جـ ١ ص ٩ .

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ١ ص ١٦ .

(٣) لطائف الإشارات للقشيرى تحقيق د/إبراهيم بسيونى جـ ١ ص ١٤ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، وانظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى جـ ١ ص ٣ دار الجيل ١٣٢٩ .

(٤) التفسير القيم لابن القيم ، جمعه محمد أويس الندوى ، حققه محمد حامد الفقى جـ١ ص ٣٢ طبعة دار الكتب العالمية/بيروت .

(٥) تفسير القرآن الكريم المسمى السراج المنير للخطيب الشربينى جـ ١ ص ٧ طبعة دار المعرفة / بيروت/الطابعة الثانية .

من أسرار النظم فى «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

قال ابن عباس عن صفتى «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الأخر ، فالرحمن : الرقيق . والرحيم : العاطف على خلقه بالرزق)[1].

وقال الزمخشرى : (وفى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم ، ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا ، تلك المبالغة بحسب شمول الرحمن للدارين ، واختصاص الرحيم بالدنيا ، وإما بحسب جلالة النعم ودقتها[2].

ولعل الزمخشرى حين قال بأبلغية «الرَّحْمَنِ» على «الرَّحِيم» اعتمد على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فقد بنيت صفة «الرَّحْمَنِ» على «فعلان» لأن معناه الكثرة ، وبنيت صفة «الرَّحِيم» على «فَعِيل» .

(وقيل الرَّحِيم أكثر مبالغة ، والذى يظهر أن جهة المبالغة مختلفة فلا تكون من باب التوكيد فمبالغة فعلان من حيث الاستيلاء والغلبة ، ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة) [3].

"واسم الرحمة موضوع فى اللغة العربية لرقة الخاطر ، وانعطافه نحوحَىّ بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والاحسان إليه، ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق ، فهى من الكيفيات النفسانية لأنها انفعال ، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبها على افعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدر قوة انفعاله، فإذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور فى نفسه ، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره ، فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة ، إذ لا تكون تعدية فعل رحم إلى المرحوم إلا على هذا المعنى ، فليس لماهية الرحمة جزئيات وجودية ، ولكنها جزئيات من آثارها "[4].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار المعارف مادة (رحم) .

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٤١ .

(٣) تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى جـ ١ ص ٩ طبعة دار الجنان / بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٤) تفسير التحرير على التنزير للطاهر بن عاشور جـ ١ ص ١٦٩ ، وانظر فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ١٨ .

وكون الرحمة من الكيفيات النفسية التى تخضع للمزاج مستحيل على الله تعالى ، لأنه تعالى منزه عن الكيفيات النفسية ، كان لابد لها من تخريج فتؤخذ الرحمة باعتبار غايتها ، إما على طريقة المجاز المرسل بذكر لفظ السبب وإرادة المسبب ، وإما على طريقة التمثيل بأن شبه حاله تعالى بالقياس إلى المرحومين فى إيصال الخير إليهم بحال الملك إذا رق لهم فأصابهم بمعروفه وإنعامه فاستعمل الكلام الموضوع للهيئة الثانية فى الأولى .

إما على طريقة الاستعارة المصرحة بأن يشبه الإحسان ـ علي ما اختاره القاضى أبو بكر ـ وإرادته على ما اختاره الأشعرى بالرحمة بجامع ترتيب الانتفاع على كل ، ويستعار له الرحمة ، ويشتق منها «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» على حد الحال الناطقة بكذا ، وإما على طريقة الاستعارة المكنية التخييلية ، بأن يشبه معنى الضمير فيهما العائد إليه تعالى بملك رق قلبه على رعيته ، تشبيها مضمرا فى النفس ، ويحذف المشبه به ، ويثبت له شئ من لوازمه وهو الرحمة[1] على طريق الاستعارة المكنية .

ووصفه تعالى فى البدء «بالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين ، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمة ، فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ، ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن ، ومهما يختلف فى معنى الصفتين أيهما تدل على مدى أوسع من الرحمة فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه ، وإنما تخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها [2].

والجمهور على أن «الرَّحْمَنِ» أبلغ من «الرَّحِيمِ» فما هى نكتة تقديم «الرَّحْمَنِ» على «الرَّحِيمِ» والقياس يقتضى الترقى من الأخص إلى الأعم، وإن شئنا من القوي إلى الأقوى ؟

وعلة تقديم «الرَّحْمَنِ» على «الرَّحِيمِ» أن المولى ـ عز وجل ـ عندما قال «الرَّحْمَنِ» تناول جلائل النعم وعظائمها ، وأصولها ، ثم أردف ذلك بـ

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب جـ ٢ ص ٢١ ومابعدها ، طبعة دار الشروق ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

«الرَّحِيم» كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف [1].

فلما كان الملتفت إليه من أول الأمر - فى مقام العظمة والكبرياء - جلائل النعم وعظائمها ، دون النظر إلى لطائفها ودقائقها قدم الرحمن بداية وأردف بالرحيم ، وكأنه تتمة ، وفى ذلك تنبيه على أن الكل من الله عز وجل ، فالارتقاء هنا من الأخص إلى الأعم ،«ولذا كان وصف الرحمن مختصا به تعالى ، ومدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلق إذ هو من أمثلة المبالغة ، ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما فى قوله تعالى : فى حق رسوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2] فليس ذكر الصفتين بغن عن الآخر [3]».

ويرى البيضاوى أن سر تقديم « الرَّحْمَنِ» على «الرَّحِيمِ» (لتقدم رحمة الدنيا ، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره . . . أو لأن الرَّحْمَن لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتتمة والرديف لها ، وللمحافظة على رءوس الآى) [4].

ومعنى المحافظة على رءوس الآى - هنا - أن تأخير الرحيم يأتى متناسا مع رءوس كل آيات الفاتحة وهى «الْعَالَمِينَ - الرَّحِيمِ - يَوْمِ الدِّينِ - نَسْتَعِينُ - الْمُسْتَقِيم - الضَّالِّين » فرءوس الآيات متوافقة كما ترى .

(وذكر الرَّحِيم بعد الرَّحْمَن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانا عليه)[5] ونلحظ أن المولى عز وجل قد جمع فى البسملة بين وصفين «الرَّحْمَنِ والرَّحِيمِ فما علة الجمع بينهما ؟

لفظ الرَّحْمَنِ دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرَّحِيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، والثانى الفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، أى صفة ذات له سبحانه ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته، أى صفة فعل له سبحانه)[6].

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٤١ .

(٢) سورة التوبة من الآية ١٢٨ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ١ ص ١٧٢ .

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوى جـ ١ ص ٣ .

(٥) تفسير المنار للشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٤٨ .

(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٨ .

«وأل» فى «الرَّحْمَنِ» للغلبة ، «والرَّحِيمِ» فعيل محول عن فاعل للمبالغة(١)، وقد حذفت الألف من «الرَّحْمَنِ» فى الخط لكثرة الاستعمال ، كما حذفت فى «بِسْمِ اللَّهِ» .

وتعدد الوصفين «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فى البسملة لتعظيم الموصوف، عز وجل، أو للتأكيد ليتقرر فى النفس معنى الرحمة .

***

من أسرار النظم فى « الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين

«الْحَمْدُ» يكون عن يَدٍ ، وعن غير يَدٍ ، والشكر لا يكون إلا عن يد، والشكر لا يكون إلا ثناء ليَد أوليتها ، والحمد قد يكون شكراً للصنيعة ، ويكون ابتداء للثناء على الرجل ، فحمد الله الثناء عليه ، ويكون شكرا لنعمته التى شملت الكل ، «والحمد أعم من الشكر»(٢) والسرفى أن الحمد أعم من الشكر «أن الحمد يوضع موضع الشكر ، ولا يوضع الشكر موضع الحمد» (٣).

لذا آثر الحق عز وجل أن يعبر بالحمد بدلا من الشكر .

والله عز وجل هو المحمود فى كل حال ، ونحن نقول فى دعائنا : الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

واعلم أن الحمد إنما يكون حمدا على النعمة ، والحمد على النعمة لا يكون إلا بعد معرفتك تلك النعمة ، لكن أقسام نعم الله خارجة عن التحديد والاحصاء، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا(٤)﴾ (٥).

ونلحظ أن هناك ترابطا وثيقا بين «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ» و «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فالله عز وجل « لما أفتتح كتابه بالبسملة ، وهى نوع من

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ١٥٩ .

(٢) لسان العرب مادة حمد .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١ ص ١٣٤ طبعة ثانية .

(٤) سورة إبراهيم من الآية ٣٤ .

(٥) تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى جـ ١ ص ١٤ .

الحمد ناسب أن يردفها بالحمد الكلي الجامع لجميع أفراده البالغ أقصى درجات الكمال ، فقال جل شأنه « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) .

وقد ذهب بعضهم إلى أن البسملة ليست آية من أوائل سور القرآن الكريم - كما ذكرت سابقا - وعلى ماذهبوا إليه يكون أول فاتحة الكتاب «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ، وافتتاح السورة واستهلالها بحمد الله والثناء عليه ووصفه بصفاته العلية لمن براعة الاستهلال وحسن المطلع .

و «الْحَمْدُ» مسند إليه معرف « بأل» ويرى العلامة الزمخشرى أن « أل » لتعريف الجنس ، ومعناه الاشارة إلى ما يعرفة كل أحد من أن الحمد ما هو من بين أجناس الأفعال » (٢).

وقيل «أل» لتعريف الجنس فتدل على اسغراق الأحمد كلها بالمطابقة(٣)، وقيل تعريف الحمد لاستغراق أفراد الحمد ، وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به (٤).

وقيل : إن أل « إما للعهد ، أى الحمد المعروف بينكم لله ، أو لتعريف الماهية ، كالدنيار خير من الدرهم ، أى : أى دينار خير من أى درهم كان فيستلزم إذ ذاك الأحمدة كلها (٥).

وقيل : «لامه للعهد أى الحمد الكامل ، وهو حمد الله لله ، أو حمد الرسل ، أو كل أهل الولاء ، أو للعموم ، والاستغراق ، أى جميع المحامد والأثنية للمحمود أصلا ، والممدوح عدلا ، والمعبود حقا »(٦) .

والذى عليه الجمهور أن أل فى الحمد للاستغراق ، وللجنس كما قال

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) تفسير النهر الماد لأبى حيان جـ ١ ص ٦٣ (الأَحْمُد) الأصل فى المصدر أنه لا يجمع ، وحكى عن ابن الأعرابى جمع الحمد على أَحْمُد.

(٤) فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ١٩ .

(٥) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ١٨ .

(٦) تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقى البروسوى جـ ١ ص ١٠ دار إحياء التراث العربى بيروت ، طبعة سابقة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

الزمخشري وللعهد ، وأولى الثلاثة أن «أل» هنا للجنس ، لاستغرقها جنس الحمد .

و «الْحَمْدُ» مسند إليه مرفوع بالابتداء ، و «لِلَّهِ» خبره ، واللام الداخله على «للَّه» هى لام الاختصاص ، أى اختصاص الله عَز وجل وحده بالحمد ، وقيل (مَعَنى اللام فى لله الاستحقاق) [١]، ومعنى كونها للاستحقاق أن الله عز وجل هو المستحق للحمد دون غيره .

وقد آثر النظم الكريم أن يقول «الْحَمْدُ لِلَّه» ولم يقل للخالق ، أو القادر أو نحو ذلك من بقية الصفات ، فما نكته ذلكَ ؟

يرى البيضاوى أن إيثار اسم الله دون غيره فيه إشعار بأنه تعالى حى قادر فريد عالم ، إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه[٢] .

وفيما أرى أن سر إيثار اسم الله هنا دون غيره ، أن اسم الله دل إجمالا على أسمائه الحسنى ، وأن الله الذى تأله إليه الخلائق المستحق للحمد قد خص الحمد باسمه دون صفة من صفاته ، فآثر أن يخص الحمد بالاسم دون الصفة ومعنى «الْحَمْدُ للَّه» أن المولى عز وجل يقول : «سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد منَ العالمين »[٣] .

والحمد ثناء الله عز وجل على نفسه ، وكأنه عز وجل يعلم عباده الثناء عليه وحمده ، وكأنه يقول : قولوا : الْحَمْدُ لِلَّه .

وقد جاءت جملة «الْحَمْدُ للَّه» جملة إسمية لسر بلاغى هو ثبوت الحمد ودوامه واستقراره لله عز وجل ، لَأن الاسم يفيد الثبوت والدوام ، وقد اقتضى النظم الكريم الجملة الاسمية ، لأن الفعلية تفيد التجدد والحدوث .

«والْحَمْدُ» أصله النصب الذى هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التى تنصبها العرب بأفعال مضمرة فى معنى الاخبار ، كقولهم شكرا ، وكفرا وعجبا . . . ينزلونها منزلة أفعالها ، ويسدون بها مسدها[٤] .

---

(١) تفسير السراج المنير للخطيب الشربينى جـ ١ ص ٨ .

(٢) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١ ص ١٣٥ .

(٤) الكشاف لل[illegible]شرى جـ ١ ص ٤٨ .

وعلى هذا فالحمد مفعول به لفعل محذوف من لفظ الحمد تقديره حمدت الحمد لله ، أو من غير لفظه ، أى : اقرؤوا الحمد لله ، أو الزموا الحمد لله .

والسر فى العدول عن النصب إلى الرفع الدلالة على الثبوت والدوام المستفاد من الجملة الاسمية دون التجدد والحدوث المستفاد من الجملة الفعلية ، والذى عليه كثير من العلماء أن جملة «الْحَمْدُ لِلَّه» جملة إخبارية ، وقيل الجملة إنشائية ، ويرى بعضهم أنها خبرية لفظا إنشائيَة معنى ، فقد حمد المولى عز وجل نفسه فى صورة الخبر ، ثم علمنا كيف نحمده ، وكأنه عز وجل يقول : قولوا : الْحَمْدُ لِلَّه .

ويرى الشيخ محمد عبده أن جملة «الحَمْدُ لِلَّه» خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء فى أى أنواعه تحقق فيه فهو ثابت له تعالى وراجع إليه . . . وأما معنى الانشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال(١) .

وقيل «الْحَمْدُ لِلَّه» جملة خبرية قصد بها الثناء على الله بمضمونها على أنه تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق ، أو مستحق لأن يحمدوه (٢) .

والذى نميل إليه أن جملة «الْحَمْدُ لِلَّه» خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، لأن الله تعالى علمنا حمده وأمرنا أن نحمده كما علمنا .

ومن السمات البلاغية فى جملة « الْحَمْدُ لِلَّه »

١ - المبالغة فى الثناء على الله عز وجل ، وذلك مستفاد من العموم المستفاد من «أل» فى «الحمد» .

٢ - وتلوين الخطاب - على قول بعضهم - فإنه قد ذكر أن « الحمد لله» صيغته صيغة الخبر ، ومعناه الأمر .

٣ - والاختصاص باللام فى «لِلَّهِ» إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٤٩ .

(٢) تفسير الجلالين جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى ص ٢ ، قدمه وراجعه مروان سوار ، طبعة دار المعرفة / بيروت .

به ، لأنه المستحق لجميع المحامد .

٤ - والحذف ، وهو قراءة من نصب الحمد ، وقال بعضهم ، ومنه حذف العامل الذى هو فى الحقيقة خبر عن الحمد ، والذى يقدر بكائن أو مستقر[١] .

٥ - القصر المستفاد من التعريف بأل الجنسية فى « الْحَمْدُ لِلَّهِ » وطريقه تعريف الطرفين ، أى قصر جنس الحمد على الله وحده .

وبعد أن عشنا فى سبحات «الْحَمْدُ لِلَّه» فلنستظل بظل «رَبِّ الْعالَمِين» و«الرب» فى الأصل : مصدر بمعنى التربية ، وهى تبليغ الشئ إلى كماله شيئا فشيئا[٢] .

والرب : إما مصدر وإما صفة مشبهة على وزن «فَعْل» من ربه يربه بمعنى: رباه ، وهو رب بمعنى مُرَب وسائس ، والتربية : تبليغ الشئ إلى كماله تدريجا ، ويجوز أن يكون من ربه بمعنى : ملكه ، والأظهر أنه مشتق من رباه وساسه ، لا من ربه بمعنى ملكه ، لأن الأول أنسب بالمقام هنا[٣] .

والرب هو السيد ، ويدل اسم الرب أيضا على تربية الخلق ، ويدل اسم الرب أيضا على إصلاحه لأمور عباده[٤] .

ورب بالجر صفة للفظ الجلالة فى «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ، ورب مضاف والعالمين مضاف إليه ، والإضافة هنا تفيد التعريف .

ونلحظ أن الله عز وجل ذكر اسمه فى «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثم ذكر صفته «رب» فى «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فما علَّة ذكر الصفة بعد الذات ؟

النكتة فى ذلك أن الله تعالت صفاته أراد أن يقول : كما استحقت ذاتى الحمد فى «الْحَمْدُ لِلَّه» فكذلك صفتى تستحق الحمد أيضا فى «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فالصفة تستحق الحمد كما استحقته الذات ، ليجمع عز وجل بين

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٣١ .

(٢) تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعمادى جـ ١ ص ١٣ ، طبعة دار احياء التراث العربى / بيروت .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ١ ص ١٦٦ .

(٤) لطائف الإشارات للقشيرى جـ ١ ص ٤٦ ، وانظر اللسان مادة «ربب»

الاستحقاقين، وكأن قوله «رَبِّ الْعَالَمِينَ» كالبرهان والدليل على استحقاقه تعالى جميع المحامد ذاتية وصفاتية .

ويرى الزمخشرى أن العرب لم يطلقوا الرب إلا فى الله وحده ، وهو فى غيره على التقييد بالإضافة كقولهم : رب الدار ، ورب الناقة [1].

ويرد عليه الطاهر بن عاشور قائلا : « وقد رأيت أن الاستعمال بخلافه، أما إطلاقه على كل من آلهتهم ، فلا مرية فيه ، كما قال غاوى بن ظالم ، أو عباس بن مرداس :

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِــــهِ   لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ[2]

و «العالمين» قال قتادة : «العالمون» جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى، ويرى القرطبى أنه أصح الأقوال ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود، ودليله قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾[3]، و«العالَمين» كل موجود سوى الله وهو اسم للخلق من مبدئهم إلى مُنتهاهم[4] .

والعالمين محلى « بأل» فما سر ذلك ؟

تعريف العالمين « بأل » يفيد عموم الربوبية للمولى عز وجل ، كما تفيد الاستغراق أيضا .

ولما كان العالم مطلقا على الجنس بأسره ينزل منزلة الجمع ، ومن ثمة قيل هو جمع لا واحد له من لفظه ، وكما أن الجمع إذا عرف استغرق آحاد مفرده ، كذلك العالم ينزل منزلة الجمع المعرف ، فيشمل جميع أفراد الجنس المسمى به وإن لم يكن مطلقا عليها كأنها آحاد مفرده المقدر ، وعلى هذا فالعالمون بمنزلة جمع الجمع ، وقيل فى توجيه نظم القرآن إن التعريف

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٥٣ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) سورة الشعراء : الآيتين ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١ ص ١٣٨ ، وفتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ٢١ ، وزاد المسير فى علم التفسير للجوزى جـ ١ ص ١٢ ، طبعة المكتب الإسلامى/ دمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

للاستغراق ، والجمع للدلالة على أن العالم أجناس مختلفة[1] .

***

وتسلمنا آية ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ إلى حضرة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

فإلى بعض أسرار النظم فى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

سبق أن ذكرنا ـ بحمد الله ـ بعض سمات النظم فى صفتى «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فما مقتضى هذا الإرداف ؟

لأنه لما كان فى اتصافه بـ « رَبِّ الْعَالَمِينَ » ترهيب ، قرنه بـــ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لما تضمنه من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة والرغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمنع[2] .

ويبين الشيخ محمد عبده النكتة فى إعادة آية « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وهى «أن تربية الله للعالمين ليست لحاجة به إليهم ، وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه، وثم نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم معنى الرب الجبروت ، والقهر، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمة ... فكأن الله أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان»[3] .

ويرى الطبرسى أن إعادة ذكره الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ للمبالغة[4] . ولكن الطبرسى جعل المبالغة عامة ومبهمة ، ولم يوضح المراد بها ، ولعله أراد المبالغة فى وصف الله تعالى بالوصفين .

***

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٥٤ ، بتصرف .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١ ص ١٣٩ .

(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ٥٠ .

(٤) مجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى تحقيق هاشم الرسولى طبعة دار إحياء التراث العربى / بيروت جـ ١ ص ١٥ .

وترابط آيات فاتحة الكتاب فى تناسق بديع ، فكما أسلمتنا آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آية ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تسلمنا آية ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فى تواؤم وتناغم دون أن نشعر بمعاناة الانتقال من جملة إلى جملة كما فى كلام البشر ، والبون شاسع بين النظم العالى، وهو نظم المولى عز وجل الذى بلغ غاية الإعجاز ، وهو نظم يحتذى، وبين نظم البشر .

ولنتأمل بعض سمات النظم فى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

«مالك» صفة رابعة لله عز وجل ، وقرأ أهل الحرمين «مَلِك» من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة بالأمر والنهى ، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى «يوم الدين» كما فى قوله تعالى ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (1) ،وقرئ «ملك» بالتخفيف ، و «مَلَكَ» بلفظ الماضى و «مالكَ» بالنصب على المدح ، أو الحال ، وبالرفع منونا ، ومضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف ، و «مَلَكُ» مضافا بالرفع والنصب .

والمراد باليوم هنا مطلق الوقت ، و «الدين» الجزاء خيرا كان أو شرا ، ويوم الدين : يوم القيامة ، ومبدأ الدار الآخرة ، فالدين فيه بمعنى الجزاء(2) ، ومن المعلوم أن الله عز وجل يملك يوم الدين ، ويملك غيره فهو مالك كل شئ ، فَلِمَ خص الله تعالى بملك يوم الدين - هنا - دون غيره ؟

الجواب على ذلك أنه كان هناك أناس ينازعون فى الملك مثل فرعون والنمروذ ، وغيرهما ، أما يوم القيامة فليس هناك من ينازع الله - تعالى - فى ملكه بدلالة قوله سبحانه ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ولنتأمل السر البلاغى فى إضافة اسم الفاعل «مالك» إلى الظرف «يوم» فى قوله عز شأنه ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

والإضافة هنا على طريق الاتساع فجرى مجرى المفعول به . . . والاتساع فى الظرف أن لا يقدر معه «فى» توسعا فينتصب المفعول به أو يضاف إليه على

---

(1) سورة غافر : الآية ١٦ .

(2) انظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٥، ١٦ وتفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ١٧٦ .

وتيرته ، حيث جعل اليوم مملوكا . . . لأن الاتساع يستلزم فخامة المعنى فكان بالاعتبار عند أرباب البيان أولى[1] .

وما ذكر من إجراء الظرف مجرى المفعول إنما هو من حيث المعنى لا من حيث الإعراب ، حتى يلزم كون الإضافة لفظية [2].

وتخصيص اليوم بالإضافة يفيد تعظيم ، وتهويل ذلك اليوم وما يكون فيه كما يفيد تفرد المولى عز وجل بملك ذلك اليوم ، وزوال الأملاك عن كل ما سواه .

وإذا كان الله عز وجل قد سبق بأنه «رَحْمَنٌ رَحِيمٌ» فما معنى وصفه بأنه «مَالِك يَوْمِ الدِّينِ» ؟

يقول الطاهر بن عاشور : واعلم أن وصفه تعالى « بملك يوم الدين» ، لإجراء مجاميع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى ، فإنه بعد أن وصف بأنه رب العالمين ، وذلك معنى الإلهية الحقة . . . عقب بوصفى « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لإفادة عظم الرحمة ، ثم وصف بأنه ملك يوم الدين ، وهو وصف بما هو أعظم مما قبله ، لأنه ينبئ عن عموم التصرف فى المخلوقات فى يوم الجزاء فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذى لايشذ شئ عن الدخول تحت ملكه[3] .

وقد وصف الله عز وجل بأنه «رب» و «رحمن» و «رحيم» فما سر بلاغة اتباع هذه الأوصاف الثلاثة بوصف رابع هو «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ؟

إذا تأملنا وصف الله عز وجل بأنه «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينَ » نلحظ أن هذا الوصف مما أثارته الأوصاف المتقدمه ، فإنه لما وصف تعالى بأنه «رَب الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» كان ذلك مفيدا التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين فى سائر أكوانهم ، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى فى الأكوان والأطوار تصرف رحمة، وكان من جملة تلك التصرفات تصرفات الأمر والنهى المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة ، وكان معظم تلك

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٥٧ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٦ .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ١ ص ١٦٧ ، ومابعدها .

التشريعات مشتملا على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذى يلائمه اتباعه ، وفى نزعه عنه إرغام له ومشقة خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة فى فاتحة الكتاب مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ، ومثيرا لأطماعهم فى العفو وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية ، والرحمة المؤكدة ، فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف ، لذا كان مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم فى يوم الجزاء . . . لأن الجزاء على الفعل بسبب فى الامتثال[١] كما أن إجراء هذه الأوصاف على العلى القدير من كونه «ربا» «رحمانا» «رحيما» مالكا ليوم الدين فيه دلالة على أن من اجتمعت فيه كل هذه الصفات فهو مستحق للحمد وحده دون غيره .

كما أن سرد هذه الصفات فيه سر أخر ، وكأن الله عز وجل يقول : خلقتك فأنا الله ، ثم ربيتك بالنعم ، فأنا رب ، ثم عصيت ، فسترت عليك، فأنا رحمن ، ثم تبت فغفرت فأنا رحيم ، ثم لابد من الجزاء فأنا ملك يوم الدين[٢] وقد آثر المولى عز وجل «مالك» على «رب» فقال «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينَ» ولم يقل «رب يوم الدين» وذلك لسر بلاغى ، وهو أن لفظة «رب» تطمع العاصين والمفسدين فى رحمة الله لأن من شأن الرب الصفح والعفو ، فينساق العاصون وراء غيهم ولا يرتدعوا ، فاقتضى المقام لفظة «مالك» لما فيها من إقامة الجزاء ، ومحاسبة العصاة والمفسدين على ما قدموا .

وقد جاء قوله تعالى « مالك يوم الدين » إثر قوله تعالى «الرحمن الرحيم» ليكون كترهيب بعد ترغيب ، وليعلمنا أنه تعالى ربى عباده بكلا النوعين من التربية ، فهو رحيم بهم ، ومجاز لهم على أعمالهم[٣] .

***

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٣ ، ومابعدها .

(٢) روح البيان للشيخ اسماعيل حقى البروسوى جـ ١ ص ٦ ، طبعة دار إحياء التراث العربى/ بيروت ط سابق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٣) تفسير المراغى جـ ١ ص ٣٢ ، طبعة الحلبى الطابعة الخامسة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

من أسرار النظم فى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قبل استجلاء بعض سمات النظم فى هذه الآية الكريمة لابد لنا من الوقوف ـ بداية ـ على معناها ، فقوله «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» معناه : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقرارا لك ياربنا بالعبودية لا لغيرك ، و «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وإياك ياربنا نستعين على عبادتنا إياك ، وطاعتنا لك ، وفى أمورنا كلها لا أحد سواك[1] . وإياك ضمير منصوب منفصل لحقته كاف الخطاب وهو مفعول به قدم على فعله . وهذا الضمير قد ضم العديد من النكات البلاغية وكما قال البلاغيون : «النكات البلاغية لا تتزاحم» ومن هذه النكات :

١ - قصد الاختصاص ، والمعنى : نخصك ياربنا بالعبادة دون غيرك ، ونستعين بك دون سواك ، وإفادة الاختصاص والحصر بتقديم الضمير هنا أبلغ مما لو قيل «إنما نعبدك ، وإنما نستعينك ، أو نستعين بك .

٢ - الاعتناء والاهتمام ، بالمفعول وتعظيمه ، وذلك بتقديمه «لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا يجوز نعبد إياك ونستعين إياك [2].

٣ - الشعور باللذة بذكر المعبود أولا فى «إِيَّاكَ» قبل ذكر صفته من عبادة واستعانة .

٤ - أسلوب الالتفات ، فقد قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فجرى كلامه فى هذه الآيات على طريق الغيبة ، لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة كما قال البلاغيون ، ثم انتقل والتفت من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد استشهد بعض البلاغيين بهذه الآية الكريمة على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب[3] .

وللالتفات قيمة بلاغية تكسب الأسلوب بهاء ، وحسنا (لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء

---

(١) جامع البيان للطبرسى جـ ١ ص ٩ .

(٢) الجامع لأحكام البيان للقرطبى جـ ١ ص ٣ .

(٣) شروح التلخيص جـ ١ ص ٤٦٦ .

إليه من إجرائه على أسلوب واحد . . . وهذه فائدة ذات قيمة كبيرة فى الأسلوب لأن إيقاظ الحس ، وإثارة الملكات من أبرز العناصر التى تتوفر فى الكلام المختار.

والالتفات فى الكلام إنما يكون إيقاظا للسامع عن الغفلة ، وتطريبا له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر ، فإن السامع ربما مل من أسلوب ، فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطا له فى الاستماع ، واستمالة فى الإصغاء إلى ما يقال له(١).

وهذه فائدة عامة لأسلوب الالتفات ، ويبقى فى باطن النص القرآنى ـ دائما ـ من الأسرار ما يقصر العقل عن إدراكه .

وسر الالتفات فى الآية من الغيبة إلى الخطاب (أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات ، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص والترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهدا، والغيب حضورا .

ويحتمل أن يكون السر أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء ، والثناء فى الغيبة أولى ، ومن هنا إلى الآخر دعاء ، وهو فى الحضور أولى (٢).

ثم يقول الطباطبائى : «الظاهر من السياق ، وبقرينة الالتفات أن السورة من كلام العبد ، وأنه سبحانه في هذه السورة يلقن عبده حمد نفسه ، وما ينبغى أن يتأدب به العبد عند نصب نفسه فى مقام العبودية ، وهو الذى يؤيده قوله «الْحَمْدُ لِلَّهِ» (٣).

ومعنى هذا أن الله علمنا كيف نحمده ، ونستعين به .

وقد كرر المولى عز وجل «إِيَّاكَ» فما مقتضى التكرار هنا ؟.

---

(١) أنظر خصائص التراكيب أ.د/ أبو موسى ص ٢٠٢ طبعة ثالثة ، أسلوب الالتفات ، د/نزيه عبد الحميد ص ٦٠ طبعة دار البيان الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) الميزان فى تفسير القرآن للطباطبائى طبعة مؤسسة الأعلى/بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

قيل التكرير هنا للتنصيص على طلب العون منه تعالى ، فلو قال سبحانه «إياك نعبد ونستعين» لاحتمل أن يكون «يطلب المعونة من غير أن يعين من يطلب .

وقيل : إنه لو اقتصر على واحد ربما توهم أنه لا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالجمع بينهما ، والواقع خلافه .

وقيل : جمع بينهما للتأكيد كما يقال : الدارين بين زيد وبين عمرو ، وفيه أيضا أن التكرار إنما يكون تأكيدا إذا لم يكن معمولا لفعل ثان ، «وإيَّاكَ» الثانى فى الآية معمول لنستعين ، مفعول له ، فكيف يكون تأكيداً ؟

وقيل إنه تعليم لنا فى تجديد ذكره تعالى عند كل حاجة .

ويقول الألوسى : وعندى أن التكرار للإشعار أن حيثية تعلق العبادة به تعالى غير حيثية تعلق طلب الاستعانة منه سبحانه ، ولو قال إياك نعبد ونستعين لتوهم أن الحيثية واحدة والشأن ليس كذلك . . . فلاختلاف التعلق أعاد المفعول [1].

ولا يخفى ما فى تكرار «إِيَّاكَ» من الشعور باللذة وتجددها عند مناجاة المولى عز وجل ، وحب خطابه تعالى آنا بعد آن ، وكثرة التوجه إليه فى كل حال .

وقيل : كرر الضمير «إِيَّاكَ» حثا على المبالغة فى طلب العون[2] ،وقد قال المولى عز وجل «نعبد» و «نستعين» بالنون فى الفعلين ، فما نكتة العدول عن «أعبد» و «أستعين» ؟

وسر المجئ بالنون فى الفعلين «قصد الإخبار من الداعى عن نفسه وعن جنسه من العباد ، وقيل : إن المقام لما كان عظيما لم يستقل به الواحد استقصادا لنفسه ، واستصغاراً لها ، فالمجئ بالنون لقصد التواضع ، لا لتعظيم النفس » [3].

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) نظم الدر فى تناسب الآيات والسور للبلقاعى جـ ١ ص ٣٣ مكتبة ابن تيمية ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .

(٣) فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ٢٣ .

كما نلمح فى «نعبد ونستعين » بالنون : دعوة إلى روح الجماعة ، وأن تتوجه قلوب العباد مجتمعة إلى المولى عز وجل ، لعل الله يشفع للفرد ببركة الجماعة . وقد جاء المسند «نعبد» و «نستعين» فعلا مضارعا للدلالة على تجدد وحدوث العبادة ، والاستعانة آنا بعد آن ، ووقتا بعد وقت وهذا مستفاد من دلالة الفعل على التجدد والحدوث .

والضمير المستكن فى «نعبد» و «نستعين» المقارئ ومن معه من الحفظة ، وحاضرى صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموحدين ، أدرج عبادته فى تضاعيف عبادتهم ، وخلط حاجته بحاجتهم لعل عبادته تقبل ببركة عبادتهم وحاجته يجاب إليها بجانب حاجتهم ، ولهذا شرعت الجماعة فى الصلوات[1] .

وقد اقترنت العبادة بالاستعانة (ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ، ويحتاجون إليه من جهته . . . وليكون ذلك توطئة للدعاء فى قوله «اهْدِنَا»[2] .

وقدم المولى عز وجل العبادة على الاستعانة لدواع بلاغية اقتضاها النظم الكريم ، منها :

١ - أن الاستعانة طلب الحاجة ، والعبادة وسيلة إليها ، فقدم الوسيلة على مجرى العادة ليستحقوا الإجابة[3] .

ولو قال الزمخشرى لينالوا الإجابة ، أو ليجابوا ، بدل قوله «ليستحقوا الإجابة » لكان أحسن .

وعبادة الله عز وجل وسيلة للاستعانة به ، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب وتحققها .

٢ - أنه لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحا واتعداداً منه بما صدر عنه ، فعقبه بقوله «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ليدل علي أن العبادة لا تتم إلا بمعونة وتوفيق ، وإذن منه سبحانه .

٣ - أن العبادة مما يتقرب بها العبد إلى الله تعالى ، والاستعانة ليست

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ٦٢ .

(٢) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٥ ، تفسير النهر الماد لأبى حيان جـ ١ ص ١٥ .

(٣) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٥ .

كذلك فالأول أهم ، وهو العبادة .

٤ - أن العبادة مطلوبة إلى الله من العباد ، والاستعانة مطلوبهم منه سبحانه ، فتقديم العبد ما يريده مولاه منه أدل على صدق العبودية من تقديم ما يريده من مولاه .

٥ - أن العبادة واجبة حتما لا مناص للعباد عن الإتيان بها حتى جعلت كالعلة لخلق الإنسان والجن ، فكانت أحق بالتقديم .

٦ - أن العبادة أشد مناسبه بذكر الجزاء ، والاستعانة أقوى التئاما بطلب الهداية .

٧ - أن في تأخير الاستعانة توافق رءوس الآى[1] .

٨ - وفى تقديم العبادة إشعار بعلو رتبة العبادة ، وعظم شأنها ، وأن المرء إذا ماعبد الله حق عبادته ، أجيب له كل ما سأل .

والعبد حين يخاطب مولاه عز وجل قائلا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كأنه يقول : شرعت فى العبادة ياربى ، وأنا أطلب منك العون عليها ، فلا معين إلا أنت وحدك .

ومعنى الاستعانة : طلب المعونة ، وهى إزالة العجز ، والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه [2].

وقد أطلق المولى عز وجل العبادة والاستعانة ، فما سر إطلاقها ؟

والسر فى إطلاق العبادة والاستعانة إفادة العموم ، وهو عموم العبادة لتتناول العبادة كل معبود به، وكذلك عموم الاستعانة لتشمل كل مستعان عليه، وعلى هذا فحذف المعبود به ، والمستعان عليه عام ، والآيات الأربع ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . .﴾ مترابطة أقوى ما يكون الترابط ، تسلمك الأولى إلى الثانية ، وتسلمك الثانية إلى الثالثة والثالثة إلى الرابعة فى تناغم عجيب .

* * *

(١) روح المعاني للألوسى جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٥٨ .

وبعد أن عشنا فى كنف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تسلمنا الاستعانة بالله عز وجل إلى التوجه إليه قائلين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

لنتأمل أسرار النظم فيها ، فنقول ـ بعون من الله :

من أسرار النظم فى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ :

الهداية : دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، ولذلك اختصت بالخير .

والصراط : الجادة ، من سرط الشئ إذا ابتلعه ، سميت بذلك لأنها تسرط السابلة إذا سلكوها ، وأصله بالسين.

والمستقيم : المستوى ، والمراد به طريق الحق ، وهو الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط ، وقيل : ملة الإسلام ، وقيل القرآن ، وقيل : المراد به معرفة ما فى كل شئ من كيفية دلالته على الذات ، والصفات ، وقيل: المراد منه صراط الأولين .

و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى : ارشدنا إلى الاستقامة على امتثال أوامرك واجتناب نواهيك ، ومتى قال ذلك أحد الخواص أراد : ثبتنا على ما منحتنا به(١) .

والفعل «هدى» يتعدى إلى المفعول به باللام ، أو بإلى ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣) ، فعومل الفعل «هدى» معاملة اختار فى قوله تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ(٤)﴾(٥) .

وقد تعدى الفعل « هدى » إلى المفعول به «الصِّرَاطَ» بنفسه ، فعومل معاملة المتعدى بنفسه .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ١ ص١٧، ١٨ ، وانظر روح المعانى للألوسى جـ١ ص٩١ : ٩٣ .

(٢) سورة الإسراء من الآية ٩ .

(٣) سورة الشورى من الآية ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف من الآية ١٥٥ .

(٥) الكشاف للزمخشرى جـ١ ص٦٧، ٦٨ .

والمؤمنون مهتدون بطبيعتهم ، فكيف يطلبون الهداية وهم مهتدون ؟

« قيل معناه : طلب زيادة الهدى بمنح الألطاف ،كقوله تعالى ﴿ والَّذِين اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] »[2].

وقيل معناه : ثبتنا على الدين كيلا تزلزلنا الشبه ، وفى القرآن ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[3] ، وقيل : الهداية : الثواب ، كقوله تعالى : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[4] ، فالمعنى : اهندنا طريق الجنة ثوابا لنا ، وأيد بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[5] ، وقيل المراد : دلنا على الحق فى مستقبل عمرنا ، كما دللتنا عليه فى ماضيه .[6]

والفعل «اهْدنَا» صورته صورة الأمر ، وطبيعة الأمر أن يكون من الأعلى إلى الأدنى ، وعلى هذا فمن المستحيل أن يكون الأمر فى «اهْدنَا» ، على حقيقته ، لاستحالة توجه العباد إلى المعبود بالأمر ، والأمر «اهْدنَا» قد خرج عن معناه الحقيقى واستتبعه معنى آخر هو «الدعاء» وعلى هذا فخروج الأمر عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر لايعد من قبيل المجاز كما ذهب بعض البلاغيين ، وإنما يعد هذا الخروج من قبيل مستتبعات التراكيب [7].

وآيات السورة الكريمة تنتظم فى نسق غاية فى الدقة ، فهناك ترابط وثيق بين آية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وآية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فقد أثارت الآية الأولى سؤالا ، وكأنه قيل : كيف أعينكم ؟ فجاء الجواب فى الآية الثانية «اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وعلى هذا ، فالاستعانة هنا خاصة وليست عامة ، ومعناها طلب المعونة على العبادة .

---

(١) سورة محمد من الآية ١٧ .

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٨ .

(٣) سورة آل عمران من الآية ٨ .

(٤) سورة يونس من الآية ٩ .

(٥) سورة الأعراف من الآية ٤٣ .

(٦) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٣ .

(٧) انظر البناء التركيبى فى شعر امرئ القيس / رسالة دكتوراه ، إشراف أ.د/ عبد الحميد العبيسى - إعداد / فوزى غانم ص ٣٤٥ ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ، وهى مطبوعة وموجودة فى مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

فبين الآيتين فصل لشبه كمال الاتصال[1] .

لذا فصل بين الآيتين كما يفصل الجواب عن السؤال ، وقد تولدت الآية الثانية من الآية الأولى ، فهناك تواصل بينهما .

وإذا ما ذهبنا نبحث عن وجه جزالة هذه الرابطة وبلاغتها فى النفس ، وقوتها فى كلام البشر نجد أن (الجملة الأولى تثير فى النفس خواطر وهواتف، فتأتى الثانية مجيبة عن هذه الخوالج ، وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى ، وهكذا يتوالد الكلام ، وتتناسل الجمل ، ثم إن فى طى هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها ، ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه ، واكتنازه ، ولو ذهبت تبسط ما حقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب ، جملة قد تطول أو تقصر ، ولكنها أضمرت فى تلك الجملة واكتفى فى الإبانة عنها باللمحة الدالة ، والإيماضة السريعة التى انعكست فى تحريك السامع ، واستثارة حسه [2].

وإذا كان كل هذا فى كلام البشر ، فما بالنا بكلام الله عز وجل المعجز. وطلب المعونة إما فى المهمات كلها ، أو فى أداء العبادة ، والصراط المستقيم إما أن يؤخذ بمعنى خاص كملة الإسلام ، أو بمعنى عام كطريق الحق خلاف الباطل، فعلى تقدير عموم الاستعانة والصراط وخصوصهما يكون «اهدنا» بيانا للمعونة ، كأنه قيل : كيف أعينكم فى المهمات ، أو فى العبادة ، فقالوا : اهدنا طريق الحق فى كل شئ أو ملة الإسلام ، فيكون الفصل لشبه كمال الاتصال [3].

---

(١) أنظر الفصل والوصل بين الأصالة والتجديد ، أ.د/ عبد الحميد العبيسى ص ٤٢/ ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

(٢) دلالات التراكيب ، أ.د/ أبو موسى ص ٣٣١ ومابعدها طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(٣) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٣ .

من أسرار النظم في ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾

ولتناول بداية - بعون من الله « بيان بعض أسرار النظم فى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فقد وقعت بدلا من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو فى حكم تكرير العامل كأنه قال : «اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم»(١) .

و «صراط الذين أنعمت عليهم » بدل من الصراط الأول ، بدل الكل من الكل ، وهو الذى يسميه ابن مالك البدل الموافق أو المطابق ، تحاشيا من إطلاق الكل على الله تعالى فى مثل ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٢) وفائدة الابدال تأكيد النسبة بناء على أن البدل فى حكم تكرير العامل (٣) .

وللبدل فائدة بلاغية وهى التأكيد بذكر الصراط مرتين ، وتكرير العامل.

كما يفيد البدل «التنصيص على أن طريق من أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم فى الاستقامة ، والمشهود له بالاستواء ، بحيث لا يذهب الوهم عند الطريق المستقيم إلا إليه »(٤).

والمراد بالذين أنعم الله عليهم «المؤمنون» وقيل : الأنبياء ، وقيل : أصحاب موسى ، وعيسى عليهما السلام قبل التحريف والنسخ ، وقيل : أصحاب محمد ﷺ ، وقيل : محمد ﷺ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما(٥) .

وقيل : الذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(٦) ، وعن ابن عباس ، أنعمت

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٨

(٢) سورة إبراهيم من الآية ١ .

(٣) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٣ .

(٤) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٨ .

(٥) أنظر الكشاف جـ ١ ص ٦٩ ، وروح المعانى جـ ١ ص ٩٣ .

(٦) سورة النساء الآية ٦٩ .

عليهم بطاعتك، وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك ، والصديقين ، والشهداء والصالحين[1] .

والنعمة : اليد والصنيعة ، والمنة ، وما أنعم به عليك[2] .

والإنعام : إيصال النعمة ، وهى فى الأصل الحالة التى يستلذها الإنسان من النعمة وهى اللين ، ثم اطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا[3].

وقيل الإنعام : إيصال الإحسان إلى الغير من العقلاء . . . ولذا قيل النعمة نفع الإنسان من دونه لغير عوض[4] .

ونلاحظ أن المولى عز وجل قد أطلق الإنعام وجعله عاما ، ولم يقيده بمفعوله الذى يتعدى الفعل «أنعمت» إليه بواسطة الباء .وذلك ليستغرق كل أنعام بنعمة ، والتحقيق أن الاطلاق يقتضى عموما إبهاما وشيوعا ، والنفس إلى المبهم أشوق منها إلى المقيد[5] .

فحذف مفعول «أنعمت» تذهب فيه النفس كل مذهب وتسبح فى عالم إنعام الله ، متصورة كل مُنْعِم به ، مما يعود عليها بالسعادة فى الدارين.

وقيل : لم يقيد الإنعام ليعم جميع الإنعام ، أعنى عموم البدل ، وقيل أنعم عليهم بخلقهم للسعادة ، وقيل بأن نجاهم من الهلكة ، وقيل بالهداية واتباع الرسل[6] .

ومن أنعم الله عليه بنعمة الإسلام فقد فاز بكل النعم ، لأن نعمة الإسلام أهم وأولى من بقية النعم . وقد بنى الفعل «أنعمت» للفاعل ، وذلك لسر بلاغى اقتضاه المقام هو الاستعطاف فكأن الداعى يقول : أطلب منك الهداية إذ سبق إنعامك ، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا وإعطاء سؤالنا [7].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٢٨ طبعة مكتبة الدعوة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

(٢) مختار الصحاح للرازى مادة «نعم» طبعة المطبعة الأميرية ١٤٣٠هـ ١٩٢٢ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٨ .

(٤) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٣ .

(٥) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٩ .

(٦) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٥٢ .

(٧) روح المعانى للألوسى جـ ١ ص ٩٣ .

وجملة «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم» بدل من «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله ، والضلال ، أوصفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال [1].

وذلك إنما يصح بأحد تأويلين ، إجراء الموصول مجرى النكرة إذا لم يقصد به معهود كالمحلى بأل ، وجعل «غير» معرفة بالإضافة لأنه أضيف إلى ماله ضد واحد ، وهو المنعم عليه ، فيتعين تعين الحركة من غير السكون ، فليس فى «غير» إذن الإبهام الذى يأبى عليه أن يتعرف[2] .

والغضب : هو هيجان النفس لإرادة الانتقام ، وعند إسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب، إن أريد به إرادة الانتقام وعلى مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام ، ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من شخصه تعالى للعصاه ، وإرادة الانتقام منهم لمعاصيهم ، بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم[3] ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات أو نفس العقوبة ، فهو صفة فعل[4].

والمغضوب عليهم هم اليهود ، لقوله عز وجل ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [5]والضالون هم النصارى لقوله تعالى ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾[6] .

وقيل المغضوب عليهم المشركون ، «والضالين» المنافقون، وقيل المغضوب عليهم هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ، و «الضالين» عن بركة قراءتها ، وقيل المغضوب عليهم باتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى[7] .

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦٩ .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوى جـ١ ص ١٢ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١ ص ١٤٩ .

(٥) سورة المائدة من الآية ٦٠ .

(٦) سورة المائدة من الآية ٧٧ .

(٧) الكشاف جـ ١ ص ١٧ ، وأنظر روح المعانى جـ ١ ص ٦١ ، والجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ١٤٩ .

وقد أسند الإنعام إلى الله عز وجل فى «أنعمت» ولم يسند الغضب إليه، والسر فى ذلك أنه من باب التأدب مع الذات العلية فى نسبة النعم ، والخيرات إلى الله عز وجل دون إسناد الغضب إليه ، وهذا من باب التقرب إلى الله عز وجل لأنه من المناسب نسبة الإنعام إليه خاصة بعد طلب الهداية منه سبحانه ، فالمقام مقام تذلل واستعطاف وخضوع وطلب ، فلا يناسبه إسناد الغضب إليه تعالى.

وقد وردت «عليهم» في الآية مرتين فى «أنعمت عليهم » و «غير المغضوب عليهم » فأى فرق بينهما ؟

الفرق بينهما أن «عليهم» الأولى محلها النصب على المفعولية ، وعليهم الثانية محلها الرفع الفاعلية[١] .

والضلال : هو العدول عن الصراط السوى .

و «لا» فى «ولا الضالين» مزيدة لتأكيد ما أفادته «غير» من معنى النفى ، كأنه قيل : لا المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، وللتصريح بتعلق النفى بكل من المعطوف والمعطوف عليه[٢] .

وقيل : هى زائدة ، وقيل هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، وقال الكوفيون (لا) بمعنى غير[٣] .

والسورة من بداية ﴿الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمينَ﴾ إلى نهاية ﴿ولاَ الضَّالِّينَ﴾ قد توافقت رءوس آياتها ، وهذا سَر تأخير الضالّين ، ويسن بعد الختام أن يقول القارئ «آمين» .

و «آمين» ليست من القرآن إجماعا ، ولذا سن الفصل بينها ، وبين السورة بسكتة لطيفة[٤] .

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٨ ، وأنظر أنوار التنزيل جـ ١ ص ١٤ ، وأنظر السراج المنير جـ ١ ص ١٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ١٥١ .

(٤) روح المعانى جـ ١ ص ٩٧ .

وبعـــــد،،

فهذه بعض أسرار النظم فى فاتحة كتاب ربنا عز وجل ، وقد أبحرت بنا لننال من فيوضاتها ما ينير لنا طرائق استنباط أسرار النظم ، وكان ذلك بإيجاز.

والله نسأل أن يجعل هذا الصنيع فى ميزان حسناتنا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين كما علمنا حمده ، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين .

مراجع البحث

القرآن الكريم :

(١) الأساس فى التفسير / سعيد حوى طبعة دار السلام الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٩م.

(٢) أسلوب الالتفات د/نزيه عبد الحميد طبعة دار البيان الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى طبعة دار الجيل ١٣٢٩هـ .

(٤) البناء التركيبى فى شعر امرئ القيس رسالة دكتوراه إعداد د/ فوزى غانم وإشراف أ. د/عبد الحميد العبيسى ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣م

(٥) تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . للعمادى طبعة دار إحياء التراث العربى / بيروت بدون تاريخ .

(٦) تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى طبعة دار الفكر الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٧) تفسير البغوى طبعة دار المعرفة / بيروت / بدون تاريخ .

(٨) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور طبعة الدار التونسية بدون تاريخ.

(٩) تفسير الجلالين (جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى) طبعة دار المعرفة / بيروت / بدون تاريخ .

(١٠) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل طبعة الحلبى الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٥ م .

(١١) تفسير الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى طبعة دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(١٢) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البروسوى طبعة إحياء التراث العربى / بيروت الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

(١٣) تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى طبعة دار الفكر / بدون تاريخ .

(١٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير طبعة مكتبة الدعوة ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

(١٥) تفسير القرآن الكريم المسمى السراج المنير للخطيب الشربينى طبعة دار المعرفة / بيروت / الطبعة الثانية / بدون تاريخ .

(١٦) التفسير القيم لابن القيم طبعة دار الكتب العالمية / بيروت / بدون تاريخ.

(١٧) تفسير المراغى تأليف أحمد مصطفى المراغى طبعة الحلبى الطبعة الخامسة ١٢٩٤هـ ، ١٩٧٤م .

(١٨) تفسير المنار للشيخ محمد عبده طبعة دار المعرفة / بيروت / الطبعة الثانية / بدون تاريخ .

(١٩) تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى طبعة دار الجنان / بيروت / ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

(٢٠) جامع البيان عن تأويل آى القران للطبرسى طبعة دار الفكر ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م .

(٢١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

(٢٢) خصائص التراكيب أ.د/ محمد أبو موسى الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ.

(٢٣) دلالات التراكيب أ.د/ محمد أبو موسى طبعة وهبه الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.

(٢٤) روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى / للألوسى طبعة دار الفكر ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧م.

(٢٥) زاد المسير فى علم التفسير للجوزى طبعة المكتب الإسلامى / دمشق الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م .

(٢٦) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة / محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة دار الأندلس الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٢٧) شروح التخليص / بدون تاريخ .

(٢٨) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى
طبعة الحلبى ١٣٨٣هـ ، ١٩٨٤م .

(٢٩) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للشيخ الجمل طبعة الحلبى /
بدون تاريخ .

كتاب الحجة لأبى على الفارسى

(دراسة بلاغية)

مقدمة :

إذا كان أبو على الفارسى قد اشتهر بالنحو ، واللغة ، والصرف ، والقراءات ،وغيرها من الفنون والعلوم حتى ألف كتبًا شتى ، وكان من بين هذه الكتب ، كتابه / الحجة فى علل القراءات السبع ، وإذا كان علم القراءات أحد العلوم القرآن الكريم الذى بواسطته يتم الكشف عن وجوه الإعجاز القرآنى، وإذا كان من وجوهه كذلك الإعجاز البلاغى ، فإن كتاب الحجة لأبى على الفارسى قد اشتمل على العديد من المسائل البلاغية التى تناثرت فى صفحات كتابه دونما أن يظهرها أحد ـ فيما أعلم ـ أو يتعرض لها خاصة ، أن شهرته فى النحو غطت على غيرها من العلوم ، هذا بالإضافة إلى أن اسم كتابه / الحجة فى علل القراءات السبع جعل الكثير لا ينقبون عن آرائه وجهوده البلاغية فى هذا الكتاب .

ومن أجل ذلك عقدت العزم على قراءة كتاب الحجة بدقة متناهية حتى أقوم بحصر جميع المسائل البلاغية فيه لكى أكشف فيما بعد عن جهوده وآرائه فى كل مسألة ، مبينًا ما أخذه عن غيره ، وما أفاد غيره منه ، سائلاً القدير التوفيق والسداد فيما قصدت.

د. محمد شعبان علوان

أستاذ البلاغة المساعد

كلية الآداب ـ الجامعة الإسلامية ـ غزة

التعريف بأبى على الفارسى [1]:

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان ، أبو على الفاسى ، ويُعرف بالفسوى ، نسبة إلى «فسا»[2] وُلِدَ بها ، وتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

شيوخه :

تتلمذ أبو على الفارسى على أساتذة شتى استقطبوا معارف عصرهم ، كأبى بكر بن مجاهد ، وأبى إسحاق الزجاج ، وأبى بكر بن الخياط واطلع على كتابه معانى الشعر . كما أنه اتصل بأبى بكر بن دريد وكتب كتابه فى الاشتقاق إملاء عنه ، وقرأ على أبى بكر بن السراج المسائل المشروحة من كتاب سيبويه للمبرد ، وديوان النابغة برواية الأصمعى[3] . وعلت منزلته فى النحو حتى فضّله كثير من النحويين على أبى العباس المبرد ، حتى قال عنه أبو طالب العبدى : ما كان بين سيبويه وأبى على أفضل منه[4] .

---

(١) أنظر ترجمته فى : طبقات النحويين واللغويين ـ الزبيدى ـ ص ١٢٠ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار المعارف ـ طبعة ثانية ، ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء ـ الأنبارى ـ ص ٣١٥ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى جـ ٣ ، ص ٨٨ ، ص ٨٩ ـ دار الفكر للطباعة والنشر ، طبعة أولى عام ١٩٧٩م ، وبغية الوعاة للسيوطى جـ ١ ص ٤٩٦ ، ص ٤٩٧ ، تحقيق / محمد أبو الفضل ـ المكتبة المصرية ـ بيروت ، والأعلام، للزركلى ـ جـ ٢ ص ١٧٩، ١٨٠ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة السابعة عام ١٩٨٦م .

(٢) فَسَا : بالفتح ، والقصر ، كلمة أعجمية ، وعندهم بَسَا ، بالباء ، وكذا يتلفظون بها وأصلها فى كلامها الشمال من الرياح : مدينة بفارس أنزهُ مدينة بها فيما قيل . إليها ينسب أبو على الفارسى الفسوى ـ أنظر : معجم البلدان ــ ياقوت الحموى جـ ٤ ص٢٦٠، ص٢٦١ ــ دار صادر ١٩٨٤م.

(٣) أنظر : مقدمة المحتسب ـ لابن جنى ١/ ١٠ تحقيق على النجدى والدكتور / عبد الفتاح شلبى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ونزهة الألباء ص٣٨٥ ، وبغية الوعاة ص٤٩٦ وأنظر : الحجة ـ لأبى على الفارسى جـ ١ ص ١٤ .

(٤) أنظر : نزهة الألباء ص ٣١٥ .

تلاميذه :

تصدر أبو على الفارسى مجالس العلم فى جميع البلاد التى زارها وأقام فيها حتى أخذ عنه جماعة من حذّاق النحويين ، كأبى الفتح بن جنى ، وعلى بن عيسى الربّعى ، وأبى طالب العبدى ، وأبى الحسن الزعفرانى ، وغيرهم من العلماء(١) .

إن تعدد شيوخ أبى على الفارسى ، وأخذه عنهم من كل فن جعله متقنًا فى شتى العلوم ، كاللغة ، والأدب ، والنحو ، والصرف ، والعروض ، وقليل من قرض الشعر ، لكن النحو كان أغلب عليه وأقرب إلى قلبه فى معظم كتبه التى ألفها عدا كتاب الحجة الذى اشتمل على ضروب شتى من العلم والمعرفة .

وإن مما يبرهن على قولنا السابق ماروى عن عضد الدولة من قوله إذا ما افتخر بالعلم والمعلمين : معلمى فى النحو أبو على ، أو قوله : أنا غلام على النحوى فى النحو(٢) .

إن من أهم ما يميز منهج أبى على الفارسى فى مؤلفاته هو تمكنه من حفظ القرآن الكريم ، وما يتمتع به من مقدرة عالية فى تدعيم ما يقول بالآيات القرآنية .

أما عن علمه فى العروض قبل أن ينظر فيه ، فهو جوابه وقت أن سُئل عن حَزْم «متفاعلن» ؛ ففكر وانتزع الجواب من النحو ، قال : لا يجوز ؛ لأن «متفاعلن» يُنْقَل إلى «مستفعلن» إذا خُبِن ، فلو حُزِم لتعرض إلى الابتداء بالساكن ، فكما لا يجوز الابتداء بالساكن لا يجوز التعرّض له ؛ والحَزْم حذف الحرف الأول من البيت ، والخبن تسكين ثانيه(٣) .

أما بالنسبة لقرض الشعر ، فكما ذكرت كتب التراجم فإنه لم يقل إلا ثلاثة أبيات وهى قوله (٤):

---

(١) انظر : مقدمة الحجة : ١٨/١ ، ونزهة الألباء ص٣١٥ .

(٢) انظر : إنباه الرواة ص٣١٥ ، مقدمة الحجة ١/ ٢٠ ، والأعلام ٢/ ١٧٩ .

(٣) انظر : بغية الوعاة ١/ ٤٩٧ .

(٤) انظر : الأعلام ٢/ ١٨٠ ، وبغية الوعاة ١/ ٤٩٧ .

خَضبتُ الشيب لما كان عيبًا ... وخضبُ الشيب أولى أن يُعابا
ولم أخْضِب مخافة هَجْرِ خِلٍّ ... ولا عتْبا خشيتُ ولا عتابا
ولكنّ المشيبَ بَدَا ذَميمًا ... فَصيّرتُ الخِضَابَ له عِقَابًا

ومن تصانيفه ومؤلفاته : الحجة ، التذكرة ، أبيات الإعراب ، تعليقه على كتاب سيبويه ، الإيضاح فى النحو ، كتاب المقصور والممدود ، الإغفال، والعوامل فى النحو . هذا بالإضافة لما صنفه من كتب فى الأسئلة التى وجهت إليه أثناء رحلاته ، وقد سمى كل كتاب منها باسم البلد ، كالمسائل الحلبية ، والبغدادية، والقصرية، والبصرية، والشيرازية، والعسكرية ، والكرمانية(١).

التعريف بكتاب الحجة :

تردد اسم الكتاب بأكثر من عنوان ، لكنه اقترن باسم الحجة فيها جميعًا، فأطلق عليه «الحجة» ، أو الحجة فى علل القراءات السبع ، والحجة فى شرح القراءات السبع. ولعل مؤلفه كان له هدف فى تسميته بالحجة ، بمعنى أنه يدل على معنى الاحتجاج المطلق، ولا نبالغ إن قلنا إن الحجة يعد مصدراً من مصادر التراث العربى فى علوم شتى ، كالنحو واللغة ، والصرف ، ومسائل الخلاف، والشواهد ، والأصوات ، واللهجات ، هذا بالإضافة إلى إشاراته البلاغية التى سندير حولها النظر ، وسنظهرها جلية للإبانة عن آراء أبى على الفارسى والفنون البلاغية التى تناثرت فى كتابه الحجة .

وإن كان علم القراءات هو أحد علوم القرآن التى يُكشف من خلالها عن سر إعجاز القران ، ،وكان الإعجاز البلاغى أحد وجوه الإعجاز القرآنى ، فإن اختلاف القراءات يكشف لنا عن أوجه البلاغة لاختلاف معنى الكلام باختلاف القراءة .

لذلك كان عنوان بحثى (كتاب الحجة لأبى على الفارسى - دراسة بلاغية) ، وقد قصدت من وراء ذلك أن أقوم بعملية استقراء دقيقة لكتاب الحجة كى أضع يدى على أهم الفنون البلاغية التى تناولها أبو على الفارسى فى كتابه مبينًا رأيه ، ومناقشًا له ، ومقارنًا ما قاله بآراء سابقيه لإظهار مدى افادته

---

(١) انظر : بغية الوعاة ١/ ٤٩٧ ، معجم الأدباء ٧/ ٢٥١، ٢٥٢.

منهم ، وما تفرد به هو حتى تأثر به من جاء بعده .

لكنى لا أريد فى بداية بحثى أن ألقى حكمًا قبل الوقوف على فنون المعانى، والبيان ، والبديع التى ذخر بها كتاب الحجة وهى كثيرة جدًا ، كثيرة فيما حملته من تفرد فى تسميته أو اكتشافه لمصطلح معين حتى أصبح رأيًا خاصًا به فاقتفى أثره غيره من العلماء ، أو تأثر هو بغيره، وهذا شأن العالم أن يأخذ عن غيره ، ويأخذ غيره عنه .

والمهم عندنا الآن أن أبا على الفارسى قد تطرق فى كتابه الحجة إلى كثير من المباحث البلاغية التى يدخل بعضها فى علم المعانى ، وبعضها فى علم البيان ، والبعض الآخر فى علم البديع ، وسنعمل على تسهيل القول فى كل أبحاثه التى تتصل بعلوم البلاغة الثلاثية لكى نثبت أن كتاب الحجة ذخر بالبلاغة كما ذخر بالنحو واللغة والقراءات .

أولا : ما أورده من فنون تتعلق بعلم المعانى :

الخبر والإنشاء :

إذا ما نظرنا إلى ما ذكره أبو على الفارسى فى هذه المسألة ـ الخبر والإنشاء ـ وجدنا أنه قد تعرض لتحديد الخبر والإنشاء بطريقة غير مباشرة من خلال شرحه لبيت أنشده أبو عبيدة .

فأما ما ذكره فى الإنشاء فهو فى قوله :

أنشد أبو عبيدة :

أتوعِدُنى وراء بنى رماح ... كذبت لتَقْصُرَنّ بذاك دونى

قلت : إن التكذيب واقع فى الاستفهام ، والاستفهام لا يحتمل الصدق ولا الكذب، فإن هذا الاستفهام تقرير ، والتقرير عندهم مثل الخبر(١) .

فأبو على يشير هنا إلى ما استقر عليه فيما بعد من تعريفهم للإنشاء ، وهو : كل كلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته ، وهذا هو الذى عبر عنه

---

(١) الحجة : أبو على الفارسى ٤٨/٢ تحقيق / على النجدى ناصف والدكتور / عبد الفتاح شلبى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٣م .

أثناء تعريفه للاستفهام فى كلامه السابق بأنه لا يحتمل الصدق ولا الكذب ، لأن الاستفهام يعد أحد الأساليب الإنشائية .

ومن جانب آخر : يظهر لنا جليًا أن الخبر فى مفهوم أبى على الفارسى هو : كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وذلك من شرحه للبيت السابق حينما يقول إن التكذيب واقع فى الاستفهام ، وكونه فى هذا الاستفهام إذًا فهو ليس باستفهام لاحتماله الكذب ، ولذلك : " فإن هذا الاستفهام تقرير ، والتقرير عندهم مثل الخبر" .

ولعل الحديث فى موطن آخر من كتاب الحجة يزيد مفهوم الخبر توضيحًا عند أبى على الفارسى خاصة حينما يخرج الاستفهام فى قوله تعالى ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾[1] إذ يقول : لفظه الاستفهام ، ومعناه الخبر ، ومثل ذلك قوله : ما أبالى أشهدت أم غبت ، وما أدرى أأقبلت أم أدبرت . وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام وإن كان خبراً : لأن فيه التسوية التى فى الاستفهام ؛ ألا ترى أنك إذا استفهمت فقلت : أخرج زيد أم أقام ؟ فقد استوى الأمران عندك فى الاستفهام وعدم علم أحدهما بعينه؛ كما أنك أخبرت فقلت: سواء على أقعدت أم ذهبت فقد سويت الأمرين عليك ؛ فلمّا عمتهما التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام ؛ لمشاركته فى الإبهام[2].

ومراد أبى على من ذلك هو : أن الاستفهام أفاد معنى التسوية ، فهو خرج عن كونه استفهامًا أو إنشاءً ، وأصبح خبرًا ، لمشاركته له فى الإبهام . فكلمة الإبهام فى كلام أبى على تدل على أن الخبر الذى يحتمل الصدق أو الكذب يكون قبل تحديده مبهماً، وذلك لأنه يعد صادقًا فى حالة مطابقة النسبة الكلامية النسبة الخارجية ، والعكس صحيح ، لذلك يصاحب الإبهام فى أول تلفظه ، وقبل مطابقته للواقع.

وثمة توضيح آخر حول كلام أبى على فى الخبر والإنشاء، إذ نلمس فى حديثه أنه إذا خرج الأسلوب الإنشائى عن معناه الحقيقى إلى أغراض بلاغية يسارع أبو على لعده من صادق أو كاذب ، أو الإشارة إلى أن جميع الأخبار

---

(١) البقرة : ٦ .

(٢) الحجة ١/ ١٩٨.

الواردة فى القرآن الكريم مقطوع بصدقها، حتى لا يظن ظان أو يسأل سائل ، وهل يجوز أن نخضع أيات القرآن المشتملة على الإخبار للمفهوم الاصطلاحى للخبر؟ وما أظن أن أباعلى يجعل هذا ، وإنما أردنا ذلك حتى لا يفهم أحد كلام الرجل على غير ما يحتمل.

ونشير كذلك إلى أننا من خلال ملاحظتنا للأغراض البلاغية التى تخرج إليها الأساليب الإنشائية ـ الأمر ، النهى ، الاستفهام ، التمنى ، النداء ـ نجد أباعلى الفارسى يذكر بعد تحديده الغرض البلاغى للأسلوب ، أنه خبر ، ولعله أراد ، أن هذا الأسلوب سواء الاستفهام ، الذى هو طلب السؤال عن شئ لم يكن معلوماً من قبل بأداة من أدوات الاستفهام ، أو الأمر الذي هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء ، والإلزام ، وغيرهما من بقية الأساليب ، لكونها حملت معانى ثانية فهى خرجت عن كونها لا تحتمل الصدق ولا الكذب ، وبناءً عليه فهم خلافه تماما ، وهو احتماله الصدق والكذب ، لأن الخبر ضد الإنشاء.

ولعلنا لا نكون قد بالغنا إن قلنا إنأباعلى الفارسى بكلامه هذا قد وضع لبنات أساسية وواضحة طورت فيما بعد فى تحديد المفهوم الاصطلاحى للخبر والإنشاء . الذى ضبط معالمه الإمام عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز(١) والسكاكى فى المفتاح (٢)، وغيرهما .

الأغراض البلاغية التى خرجت إليها الأساليب الإنشائية

أولا : الأغراض البلاغية للاستفهام :

ذكر أبو على الفارسى فى كتابه الحجة أغراضاً بلاغية للاستفهام وضّح من خلالها بإشارات عامة أنه من الإنشاء ، وتفنن فى تخريجه للغرض البلاغى أو المعنى الثانى الذى أفاده الأسلوب ، ومنها :

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجانى ص ٥٢٥ ومابعدها تحقيق / محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجى بمصر .

(٢) انظر : مفتاح العلوم ـ السكاكى ص١٦٦ وما بعدها تحقيق / نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م.

١ – التقرير :

وهو ما بيّنه فى شرحه لقول الشاعر الذى أنشده أبو عبيدة :

أتوعِدُني وراء بنى رماح كذبت لَتَقْصُرَنّ بذاك دونى

فقال : " قلت : إن التكذيب واقع فى الاستفهام ، والاستفهام لا يحتمل الصدق ولا الكذب ، فإن هذا الاستفهام تقرير ، والتقرير عندهم مثل الخبر ، ألا ترى أنهم لم يجيبوه بالفاء كما لم يجيبوا الخبر ؟ "[1] . يريد أنهم لم ينصبوا الفعل المقرون بها إذا وقع بعد استفهام التقرير كما لم ينصبوه حين يقترن بها بعد الخبر .

إلا أن أباعلى الفارسى حينما يكشف عن الغرض البلاغى للاستفهام نراه لم يذكر سوى قوله : إنه استفهام تقرير ، دون أن يبين ما المراد من التقرير كما بينه بعد ذلك الإمام عبد القاهر، وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بصورة من صور الاستفهام كما ورد فى قوله تعالى : ﴿**أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم**﴾[2] . فقال طلبوا من إبراهيم أن يقرّ ويعترف بأنه هو الذى كسر الأصنام، وما طلبوا منه أن يقر بوجود تكسير فى الأصنام ؛ لأن التكسير واقع وحاصل[3] .

٢ – التسوية :

ذكر أبو على هذا الغرض للاستفهام فى أكثر من شاهد ، وبيّن أن التسوية لا تكون إلا بين شيئين فصاعداً[4] .ومثل لذلك فى شرحه للاستفهام فى قوله تعالى : ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا**﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم**﴾[6] ، وقوله تعالى ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم**﴾[7]، وقول الشاعر :

سواء عليك اليوم أنصاعت النوى بخرقاء أم أنحى لك السيفَ ذابحُ

(١) الحجة : ٢/٤٨.

(٢) الأنبياء : ٦٢ .

(٣) انظر : دلائل الإعجاز ص١١٣ .

(٤) انظر : الحجة ١/١٩٨.

(٥) إبراهيم : ٢١

(٦) المنافقون : ٦ .

(٧) يس : ١٠ .

وقول آخر :

ما أبالى أنبّ بالحزن تيسٌ ... أم لحانى بظهر غيب لئيمُ

ثم قال أبو على : " فهذا الكلام وإن كان قد جرى عليه حرف الاستفهام للتسوية فهو خبر ، فلما كانوا حذفوا الجزاء، واستمر حذفه لطول الكلام حيث لو أُظهر لم يمتنع ـ وذلك نحو : لأضربنه ذهب أو مكث ـ لزم حذف الحرف هنا لإغناء حرف الاستفهام عنه لمقاربة الشرط الاستفهام فى اجتماعهما فى أنهما ليسا بخبر ، وأنهما يقتضيان الجواب "[1].

فالاستفهام كما بينه فى الشواهد المذكورة لم يكن حقيقيا ، وإنما أفاد التسوية بين الأمرين ، وهو أطلق عليه استفهام التورية الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها[2] . ثم بين كيف يتقارب الاستفهام والشرط فى أنهما يحتاجان إلى جواب "جواب الشرط وجوب الاستفهام" وأنهما ليسا بخبر ، ولذلك إذا خرج الاستفهام إلى التسوية جاز الاستغناء عن حرف الجزاء لدلالة استفهام التسوية عليه ، فأنت تستطيع أن تظهره في هذه الحالة .

ولقد مثل لذلك بمجموعة من الشواهد أذكر مثالاً منها للتوضيح وهو قوله تعالى ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم**﴾[3]، فالاستفهام الذى أفاد معنى التسوية أغنى عن حرف الجزاء ، وتقديره : إن استغفرت لهم أم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم .

ولقد وضح هذا الغرض حينما فصّل القول فى قوله تعالى : ﴿**سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[4] ، فقال : "لفظ الاستفهام ومعناه الخبر ، ومثل ذلك قوله : ما أبالى أشهدت أم غبت ، وما أدرى أأقبلت أم أدبرت؟ وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام، وإن كان خبراً لأن فيه التسوية التى فى الاستفهام ؛ ألا ترى أنك إذا استفهمت فقلت : أخرج زيدٌ أم أقام ؟ فقد استوى الأمران عندك فى الاستفهام وعدم علم أحدهما بعينه ؛ كما أنك إذا

---

(١) الحجة : ١/٢٠٢،٢٠٣ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ـ د/أحمد مطلوب ٢/١٨٨ ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ـ عام ١٩٨٧م.

(٣) المنافقون : ٦ . (٤) البقرة : ٦ .

أخبرت فقلت : سواء عليّ أقعدت أم ذهبت، فقد سويت الأمرين عليك ؛ فلما عمّتهما التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام ؛ لمشاركته له فى الإبهام . فكل استفهام تسوية وإن لم يكن كل تسوية استفهاماً[(١)] .

والمتأمل فيما أورده أبو على الفارسى في الكشف عن الغرض البلاغى للاستفهام فى الآية يجد كيف يبين مفهوم التسوية من خلال تدعيمه لها بالشواهد الموضحة الأخرى ثم يبين كما ذكرنا سابقاً[(٢)] ، كيف التقت التسوية مع الخبر فى عملية الإبهام فى كل منهما . ومن جانب آخر ذكره العبارة الدقيقة "فكل استفهام تسوية وإن لم يكن كل تسوية استفهاماً" حتى لا تكون قاعدة عامة ، وإنما بينهما عموم وخصوص بمعنى : أنه من الممكن أن يكون الاستفهام تسوية ، ولا يمكن أن تكون كل تسوية من الاستفهام ؛ لأنه قد تخرج بعض الأساليب الإنشائية الطلبية كالأمر إلى التسوية ، وهذا ما تفيده عبارته السابقة.

ولعل أباعبيدة بن المثنى يكون قد سبق أباعلى الفارسى فى عدّه الاستفهام من الخبر إذا خرج إلى غرض بلاغى، كما ورد عنه فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[(٣)] إذ يقول "هذا كلام هو إخبارٌ، خرج مخرج الاستفهام؛ وليس هذا إلا فى ثلاثة مواضع، هذا أحدها، والثانى : ما أبالى أقبلت أم أدبرت ، والثالث : ما أدرى أولّيت أم جاء فلان"[(٤)] .

إلا أننا من خلال مقارنتنا للنصين يتضح لنا أن أباعلى الفارسى قد أفاد من أبى عبيدة إلا أنه أضاف تحديد الغرض البلاغى الذى أفاده الاستفهام وهو "التسوية" وهو الغرض الذى استقر عليه البلاغيون بعده.

ثانيا : الأغراض البلاغية للأمر :

التسوية :

---

(١) الحجة : ١٩٨/١ .

(٢) انظر : بحثنا هذا ص ٤١ .

(٣) البقرة : ٦ .

(٤) مجاز القرآن ــ أبو عبيدة بن المثنى ــ ٣١/١ علق عليه د/ محمد فؤاد سزكين ــ مكتبة الخانجى.

كقوله تعالى ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ (١).

ويخرج أبو على الغرض البلاغى للأمر بأسلوب فنى رائع مدعم بالحجة والدليل كعادته فيقول : "وكذلك لو أظهرت المصدرين اللذين دلّ عليهما لفظ الفعلين المذكورين فى قوله تعالى : ﴿فاصبروا أو لا تصبروا ... ﴾ لقلت : سواء عليكم الجزع والصبر ، ولم تقله بأمر ؛ كما قال تعالى : ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾(٢) ولو قلت سواء علىّ العاكف أو البادى ، أو سواء علىّ الجزع أو الصبر، لكان المعنى سواء علىّ أحدهما ، وسواء علىّ أحدهما كلام محال ؛ لأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين فصاعداً" (٣).

بمعنى : أنه سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنا ، ولا خلاص لكم منها .

خروجه إلى الخبر :

وقد يخرج الأمر إلى الخبر ، ونقصد بالخبر : الكلام الذى يحتمل الصدق أو الكذب لذاته ، ولعلنا نكون قد وضحنا فى بداية حديثنا عن الاستفهام مراد أبى على من ذلك ، وهذا هو نفسه حينما يكرره فى كل الأغراض البلاغية التى تفيدها الأساليب الإنشائية من أمر ونهى واستفهام وتمن ونداء.

ولقد مثل لذلك بقوله تعالى : ﴿كُن فيكون﴾(٤) فقال : "وأما قوله : «كُن» فإنه؛ وإن كان على لفظ الأمر فليس بأمر ، ولكن المراد به الخبر ، كأن التقدير : يُكوّن فيكون . وقد قالوا : أكرم بزيد! فاللفظ لفظ الأمر ، والمعنى يراد به الخبر ، ألا ترى أنه بمنزلة : ما أكرم زيداً ! فالجار والمجرور فى موضع رفع بالفعل . وفى التنزيل : ﴿قل من كان فى الضلالة فليتمدد له الرحمن مدا﴾(٥) فالتقدير : مَدّه الرحمن(٦) .

فالأمر فى الآية ليس حقيقيًا ، وإنما هو مجاز أفاد معنى الخبر ، وقد وضح هذا الشوكانى فى تفسيره للآية التى استشهد بها أبو على فقال : "هذا

---

(١) الطورة : ١٦ .
(٢) الحج : ٢٥ .
(٣) الحجة : ١/١٩٨ .
(٤) البقرة : ١١٧ .
(٥) مريم : ٧٥ .
(٦) الحجة : ٢/ ١٦٠ .

وإن كان على صيغة الأمر ، فالمراد به الخبر، وإنما خرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة. وأن ذلك كائن لا محالة لتقطيع معاذير أهل الضلال "(١).

وإذا ما قارنا بين تفسير وتخريج الأمر فى قول الشوكانى ، وقول أبى على يتضح لنا عدة معانٍ أفادها الأمر الذى هو بمعنى الخبر فى الشواهد التى ذكرها أبو على وهى :

أولا : فى قوله تعالى ﴿كن فيكون﴾ أمر خرج إلى الخبر لبيان تعظيم الله

ثانيا: فى قولهم: "أكرم بزيد" أمر خرج إلى الخبر لإظهار المدح والثناء.

ثالثا : فى قوله تعالى :﴿فليمدد له الرحمن﴾ أمر خرج إلى الخبر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاه .

فأبو على الفارسى لم يكن يُعنى بإبراز المعانى التى يحتملها لفظ الأمر من وعد ووعيد وتمن وتعجيز وتسوية وتعجب وغير ذلك من الأغراض ، لأنه أراد أن يطلعنا على تعدد الأساليب ، وخروجها من حالة إلى أخرى، وتبعه فى ذلك تلميذه ابن جنى إذ يقول : "فقد جاءت ألفاظ الأمر يراد بها الخبر كما جاءت ألفاظ الخبر ويراد بها الأمر" . فمن ألفاظ الأمر التى يراد بها الخبر قوله تعالى : ﴿قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ إنما معناه : فسيمد له الرحمن مداً ، أو مد له الرحمن مداً(٢). وهذا ماذكره الفارسى.

وهذا قمة البلاغة لأن "الكلام الذى يوصف بالبلاغة هو الذى يدل بلفظه على معناه اللغوى أو العرفى ، أو الشرعى ، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية على المعنى المقصود الذى يريد المتكلم إثباته أو نفيه"(٣) . فالمعانى الثانية إذن تتعلق بالنظم ، وترتبط به ، وهى فى نظم القرآن تتسق وما بلغه من أسمى مراتب فن القول .

ثالثا : الأغراض البلاغية للنداء :

الاختصاص : من الأغراض البلاغية التى خرج إليها النداء ، وأفادها أسلوبه الاختصاص . إذ يقول أبو على فى كتابه الحجة موضحاً ذلك : "ومثل

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٢/٣٤٨ دار المعرفة / بيروت .

(٢) المنصف لابن جنى ١/٣١٧ مطبعة مصطفى الحلبى .

التسوية فى هذا الاختصاص فى نحو : أنا أفعل كذا أيّها الرجل ، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ؛ لما كنت مختصاً نفسك والعصابة فى هذا الكلام جرى عليه لفظ النداء من حيث أردت الاختصاص الذى أردته فى النداء ؛ كما جرى الاستفهام على التسوية ، فمن ثمّ صار كل منادى مختصاً ، وإن لم يكن كل مختص منادى" [1].

وكأن أباعلى يقول : إنه قصد بالنداء نفسه والعصابة فى المثالين ، فخرج النداء عن حقيقته التى هى : طلب إقبال المخاطب بأحد حروف النداء إلى كونه ينادى نفسه ، أى: يختص نفسه والعصابة فخرج من النداء إلى الاختصاص .

أما قول أبى على : "صار كلّ منادى مختصاً ، وإن لم يكن كل مختص منادى" فإنه يعنى بذلك أن بينهما عموما وخصوصا ، بمعنى : أن النداء يمكن أن يفيد معنى الاختصاص ، لكنه ليس بالضرورة أن يكن كل اختصاص نداء ، وذلك لإفادة أساليب أخرى غير النداء معنى الاختصاص كالتقديم والتأخير ، وأسلوب القصر .

رابعا : الأغراض البلاغية للنهى :

بين أبو على أن النهى الذى هو بمعنى : طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام قد يخرج عن المعنى الحقيقى له إلى معانٍ بلاغية أخرى كإفادته الخبر .

يقول أبو على : "ألا ترى أنه لا يجوز أن تجعل المخاطبين غيباً فتقول : أخذنا ميثاقكم لا يسفكون ؟ لأنك إذا قدرت الحكاية كان التقدير : أخذنا ميثاقكم ، فقلنا لكم : لا تسفكون كان بالتاء ولم يَجُز الياء، كما لا يجوز أن تقول للمخاطبين : هم يفعلون وأنت تخاطبهم . وإن لم تقدر الحكاية فهو بالياء فلا مذهب إذن فى ذلك غير الخطاب فقوله : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون**﴾[2] . لا يخلو قوله : (تعبدون) من أن يكون حالاً ، أو يكون تلقى قسم ، أو يكون على لفظ الخبر ، والمعنى معنى الأمر[3] .

فالنهى هنا أخرج فى صورة الخبر ، أما ما أراده أبو على من قوله ـ أو

---

(١) الحجة : ١/١٩٨ .
(٢) البقرة : ٨٣ .
(٣) الحجة : ٢/١٠١ .

يكون على لفظ الخبر والمعنى معنى الأمر - لا يعنى أن هذا النهى خرج إلى الأمر ، وإنما أراد بذلك ، أن النهى فى حقيقته هو أمرٌ ، لأن الأمر شرط أساسى أن يتوفر فيه الاستعلاء والإلزام ، وكذلك الحال بالنسبة للنهى يجب أن يتوفر فيه الاستعلاء والإلزام ، ومن هنا يلتقى الأمر الحقيقى مع النهى الحقيقى فى تحقق الاستعلاء والإلزام ، وهذا ما قصده بقوله : أو يكون على لفظ الخبر والمعنى معنى الأمر ، كأنه أراد أن يقول : أو يكون على لفظ الخبر ، والمعنى معنى النهى.

التكرار :

وأبو على الفارسى حين يعرض للتكرار يضع شرطاً لاستحسانه ، وهو أن يحقق التكرار فائدة جديدة أو مقصداً عظيماً يؤكد فيه المعنى الأول بلفظ يغاير اللفظ الأول.

يقول فى اختيار القراءة بِملِك فى قوله تعالى : ﴿ملك يوم الدين﴾[١] : إن الله قد وصف نفسه بأنه مالك كل شئ بقوله : ﴿رب العالمين﴾ فلا فائدة فى تكريره ذكر ما قد مضى ذكره من غير فصل بينهما بذكر معنى غيره . قال : وقال : إن الخبر عن رسول الله ﷺ بقراءته : ﴿ملك يوم الدين﴾ أصح إسناداً من الخبر بقراءته مالك ، وإن وصفه بالملك أبلغ فى المدح[٢] .

ويؤكد هذا الرأى فى موطن آخر عند قوله تعالى : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ...﴾[٣] على قراءة من قرأ "فأنزلهما" فيقول : " فإن قال قائل : فإنه إذا قرأ : (فأنزلهما) كان قوله بعدُ: فأخرجهما تكراراً ، فالقراءة الأخرى أرجح ، لأنها لا تكون على التكرير . قيل : قوله أخرجهما، ليس بتكرير لا فائدة فيه، ألا ترى أنه قد يجوز أن يزيلهما عن مواضعهما ولا يخرجهما مما كانا فيه من الدعة والرفاهية ؟ وإذا كان كذلك لم يكن تكراراً غير مفيد . وعلى أن التكرير فى مثل هذا الموضع لتفخيم القصة وتعظيمها بألفاظ مختلفة ليس بمكروه ولا مُجتنَب ، بل هو مستحب مستعمل ، كقوله القائل : أزلت نعمته ، وأخرجته من ملكه ، وغلّظت عقوبته[٤].

---

(١) الفاتحة : ٤ .

(٢) الحجة : ١/٧ .

(٣) البقرة : ٣٦ .

(٤) الحجة : ٢/١٢ .

وأبو على الفارسى فى التكرير يحاول أن يبين لنا من خلال الشاهد المذكور أن التكرير يكون مستحبًا ومستحسناً إذا كان اللفظ الثانى بغير اللفظ الأول هذا بالإضافة إلى تحقيق فائدة ، ويكون هذا فى تكرير المعنى واللفظان مختلفان .

ومن جهة ثانية بيّن أن الفائدة من التكرار الذى جعله مستحباً هو تفخيم القصة وتعظيمها بألفاظ مختلفة ، ودلّل بقول القائل : أزلت نعمته ، بمعنى : انتزعت منه ، وكذلك أخرجته من مِلكه ، بمعنى : انتزعت منه ملكيته ، وقولهم : غلّظت عقوبته ، تحتمل نفسَ المعانى الأول ، وهذا كلّه يفيد تفخيم العقوبة وتعظيمها ، وإن اختلفت الألفاظ إلا أنها تؤدى نفس المعنى .

ولم يكن أبو على الفارسى أول من ذكر ذلك، أو جاء بجديد فيه ، لأن الفراء فى كتابه / معانى القرآن سبقه لذكر هذا الفن ، وبين الفائدة المرجوة من ذلك ، ووضع شرطاً وهو أن يُفصل بين اللفظتين بفاصل ، ومثل لذلك بقوله تعالى : ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخرجون﴾[1] .
فقال: "أعيدت (أنكم) مرتين، ومعناهما واحد إلا أن ذلك حسن لما فرّقت بين (أنكم) وبين خبرها بإذا"[2] .

ولقد تأثر ابن جنى بشيخه أبى على الفارسى فى هذه المسألة، فكان لا يستحسن التكرار إلا إذا كان اللفظ الثانى مخالفاً للأول ، ولا يستحسن التكرار بلفظ الأول إلا إذا كان الموضع للتفخيم والتعظيم مثل : ﴿القارعة ما القارعة﴾، ﴿الحاقة ما الحاقة﴾[3] بذلك يلتقى أبو على الفارسى مع الفراء ، ثم ابن جنى مع شيخه الفارسى .

ويتحدث أبو على الفارسى عن ذكر الخاص بعد العام ، وهو صورة من صور الإطناب المفيد أو الممدود مظهراً الفائدة العائدة من هذا الأسلوب فيقول : "وأما ما حكاه أبو بكر عن بعض من اختار القراءة بملك ، من أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شئ بقوله رب العالمين ، فلا فائدة فى تكرير

---

(١) المؤمنون : ٣٥ . (٢) معانى القرآن ـ الفراء ٢/ ٢٣٤ .
(٣) انظر : المحتسب ـ ابن جنى ٢/ ٢٦٣ ، ٤٥٣ ، ٣٠٥ ـ تحقيق / على النجدى ناصف والدكتور/ عبد الفتاح شلبى ـ القاهرة ١٩٦٩م.

ذكر ما قد مضى ، فإنه لا يرجّح قراءة ملك على مالك ، لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة قد تقدمها العام ، وذكر بعد العام الخاص ، كقوله : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[1] ثم قال : ﴿خلق الإنسان من علق﴾[2] فالذى وصف للمضاف إليه دون الأول المضاف لأنه كقوله : ﴿هو الله الخالق البارئ﴾ ثمّ خصّ ذكر الإنسان تنبيهاً على أدل ما فيه من إتقان الصنعة ، ووجوه الحكمة ، كما قال : ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[3] وقال : ﴿خلق الإنسان من علق﴾[4] وكقوله : ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾[5] بعد قوله : ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[6] والغيب يعم الآخرة وغيرها فخصوا بالمدح بعلم ذلك والتيقن له ، تفضيلاً لهم على الكفار المنكرين لها فى قولهم : ﴿لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم﴾[7] .[8]

وتبع أبا على الفارسى فى هذا الرأى ابن جنى حينما بين التكرار فى قوله تعالى : ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾[9] لا يكون جبريل وميكائيل داخلين فى جملة الملائكة وإنما قيل تشريفاً لهما[10] . وهذا ما أطلق عليه ابن قتيبة فيما بعد اسم "تكرار المعنى بلفظين مختلفين لإشباع المعنى والاتساع فى الألفاظ"[11] ، وكذلك ابن الأثير تحت عنوان التكرار فى معنى يدل على معنيين : خاص وعام[12] .

الحذف :

أما الحذف فقد كان أبو على يكتفى فيه بالنص على الحذف ويعين المحذوف مبينا السبب فى ذلك، وهو العلم به فقط دونما جنوح إلى شئ من التفصيل ، أو إظهار السّر البلاغى الذى أفاده الحذف .

---

(١) العلق : ١ .
(٢) العلق : ٢ .
(٣) الذاريات : ٢١ .
(٤) العلق : ٢ .
(٥) البقرة : ٤ .
(٦) البقرة : ٤ .
(٧) سبأ : ٣ .
(٨) الحجة : ١٣/١ .
(٩) البقرة : ٩٨ .
(١٠) انظر : المحتسب ٥٣/٢.
(١١) تأويل مشكل القرآن ــ ابن قتيبة ص٢٤٠ ــ شرحه / السيد أحمد صقر الطبعة الثانية عام ١٩٧٣م ــ دار التراث .
(١٢) المثل السائر ــ ابن الأثير ٢٧/٣ .

من أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿وقولوا للناس حُسْنًا﴾[1] حيث بين المحذوف فى الآية، وهو الموصوف على قراءة من قرأ «حَسَنًا» فكان المقدر هو قولاً حَسَنًا، يقول : "ومن قرأ «حَسَنًا» جعله صفة وكان التقدير عنده : قولوا قولاً حسنًا فحذف الموصوف، وحَسُن ذلك فى حَسَن ، لأنها ضارعت الصفات التى تقوم مقام الأسماء نحو : الأبْرَق والأبطح وعَبْد . ألا تراهم يقولون : هذا حَسَن ، ومررت بحسنٍ ، ولا يكادون يذكرون معه الموصوف ؟ "[2] .

ثمّ يزيد من الأمثلة فيقول : "ومثل فى حذف الموصوف قوله : ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلا﴾[3] أى : متاعاً قليلا . يدلك على ذلك قوله : ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[4] وقوله : ﴿لا يغرّنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل﴾[5] فَحَسُن هذا وإن كان قد جرى على الموصوف فى قوله : ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾[6] فكذلك يحسن فى قوله : ﴿وقولوا للناس حَسَنًا﴾[7] .

ومن أمثلة حذف الموصوف قوله : وأكثر الناس فيما علمت يذهبون إلى أن المعنى : " من الذين هادوا يحرفون الكلم "[8] أى : فريق يحرّفون الكلم ، فحُذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله : ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾[9] أى : آية يريكم فيها البرق [10].

فهو فى الشاهد الأول يبيّن أن الذى سوّغ حذف الموصوف ، أن هذه الصفات ضارعت الصفات التى تقوم مقام الأسماء ، وكذلك الحال فى المثال الأخير ، فالذى سوّغ حذف الموصوف ، هو أن الصفة قامت مقامه .

وحذف الموصوف " وإن كان القياس يكاد يحظره ، ولذلك فإنه يكثر فى الشعر وفى النثر ، لأن الصفة تكون إما للتخصيص وإما للمدح والثناء، وكلاهما من مقامات الإسهاب والإطناب ، لا من نطاق الإيجاز والاختصار ، وإذا كان كذلك لم يلق الحذف به ولا تخفيف اللفظ منه "[11] . هذا إن دلّ

---

(١) البقرة : ٨٣ .
(٢) الحجة : ١٠٣/٢ .
(٣) البقرة : ١٢٦ .
(٤) النساء : ٧٧ .
(٥) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٦) الشعراء : ٥٤ .
(٧) الحجة : ١٠٤/٢ .
(٨) النساء : ٤٦ .
(٩) الروم : ٢٤ .
(١٠) الحجة : ٢١/٢ .
(١١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ـ د/ عبد القادر حسين ص٢٩٨ ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة .

على شئ فإنما يدل على أن أبا على الفارسى كان دقيقاً فى تعبيره بلفظ "وحَسُن ذلك" وكأنه يشترط فيقول : يجوز حذف الموصوف، ويستحسن إذا قامت هذه الصفات مقام الأسماء .

وقد يكون الحذف للإيجار والاختصار عند أبى على الفارسى ، وإن لم يصرح بهاتين اللفظتين، لكنه يفهم من كلامه حينما يخرج الحذف فيقول : "وقد يكون لا يرجون الرجاء الذى خلافه اليأس ، كما قال : ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ أى : من الآخرة ، فحذف "من الآخرة" لتقديم ذكرها كما قال : ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾[1] فحذف المتأخر لدلالة ما تقدم عليه"[2].

ومنه حذف المضاف ، ومثل له بقول الهذلى :

يرمى الغيوب بعينيه ومَطْرِفُه مُغْضٍ كما كَسَفَ المستأخذَ الرَّمَدُ

وبين الحذف فقال : "كما كسف المستأخذ ، أى : عينَ المستأخذ ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه"[3]، وكقوله تعالى : ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[4] . فالمعنى : لمن يشاء شفاعته على إضافة المصدر إلى المفعول به الذى هو مشفوع له ، ثم حُذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه، فصار اللفظ لمن يشاء ، أى يشاء شفاعته[5].

ولا يزيد حديثه عن الحذف فى شتى صوره عن قوله أن فيه حذفاً ، وموطنه كذا أو أنه أقام المضاف إليه مقام المضاف (المحذوف) أو حذف للدلالة عليه دون أن يظهر السر البلاغى للحذف .

وهكذا الحال بالنسبة لحذف المفعول به فى قوله تعالى : ﴿مالك يوم الدين﴾[6] على قراءة من قرأ «مالك» فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف، فإنه حذف المفعول به من الكلام للدلالة عليه ، وإن هذا المحذوف قد جاء مثبتًا فى قوله : ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا﴾ . فتقديره : مالك يوم الدين الأحكام، وحَسُن هذا الاختصاص لتفرد القديم ـ سبحانه ـ فى ذلك اليوم

(١) إبراهيم : ٤٨ .
(٢) الحجة : ٢/ ٢١ .
(٣) الحجة : ٢/ ٦١.
(٤) النجم : ٢٦ .
(٥) الحجة : ٢/ ٣٩ .
(٦) الفاتحة : ٤ .

بالحكم[١]، وهذا من الإضافة اللفظية ، وهو أن تضيف المعمول إلى العامل كإضافة اسم الفاعل إلى الظرف .

ومما حذف من المفعول به فى التنزيل قوله تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾[٢] والتقدير : «ذوقوا العذاب» فاستغنى عن ذكره للعلم به، وكثرة تردده فى نحو: ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾[٣] ، ﴿ذوقوا عذاب النار﴾[٤]، ومن ذلك قوله : ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع﴾[٥] اى أناساً أو فريقا ، ومنه الحديث : «لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده» المعنى : ولا ذو عهد فى عهده بكافر ، كما كان التقدير فى الآية : والسموات غير السموات ، والمعنى : لا يقتل مؤمن بكافر حربى ، ولا ذو عهد فى عهده بكافر»[٦].

ولعل ما ذهب إليه أبو على الفارسى فى هذا كله أنه ردّد ما قاله سابقوه، وذلك لاتباعه الطريقة السائدة فى هذه الحقبة من الزمن حيث لم يكن الحذف عندهم يدل على أكثر من الاختصار والإيجاز ، ولم يتجاوز كذلك بحثهم فيه أكثر من كونه مباحث نحوية تقف عند موطن الحذف ونوعه كما مرّ معنا من شواهد سابقة . وهذا ما درج عليه كل من الفراء[٧] فى معانى القرآن ، وأبى عبيدة بن المثنى[٨] فى مجاز القرآن وهو قولهم : أن العرب تختصر الكلام حتى يخففوه لعلم المستمع بتمامه .

إلا أننا حينما ننظر فيما ذكره ابن جنى ـ تلميذ أبى على الفارسى ـ حول مسألة الحذف فأننا نجد هناك بوناً شاسعاً بينهما ، فيتفوق التلميذ على شيخه فى إعجابه بطرائق الحذف لما فيه من فصاحة وعذوبة، وأذكر على سبيل الاستشهاد لا الحصر مثالاً واحداً يؤكد ما نقول حينما يتحدث عن حذف المفعول به ثم نقارن بين قوله وقول شيخه لتتضح لنا الصورة فيقول : وعلى ذكر حذف المفعول فما أعربه وأعذبه فى الكلام ! الا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ووجد من

---

(١) الحجة : ١/ ٢٥ .
(٢) السجدة : ١٤ .
(٣) السجدة : ١٤ .
(٤) سبأ : ٤٢ .
(٥) إبراهيم : ٣٧ .
(٦) انظر : الحجة ١/ ٢٥،٢٦،٢٧.
(٧) انظر : معانى القرآن ـ الفراء ٢/ ٢١٩،٢٠٤ .
(٨) انظر : مجاز القرآن ـ أبو عبيدة ١/ ١١١ .

دونهم امرأتين تذودان﴾[1] تذودان إبلهما ـ ولو نطق بالمفعول لما كان فى عذوبة حذفه ولا فى علوه . . . وأن حذف المفعول لا يصدر إلا عن فصاحة عذبة . . ولا يركبه إلا من قوى طبعه وعذب وضعه"[2].

إن ما ذهب إليه ابن جنى وتفوق فيه على شيخه هو ماذهب إليه فيما بعد عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز إثر حديثه عن الحذف إذ يقول فيه : "هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بياناً إذا تُبن"[3] ثمّ يذكر نفس الشاهد الذى ذكره ابن جنى وهو قوله تعالى : ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ ثمّ يفصل القول فيه وهو يكشف عن أوجه البلاغة والفصاحة من حذف المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب[4].

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر :

التعبير عن الماضى بلفظ المضارع صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ، وكما فسر البلاغيون سبب هذا العدول ، إنما هو لغرض بلاغى وهو استحضار الصورة وتمثلها حتى نراها رأى العين ، فيكون ذلك أقوى أثراً لشدة التصاق الصورة وتعلقها بالنفس[5] .

ولا يفتأ أبو على الفارسى يتحدث عن هذه الصورة ، ويكتفى بأن ينبه على وقوعها، ويحدد موقعها مكتفياً بذلك دون أن يزيد شيئا، أو يكشف عن سرّ هذا التعبير .

ولقد مثل لهذه الصورة بقول الشاعر :

ولقد أمرّ على اللئيم يسبنى   فمضيت ثمّتَ قلت : لا يعنينى

---

(١) القصص : ٢٣ .

(٢) انظر : المحتسب ــ ابن جنى ١/ ٣٣٣ ، ٢/ ٢٠٢ ، ٣٣٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ــ عبد القاهر الجرجانى ص١٤٦ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ١٦١ .

(٥) انظر : أثر النحاة فى البحث البلاغى ص ١٤٩ ، فن البلاغة ـ د/ عبد القادر حسين ص٢٩٠ ــ دار المنار الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

فقال : "ألا ترى أنه مضارع، ومضيت ماضٍ ؟ فكما جاز عطف الماضى على المضارع . . . والمضارع فى البيت بمعنى المضى ، والمراد به : ولقد مررت فمضيت فجاز عطف الماضى على المضارع من حيث أريد بالمضارع المضى [1].

ولا يختلف أبو على فى تخريجه لهذه الصورة عن سابقيه ، ومن تأثر بهم أمثال الفراء فى كتابه معانى القرآن إذ يقول دون تعقيب : فلا بأس أن تردّ فَعَل على يفعل كما قال : "وقاتلوا الذين يأمرون" ، وأن تردّ يفعل على فعل، كما قال : ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله﴾[2] . . . "[3] وإن كان يقصد بكلامه ردّ يفعل إلى فعل أو فعل إلى يفعل التعبير عن المضارع بلفظ الماضى والعكس.

إلا أننا نجد هذه البذور الأولى التى تناولها أبو على الفارسى أسهمت فيما بعد فى تحديد الغرض البلاغى من وراء هذا الأسلوب على يد من جاء بعده أمثال ابن جنى وغيره حتى استقرت فيما بعد على ما وصلتنا إليه.

ويختلف الحال بين ما تحدث عنه أبو على الفارسى فى الصورة السابقة الذكر ، وبين ما تحدث عنه إثر ذكره صورة التعبير عن المضارع بلفظ الماضى ، حيث يفصح عن السّر البلاغى الذى يرمى إليه هذا الأسلوب ، كما استقر عليه اللاحقون من بعده .

ويمثل لذلك من خلال مناقشته فى تفسير قوله تعالى : ﴿ولو يرى الذى ظلموا إذ يرون العذاب﴾[4] فيقول : "فإن قلت : فكيف جاء (إذ) فى قوله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ﴾ وهذا أمر مستقبل ، و (إذ) لما مضى ؟ فالقول فيه : أنه إنما جاء على لفظ المضى لإرادة التقريب فى ذلك ، كما جاء: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾[5] ، ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾[6] فلما أريد فيها من التحقيق والتقريب جاء لفظ المضى[7] .

ويتضح جليا أن أبا على الفارسى فى شرحه وتبيانه لهذه الصورة يكشف

---

(1) الحجة : ٢/١٦٢ .
(2) الحج : ٢٥ .
(3) انظر : معانى القرآن ٢/٢٢١ ، ٢٢٥ .
(4) البقرة : ١٦٥ .
(5) النحل : ٧٧ .
(6) الشورى : ١٧ .
(7) الحجة : ٢/١٩٩ .

لنا عن الغرض البلاغى الذى أفاده هذا الأسلوب ، وهو تحقق وقوع الشئ ، ودفع الريب والشك عنه ، وأنه واقع لا محالة وهذا واضح فى قوله : "إنما جاء على لفظ المضى لإرادة التقريب فى ذلك" وقوله "فلما أريد فيها من التحقيق والتقريب جاء لفظ المضى" .

ثم يكثر أبو على الفارسى من ذكر الأمثلة التى يدعم فيها قوله ، منها قوله تعالى ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾[1] . ومما جاء على لفظ المضى للتقريب من حال قول المقيم المفرد : قد قامت الصلاة . يقول ذلك قبل إيقاعه التحريم بالصلاة لقرب ذلك من قوله ، وعلى هذا قول رؤبة :

أوديت إن لم تَحْبُ حَبْوَ المعتنك

فإنما أراد بذلك تقريب معاينة الهلاك وإشفاءه عليه، فأتى بمثال الماضى لما أراد به مشارفته له ، وجعله ساداً مَسَدّ الجواب من حيث كان معناه الاستقلال فى الحقيقة وأن الهلاك لم يقع بعد[2].

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر : التعبير عن الجمع بلفظ المفر ، والواضح لنا من خلال دراستنا لكتاب الحجة ، أن أبا على الفارسى فصل القول فيه ، فتارة يذكره ، ويوضح السّر فى إفراده من وجهة نظر النحويين دون التعرض لإظهار السّر البلاغى ، ويمثل له بقوله تعالى : ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه﴾[3] فأفراد الوجه والأجر، وإن كان فى المعنى جمعاً فى الموضعين ، وكذلك الحال بالنسبة للخطيئة فى قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾[4] فكذلك تكون خطيئته مفرده ، وإنما حسُن أن تفرد لأنه مضاف إلى ضمير مفرد ، وإن كان يراد بها الكثرة[5].

ثم ينتقل فى موطن فيذكر ذكراً عابراً أن المراد من هذا المفرد هو الجمع، ويكتفى بذلك ، فيقول فى قوله تعالى : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾[6] أى : معين، فالتقدير فيه الجمع واللفظ على الإفراد. وفى التنزيل : "وحسن أولئك

---

(١) الأعراف : ٥٠ .
(٢) الحجة : ١٩٩/٢.
(٣) البقرة : ١١٢ .
(٤) البقرة : ٨١ .
(٥) انظر : الحجة ٩٦/٢ ، ٩٧ .
(٦) التحريم : ٤ .

رفيقاً" (١) وقال رؤبة :

دعها فما النحوى من صديقها

أى : من أصدقائها (٢).

ومن أمثلته قراءة ابن كثير ﴿فدية طعامُ مسكين﴾(٣) فإن قلت : كيف أفردوا المسكين ، والمعنى على الكثرة ؟ ألا ترى أن الذين يطيقونه جمع، وكل واحد منهم يلزمه طعام مسكين ؟ فإذا كان كذلك وجب أن يكون مجموعاً كما جمعه الآخرون . فالقول : إن الإفرد جار وحسن ، لأن المعنى : على كل واحد طعام مسكين ، فهذا أفرد . واستشهد بقول أبى زيد : أتينا الأمير فكسانا كلنا حلّة ، وأعطانا كلنا مائة ، قال أبو زيد : معناه : كسا كلّ واحد منّا حلّة ، وأعطى كلّ واحد منّا مائة (٤).

وإذا ما دققنا النظر فى أقوال أبى على نلمس من كلامه أنه يتجه شيئاً فشيئاً نحو تحديد العلّة والسّر البلاغى الذى يفيده هذا الخروج عن مقتضى الظاهر حتى يكشف لنا وجه بلاغته فى قوله تعالى: ﴿وتصريف الرياح﴾(٥) إذ يقول: "والأبين فى قوله: "تصريف الرياح" الجمع، وذلك أن كل واحد من هذه الرياح مثل الأخرى فى دلالتها على الوحدانية، وتسخيرها لينتفع الناس بتصريفها، وإذا كان كذلك فالوجه أن يُجمع لمساواة كل واحدة منها الأُخرى فيما ذكرنا. وقد يجوز فى قول من وحّد أن يريد به الجنس، كما قالوا: أهلك الناس الدينار والدّرهم، وعلى هذا ينبغى أن يحمل التوحيد للريح، لأن كل واحدة منها مثل الأخرى فى موضع الاعتبار لها والاستدلال بها "(٦).

فأبو على الفارسى يظهر لنا العلة البلاغية فى وضع المفرد موضع الجمع، وهى أنه يجعل الجمع كنفس واحدة لشدة تماسكها واتصالها ، وهذا مما يعمل على عدم تفرقها وتمايزها ، وهذا ما ذهب إليه سيبويه من قبله ، وإن كان قد ذكر علّة أخرى يفيدها هذا الأسلوب وهى : التخفيف والاختصار(٧) . إلا أن

---

(١) النساء : ٩٦ .

(٢) انظر : الحجة ٢/١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) البقرة : ١٨٤ .

(٤) انظر : الحجة ٢/٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٥) البقرة : ١٦٤ .

(٦) الحجة : ٢/١٩٦ .

(٧) انظر : الكتاب ــ سيبويه ١/ ١٠٤ ــ الطبعة الأميرية .

أبا على تميز عن أبى عبيدة وابن قتيبة، لأنه ذكر العلّة من ذلك ولم ينحُ نحوهم فى إظهار أن هذا اللفظ مفرد وقصد به الجمع[1].

ولعل ابن جنى يتفوق نوعاً ما فى إظهاره علة ثانية لم يتعرض لها شيخه أبو على ، وهى إرادة التحقير والتصغير كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ثم يخرجكم طفلا﴾[2].

يقول : فحسن لفظ الواحد هنا ، لأنه موضع تصغير بشأن الإنسان ، وتحقير لأمره فلاق به ذكر الواحد لقلته عن الجماعة [3].

والالتفات صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وهو : "الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ ، بشرط أن يكون الضمير فى المنتقل إليه عائداً فى نفس الأمر إلى الملتفت عنه ، بمعنى أن يعود الضمير الثانى على نفس الشئ الذى عاد إليه الضمير الأول " [4].

وأبو على عندما يتناول الالتفات لم يفرد له حديثا مستقلاً ، وإنما تعرض لتحديده وذكره من خلال شرحه وتخريجه لبعض القراءات فى آيات الذكر الحكيم كقراءة حمزة والكسائى : ﴿ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة .... وما الله بغافل عما يعملون﴾[5] على لفظ الغيبة "ويجوز فيما كان قبله لفظ غيبة الخطاب. ووجه ذلك أن تجمع بين الغيبة والخطاب فتغلب الخطاب على الغيبة ، لأن الغيبة يُغلّب عليها الخطاب ، فيصير كتغليب المذكر على المؤنث . ألا ترى أنهم قد بدأوا بالخطاب على الغيبة فى باب الضمير ، وهو موضع يُرد فيه كثير من الأشياء إلى أصولها نحو : لك، ونحو قوله :

فلا بكِ ما أسالَ ولا أُغاما

---

(١) انظر: مجاز القرآن ١/ ١٣١، ٢/ ٤٤ ، ١٩٥، وانظر: تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤.

(٢) الحج : ٥ .

(٣) انظر : المحتسب ٢/ ٨٧، ٢٦٢.

(٤) انظر : الإيضاح : ٧١ ، والتلخيص ٩٤ ، ومعجم المصطلحات البلاغية ١/ ٢٩٤، ٣٠٣ ، وفن البلاغة ٢٨٠ .

(٥) البقرة : ٧٤ .

فلما قدّموا المخاطب على الغائب فقالوا : أعطاكَهُ ولم يقولوا : أعطاهوكَ علمت أنه أقدم فى الرتبة كما أن المذكر مع المؤنث كذلك ، فإذا كان الأمر على هذا أمكن فى الخطاب فى هذا النحو أن يُعنى به الغيب والمخاطبون، فيغلّب الخطاب على الغيبة ، ويكون المعنى : ما الله بغافل عما تعملون ، فيجازى المحسن على إحسانه ، والمسئ على إساءته"[1].

ثم يخرج الشاهد نفسه على أن يكون انتقال من الغيبة إلى الخطاب ، فيقول : ويجوز فى الخطاب بعد الغيبة وجه آخر ، وهو أن يراد به قُلْ لهم أيّها النبى : ﴿وما الله بغافل عمّا تعملون﴾ [2].

كلام أبو على هذا بيان لحقيقة الالتفات اللغوية ، أما تعريفه تعريفاً اصطلاحياً كما عرفه اللاحقون بعده ، فهذا ما لم يتعرض له . لكننا من كلامه السابق يمكننا أن نقول إنه يرى أن الالتفات هو نقل الكلام من حالة إلى أخرى كنقله من الخطاب إلى الغيبة ، أو العكس ، ثم يُطلق عليه اسم التغليب ، لقوله : فتغليب الخطاب على الغيبة ، لأن الغيبة يغلب عليها الخطاب فيصير كتغلب المذكر على المؤنث . وكأنه بكلامه هذا لا يفرق بين التغليب الذى عرفه البلاغيون بقولهم : "إعطاء الشئ حكم غيره ، أو ترجيح أحد المغلوبين وذلك، بأن تطلق عليهما لفظاً واحداً إجراءاً للمختلفين مجرى المتفقين[3] . وبين الالتفات الذى ذكرنا تعريفه فى بداية حديثنا عن الالتفات ، والذى تمّ ضبطه بالتعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة وهى : التكلم والخطاب والغيبة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها .

رغم كل هذا فإن أبا على فى تخريجه للالتفات بيّن السّر الذى أفاده الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو بمعنى آخر : تقديم الخطاب على الغيبة إنما كان لغرض بلاغى وهو : "قُدّم لتقدمه فى الرتبة كما أن المذكر مع المؤنث كذلك" ولشدة العناية والاهتمام به لقوله : "فإذا كان الأمر على هذا أمكن فى الخطاب فى هذا النحو أن يُعنى به". وهذا يندرج تحت أهم الأغراض البلاغية

(١) الحجة : ٢/٩٢ ، ٩٣ .

(٢) الحجة : ٢/٩٣ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن ـ الزركشى ٣/٣٠٢ . وانظر شروح التلخيص ـ التفتازانى ٢/٥١.

التى يخرج إليها التقديم والتأخير، وهذه قضية ثالثة تظهر لنا، وهى: أن الالتفات عند أبى على الفارسى يرتبط ارتباطاً وثيقا بالتغليب وكذلك التقديم والتأخير.

ومن الشواهد التى يذكرها أبو على الفارسي ذكراً عابراً دون شرح لطرق الالتفات[1] : قوله : الانصراف من الغيبة إلى الخطاب أو العكس ، كما قال: ﴿الحمد لله﴾[2] ، ثم قال : ﴿إياك نعبد﴾[3] ، وقال : ﴿وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المُضْعِفون﴾[4] ، وكقوله تعالى ﴿حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم﴾ [5].

ثانيا : ما أورده من فنون تتعلق بعلم البيان :

لقد اتضح لدينا من خلال نظرنا فى كتاب الحجة ، أن أباعلى الفارسى تعرض لذكر جميع مسائل علم البيان : التشبيه ، والكناية ، والمجاز ، والاستعارة لكنّه لم يحدّد مُسَمَّياتها الاصطلاحية كما استقرت عند المتأخرين ، وإنما يكتفى بأن يقول إنه تشبيه ، أو شبه كذا بكذا أو أنهم كنو عنه بكذا . وسنعرض الآن لكل مسألة على حدة حتى نبين جهد أبى على فيها أو رأيه إن كان قد جاء بجديد لم يسبق إليه .

أولا : التشبيه :

ذكر أبو على الفارسى التشبيه فى كتابه الحجة فى مواضع عدّة ، فتارة يقول أنه تشبيه وحسب دونما تعليق أو تبيين لمعناه أو أركانه أو الغرض منه ، كما نراه عندما أراد أن يبين ، المراد بالظهار فقال : "ومعنى الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمّى ، أو يشبهها بعضو منها غير الظهر مما يحرم على الرجل"[6] .

إلا أنه فى موطن آخر يُطيل الشرح فى تخريجه للشاهد بطريقة توضح معالم التشبيه ، مع تدعيمه لما يقول بشواهد أخرى موضحة ، ففى تفسير قوله تعالى : ﴿كأنما يصعد فى السماء﴾[7]. يقول : فالمعنى : أن هذا الضّيق الصدر

---

(١) انظر : الحجة ٢/ ٢٥٠ ، ٢٩١ .
(٢) الفاتحة : ٢ .
(٣) الفاتحة : ٥ .
(٤) الروم : ٣٩ .
(٥) يونس : ٢٢ .
(٦) الحجة : ٢/ ١٠٩ .
(٧) الأنعام : ١٢٥ .

عن الإسلام نهاية الضيق إذا دُعى إلى الإسلام ، من ضيق صدره منه ونفوره عنه ، وعن استماع الحكمة كأنه يراد على ما لايقدر عليه : من مصعد فى السماء أو حمل على ما يشبهه من الامتناع " (١).

فهو بهذا يظهر لنا بطريقة فيها شئ من التفصيل صورة المشبه ، ثم بعد ذلك صورة المشبه به ليقرب لنا تصور المعنى الذى يربط بينهما ، وكأنه هنا شبه الكافر فى ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء(٢) .

إلا أنه يفصل فيه القول بطريقة أكثر وضوحاً خاصة حينما يضع هذا التشبيه الموجود فى الآية ضمن الأمثال ، إذ يقول : "فهذا كلام كالمثل ، أى من يستحق الإضلال عن الثواب يجعل صدره ضيقاً فى نهاية الضيق لما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقادات بدلالة قوله تعالى : ﴿ولهم قلوب لا يفقهون بها﴾(٣). فوصفه بالضيق وأنه على خلاف الشرح والانفساح دل أنه لا يعى علماً ولا يستدل على ما أريد له ودعى إليه كما وصف الجبان بأنه لا قلب له لما أريد به المبالغة فى وصفه بالجبن، لأن الشجاعة محلها القلب، فإذا لم يكن القلب الذى يكون محل الشجاعة لو كانت فألا تكون الشجاعة أولى، فكذلك وصف من بَعُد عن قبول الإسلام بعد الدعاء إليه وإقامة الحجة عليه بأنه مطبوع على قلبه وضيّق صدره وقلبه فى كنان وفى غلاف" (٤).

وأبو على حينما يجعل هذا النوع من التشبيه كالمثل ، كأنه أراد أن يبين لنا أن المثل فى القران الكريم الذى أراده الله سبحانه وتعالى يشتمل على عدد من الخصائص منها : الدقة والواقعية ، وهذا يتمثل فى ضربه للشواهد المدعمة التى ذكرها ، ومنها : التأثير النفسى ، لأن الأمثال القرآنية تستمد عناصرها من الكون والحياة والإنسان حتى تبقى قريبة منه ، وهذا واضح جلي فيما قدم وقال، ومنها : الترغيب والترهيب .

أما إذا أردنا أن نربط بين التعريف الاصطلاحى للتشبيه ، والتعريف الاصطلاحى للمثل عند البلاغيين حتى نكشف فى النهاية عن تحديد مفهوم أبى على الفارسى لهما هل يتفقان ؟ أم يفترقان ؟ أم أنه ماذا يقصد بقوله : كلام كالمثل ؟

---

(١) الحجة : ١ / ٢٣٠ .

(٢) فتح القدير ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

(٤) الحجة : ١/٢٢٧ ، ٢٢٨ .

فالتشبيه اصطلاحا : هو مشاركة أمر لأمر فى معنى بأداة ظاهرة أو مقدرة، **والمثل فى الاصطلاح** : اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة ما بين مضربه ومورده ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى[(١)].

وبالمقارنة يتضح لنا أن تعريف المثل قريب أو يشبه تعريف البلاغيين للاستعارة ، فهل ياترى قصد ذلك أنه يفرق بينهما ؟ أم أن الاثنين ـ الاستعارة والتشبيه ـ عنده بمفهوم واحد ؟

نقول : لعله قصد هنا : أن هذا من المثل القياسى ، الذى يعتبر أحد أنواع المثل ، وهو سرد وَصْفى أو قصصى أو صورة بيانية لتوضيح فكرة معينة عن طريق التشبيه والتمثيل [(٢)]. ولعل ما أراده أبو على من قوله (كمثل) لذكره أثناء الشرح ما يوحى بذلك وهو قوله : (فوصفه بالضيق . . .) و (فكذلك وصف . . .) و (المبالغة فى وصفه بالجبن) .

وفى موطن آخر يتعرض فيه أبو على لذكر التشبيه دون أن يفرق بين تشبيه ، وتشبيه ، فيتحدث عن التشبيه البليغ ولا يذكره باسمه ، وتارة يشبه بالاستعارة ، ويطلق عليه التشبيه ، وأخرى يكثر من الأمثلة لتدعيم ما ذكره سابقاً وتكون هذه الأمثلة خلاف البليغ والاستعارة يعنى تشبيه مذكور فيه الأداة. وكأنه فى موقفه هذا لا يفرق بين تشبيه بليغ أو استعارة أو مجاز ، لأنها كلها عنده من المجاز .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين﴾[(٣)] فقوله : بيضاء مثل قوله : ﴿قواريراْ قوارير من فضة ﴾[(٤)] ، أىّ قوارير كأنها فى بياضها من فضة[(٥)]. وهذا يشبه ما ذهب إليه الفراء لقوله :

(١) الأمثال فى القرآن الكريم ــ سميح عاطف الزين ص١٢ ــ دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت ١٩٨٧م.

(٢) المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٣) الصافات : ٤٦ .

(٤) الإنسان : ١٥ ، ١٦ .

(٥) الحجة: ٢١٨/١ . ننبه هنا وفى تخريجه للتشبيه أن أباعلى أشار بعبارات خالف رأى السلف وجمهور المفسرين وفى قوله (فهذا على التشبيه لا على أن القوارير من فضة) وهذا كلام يخالف عقيدة أهل السلف وهو رأى معتزلى بنفيه أن تكون القوارير من فضة .

كانت كصفاء القوارير وبياض الفضة فاجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة[1]. وهو نفس ما ذكره الشوكانى فى تفسيره[2].

وقد عقب أبو على الفارسى بأمثلة كثيرة بغية توضيح الشاهد وإظهار الفن البيانى فيه ، فيقول :

حلبـــانـةٍ ركبانةٍ صَفُوفِ   تخلــط بين وبَرٍ وصــوف

أى : كأن يديها فى إسراعها فى السير يدا خالطةٍ وبراً بصوفٍ ، فالمعنى على التشبيه وإن لم يذكر حرفه[3]. وهذا التعبير يفيد معنى الاستعارة فى الشاهد، وقصد بقوله : (فالمعنى على التشبيه) لأن الاستعارة أصل مبناها يقوم على التشبيه ، وكان أبا على الفارسى فى استشهاده بهذ البيت وما تبعه من شرح وتوضيح اطلع على قول الشاعر :

أرى الشهباء تعجِنُ إذ غدونا   برجليها وتخبز باليــدين

حينما شبه حركة رجليها بحركة يدى العاجن فى الانزلاق وعدم الاستقرار ، وهو من الاستعارة .

ثم يذكر أمثلة أخرى حتى يكمل توضيح شاهده الأول إذ يقول : وقال:

فهنّ إضاء صافيات الغلائل

ومثله قوله تعالى : ﴿ختامه مسك﴾[4] وقوله تعالى : ﴿كان مزاجها كافورا﴾[5] والمعنى فيها أنها فى طيب الرائحة وسطوعها وأرجها كأرج المسك والكافور . . . . ومثل تشبيهها بالزنجبيل فى الآية للذاذة المطعم قوله :

كأنّ القَرنْفُلَ والزنجبيـــــــ   ـــل باتا بفيها وأرْيا مشوراً

فهذا يريد به طيب الطعم ؛ لذكره مع ما يُطْعَم[6].

وهنا يختلف ما استشهد به كل ما تقدم من أمثلة ، إذ أن الشواهد المذكورة تعبر من التشبيه البليغ فى قوله "ختامه مسك" وفى قول الشاعر : (فهنّ اضاءٌ. . .) والمشبه به فيهما جاء نكرة ، وكأن أباعلى الفارسى فى هذا

---

(١) معانى القرآن : ٢/ ٢١٧ .

(٢) انظر : فتح القدير ٥/ ٣٥٠ .

(٣) الحجة : ١/ ٢١٨ .

(٤) المصطفين : ٢٦ .

(٥) [illegible]

(٦) الحجة : ١/ ٢١٨ .

يعتبر التشبيه البليغ من المجاز أو الاستعارة كما بيّن بعده هذا الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه / أسرار البلاغة حينما فرّق بين التشبيه البليغ الذى يذكر فيه المشبه به فقط ويكون نكرة ، إذ أنه أجاز لنا أن نعتبره من الاستعارة وذلك لجواز دخول بعض أدوات التشبيه ، وعدم جواز البعض الآخر ، وهذا ما يجوز فيه الأمران ، وإن كان الأرجح عدّه من التشبيه البليغ . وهو بخلاف ما لو كان المشبه به معرفة، فإنه فى هذه الحالة لا يكون إلا تشبيهاً بليغاً[1].

من خلال ذلك كلّه يتضح لنا أمور عدّة وهى :

أولا : لم يحدد أبو على الفارسى مفهوماً واضحاً للتشبيه وللاستعارة وللمجاز ، وإنما يفهم من كلامه وشرحه أن مبنى كل منها يقوم على التشبيه.

ثانيا : اعتبر أبو على الفارسى الاستعارة ، والتشبيه البليغ من المجاز ؛ لأنه يعتبر أكثر الكلام من المجاز ، وكأنه لا يفرق بينهما.

ثانيا : المجاز :

وقد كان لأبى على الفارسى أثر كبير فى اللاحقين بما ذكره فى المجاز . ومن خلال حديثه عنه نتبين أنه تحدث فقط عن المجاز العقلى ، وإن لم يسمّه بهذا الاسم أو يحدد له اسمًا آخر ، وقد بين أن المجاز العقلى يقوم على الإسناد ، وهو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى وبذلك يكون المجاز العقلى عنده كما استقر الأمر عليه عند المتأخرين فى تعريف المجاز العقلى .

ولقد مثل لذلك بمجموعة من الشواهد ، ومنها ما أنشده بعض البغداديين:

فإن تنطق الهجراء أو تَشْرَفى الخنى   فإن البغاثَ الأطحل اللون ينطقُ

فأسند إلى البغاث النطق [2].

ومنه ، قوله تعالى : ﴿الحج أشهر معلومات﴾[3] قال : "تقديره :

---

(1) انظر : أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجانى ـ جـ٢،ص١٨٢ وبعدها ، شرح وتعليق/ محمد عبد المنعم خفاجى ـ مكتبة القاهرة ـ الطبعة الثانية عام ١٩٧٦م .

(2) الحجة : ٢/ ٣٣ .   (3) البقرة : ١٩٧ .

أشهرُ الحج أشهر معلومات ، فحذف المضاف ، أو يكون الحج حجّ أشهر معلومات ، فحذف المصدر المضاف إلى الأشهر ، وعلى هذا :

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار

أو يكون جعلَ الأشهرَ الحجّ لما كان الحج فيها ، كقولهم : ليلٌ نائمٌ ، فجعل الليل النائم لما كان النوم فيه . وأشهر الحجّ : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة "(1) .

فهو بهذا يبين لنا أن الكلام فيه مجاز عقلى ، فلما كانت السرقة فى الليلة جعلها مسروقة على سبيل المجاز العقلى وعلاقته الزمانية ، وهكذا بالنسبة للحج ، أطلق على الأشهر الحج لما كان الحج يؤدى فيها ، وكذلك الحال بالنسبة لقوله : ليل نائم ، فجعل الليل النائم لما كان النوم فيه وقته .

وكقول الشاعر :

إذا فضّت خواتمها وفكّت ... يقال لها دم الودج الذبيح

يُخرّج المجاز فيه بقوله : "فوصفت الدم بالذبيح فليس يريد بالذبيح المذبوح الذى تُفرى أوداجه ويُنهر دمه ، وإنما إراد بالذبيح : المذبوح ، أى المشقوق .....

وقالوا : أخذه الذّباح وهو ـ فيما زعموا تشقق يكون فى أظفار الأحداث أو أصابعهم . فالذبح : الشق . وقيل لما يذكى الذبيحة : ذَبح ؛ لأنه ضرب من الشق ؛ فقالوا : ذبحت الشاة . وذُبحت البقرة . وقالوا فى الإبل : نَحَرْتُ ، لما كانت توجأ فى نحورها . فوصف الدم ذبيح ، والمعنى أن الدم مذبوح له كما أن قوله «بدم كذب» (2) معناه: مكذوب فيه ، وليل نائم أى نيام فيه ؛ وكذلك نهار صائم(3) .

ثمّ يبين فى موطن آخر أن المجاز قد يُعدل إليه عن الحقيقة لمعان منها: الاتساع كما فى قوله تعالى : ﴿فسالت أودية﴾(4) فيقول : وهذا اتساع ، والمراد فى : سال الوادى وجرى النهر : جرى مياههما ، فحذف المضاف ،

---

(1) الحجة : ٢/ ٢١٣ .

(2) يوسف : ١٨ .

(3) الحجة : ١/ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(4) الرعد : ١٧ .

وكذلك قوله : «بقدرها» أى بقدر مياهها ، ألا ترى أن المعنى ليس على أنها سالت بقدر أنفسها ؟ لأن أنفسها على حال واحدة ، وإنما تكون كثرة المياه وقلتها وشدة جَرْيها ولينه على قَدَرِ قِلّة المياه المُنَزّلة وكثرتها[1] .

فالمجاز العقلى فيما ذكره فى هذا الشاهد علاقته المكانية ، فهم هذا من شرحه وتفصيله القول فيه ، هذا بالإضافة إلى المعنى الذى أفاده هذا الأسلوب وهو الاتساع .

ولقد سار على خطى أبى على الفارسى ، ابنُ جنى حين بيّن أن المجاز يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهى : الاتساع والتوكيد والتشبيه [2]، فى شرحه لقوله تعالى : ﴿**واسأل القرية التى كنّا فيها**﴾ [3].

وإذا ما دققنا النظر ، وأمعنا الفكر فيما تقدم ذكره فإنه يتضح لنا :

أن أباعلى الفارسى ضبط تحديد المجاز العقلى حينما جعله يقوم على الإسناد، ويفيد معنى الاتساع كما بيّنا ، وهذا ما استقر عليه المتأخرون.

ثالثا : الاستعارة :

وفى حديثه عن الاستعارة ، نجد أنه قد تعرض لذكرها مرّة ذكراً عابراً بقوله : (فاستعارة) دونما تحديد أو تبيين لمفهومها ، ثمّ يفصل فيها الحديث تارة أُخرى دون أن يذكر أنها اسعارة .

ولكى نوضح ما سبق ذكرهُ حتى يتضح لنا رأيه فيها سنعرض بعضًا من الشواهد والأمثلة الموضحة لذلك مثل قوله فى قول الهذلى :

فأزال خالصها بأبيضَ ناصحٍ — مِنْ ماءِ ألهابِ بهنّ التألَبُ

إذ يقول : "فهذا على ضربين : أحدهما : أن يريد أزال خلوصَ خلوصها بماء أبيضٍ شاب هذه العسل به ، فحذف المضاف ، . . . والخالص من الماء : الأَبيض الصافى، فاستعارهُ للعسل ؛ لأنهم يصفونها بالبياض"[4] ، ولم يذكر فيه أكثر من قوله : استعارهُ للعسل .

وهذا بخلاف ما ذكره فى شرحه لقوله تعالى : ﴿**فإن زللتم من بعد ما**

---

(1) الحجة : ٢/٢٥٦ .

(2) انظر : الخصائص ٢/٤٤٧ .

(3) يوسف : ٨٢ .

(4) الحجة : ٢/١٣ .

جاءتكم البينات ... ﴾[1] ، إذ يقول : "فيحتمل وجهين: أحدهما : زللتم من الزّلّة ، كأن المعنى : فإن صيرتم ذوى زلّة . ويجوز : أن يراد به العثار ، فشبه المعنى بالعين ، فاستعمل الذى هو العثار ، والمراد به الخطأ وخلاف الصواب"[2] .

وكأن أبا على الفارسى فى تحليله هذا يبين لنا أن قوله تعالى ﴿زللتم﴾ تحتمل الاستعارة لأنها تتضمن التشبيه ، وهو تشبيه المعنى بالعين ، أى : المرئى بالمرئى فـ «أصل الزلل فى القدم ، ثم يستعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك ، والمعنى : ضللتم وعجتم عن الحق »[3] .

وأما قوله : "فاستعمل الذى هو العثار ، والمراد به الخطأ وخلاف الصواب" فهو ما ذُكر فيما بعد بتحديدهم للاستعارة بقولهم : "لفظ استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع عدم جواز إرادة الأصلى لوجود قرينة مانعة من ذلك" . وهذا ما نفهمه من كلام أبى على .

ومن كل ماتقدم نستطيع القول بأن أباعلى الفارسى أسهم فى تحديد مفهوم الاستعارة إذ لم يكتف بأن يقول : هذا استعارة دونما توضيح كما فعل أبو عبيدة فى مجاز القرآن، وإنما بالإضافة إلى ذكره لفظه الاستعارة بيّن أن هذه الاستعارة تقوم على التشبيه ، وهذا واضح فى تخريجه للتشبيه فى الآية السابقة، هذا بالإضافة إلى استعمال الكلمة فى غير ما وضعت له . وهو بهذا يكون قد أسهم فى تحديد مفهومها ، شأنه شأن الفراء فى ذلك .

أما الكناية فقد تعرّض لذكرها فى مواطن عدة من كتابة الحجة ، ولو استعرضنا بعضاً من الأمثلة التى ذكرها أبو على ، وقصد بها الكناية ، لوجدنا أنه أسهم فى تحديدها إسهاما ملموسا ، كما استقر عليها المتأخرون فضبطوها بقولهم : "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ" [4] .

ففى قوله تعالى : ﴿وإذا مرّوا باللغو مروا كراما﴾[5] يقول : "فيجوز أن

---

(١) البقرة : ٢٠٩ . (١) الحجة : ٢/ ١٤ .

(٣) المحرر الوجيز ــ ابن عطية ٢/ ١٩٩ . وانظر : الفتح القدير ــ ١/ ٢٦٠ .

(٤) الإيضاح ــ القزوينى ص ٤٥٦ ــ دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت .

(٥) الفرقان : ٧٢ .

يكون المعنى: إذا مرّوا بأهل اللغو ، أو ذوى اللغو مرّوا كراماً فلم يجاروهم فيه، واجتنبوهم فلم يخوضوا معهم ، ويجوز أن يكون مثل قولك : مرّت بى آية كذا ، ومررت بسورة كذا ، أى : تلوتها وقرأتها ، أى إذا أتلوا على ذكر ما يستفحش ذكره كنَوْا عنه ولم يصرحوا" [1]. وكأنه قصد بالكناية التعريف اللغوى لها ، وهو ترك التصريح بالشئ ، لغرض وهو الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره . ولعلّه فى قوله هذا تأثر بما قاله المبرد حينما قسم الكناية إلى ثلاثة أقسام الثانى منها ما ذهب إليه أبو على الفارسى [2].

لكن ترك التصريح أو الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش عند أبى على الفارسى لم يكن على إطلاقه ، وفى كل موقف ، وإنما جعل لكل مقام مقالاً فلا مانع من التصريح به إذا كان الحال يقتضى ذلك لقوله : "فإذا كان الحال يقتضى التبيين ، فالتصريح أولى كما روى من التصريح فى قصة ماعز" [3]، وكما روى : "من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعِضّوه بهَنِ أبيه ولا تكْنوا" [4].

ولو دققنا النظر فى موطن آخر من كتابه ، لتبين لنا أن أباعلى الفارسى يذكر أحد أقسام الكناية بتفصيل كامل ، ويزيد فى الأمثلة ليوضح نوعها ، وهى الكناية عن نسبة ، وإن لم يذكرها بهذا الاسم إلا أن المعني المذكور يقصدها بعينها .

فمنه قوله تعالى : ﴿ولهم فيها أزواج مطهّرة﴾ [5] يقول : "فوصفهنّ بالطهارة يحتمل أمرين : يجوز أن يكُنّ تطهّرنَ مما يكون فيهن من الحيض ، ونحوه من الأقذار . ويجوز أن يكُنّ مُطهّرات من الأخلاق السيئة لما فيهن من حُسن التّبعل ، ودل على ذلك قوله ﴿فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً﴾ [6] وانشد يعقوب وثعلب :

وبالبشر قتلى لم تُطهّر ثيابها

---

(١) الحجة : ٢/ ٢٦٧ .

(٢) الكامل ــ المبرد ٢/ ٦٧٤ ــ مكتبة المعارف ــ بيروت .

(٣) ماعز بن مالك الأسلمى، اعترف على نفسه بالزنا ، تائبًا منيًا ، وكان محصناً فرجم.

(٤) الحجة : ٢/ ٦٢٨.

(٥) البقرة : ٢٥ .

(٦) الواقعة : ٣٦ ، ٣٧

وفسراه بأنه لم يُطلب بثأرهم ، ووجه ذلك أنهم إذا قتلوا قتيلا قالوا : دمُه فى ثوب فلان ، يعنون : القاتل [1]. فقوله : يعنون القاتل ، هو نسبة القتل إليه لا مباشرة ، وإنما بنسبته أولاً إلى ثيابه . وهذا ما عبّر عنه ابن الزملكانى بقوله : "أن يأتوا بالمراد منسوباً إلى أمر يشتمل عليه من هى له حقيقة" [2].

ويكثر أبو على من الشواهد فى هذا القسم فيقول: وعلى هذا قول أوس:

نُبئتُ أنّ دَمــاً حــراماً نِلــتَه ... وهُرِيقَ فى بُرْدٍ عليك مُحبّرِ

وقال أبو ذؤيب :

تبرأَ من دمّ القتيــل وثــوْبه ... وقَدْ علقَتْ دمّ القتيل إزارها

قال قتادة : كانوا يقولون للرجل إذا نكث ولم يُوفِ بالعهد : دنِس الثياب ، فإذا أوفى أو أصلح قالوا : طاهر الثياب [3].

ومما سلكوا فيه هذا المسلك على حدّ تعبير أبى على قوله :

وقد لبست بعد الزبير مجاشعٌ ... ثياب التى حاضت ولم تغسل الدّما

وكذلك قوله :

ثياب بنى عوفٍ طهـارى نقيّة ... وأوجههـم بيـضُ المســافر غُرّانُ [4]

يريد : أنهم لا يأتون ما يقال لهم فيه : دنسوا الثياب ، وكذلك قوله : وأوجههم بيض المسافر ، يريد : أنهم لا يرتكبون ما يدنس الثياب ، ويسود الوجوه [5].

فإذا تأملنا قوله هذا نجدُ أنه يُطنب إطنابًا ممدوحاً للكشف عن القسم من أقسام الكناية ، الذى ذكره البلاغيون من بعده ، وإن لم يجاروه فى كثرة الشواهد ، وهذا ما قاله القزوينى تحت قسم الكناية عن النسبة : "كقول زياد

---

(١) الحجة : ٢/٢٤٦ .

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ــ ابن الزملكانى ــ ص١٠٥ .

(٣) الحجة : ٢/٢٤٧ .

(٤) طهارة : جمع طهير ، وغران : أشرف ، جمع اغر ، ويجمع ايضاً على غُر .

(٥) انظر : الحجة : ٢/٢٤٧ .

الأعجم :

إن السماحة والمـــروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فإنه حين أراد أن يصرح باثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها فى قبّة تنبيهاً بذلك على أنّ محلّها ذو قبّة ، وجعلها مضروبة عليه ، لوجود ذوى قباب فى الدنيا كثيرين ، فأفاد إثات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظيره قولهم : "المجد بين ثوبيه ، والكرم بين بُرْدَيه"(١).

وكما أدلى أبو على بدلوه فى الحديث عن الكناية ، وتوضيح قسمها الثالث : الكناية عن نسبة . فقد أسهم كذلك فى توضيح التعريض من جهة اللغة حينما جعله خلاف التصريح ، وكذلك تحدث بكلام كان له صلة بالمفهوم الاصطلاحى للتعريض فيما بعد ، وسنعرض بعضًا من الأمثلة لكى نربط بين كلامه وما استقر عليه المتأخرون فى تعريفهم له . يقول فى تفسير قوله تعالى ﴿أحلّ لكم ليلة الصيام الرّفثُ إلى نسائكم﴾ (٢) ومن الرفث التعريض بذكر الجماع، ثمّ يذكر تفصيلا آخر فيقول : "جعل الرفث المذكور فيما روى عطاء عنه فى قوله : ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ أنه غير الرفث المذكور فى قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ فقال فى قوله : ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ من الرفث العريض بذكر الجماع . وينبغى أن يكون مراده بذكر الجماع مع النساء ، ويؤكد ذلك قوله : التعريض بذكر النساء ،« والتعريض يقتضى معَرّضًا له ، وإنما تأولناه على مراجعة النساء الحديث بذكر الجماع دون اللفظ به غير مراجعتهن»(٣).

فهو بكلامه هذا يحدد تعريف التعريض الاصطلاحى حينما يقول : "التعريض يقتضى مُعَرّضًا له" ، وهذا ما ذكره أبو على : "تأولناه على مراجعة النساء الحديث بذكر الجماع دون اللفظ به من غير مراجعتهن" . ولقد حدده العلوى فى الطراز بقوله : "إنه اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى"(٤).

---

(١) الإيضاح ـ القزوينى ص٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(٣) الحجة : ٢١٩ .

(٤) الطراز ـ العلوى ١/ ٣٨٠ .

ومن ثمّ يتضح أن أباعلى الفارسى فى حديثه عن الكناية والتعريض كان له دور فى تحديد الكناية ، خاصة عن نسبة ، والتعريض كذلك كما نفهمها نحن اليوم . وبهذا يكون قد ترك بصمات أسهمت فى تاريخ البلاغة وضبط المصطلحات منها الكناية والتعريض .

ثالثا : ما أورده من فنون تتعلق بعلم البديع :

بعد أن تناولنا الفنون التى تتعلق بالمعانى والبيان كما سبق ذكره ، وإذا ما قمنا بمقارنة فنون البديع فإننا سنجد بونًا شاسعًا إذ أن أباعلى لم يكثر من ذكره للمحسنات البديعية ، غير أنه ذكر منها : الطباق ، والمشاكلة ، والتجريد .

أما بالنسبة للطباق فقد ذكره ذكراً عابراً فى تخريجه لقراءة حمزة فى قراءته : ﴿ **فأزالهما الشيطان عنها** ﴾[1] إذ يقول : أن قوله : ﴿ **يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها**﴾[2] تأويله : اثبتا فثبتا ، فأزلهما الشيطان ، فقابل الثبات بالزوال الذى هو خلافه[3] . فقال : قابل الثبات بالزوال الذى خلافه وهو ما قصد به أخيراً : الجمع بين المتضادين .

وفى حديثه عن المشاكلة ، يذكر منها : المشاكلة بين الحروف كما فى قوله تعالى : ﴿ **فيه هدى** ﴾[4] إذ يقول : "أما كسر الهاء مع أن أصلها الضم فمن أجل الياء أو الكسرة اللتين تقعان قبلها ، والهاء تشبه الألف لموافقتها لها فى المخرج من الحلق ، ولما فيها من الخفاء ، فكما نحوا بالألف نحو الياء بالإمالة من أجل الكسرة أو الياء كذلك كسروا الهاء للكسرة والياء ؛ وذلك حسن ليتجانس الصوتان ويتشاكلا . ألا تراهم كيف اتفقوا فى اصطبر وازدجر وازدان على الإبدال من تاء الافتعال حرفاً مجانساً لما قبله من الحروف فى الإطباق والجهر ، فيحسب اتفاقهم فى هذا الموضع على ما ذكرت لك طلباً لتشاكل الحروف[5] . وكأنه قصد بقوله : "ليتجانس الصوتان ويتشاكلا طلباً الحروف" تحديد المعنى اللغوى للجناس والمشاكلة فهما يلتقيان فى ذلك .

ثمّ يبين فى موطن آخر المفهوم الاصطلاحى للمشاكلة مدعماً له بالشواهد

---

(١) البقرة : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٣٥ .
(٣) الحجة : ٢/ ١٠ ، ١١ .
(٤) البقرة : ٢ .
(٥) الحجة : ١/ ١٥٤ .

إذ يقول : «وإذا كانوا قد استجازوا لتشاكل الألفاظ وتشابهها أن يُجْروا على الثانى طلباً لتشاكل ما لا يصح فى المعنى على الحقيقة فأن يُلزم ذلك ويحافظ عليه فيما يصح فى المعنى أجدر وأولى » وذلك نحو قوله :

ألا لا يجهلن أحـد علـينا فنجهـل فوق جهـل الجاهليـنا

وفى التنزيل : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾(١) والثانى قصاص وليس بعدوان ، وكذلك ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾(٢) وقوله : ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾(٣) ونحو ذلك فأن يُلزم التشاكل فى اللفظ مع صحة المعنى أولى(٤).

فهو بهذا يحدد مفهوم المشاكلة الحقيقية كما عرفها البلاغيون بعده : "ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقيا أو تقديرا" وكأنه كذلك يشترك لتحقق المشاكلة أن يتفقا فى اللفظ، ويختلفا فى المعنى .

أما التجريد فقد فصل القول فيه خاصة ذكره لطريق واحد من طرق التجريد ، وهى مخاطبة الإنسان نفسه ، وذلك فى قوله تعالى ﴿اعلم أن الله على كل شئ قدير﴾(٥) على قراءة من قرأ بالسكون (اعْلَمْ) إذ يقول : "ومن قال: (اعلَمْ) على لفظ الأمر فالمعنى يئول إلى الخبر ، وذاك أنه لما تبيّن له ماتبين من الوجه الذى ليس لشبهة عليه منه طريق نزل نفسه منزلة غيره ، فخاطبها كما يخاطب سواها ، فقال : ﴿اعلم أن الله على كل شئ قدير﴾ وهذا مما تفعله العرب ، ينزّل أحدهم نفسه منزلة الأجنبى ، فيخاطبها كما يخاطبه"(٦).

ومنه قول الشاعر :

تذكّر مِن أنّى ومِن أين شِربُه يؤامر نفسَيْه كذى الهَجمةِ الأبِل(٧)

فجعل عزمه على وروده السّرب لجهد العطش ، وعلى تركه الورود مرّة

---

(١) البقرة : ١٩٤ .
(٢) الشورى : ٤٠ .
(٣) التوبة : ٧٩ .
(٤) الحجة : ٢٣٦/١ .
(٥) البقرة : ٢٥٩ .
(٦) الحجة : ٢٨٨/٢ ، ٢٨٩ .
(٧) شربه : مورده . يؤامر : يشاور . الهجمة من الأبل : ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة . الأبل : الذى يحسن سياسة الإبل .

لخوف الرامى ، وترصد القانص نفسين له [1]. ومنه قول الأعشى :

ارمى بـــها البيدَ إذا هجـّرتْ   وأنت بين القَرْوِ والعـاصـــرِ [2]

فقال : أنت وهو يريد نفسه ، فنزل نفسه منزلة سواه فى مخاطبته لها مخاطبة الأجنبى [3]، ومثل ذلك قوله :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

فقال : ودّع ، فخاطب نفسه كما يخاطب غيره ، ولم يقل لأودّع ، وعلى هذا قال : أيها الرجل وهو يعنى نفسه [4]. أى : وكأنه انتزع أو جرّد من نفسه إنسانًا آخر يخاطبه ، وهو ما ذكره اللاحقون باسم طريق مخاطبة الإنسان، وهو أحد أقسام التجريد .

مما تقدم ذكره فى هذا البحث الذى قصدنا منه أن نبرز آراء وجهود أبى على الفارسى البلاغية من خلال دراسنا لكتابه الحجة ، فكان العالم المتمكن الأخذ عن غيره تارة ، والمنفرد بما يقول تارات حتى ظهر لنا أن له آراءً يُعتدّ بها، وإن لم يتناول غيره بالطريقة التى تناولها هو مثل حديثه عن الخبر والإنشاء كما بينا فى بداية البحث .

وفى الختام نسأل الله العلى القدير أن نكون قد قدمنا بجهدنا هذا إضافة جديدة فى ميدان المعرفة ، فإن أصبنا فمن الله ، وإن أخطأنا فمن أنفسنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د. محمد شعبان علوان

أستاذ البلاغة المساعد

كلية الآداب ـ الجامعة الإسلامية ـ غزة

---

(1) الحجة : ٢/ ٢٨٩ .

(2) هجّرت : اشتد حرها . والقرو : مسيل المعصرة .

(3) الحجة : ٢/ ٢٨٩ .

(4) الحجة : ٢/ ٢٨٩ .

المصادر والمراجع

١ - أثر النحاة فى البحث البلاغى - د/عبد القادر حسين - مطبعة نهضة مصر - الفجالة .

٢ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى - شرح وتعليق / محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - الطبعة الثانية عام ١٩٧٦م.

٣ - الأعلام - الزركلى - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م.

٤ - الأمثال فى القرآن الكريم - سميح عاطف الزين - دار الكتاب اللبنانى - الطبعة الأولى عام ١٩٨٧م .

٥ - الإيضاح - القزوينى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية .

٦ - البرهان فى علوم القرآن - الزركشى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة - بيروت .

٧ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - ابن الزملكانى - تحقيق د/أحمد مطلوب ، د/ خديجة الحديثى - مطبعة العانى - بغداد عام ١٩٧٤م .

٨ - بغية الوعاة - السيوطى - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت .

٩ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرحه السيد أحمد صقر - دار التراث - الطبعة الثانية عام ١٩٧٣م.

١٠ - التلخيص فى علوم البلاغة - القزوينى - ضبطه وشرحه / عبد الرحمن البرقوقى - دار الكتاب العربى - بيروت .

١١ - الحجة - لأبى على الفارسى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م .

١٢ - الخصائص - ابن جنى - تحقيق / محمد على النجار - دار الكتاب العربى - بيروت .

١٣ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى - تحقيق / محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجى - القاهرة .

١٤ - شذرات الذهب - لابن العماد الحنبلى - دار الفكر للطباعة والنشر - الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م .
١٥ - شروح التلخيص - التفتازانى - دار الكتب العلمية - بيروت .
١٦ - طبقات النحويين واللغويين - الزبيدى - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - الطبعة الثانية .
١٧ - الطراز - العلوى - دار الكتب العلمية - بيروت .
١٨ - فتح القدير - الشوكانى - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .
١٩ - فن البلاغة - د/ عبد القادر حسين - دار المنار - الطبعة الثانية عام ١٩٨٤م
٢٠ - الكامل - المبرد - مكتبة المعارف - بيروت .
٢١ - الكتاب - سيبويه - الطبعة الأميرية .
٢٢ - المثل السائر - ابن الأثير - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة .
٢٣ - مجاز القرآن - أبو عبيدة بن المثنى - علق عليه د/ محمد فؤاد سزكين - مكتبة الخانجى - القاهرة .
٢٤ - المحتسب - ابن جنى - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة عام ١٩٦٩م.
٢٥ - المحرر الوجيز - لابن عطية - الطبعة الأولى - الدوحة عام ١٩٨١م .
٢٦ - المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى - د/ فتحى أحمد عامر - منشأة المعارف بالأسكندرية .
٢٧ - معانى القرآن - الفراء - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية عام ١٩٨٠م
٢٨ - معجم البلدان - ياقوت الحموى - دار صادر - ١٩٨٤ م .
٢٩ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها /أحمد مطلوب - مطبعة المجمع العلمى العراقى - عام ١٩٨٣م .
٣٠ - مفتاح العلوم - السكاكى - ضبطه /الأستاذ نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت .
٣١ - المنصف - لابن جنى - مطبعة مصطفى الحلبى - عام ١٩٥٤م .

القسم الثانى

قسم اللغويات

الأسماء العاملة
غير المشبهة للأفعال والحروف

د . أحمد محمود عبد الستار مصلوح

الأسماء العاملة
غير المشبهة للأفعال والحروف

د. أحمد محمود عبد الستار مصلوح

مدخل إلى البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فمنذ زمن بعيد والنحويون يشغلهم الكلام عن العامل النحوى، حيث بحثوا لكل حالة إعرابية عن عامل تسبب فيها ، وتمسكوا بأن كل حادث لا بد له من محدث، وكل أثر لا بد له من مؤثر، حتى هذه الظواهر الإعرابية جعلوا لها عوامل أحدثتها، وجعلوا الفعل هو أصل العوامل، وإنما يعمل غيره بالحمل عليه.

ولما قرأت فى مسألة العامل شغل ذهنى ذلك النوع من العوامل الذى نسبوا إليه العمل، وهو العامل الاسمى الذى لا صلة له بالأفعال ولا بالحروف ليحمل عليها، ولكنه اسم جامد، نسبوا إليه العمل بصفته، وشغلنى كثيرًا أنى لم أجد من العلماء من انشغل بهذا النوع من العوامل وأفرد له مؤلفاً.

فرحت أقلب الصفحات لأجمع هذه المتفرقات، وأضعها تحت دائرة البحث، والدراسة والتأمل، ناظرًا فيما عرض لها من حجج وأدلة وردود واعتراضات، فوجدت أن هذه العوامل هى :

المبتدأ - الخبر - الضمير - الفاعل - المستثنى منه - المميَّز - المضاف - المتبوع .

وفيما يلى الكلام عن كل واحد منها بالتفصيل :

(١)

المبتدأ

هو أحد الأسماء التى نسب إليها جماعة من العلماء العمل ، حيث ذكروا أن المبتدأ يعمل الرفع فى الخبر ، فإذا قلت :« زيد منطلق» فالذى رفع منطلق إنما هو « زيد » غير أنه لم ينسب إليه العمل نظراً لبنيته ، كما نسب العمل إلى المشتقات من اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفه المشبهة ، إنما نسب العمل إليه بصفته وقع مبتدأ ، وكأن أي اسم يقع فى هذا الموقع ويكون مبتدأ يعمل الرفع ، سواء أكان مشتقا أم جامدا .

غير أن نسبة العمل إلى المبتدأ لم تكن عند مناصريها على درجـــه واحدة ، فبعضهم يري أن المبتدأ وحده هو العامل فى الخبر ، وبعضهم يري أن المبتدأ مع الابتداء قد عملا معا فى الخبر ، وبعضهم يري أن المبتدأ عمل فى الخبر كما عمل الخبر فى المبتدأ ، لذا كان علينا أن نتكلم عن كل رأي بالتفصيل لتتضح الصورة عندنا ونتبين هذه الأراء فى ميزان العقل والقياس والاعتدال :

أولاً : القول بأن المبتدأ وحده عمل الرفع فى الخبر:

نسب هذا القول لجماعة من البصريين[١] ، كما نسب لأبى على الفارسى ،وابن جنى [٢]، قد ذكر الأعلم الشنتمرى أن كلام سيبويه فيه ما يشير إلى هذا القول ، قال الأعلم فى رافع الخبر : «ولسيبويه فيها عبارات مختلفة ، يوهم بعضها أن الخبر يرفعه المبتدأ ، وذلك قوله : لأن المبنى عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء [٣] .

---

(١) الإنصاف ١/ ٤٤، وأسرار العربية ٧٦، واللباب ٧٨، ٧٩، والتبيين ٢٢٩ .

(٢) انظر المراجع السابقة ، وفى نسبة هذا القول لابن جنى خطأ واضح، لأن ابن جنى فى الخصائص قد صرح بأن الخبر مرفوع بالمبتدأ والابتداء معا . (انظر : الخصائص ٢/ ٣٨٧).

(٣) النكت للأعلم (١/ ٥٠٨) ، والكتاب لسيبويه (٢/ ١٢٧) .

وقد اختار هذا القول ابن مالك ، حيث قال : «ومذهب سيبويه أن المبتدأ مرفوع بالابتداء وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ ، صرح بذلك فى مواضع كثيرة . . . وقوله هو الصحيح لسلامته مما يرد على غيره من موانع الصحة»(١).

وكذلك اختار هذا القول ابن هشام وغيره (٢).

وقد احتج أصحاب هذا القول لكلامهم بنوعين من الأدلة :

الأول : أنهم أفسدواأدلة المذاهب الأخري ، وردوا القول الذي يخالف كلامهم ، وهذه طريقة من طرق الترجيح و الاستدلال ،غير أنهالا تعنينا هنا ، لأننا لسنا بمعرض الحديث عن باقى الآراء ،ولا هى محور بحثنا الذي نحن بصدده ٠

الثانى : أنهم ذكروا من الأدلة ما يقوي كلامهم ويرجح مذهبهم ، فقالوا فى إثبات أن المبتدإ هو الرافع للخبر: إن المبتدأ يقتضى الخبر ، وهذا الإقتضاء هو الذي جعله عاملا فيه ، كما أن الفعل اقتضى الفاعل ، لذلك عمل فيه (٣).

ولكن هذا الرأي لم يسلم من التضعيف والرد ولم يقو فى ميزان النقد ، وقد رد هذا الرأي ببعض أمور، أهمها (٤):

١ ـ المبتدأ يأتى اسما جامدا نحو « زيد ، وهذا ، والذى » ، ونسبة العمل الى الأسماء الجامده لا تصح ، لأن الاسم الجامد لا يعمل ٠ وقد يجاب عن هذا بأن المبتدأ اذا عمل لم يعمل بمادته ، وإنما عمله بصفته ، فكل اسم يقع فى موقع المبتدأ ينسب إليه العمل ، بصرف النظر عن مادته واشتقاقه.

٢ ـ أن ما احتجوا به لا يصلح ، لأنهم قاسوا المبتدأ على الفعل فى العمل ، والمعروف أن الأصل فى العمل يكون للفعل أو للحرف ، وإنما تعمل

---

(١) شرح التسهيل لابن مالك (١/ ٢٦٩ ، ٢٧٠) ، وانظر الكتاب (٢/ ١٢٦ ، ١٢٧) .

(٢) أوضح المسالك (١/ ١٣٧) ، والمنهل الصافى (٧٧) .

(٣) التبيين (٢٣٠) ٠

(٤) الإنصاف (١/ ٤٦ـ ٤٨) ، والتبيين (٢٣٢) ٠

الأسماء للمشابهة بينها وبين الفعل أو الحرف ، فتحمل الأسماء على ماتشبهه منهما فى العمل ، والاسم قد يكون جامدا لا يشبه هذا أو ذاك ، فلا ينسب اليه العمل .

٣ ـ أن المبتدأ لو صح أنه عامل فهو عامل لفظى ، ولو دخل عليه عامل لفظى آخر مثل :«كان» أو «إن» أو أخواتهما يبطل عمل المبتدأ ، وينسخ ، ويصير العمل لهذا الناسخ ، والمعروف أن العامل اللفظى لا يبطل عمله بعامل لفظى آخر .

وكذلك العامل فى الشىء مادام موجودا لايدخل عليه عامل آخر ، لأن العامل لا يدخل عليه العامل .

٤ ـ أن الرفع أقوى الحركات ، ونسبة العمل إلى الأسماء ضعيفة ، لأن الأسماء تعمل حملا على الأفعال أو الحروف ، فكيف ينسب العمل القوى إلى عامل ضعيف .

ثانيا : القول بأن العامل فى الخبر هو الابتداء والمبتدأ معا:

وقد نسب هذا القول إلى سيبويه أيضا ، كمانسب إلى جماعة من البصريين [١] ، بل إلى أكثر البصريين[٢] ،واختاره المبرد[٣]، كما أن هذا الرأى هو اختيار ابن جنى على القول الصحيح فى مذهبه ، لأنه صرح بذلك فى «الخصائص» حيث قال: «وبعد ، فليس فى الدنيا مرفوع يجوز تقديمه على رافعه ، فأما خبر المبتدأ فلم يتقدم عندنا على رافعه ، لأن رافعه ليس المبتدأ وحده، وإنما الرافع له المبتدأ والابتداء جميعا ، فلم يتقدم الخبر عليهما معا ، وإنما تقدم على أحدهما ، وهو المبتدأ ، فهذا لا ينتقض ، لكنه على قول أبى الحسن مرفوع بالمبتدأ وحده ، ولو كان كذلك لم يجز تقديمه على المبتدأ »(٤)

وقد احتج أصحاب هذا القول لكلامهم بأمرين هما [٥] :

---

(١) أسرار العربية (٧٦) ، والنكت للأعلم (١/ ٥٠٨).

(٢) شرح المفصل لابن يعيش (١/ ٨٥) . (٣) المقتضب (٢/ ٤٩ ، ٤/ ٩٢ ، ١٢٦)

(٤) الخصائص (٢/ ٣٨٧) . (٥) الإنصاف(١/ ٤٤)، والتبيين (٢٣٠).

١ ـ أن الخبر يقع بعد الابتداء والمبتدأ ، فوجب أن يكوناهماالعاملين فيه.

٢ ـ أن الابتداء عامل ضعيف ، لا يقوى أن يعمل وحده فى الخبر ، فاذا اجتمع الابتداء مع المبتدأ فقد تقوّى به ، ،صلح أن يعملا معا فى الخبر ، كما أن «إنّ» الشرطية تعمل فى فعل الشرط ، ثم يعملان معا فى الجزاء .

وقد لاقى هذا الرأى ردا واعتراضا من العلماء ، وأهم ما وجّه اليه من الاعتراضات ما يلى :

أولا : أن المبتدأ اسم ، والأصل فى الأسماء ألاّ تعمل ، قد بطل أن يعمل المبتدأ وحده ، فكذلك يبطل أن يعمل مع غيره ، لأن إضافة مالا تأثير له إلى ما له تأثير ـ وهو الابتداء ـ لا تأثير له [١] .

وقد أجاب عن مثل هذا ابن يعيش حينما قال : «إن الشيئين إذا تركبا معا حدث لهما بالتركيب معنى لا يكون فى كل واحد من أفـــراد ذلك المركب [٢].

ويمكن أن يعترض على جواب ابن يعيش بأن التركيب المعهود فى مثل هذا إنما يكون بين لفظين ، كالتركيب بين «إن» و«ما» فى «إنما»، والتركيب بين «كل»و«ما» فى «كلما» ، والتركيب بين «لا» النافية للجنس واسمها ، وهكذا ، فالتركيب يكون بين لفظين ، أما التركيب بين لفظ ومعنى ـ وهو المبتدأ والابتداء ـ فهو شىء لا نظير له ، فوجب ألاّ يقاس عليه .

الثانى : أن تقوية الابتداء بالمبتدأ تقتضى أن يكون العامل معنى متقويا بلفظ ، والمعروف كون العامل لفظا متقويا بلفظ،كتقوية الفعل بواو المصاحبـــة،أو كون العامل لفظا متقويا بمعنى كتقوية المضاف بمعنى الام أو «من»، فالقول بأن الابتداء عامل مقوى بالمبتدأ لا نظير له [٣] .

---

(١) الإنصاف (١/ ٤٧) ، والتبيين (٢٢٦).

(٢) شرح المفصل لابن يعيش (١/ ٨٥).

(٣) شرح التسهيل لابن مالك (١/ ٢٧١).

الثالث: أما القياس على عمل أداة الشرط فى الفعل، وعمل الأداة وفعل الشرط فى جواب الشرط فهو قياس فاسد لا يصح لـبعض أمـور منها[1] .

(أ) أن بعض العلماء لا يسلّم بأن أداة الشرط عملت الجزم فى فعل الشرط بنفسها ،بل هى عنده عاملة فى الفعل نيابة عن «إن» الشرطية .

(ب) أنه إنما جاز أن تعمل أداة الشرط فى الفعل، ويعمل الفعل فيها لاختلاف العمل،واختلاف العامل،واختلاف المعمول،فالعمل إنما هو نصب للأداة وجزم للفعل ،والعامل هو أداة وفعل،والمعمول كذلك ، أما فى المبتدأ والخبر، فالعمل واحد وهو الرفع ، والمعمول والعامل واحد وهما اسمان ، فالقياس لا يصح.

(ج) أنه إنما عملت الأداة فى الفعل وعمل الفعل فيها لأن كلا منهما عامل فاستحق العمل ، أما فى المبتدأ والخبر فلا خلاف أن المبتدأ والخبر اسمان باقيان على أصلهما فى الاسمية ، والأصل فى الأسماء الا تعمل ،فهناك فرق فى القياس.

(د) أن أداة الشرط قد قويت بالفعل فعملا معا فى الجواب،فهذا فيه تقوية لفظ بلفظ،وكلاهما يعمل، أما فى الابتداء والمبتدأ فقد تقوى معـنى بلفظ ،وكلاهما لا يعمل إلا بضعف فالقياس مختلف فلا يصح.

ثالثا : القول بأن المبتدأ يرفع الخبر ،كما يرتفع المبتدأ بالخبر :

وهذا القول نسبه كثير من العلماء الى الكوفيين[2]، وهو قول مشهور فى مؤلفات الكوفيين، وقد نص عليه علماؤهم،كالفراء وثعلب ، وأبى بكر بن الأنبارى[3].

وهو يختلف عن القول الأول القائل بأن الخبر يرفعه المبتدأ ،من حيث إن

---

(١) الإنصاف (١/ ٤٨) ، والتبيين (٢٢٨).

(٢) الإنصاف (١/ ٤١) وأسرار العربية (٦٧, ٦٨)،والتبيين (٢٢٥) .

(٣) معانى القرآن للفراء (١/ ١٣) ، ومجالس ثعلب (٢/ ٣٨٩) ، وشرح القصائد السبع (٦٣, ٩٣, ٣١٧) .

القول الأول يقول بأن المبتدأ لا يرفعه الخبر بل يرفعه غيره، أما هؤلاء فيقولون بعمل كل من المبتدأ والخبر فى الآخر .

وقد اختار هذا القول جماعة من العلماء منهم : أبو حيان حيث قال: «والذى نختاره من هذه المذاهب هو مذهب الكوفيين، أنهما يرفع كل منهما الآخر ، وهو اختيار ابن جنى» (١).

كما اختار هذا القول السيوطى فى كتابه « همع الهوامع»(٢).

وأصحاب هذا القول يحتجون لمذهبهم بأن المبتدأ والخبر لا يستغنى أحدهما عن الآخر، فوجب أن يكون كل واحد منهما عاملا فى الآخر لتأثره به فى المعنى، لأن المؤثر فى المعنى يؤثر فى اللفظ،ونظير ذلك أسماء الشرط ، فإنها تجزم الفعل ،والفعل ينصبها(٣).

وهذا القول قد لاقى من العلماء ردًا واعتراضًا لبعض أمور ،أهمها :

(١) لو سلّمنا بأن المبتدأ يعمل فى الخبر، والخبر يعمل فى المبتدأ لأدّى ذلك الى المحال،لأن العامل سبيله أن يقدر قبل المعمول،ولو عمل كل من المبتدأ والخبر فى الآخر لوجب أن يكون كل منهما مقدما على الآخر وهو محال ، وما أدّى إلى المحال محال (٤).

(٢) أما القياس على اسم الشرط وفعل الشرط فهو قياس فاسد مردود عليه بأمور بينتها فى الرد على القول السابق.

(٣) وأما أن كلا منهما يعمل فى الآخر لأنه يقتضيه ويطلبه، فهذا

---

(١) انظر الارتشاف (٢/ ٢٩) ، وأما نسبة الرأى لابن جنى ففيها تجوز ، حيث اعتمد أبو حيان فيها على ماورد فى كتاب اللمع لابن جنى ، حيث قال فيه «وهو مرفوع بالمبتدأ» (اللمع ١١٠) والحق أن ما ذهب اليه أبو حيان ومن تابعه فى هذه النسبة ليس بصواب ، لأن كلام ابن جنى فى الخصائص صريح فى أن اختياره هو أن الخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ معا ، وقد نقلت آنفا كلام ابن جنى فى ذلك .

(٢) همع الهوامع (١/ ٩٥).

(٣) الإنصاف(١/ ٤٤) ، والتبيين (٢٣٠) .

(٤) الإنصاف (١/ ٤٨).

الكلام معترض عليه بالفعل والفاعل، فكل منهما يقتضى الآخر، ولم يقل أحد أبدا : إن كل واحد منهما عمل فى الآخر.

قال أبو البقاء العكبرى : « ولا يلزم على ما ذكرنا الفعل والفاعل ، فإن كل واحد منهما لا يستغنى عن الآخر، ومع هذا فالفعل لا يرتفع بالاسم، لأنا نقول : الفعل غير عامل لعمل الاسم فيه ، بخلاف المبتدأ والخبر»[1].

وهذا الذى قاله أبو البقاء على ألسنة الكوفيين لا يعّد جوابا، لأنه لم يوضح الفرق بينهما مع أن كلا منهما يقتضى الآخر فلو عمل الخبر فى المبتدأ أو المبتدأ فى الخبر، فلماذا لا يعمل الفاعل فى الفعل كما عمل الفعل فيه ، ما دام الاقتضاء قائما ، فالتعليق على مسألة الاقتضاء لا تكفى لأن يعمل كل منهما فى الآخر.

(٤) أن عمل كل واحد منهما فى الآخر تأثير فيه، والمؤثر يجب أن يكون أقوى من المؤثر فيه، وذلك مستحيل هنا ، لأن اشتراكهما فى التأثير يدل على استوائهما فى القوة فيمتنع تأثير أحدهما فى الآخر.

* من خلال هذا الكلام يتبين ضعف القول بأن المبتدأ عامل، سواء أكان عاملا وحده ، أم بتقويته بالابتداء، أم عاملا لأن الخبر عمل فيه فجميع هذه الأقوال معترض عليها ، ولا نسلم بقول يقول إن أقوى الحركات وهى الرفع يكون عاملها ضعيفا [2] .

---

(١) التبيين (٢٢٨).

(٢) المرجع السابق (٢٢٧, ٢٢٨).

(٢)

الخـــبر

نسب الى الكوفيين أنهم يقولون: « الخبر عامل فى المبتدأ الرفع كما عمل المبتدأ فيه، وقد سبق بيان حجتهم فى هذا الرأى ، كما سبق أنه معترض عليه من وجوه ، وفيما يلى بعض الاعتراضات التى وجهت إلى عمل الخبر فى المبتدأ [١]:

(١) أن الخبر يكون جامداً كزيد وعمرو ، والجامد لا يعمل.

(٢) أن رتبة الخبر تكون بعدالمبتدأ ، ورتبة العامل تكون قبل المعمول ، فيتنافيان .

(٣) أن الخبر قد يكون فعلا نحو « زيد يذاكر » فلو عمل الخبر فى المبتدأ على هذه الحالة لكان المبتدأ فاعلا ، والفاعل لا يكون قبل الفعل، ولو سلّمنا بعمل الخبر فى المبتدأ فى مثل هذا لصار الفعل عاملا فى اســمين على الفاعلية، أحدهما المبتدأ الذى هو «زيد»، وثانيهما الضمير المستترفى الفعل ، وهذا كلام لم يقل به أحد.

(٤) أن الخبر قد يكون من الموصول والصلة نحو « زيد الذى قابلته»، ولو عمل الخبر فى هذه الحالة لعملت الصلة فيما قبل الموصول ، وهذا كلام لا يصح.

(٥) أن الخبر كالصفة، وكما لا تعمل الصفة فى الموصوف، لا يعمل الخبر فى المبتدأ .

(٦) أن « كان » و «إن » إذا دخلا على المبتدأ والخبر أزالا الرفع، والخبر

---

(١) انظر: اللباب فى علل البناء والإعراب (٧٧ ، ٧٨)..

عامل لفظى والعامل اللفظى لا يبطل بالعامل اللفظى.

(٧) أن الخبر قد يكون شبه جملة ـ ظرفا أو جارا ومجرورا ـ ونسبة العمل إليهما غير صحيحة، وإذا قيل : إن الخبر هو متعلقها المحذوف اعترض عليه بما سبق.

(٨) أن هناك مبتدأ لا خبر له، نحو: أقائم المحمدان، فقائم مبتدأ مرفوع والمحمدان فاعل سد مسد الخبر، ولا يجوز أن يقال: إن الذى رفـــع «قائم» هو « المحمدان » لأنه ليس بخبر، ولأنه فاعل والفاعل لا يعمل فى عامله ، فعلى قولهم : ما الذى رفع المبتدأ فى هذا الأسلوب ونحوه؟

* كل هذا وغيره يبين ضعف القول بأن الخبر عامل فى المبتدأ ، وكما قيل هناك فى المبتدأ ، يقال هنا:إننا لا نسلم بقول يقول بأن أقوى الحركات وهى الرفع يكون عاملها ضعيفا ، حيث اعترض عليه بأمور كثيرة ، فلا نسلم أن الخبر يكون رافعا للمبتدأ أبدا..

***

(٣)

الضـــمير

نسب الكوفيون إلى الضمير أنه يرفع المبتدأ ، وقد ذكر ذلك عنهم غير واحد من العلماء ، فقد ذكر العكبرى فى رافع المبتدأ أن الكوفيين يقولون: فـــى رافعه رأيان (١) :

الأول:أن رافعة الخبر كما ارتفع الخبر بالمبتدأ ،وقد سبق الكلام على هذا.

الثانى: أنه مرفوع بالعائد من الخبر ، فإذا قلت: زيد ضربته ، فالذى رفع «زيد» هو الضمير فى ضربته.

وتحقيق المسألة: أن الكوفيين يقولون: إن الخبر يرفع المبتدأ اذا كان الخبر اسما ، أما إذا كان الخبر فعلا فإن المبتدأ يرتفع بالضمير الذى فى الفعل ، وقد بيّن هذا الكلام السيوطى حينما قال: «وللكوفيين قول آخر ، أن المبتدأ مرفوع بالذكر الذى فى الخبر نحو «زيد ضربته» ، لأنه لو زال الضمير انتصب ، فكان الرفع منسوبا للضمير ، فإذا لم يكن ثم ذكر نحو: القائم زيد ، ترافعا» (٢)

وكلام السيوطى ينّص على الضمير المنصوب ، وليس الأمر كذلك ، بل قول الكوفيين يشمل المنصوب والمرفوع والمجرور من الضمائر ، لذلك كان ما نقله محقق «التبيين» عن ابن النحاس أوضح فى بيان مذهب الكوفيين ، وذلك حيث يقول: ذكر ابن النحاس فى تعليقه على المقرب (ورقة ٢٤) رأى الكوفيين فى عامل الرفع فى المبتدأ ، فقال :أكثر الناس على مذهبهم ، وكذا ذكر فى كتب الخلاف عنهم ، ونقل ابن الدهان - رحمه الله - فى شرح الإيضاح ما حكايته: وقال الفراء - رحمه الله - قال الكسائى - رحمه الله - :اذا ابتدأت اسما بعده اسم كمّله رفعت كل واحد منهما بصاحبه، كقولك «أخوك قائم» ،

---

(١) التبيين (٢٢٤, ٢٢٥) واللباب (٧٥, ٧٦).

(٢) همع الهوامع (١/٩٥).

وإن كان بعده فَعَل أو يَفْعَل رفعته بما عاد من ذكره ، لا بـ «فَعَل ويَفْعَل»، وإنما منع من أن يرفع بـ «فَعَل و يَفعلُ» لأنهما مشغولان بما فيه من نية الكناية ، والأفعال تجرى بعدها على جهة العود ، تقول: أخواك قاما ، وإخوتك قاموا ، رفعت الأسماء بما عاد عليها من النية ، قال: فقلت له: فهل تجيز أن تقول: عبد الله قام أبوه ، فترفع الأول بما عاد من ذكره ، وترفع الأب بـ «قام ويقوم»؟ ، قال: نعم ، وأجيز أن أرفع الأول بكل ما يعود من ذكره وإن كان خفضا أو نصباً» [١].

وعلى ذلك ، فالكوفيون لهم فى رافع المبتدأ قولان ، كل واحد منهما بحسب نوع الخبر.

لو كان الخبر اسما ارتفع المبتدأ به ، ولو كان الخبر فعلاً ارتفع المبتدأ بالضمير العائد عليه ، سواء أكان الضمير مرفوعا أم منصوباً أم مجروراً.

فالكوفيون ينسبون العمل إلى الضمير ، وهذا الكلام معترض عليه بأمور [٢]:

(١) أن المضمر فرع المظهر ، وقد ثبت أن المظهر لا يعمل ، وإذا لم يعمل الأصل فالفرع أولى.

(٢) أن العائد لا يعمل فى الظروف ولا فى الحال ـ مع أن العامل فيهما قد يكون معنى ضعيفا ـ فالاَّ يعمل هنا أولى.

(٣) أن هذا العائد قد يكون فى الصلة ، نحو «محمد الذى قابلته» ، ولو عمل هنا لأفضى إلى عمل ما فى الصلة قبل الموصول ، وذلك باطل ، ألا ترى أن الفعل لو كان فى هذا الموضع لم يعمل ، فالضمير أولى.

على أن هذا الاعتراض لا يأتى على كلام الكوفيين ، لأن نحو «محمد الذى قابلته» عامل المبتدأ فيه ليس هو الضمير ، بل عامله الخبر وهو « الذى»، لأن الخبر ليس «فَعَل أو يَفْعَل» كما نُقل عنهم فى كلامهم.

---

(١) انظر : كلام المحقق فى التبيين (٢٢٥).

(٢) اللباب (٧٨،٧٧)، والتبيين (٢٢٧) .

(٤) أن العائد لو رفع للزم الرفع فى قولنا: «زيد ضربته»، ولكنه جاز أن يعمل فيه المحذوف فينصبه ، وتقول: زيداً ضربته ، على تقدير فعل يفسره المذكور ، ويلغى عمل العائد هنا ، ولما جاز ذلك امتنع أن يكون الرافع هو العائد.

(٥) أن هذا العائد عامل لفظى ، وتدخل النواسخ عليه فتبطل عمله ، والعامل اللفظى لا يبطل بعامل لفظى.

لهذا كانت نسبة العمل إلى الضمير على أنه رافع للمبتدأ نسبة ضعيفة ، لا دليل عليها ، ولم يقل أحد: إن الضمائر تعمل رفعا أو نصبا أو جراً ، فكيف ينسب إلى الضمير عمل الرفع وهو أقوى الحركات.

* اجتهاد باحـــث:

لما كانت جميع الآراء التى ذكرت فى رافع المبتدأ ورافع الخبر ضعيفة ، وقد وُجّه إليها كثير من الاعتراضات فما المانع أن يقال: إن المبتدأ والخبر من العمد ، وحق العمد أن تأتى مرفوعة ، لأن الرفع أقوى الحركات ، والعمد أقوى الصفات ، فناسب أن يعطى القوىّ للقوىّ ، فالأصل فى العمد أن تكون مرفوعة ، كالمبتدأ والخبر والفاعل والفعل المضارع ،وما جاء على أصله لا يسأل عن علّته ، فإذا ما دخلت النواسخ أو العوامل غيرت هذا الأصل ، وتكون عاملة بما تستحقه من عمل ، فإذا حذفت النواسخ أو العوامل ، عادت العمد إلى أصلها وهو الرفع وهذا الرأى أولى وأنسب من الآراء التى وردت واعترضَ عليها بكثير من الاعتراضات.. والله أعلم.

***

(٤)

الفاعــــل

نسب جماعة من النحويين العمل إلى الفاعل ، غير أن منهم من قال: إنه يعمل مع الفعل فى نصب المفعول به ، ومنهم من قال: إن الفاعل وحده ينصب المفعول به ، وفيما يلى تفصيل الكلام على كل رأى:

أولا: القول بأن الفاعل والفعل معا ينصبان المفعول به:

وقد نسب هذا الكلام إلى الكوفيين[1] وذكر أصحاب كتب الخلاف حجة الكوفيين فى ذلك على نحو ما يلى (٢):

(١) أن المفعول بعد الفعل والفاعل لفظاً أو تقديراً ، فوجب أن يعملا فيه.

(٢) أن الفعل والفاعل كالشىء الواحد ، لذلك عمل الفعل والفاعل فى المفعول به ، كما عمل الابتداء والمبتدأ فى الخبر ، وكما عمل فى جواب الشرط «إن» الشرطية والفعل.

(٣) لو كان الناصب للمفعول به الفعل وحده لَمَا جاز الفصل بينهما ، ولمّا جاز الفصل بينهما بالفاعل دل ذلك على أنه ليس هو العامل وحده ، بل الفعل والفاعل جاريان مجرى شىء واحد هو العامل فى المفعول.

وقد ردّ كثير من العلماء ما ذهب إليه الكوفيون وفنّدوا أدلتهم وحجتهم ، ويتضح ضعف ما نُسب إلى الكوفيين مما يلى (٣):

(١) وقوع المفعول بعد الفعل والفاعل لا يدل على أنهما العاملان فيه ، لأن الفاعل اسم ، والأصل فى الأسماء ألاّ تعمل ، قال الأنبارى: « والكلام

---

(١) الإنصاف (١/٧٨) وأسرار العربية (٨٥) واللباب (٩٩) والمتبع (٢٥٦) والتبيين (٢٦٣).

(٢) المراجع السابقة.

(٣) المراجع

عليه كالكلام على من ذهب من البصريين إلى أن الأبتداء والمبتدأ يعملان فى الخبر» (١) .

وقد ذكرت فيما سبق ما اعترض به على هذا الرأى.

(٢) كون الفعل والفاعل كالشىء الواحد لا يقتضى أن يعملا معاً فى المفعول ، ومع ذلك فالفعل والفاعل يفصل بينهما المفعول نحو «ضرب زيداً عمرو» ، كما يفصل بينهما الظرف نحو : «جاء عندنا زيد» ، وكونهما كالجزء الواحد ليس هذا من كل وجه ، لأن الفعل يعمل فى الفاعل ، وبعض الكلمة لا يعمل فى بعضها.

(٣) أنه قد صح ووضح أن الفعل والفاعل قد تنزّلا منزلة الجزء الواحد، فالعمل اذاً إنما هو للفعل وحده واتّصل به الفاعل فصار جزءاً منه ، كما صارت النون فى: «التضربن زيداً» كالجزء منه ، حتى خُلط بها وبنى معها ، قاله ابن جنى (٢).

(٤) أن الفعل والفاعل إنما هو معنى،والمعانى لا تعمل فى المفعول به ، إنما تعمل فى الظروف ، قاله ابن جنى(٣).

(٥) أن إعمال شيئين فى شىء واحد لم يثبت ، قاله أبو حيان.

(٦) أن المفعول يتقدم على الفاعل ، والفاعل غير متصرف ، فلو كان عاملا لوجب أن لا يتقدمه معموله (٤).

(٧) أن نحو قوله تعالى : ﴿أَو إِطْعامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يتِيماً ذَا مقْربةٍ﴾(٥) لا فاعل له(٦).

(٨) أن نحو «ضربى زيداً» الفاعل فيه ضمير ، والضمير لايعمل شيئا.

(٩) أن المفعول يقع بين الفعل والفاعل نحو: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ

(١) الإنصاف (١/ ٨١).
(٢) الخصائص (١/ ١٠٥).
(٣) المرجع السابق.
(٤) حاشية يس على التصريح (١/ ٣٠٩).
(٥) سورة البلد (١٤، ١٥).
(٦) حاشية يس على التصريح (١/ ٣٠٩).
(٧) المرجع السابق.
(٨) سورة القمر (٤١).
(٩)حاشية يس على التصريح (١/ ٣٠٩).

النُّذُرُ﴾ (٨) والمعمول لا يتوسط العامل (٩) .

بهذا وغيره يبطل القول بأن الفاعل مع الفعل قد عملا فى المفعول ، وإذا كان الفعل هو أقوى العوامل فكيف يكون فى حاجة إلى تقوية الفاعل له حتى يعمل فى المفعول به ؟ .

الحق أن المفعول به قد نصبه الفعل وحده ، ولا يصح أن ينسب العمل إلى الفعل والفاعل معا ، فلا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يعرف فى اللغة أن الفعل يقويه الاسم حتى يعملا معا فى غيرهما .

تتحقيق فى نسبة هذا الرأى إلى الكوفيين :

ذكرتُ فى أول الكلام أن القول بأن الفعل والفاعل نصبا معا المفعول به قد نسب إلى الكوفيين ، هكذا نسبه الأنبارى والعكبرى واليمنى [1] ، ونسب ابن جنى هذا الرأى إلى هشام بن معاوية الضرير [2] ، نسبه الرضى وأبو حيان والشيخ خالد والسيوطى إلى الفراء [3] .

أقول : ونسبة هذا القول إلى الكوفيين تختلف عما هو وارد ومنصوص عليه فى كتبهم [4] ، ولعل الكوفيين كانوا يتجوّزون فى العبارة أحيانا، فمثلا فى نحو: ضربت زيداً ، يقولون نصب «زيدا» بـ «ضربت» ، فيفهم القارىء فى كتبهم أن الناصب للمفعول عندهم هو الفعل والفاعل معا والحق أنهم لا يريدون هذا ولا يقولون به ، إنما هو تجوز فى العبارة قد وقع من العلماء كوفيين أو غيرهم [5].

---

(١) الإنصاف (١/ ٧٨)، والتبيين (٢٦٣) ، وائتلاف النصرة (٣٤).

(٢) الخصائص (١/ ١٠٤).

(٣) الرض على الكافية ١/ ٣٢٥ وتذكرة النحاه (٤٣١) والتصريح (١/ ٣٠٩) والهمع (١/ ١٦٥).

(٤) انظر: معانى القرآن للفراء (١/ ٤٠ , ٨٢ , ١٢١) ، ومجالس العلماء للزجاجى (٣٥)، وشرح القصائد السبع لابن الأنبارى (١٠٥ , ٢١٨ , ٢٦٥ , ٣٢٠ , ٣٣٠ ـ وغيرها) وانظر رسالتنا فى الدكتوراه «الخلاف النحوى بين البصرين والكوفيين عند الأنبارى والعكبرى» ١٥٦ , ١٥٧ .

(٥) انظر: معانى القرآن (١/ ١٣٨) ، وشرح القصائد السبع (٥٤ , ٥٥ , ٥٦ , ٦٨ , ٧٥)، وشرح السيرافى على سيبويه (٣/ ٦٤).

ثانيا : القول بأن الفاعل هو الناصب للمفعول :

وهذا القول نسبه الأنبارى والعكبري إلى بعض الكوفيين [١] ، وقال الأنباري : « ونص هشام بن معاوية - صاحب الكسائى - على أنك؛ إذا قلت :ظننت زيداً قائما تنصب «زيداً» بالتاء ، و«قائماً» بالظن [٢]

ونسب الرضى وأبو حيان والشيخ خالد والسيوطى إلى هشام بن معاوية القول بعمل الفاعل النصب فى المفعول به [٣] .

وقد احتج أصحاب هذا القول لمذهبهم بأن المفعول يرتفع إذا لم يذكر الفاعل ، نحو : ضُرِب زيدُ ، بالبناء للمجهول ، وعلى ذلك فالنصب للمفعول يدور مع الفاعل وجوداً وعندما ، والدوران يفيد االعلّية . [٤]

وهذا القول من الضعف بمكان ، وقد لاقى من جمهور العلماء رداً واعتراضاً ، وأهم ما وجه إليه من اعتراضات ما يلى [٥] :

(١) أن الفاعل اسم ، والمفعول أيضا اسم ، فإذا استويا فى الاسمية فليس عمل أحدهما أولى من الآخر ، هذا مع أن الأصل فى الأسماء الآ تعمل.

(٢) أنه يستلزم الآ يتقدم المفعول على الفاعل ،كسائر الأسماء الجوامد إذا نصبت نحو: «عندى عشرون درهما» ، وهذا الكلام لم يقل به أحد ، فالمفعول يجوز أن يتقدم على الفاعل .

(٣) أن نحو قوله تعالى:﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا

---

(١) الإنصاف (١/٧٨,٧٩) ، والتبيين (٢٦٣).

(٢) الإنصاف (١/٨٧,٧٩).

(٣) شرح الكافية للرضى (١/ ٢٣٥) رتذكرة النحاة (٤٣١) ، والتصريح (١/٣٠٩) والهمع (١٦٥).

(٤) التصريح (١/٣٠٩).

(٥) أسرار العربية (٨٥) ، والإنصاف (١/ ٨٠,٨١) ، وشرح اللمحة البدرية (٢/٧٣) ذا وحاشية يس على التصريح (١/٣٠٩).

مَقْرَبَةٍ﴾[1] لا فاعل فيه ، فعلى قولهم: ما ناصب المفعول به هنا؟ .

(٤) أن الفاعل يكون ضميراً مستترا ، والضمير لايعمل بارزاً ، فالمستتر أولى .

(٥) أن الكوفيين وهشاما أيضا يقولون بجواز نيابة غير المفعول به عن الفاعل مع وجود المفعول به ، واستدلوا على ذلك بقراءة أبى جعفر ﴿ لِيُجْزَى قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] فهنا جاء المفعول به منصوبا ، وليس فى الكلام فاعل ينسب إليه العمل، فما ناصبة إذن ؟[3] .

من خلال هذا كله يتبين فساد القول الذى يَنْسُب نَصْبَ المفعول إلى الفاعل وحده ، ويتأتى عليه من الاعتراضات ما وجّه إلى عمل الأسماء الجامدة أو الضمائر بارزة أو مستترة ، فلا يجوز الأخذ بهذا الرأى ، كما لا يقال بما قبله من أن ناصب المفعول هو الفعل والفاعل معاً ، والقول ما قاله البصريون وتبعهم غيرهم أن المفعول به ناصبه الفعل وحده .

***

---

(١) سورة البلد (١٤ ,١٥).

(٢) سورة الجاثية (١٤) ، والقراءة فى إتحاف فضلاء البشر (٢/٤٦٦ ، ٤٦٧) ، وانظر التصريح (١/ ٢٩١).

(٣) حاشية يس على التصريح (١/ ٣٠٩).

(٥)

المستثنى منه

نسب ابن الحاجب العمل إلى المستثنى منه ، وذلك حينما تكلم عن العامل فى المستنثنى ، وذكر أن العامل فى المستثنى بعد « إلا» إنما هو المستثنى منه بواسطة« إلا» [١]يقول العلامة الرضى فى ذلك :«وقال المصنف فى شرح المفصل : العامل فيه المستثنى منه بواسطة «إلا» قال : لأنه ربما لا يكون هناك فعل ، ولا معناه فيعمل نحو : « القوم إلا زيداً أخوتك» [٢].

وقال الدماميني:« واختار ابن الحاجب كون العامل هو الاسم المتعدد المتنازل للمستثنى ، لأنه الذي صح به الإخراج ، فهو فى المعنى العامل بواسطة «إلا» ، قال: وهذا شامل للمواضع كلها ، وُجِدَ الفعل أو لم يوجد ، فالتمسك به أولى» [٣].

ومن خلال مُا نسب إلى ابن الحاجب يمكن أن نستخلص حجته التى استدل بها على أن المستثنى بإلا منصوب بالمستثنى منه بواسطة«إلا» ،وتتمثل حجته فى أمرين:

أحدهما: أننا لو قلنا: إن العامل فى المسثنى بـ «إلا» ، هو الفعل ،فإن هذا معترض عليه بأن هناك من الأساليب الاستثنائيه مالا فعل فيها نحو قولنا: ، القوم إخوتك إلا زيداً ، فليس ثم فعل ينسب إليه العمل ، فالأولى أن ينسب العمل إلى المستثنى منه بواسطة «إلا» .

(١) انظر الإيضاح فى شرح المفصل لابن الحاجب (١/ ٣٦١, ٣٦٣).

(٢) الرضى على الكافية (٢/ ٨١).

(٣) المنهل الصافى (٣١٧) «رسالة علمية».

ثانيهما: أن المستثنى منه هو الذى يصح به الإخراج ، ونسبة العمل اليه تكون شاملةلجميع الأساليب ، سواء أوجد الفعل أم لم يوجد.

هذا وما قاله ابن الحاجب ليس بصحيح ، ونسبة العمل إلى المستثنى منه بواسطة «إلا» كلام مردود ، وما حمله على القول بهذا إلا أنه وجد أن بعض الأساليب التى تأتى فى الاستثناء لا يكون فيها فعل ، ولكن كلامه ترد عليه اعتراضات متعددة أهمها:

(١) أن المستثنى منه تارة يكون فاعلا ، وتارة يكون مفعولا ، وأخري يكون مجروراً ، ويأتى مرة جامداً ، ومرة جامدا ، ومرة مشتقاً ، ومرة يتقدم على المستثنى ، ومرة يتقدم عليه المستثنى ، فتعتريه أمور لا يجوز وقتها أن ننسب العمل إليه.

(٢) أن المستثنى منه يكون ضميرا بارزا أو مستترا ، ونسبة العمل إلى الضمير لا تجوز سواء أكان بارزا أم مستترا.

(٣) أن الاستثناء المنقطع يكون المستثنى غير داخل فى المستثنى منه ، فليس فى المستثنى منه إخراج ، فكيف ينسب العمل إلى شىء انقطع عن معموله.

(٤) أنه لو كان العامل المستثنى منه بواسطة «إلا» لكان ذلك قولاً بتقوية الحروف لعامل اسمى ، وهذا حكم بما لا نظير له فى الكلام .

(٥) أما أن بعض الأساليب التى ترد فى الاستثناء بـ «إلا» لا يكون فيها فعل ينسب العمل إليه ، فقد رَدَّ هذا الكلام العلامة الرضى حينما قال: «وهذا لا يرد إلا على مذهب البصريين ، ولهم أن يقولوا: إن فى «إخوتك» معنى الفعل، وإن كان من أخوة النسب، أى: ينتسبون إليك بالأخوة ، وكذا فى أمثاله ، فجاز أن يعمل العامل الضعيف فيما تقدم عليه لتَقَوِّيه بـ «إلا» ، ولا يلزم مثله فى المفعول معه ، فإنه لايتقدم على عامله ، وإن كان فعلا صريحا ، لأن أصل الواو للعطف فروعى ذلك الأصل .

ولو لم يكن فى الجملة أيضا معنى الفعل لجار أن ينتصب المستثنى ، إذ

الجملة ليست بأنقص مشابهة للفعل التام كلاماً بفاعله من المفرد الذى يتم بالنون والتنوين ، فينصب التمييز ، ولا سيما مع تقويه بأداة الاستثناء ، وإلى مثله يشير كلام سيبويه فى مواضع فيقول: عمل فيه ما قبله كعمل العشرين فى الدرهم (١) .

لهذا وغيره يمكننا أن نقول: إن ما قاله ابن الحاجب من نسبة العمل فى المستثنى بـ «إلا» إلى المستثنى منه بواسطة «إلا» كلام ضعيف مردود غير مقبول .

***

---

(١) الرضى على الكافية (٢/١٨ , ٨٢) ، وانظر الكتاب (٢/ ٣١٠) .

(٦)

المميَّز

اتفق النحويون على أن التمييز المنصوب إذا كان مبينا للاسم فإن ناصبه هو ذلك الاسم ، نحو« عشرون درهما » [1] ،هذا ولا ينتصب المميِّز إلا عن مفرد تام ، والاسم إنما يتم بأربعة أشياء هى :

التنوين نحو: عندى رطلٌ زيتاً، ونون التثنية نحو: عندى منوان سمناً، ونون الجمع نحو: عندى عشرون درهماً ، والإضافة نحو: معى ثلاثة عشر رجلا [2].

فإذا تمّ الاسم المفرد المميَّز نُصِب التمييز ، ولم يختلف العلماء فى أن الناصب إنما هو الاسم المميِّز ، ولكنهم اختلفوا : بأى شىء شبهت هذه الأسماء الجامدة حتى عملت النصب فى التمييز ؟ ، وقد ذكر أن البصريين اختلفوا فى الذى شبهت به هذه الأسماء على قولين [3] :

أحدهما : أن الاسم المميَّز يشبه اسم الفاعل لأنه طالب له فى المعنى ، فنحو «عشرون درهما» يشبه نحو «ضاربون زيدا» ، ونحو «رطل زيتا» ، يشبه نحو «ضارب عمرا» ، فالاسم المميز يشبه اسم الفاعل فى أمورهى: الاسمية ، والطلب المعنوى ، ووجود مابه التمام ، وهو التنوين ، والنون .

ثانيهما : أن الاسم المميَّز يشبه« أَفْعَلَ مِنْ » وذلك فى المرتبة الخامسة من

---

(١) شرح التسهيل (٢/ ٣٧٩) ، والتصريح (١/ ٣٩٥) ، والهمع (١/ ٢٥٠) ، والأشمونى (٢/ ١٩٦).

(٢) شرح المفصل (٢/ ٧١، ٧٢).

(٣) التصريح (١/ ٣٩٥) ، والهمع (١/ ٢٥٠) ، وحاشية الخضرى على ابن عقيل (١/ ٢٢٣).

الفعل ، ولذلك فالتمييز باب ضعيف ، وأما كون الاسم المميِّز فى المرتبة الخامسة فبيانه كمايلى :

أن الفعل هو أصل العوامل كلها ، لذلك يعمل معتمداً على نفى أو استفهام أو مخبر عنه أو موصوف أو ذى حال ، ويعمل أيضا غير معتمد على ذلك،أما اسم الفاعل فلا يعمل إلا معتمدا على واحد مما تقدم (على الأرجح) فاسم الفاعل ينحط درجة فى العمل عن الفعل ، فهو فى المرتبةالثانية.

واسم الفاعل أصل فى العمل للصفة المشبهة ، لأن اسم الفاعل يعمل فى السببى والأجنبى،والصفة المشبهة لاتعمل إلا فى السببى دون الأجنبى ، فهى تنحط درجة عن اسم الفاعل ودرجتين عن الفعل ، لذلك كانت فى المرتبة الثالثة .

والصفة المشبهة أصل فى العمل لـ «أفعل من» ، لأن الصفة المشبهة ترفع الظاهر ، و «أفعل من» لا يرفع الظاهر إلا فى مسألة واحدة هى مسألة الكحل،لذلك فهو ينحط درجة عن الصفة المشبهة ، ودرجتين عن اسم الفاعل وثلاثاً عن الفعل ، فهى فى المرتبة الرابعة .

« وأفعل من » أصل فى العمل للمقادير،وهو الاسم المميِّز فى التمييز المبين لإبهام اسم،وذلك لأن« أفعل من » يتحمل الضمير ، والمميِّزلا يتحمله ، فهو ينحط درجة عن « أفعل من»، ودرجتين عن الصفة المشبهة ، وثلاثاً عن اسم الفاعل ، وأربعاً عن الفعل ، لذلك كان فى المرتبة الخامسة ، وصا ر بابه ضعيفا .

هذا وقد اختار الثانى منهما جماعة من العلماء منهم أبو حيان ، وعللوا ذلك بأن تشبيهه باسم الفاعل بعيد لأن اسم الفاعل لا يعمل إلا معتمداً ، ويعمل فى النكرة والمعرفة ، وقالوا: إن حمل الشىء على ما هو به أشبه أولى [1] .

هذا ، ومع أن العمل هنا قد نسب إلى واخد من الأسماء الجامدة فإن

(١) التصريح (١/ ٣٩٥) ، والهمع (١/ ٢٥٠).

هذا العامل قد سلم من كثير من الاعتراضات التى توجه إلى غيره، وأهم هذه الأمور التى سلم منها مايلى :

١ ـ أن هذا العامل لايتقدم عليه معموله [1] كما كان فى العوامل الأخرى فجاز أن ينسب العمل اليه .

٢ ـ أن هذا العامل لا يكون ضميرا ، كما كان ذلك فى بعض العوامل الأخرى .

٣ ـ أن العمل هنا إنماهو النصب ، وهو عمل يقل قوة عن الرفع ، فجازأن يكون عامله ضعيفا.

٤ ـ أن الداعى الى نسبة العمل هنا إلى الاسم الجامد هو أنه لا يوجد فى العبارة فعل أو مايشبه الفعل حتى ينسب إليه العمل ، بخلاف ماكان فى باب الاستثناء أو فى المفعول به.

لذلك صح القول بأن المميِّز هو الناصب فى باب التمييز ، وأنه هو العامل وإن كان اسماً جامدا ٠

***

---

(١) التصريح (١/ ٤٠) ، وحاشية الخضرى (١/ ٢٢٥).

(٧)

المضـــــاف

اختار سيبويه أن عامل الجر فى المضاف إليه إنما هو المضاف [١] ، وقد وافقه على ذلك كثير من النحويين ، ونسب هذا الـــقول إلى جمهور النحويين [٢] .

فإذا قلت «جاءنى غلام زيد »،كان عامل الجر فى« زيد» إنما هـو «غلام»، وقد احتج هؤلاء لقولهم ببعض أمور ، أهمها :

١ ـ أن الضمير يتصل بالمضاف ، فتقول « كتابه وكتابى وكتابك »، والضمير لا يتصل إلا بعامله .

٢ ـ أن المضاف يطلب المضاف إليه ؛ كما يطلب العامل معموله .

٣ ـ أن المضاف تضمن معنى حرف الجر فجاز له أن يعمل فى المضاف إليه .

هذا ومن النحويين من قال:إن المضاف يعمل فى المضاف إليه بنفسه أصالة،ومنهم من قال.إنه يعمل لأنه نائب عن حرف الجر المحذوف [٣].

ولم أطلع فى كتب النحويين على اعتراضٍ لما اختاره سيبويه ووافقه عليه جمهور النحويين من أن المضاف هو الذى عمل الجر فى المضاف إليه ، حتى إن الشيخ الخضرى يقول فى ذلك : «فلا يرد أن الأسماء المحضة لاحظ لها فى العمل » [٤] .

---

(١) الكتاب (١/ ٤١٩).

(٢) توضيح المقاصد (٢/ ٢٤١) ، والارتشاف (١/ ٥٠١) ، والتصريح (٢/ ٢٤) ، والهمع (٢/ ٤٦) ، والأشمونى (٢/ ٢٣٧) ، وحاشية الخضرى على ابن عقيل (٢/ ٣).

(٣) حاشية الخضرى (٢/ ٣).

(٤) المرجع السابق.

وهذا القول بنسبة العمل إلى المضاف - وان كان ينسب العمل إلى الأسماء الجامدة المحضة - يمكن قبوله لسلامته من بعض الاعتراضات التى وجهت إلى غيره من الأسماء العاملة وهى جامدة ، وذلك كما قُبِلَ القول بأن التمييز ناصبه هو المميِّز .

ومما يرجِّح التسليم بهذا القول ما يلى :

١ - أن المعمول هنا - وهو المضاف إليه - لا يتقدم على عامله - وهو المضاف - كما قيل فى المبتدأ وفى الخبر ونحوهما ، بل إن المضاف إليه هنا لا يتقدم معموله على المضاف لأنه من تمامه ، وهذا عند جمهور النحويين [١].

٢ - أن المضاف لا يكون أبداً ضميراً بارزاً ولا مستتراً ،فلا يتأتى عليه اعتراض كما ورد فى غيره من عوامل الأسماء الجامدة .

٣ - أن الترابط بين المضاف والمضاف إليه شديد جداً ، فهما كالكلمة الواحدة ، وموقع المضاف إليه من المضاف كموقع التنوين من الاسم المنون ، حتى إن المضاف ليكتسب من المضاف إليه التذكير والتأنيث كما نص عليه النحويون [٢].

كما أنه لشدة الترابط بينهما لم يجز الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلا فى مسائل معدودة نص عليها النحويون [٣] .

٤ - أن الجر عمل ليس بقوى ، فصح أن ينسب إلى الأسماء الجامدة ، ولا تجوز نسبته إلى الأفعال ، لأن الأفعال لاتعمل جرا ، إنما هو عمل الحروف ، أو ما قام مقامها كالمضاف .

* لهذا وغيره ساغ أن ينسب عمل الجر إلى الأسماء الجامدة .

---

(١) همع الهوامع ٢/٤٩ .

(٢) التصريح (٢/٣٢) ، والأشمونى (٢/٢٤٧) .

(٣) التصريح (٢/٥٧ - ٦٠) ، والأشمونى (٢/٢٧٥ - ٢٨٠ .

المتبـــــوع

جوَّز العلامة السيوطى أن يكون العامل فى التابع هو المتبوع نفسه، وذلك حينما عرض الخلاف فى العامل فى التوابع ، ثم قال : « ولو قيل:العامل فى الكل المتبوع لكان له شواهد تؤيده، منها قولهم: أن المبتدأ عامل فى الخبر ، والمضاف عامل فى المضاف إليه ، ولم أر أحداً قال بذلك هنا(١) .

ويفهم من خلال كلامه بعض أمور :

١ ـ أنه لا يقول بهذا القول ولا يرجحه ، وإنما يجوز مثل هذا الرأى لو قيل به .

٢ ـ أن هذا القول لم يقل به أحد قبل ذلك .

٣ ـ أنه يجعل العامل فى التوابع كلها إنما هو المتبوع .

٤ ـ أنه يستأنس لهذا القول ، وينظّر له بعمل المبتدأ فى الخبر ، وبعمل المضاف فى المضاف إليه .

ونسبة العمل إلى الاسم هنا تَرِد عليها اعتراضات كثيرة منها :

١ ـ أن فيها نسبة عمل مختلف إلى معمول واحد ، فلو سلمنا بهذا القول لوردت أساليب تنسب إلى المتبوع عمل الرفع ، وأساليب تنسب إليه النصب وأساليب تنسب إليه الجر ، بل و أساليب تنسب إليه الجزم لو عطفنا فعلا مجزوما على مثله ، وهذا كلام لا نظير له فى الكلام .

٢ ـ أن التابع يعد كالجزء من متبوعه ، فهو مكمل له ، ولا يصح أن يعمل الشىء فى جزءمنه .

٣ ـ أننا لو قلنا «قابلتك إياك» و «قم أنت» وقلنا: إن المتبوع هنا عمل فى تابعه نكون قد نسبنا العمل إلى الضمير البارز فى الأول ، وإلى الضمير المستتر

---

(١) همع الهوامع (٢/ ١١٥).

فى الثانى وهذا كلام لا نظير له ، ،ونسبة العمل إلى الضمير لا تصح .

٤ ـ أننا لو قلنا: « جاء زيد وعمرو الفاضلان» ، وقلنا :إن التابع قد عمل فيه متبوعه نكون قد نسبنا العمل إلى «زيد وعمرو» بأنهما عملا الرفع فى صفتهما وهى «الفاضلان» وهذا حكم بما لا نظير له ، حيث لم يرد عمل اسمين جامدين محضين ، فما بالك لو قلنا :جاء زيد وعمرو وبكر الفضلاء ، ففيه اجتماع أكثر من عامل على معمول واحد فضلا عن أنها أسماء جامدة .

٥ ـ أن نحو «مررت به به» فيه نسبة العمل إلى الجار والمجرور فى مثله ، وهو كلام لا نظير له أبدا ، ولو قلنا:«ليت ليت محمدا مجتهد» لكان فيه نسبة عمل الحرف فى الحرف ،وهو كلام لا نظير له .

٦ـ أن نحو« محمد يجتهد وينجح »، و«جاء جاء زيد» ، لو قلنا: إن المتبوع قد عمل فى تابعه نكون قد حكمنا بعمل الفعل فى الفعل ، وهذا الكلام حكم بما لا نظير له .

٧ ـ أن نحو «قابلت رجلا يقول علما» لو قلنا: إن المتبوع قد عمل فى تابعه نكون قد حكمنا بعمل الاسم الجامد فى الجملة بعده ، وهذا كلام لا نظير له .

٨ ـ أن التنظير بعمل المبتدأ فى الخبر لا يجوز لبعض أمور ، أهمها :

أ ـ أن العلاقة بين المبتدأ والخبر تختلف عن العلاقة بين التابع والمتبوع ، فالأولان معا تتم بهما فائدة يحسن السكوت عليها ، أما الأخيران فليسا كذلك.

ب ـ أن عمل المبتدأ فى الخبر لو صح فهو عمل واحد له صورة واحدة هى الرفع ، أما عمل المتبوع فى تابعه فله صور متعددة بحسب إعراب المتبوع .

ج ـ أن المبتدأ لا يكون ضميرا مستترًا على نحو ما يكون فى المتبوع.

د ـ أن معمول المبتدأ وهو الخبر إنما هو عمدة ، أما معمول المبتوع وهو التابع فإنما هو فضلة .

هـ - أن عمل المبتدأ فى الخبر كلام لم يسلم من الرد والاعتراض فلا يصح التنظير به .

لهذا وغيره لا يجوز القياس على عمل المبتدأ فى الخبر ، ولا يصح التنظير له .

٩ - أن التنظير بعمل المضاف في المضاف إليه لايجوز لبعض أمور أهمها:

أ - أن علاقة المضاف بالمضاف إليه تختلف عن علاقة المتبوع بتابعه ، لأن المضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ، ويؤديان معنى المفرد ، ويدلان على شيء واحد والتابع مع متبوعه يختلف عن هذا فى بعض صوره .

ب - أن المضاف لا يعمل فى المضاف إليه إلا عملا واحدا هو الجر ، أما عمل المتبوع فى تابعه لو صح فتكون صور العمل مختلفة بحسب إعراب المتبوع .

ج - أن المضاف لا يكون ضميرا بارزاً أو مستترا أبدا ، بخلاف المتبوع .

د - أن المضاف لا يتم معناه إلا بالمضاف إليه ، وهو يطلبه لأنه لا يتم إلا به ، أما المتبوع فهو تام ، وإنما جيء بالتابع لإفادة معنى زائد .

لهذا وغيره لا يجوز القياس على عمل المضاف فى المضاف إليه ، ولا يصح التنظير به .

* لأجل هذا كله بطل القول بأن المتبوع عامل فى تابعه ، ولا يصح الأخذ به والاعتماد عليه . . والله أعلم .

الخاتمـــــة

بعد هذه الدراسة المتأنية والمتأملة فى العوامل من الأسماء غير المشبهة للأفعال والحروف يمكن أن نستخلص منها نتائج ، أهمها ما يلى :

١ ـ أنه لا يصح القول بأن الأسماء الجامدة تعمل الرفع ، فلا يقال :إن رافع الخبر هو المبتدأ ، لا بنفسه ، ولا بتقويته لغيره ، ولا يقال :إن رافع المبتدأ هوالخبر ، ولا يقال أيضا : إن رافع المبتدأ هو الضمير العائد من الخبر عليه.

٢ ـ أنه لا يصح القول بأن المفعول ناصبه هو الفاعل ، ولا يصح القول أيضا بأن المستثنى ناصبه المستثنى منه ، سواء أكان هذا العامل عاملا بنفسه أم عاملا مع غيره .

٣ ـ أن القول بأن ناصب تمييز الاسم إنما هو المميِّز قول صحيح ، والأخذ به أولى ، وهو قول أجمع عليه جمهور العلماء .

وأن القول بأن المضاف قد عمل الجر فى المضاف إليه قول صحيح أيضا ،والأخذ بـه أولى .

٤ ـ أن ماجوّزه السيوطى من نسبة العمل إلى المتبوع إنما هو كلام مردود معترض عليه ولا يجوز الأخذ به.

***

أهم المصادر والمراجع

(١) ائتلاف النصرة فى اختلاف نحاة الكوفة والبصرة لأبى بكر اليمنى ، ت طارق الجنانى ، ط. عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، بيروت ، الأولى ١٤٠٧ ه ١٩٨٧م.

(٢) اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر للبنا ، ت د/ شعبان محمد إسماعيل، ط. الكليات الأزهرية بالقاهرة وعالم الكتب ، بيروت الأولى ١٩٧٩م.

(٣) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان ، ت د/ مصطفى أحمد النماس ، توزيع الخانجى ، الثالثة ١٩٧٩م.

(٤) أسرار العربية لأبى البركات الأنبارى ، ت / محمد بهجت البيطار ، ط. المجمع العلمى بدمشق ، مطبعة الترقى ١٣٧٧/ ١٩٥٧.

(٥) الإنصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الأنبارى ، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. دار الفكر بيروت.

(٦) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصارى ، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. دار إحياء التراث العربى بيروت ، السادسة ١٩٨٠م.

(٧) الإيضاح فى شرح المفصل لابن الحاجب ، ت/ موسى بناى العليلى ، نشر وزارة الثقافة والشئون الدينية بالعراق ـ مطبعة العانى بغداد.

(٨) التبيين عن مذاهب النحويين للعكبرى ، د/ عبد الرحمن العثيمين ، ط. دار الغرب الإسلامى بيروت ، الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

(٩) تذكرة النحاة لأبى حيان ت. د/ عفيفى عبد الرحمن ، ط. مؤسسة الرسالة ، الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

(١٠) التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى «وحاشية الشيخ

يس عليه» ، ط. دار إحياء الكتب العلمية ، فيصل الحلبى.

(١١) توضيح المقاصد والمسالك للمرادى ، ت /عبد الرحمن على سليمان ، ط . الكليات الأزهرية.

(١٢) حاشية الخضرى على ابن عقيل ، طبعة عيسى الحلبى.

(١٣) الخصائص لابن جنى ،ت /محمد على النجار ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(١٤) الخلاف النحوى بين البصريين والكوفيين عند الأنبارى والعكبرى ، رسالتى العلمية لنيل درجة الدكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

(١٥) شرح الألفية للأشمونى «منهج السالك إلى ألفيه ابن مالك» طبعة عيسى الحلبى.

(١٦) شرح التسهيل لابن مالك ،ت /عبد الرحمن السيد ، ومحمد بدوى المختون ، ط. دار هجر ، الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

(١٧) شرح كتاب سيبويه للسيرافى ، رسالة علمية بكلية اللغة العربية بالقاهرة ج٣.

(١٨) شرح القصائد السبع الطوال الجاهلية لأبى بكر الأنبارى ، ت/ عبد السلام هارون ،ط. دار المعارف ،الرابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

(١٩) شرح الكافية للرضى ،ت/ يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قاريونس بليبيا ١٩٧٨م.

(٢٠) شرح اللمحة البدرية لابن هشام ،ت/ صلاح راوى ،ط. حسان بالقاهرة. الثانية ١٩٨٥م.

(٢١) شرح المفصل لابن يعيش ، ط. عالم الكتب - بيروت.

(٢٢) الكتاب لسيبويه ت/ عبد السلام هارون ،ط. عالم الكتب بيروت.

(٢٣) اللباب فى علل البناء والإعراب ، لأبى البقاء العكبرى ، ت/ خليل بنيان الحسون، رسالة علمية بكلية الآداب جامعة القاهرة.

(٢٤) اللمع فى العربية لابن جنى ،ت،د/حسين محمد محمد شرف ، ط.عالم الكتب الأولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢٥) المتبع فى شرح اللمع ، لأبى البقاء العكبرى ،ت/عبد الحميد أحمد حماد ، رسالة علمية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

(٢٦) مجالس ثعلب ، ت،/عبد السلام هارون ، ط. دار المعارف ، الثالثة.

(٢٧) مجالس العلماء للزجاجى ،ت/عبد السلام هارون ،ط. الخانجى ،ودار الرفاعى بالرياض ، الثالثة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٢٨) معانى القرآن للفراء ،ت/أحمد يوسف نجاتى ، ومحمد على النجار ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢٩) المقتضب لأبى العباس المبرد ،ت/ محمد عبد الخالق عضيمه ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦هـ.

(٣٠) المنهل الصافى فى شرح الوافى للدمامينى ،ت/حمدى عبد الفتاح مصطفى ، رسالة علمية بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

(٣١) النكت فى تفسير كتاب سيبويه للأعلم الشنتمرى ،ت/زهير عبد المحسن سلطان ، منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت ، الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

(٣٢) همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى ، ط/الكليات الأزهرية ، الأولى ١٣٢٧هـ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

القسم الثالث

قسم الأدب والنقـــــد

١ - أَصداءُ شِعْرِ العَقَّاد فى شِعْرِ سيِّد قُطْب ٠

د ٠ حسن أحمد عبد الحميد

٢ - المنهج التكاملى فى البحث الأدبى بين النظرية والتطبيق ٠

د ٠ أحمد محمد محمد الأعرج

أصداء شعر العقاد
فى شعر سيد قطب

دكتور

حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام

تمهيــــد :

يعد العقاد أستاذ جيل ، ورأس مدرسة ، تأثر به ، وبما كتبه فى نقد الأدب وتوجيهه ، وبما أبدعه من شعر ، كثير من الشعراء الذين عاصروه ، والذين جاءوا من بعده(١).

بيد أن سيد قطب هو أشبه تلاميذ العقاد به(٢).

ولهذا الشبه بين الرجلين عدة أوجه ، فكلاهما نشأ فى بيئة محافظة بصعيد مصر ، وقضى عمره لم يتزوج ، فلم يعقب.

وكلاهما صاحب ثقافة تراثية متينة ، أثمرت فهما للتراث الأسلامى والعربى وتمثلا له ، وإيماناً به ، واستلهاما له.

وكلاهما قارىء واع للثقافة الغربية ، منتقٍ منها على بصيرة ، دون

---

(١) ولد عباس محمود العقاد سنة ١٨٨٩ فى أسوان،وأتم دراسته الابتدائية، ثم اجتهد فى القراءة والدرس والتحصيل ، حتى بلغ منزلة الريادة فى كثير من فروع الثقافة والأدب وتوفى سنة ١٩٦٤م.

(٢) ولد سيد قطب سنة ١٩٠٦ م فى قرية (موشا)بمحافظة أسيوط ، وحفظ القرآن الكريم وهو صغير ، وتخرج فى دار العلوم سنة ١٩٣٣ م ، وبعد حياة حافلة ، أعدم شنقا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٦ م .

مغالاة فى الرفض ، أو القبول.

وكلاهما عرف بشدة اعتداده برأيه ، وإيمانه بمبادئه ، وقدرته على المحاورة والإقناع ، واستعداده لخوض لجج الخصومة الفكرية ، والمعارك الأدبية ، وتحمل التضحيات فى سبيل ما يؤمن به.

والتراث الفكرى والأدبى لهما متشابه فى اتجاهاته العامة ،وهو تراث غزير ومتنوع.

كان العقاد ناقداً ، وكذلك كان سيد قطب ، وكان العقاد شاعراً وأديباً ، وكذلك كان سيد قطب.

واهتم العقاد بالفكر الدينى عامة ، والفكر الاسلامى خاصة ، وكتب عن موضوعات اجتماعية ، وقضايا إنسانية ، وعن مذاهب وشخصيات.

وطرق سيد قطب بقلمه كل هذه الأبواب ، كما كتب كل منهما سيرته الذاتية.

هذا التشابه بين الرجلين ، واقتراب سيد قطب ـ خاصة فى فترة شبابه ـ اقتراباً شديداً من العقاد ، جعلا النظر فى شعرهما ، للوقوف على مواطن التأثير والتأثر أمراً وجيهاً فى نظرى.

مـذهـب واحـد :

مثلت كتابات العقاد وزميليه ، شكرى ، والمازنى ، فى نقد أدب المحافظين والدعوة الى أدب جديد ، أسسا لاتجاه جديد فى الأدب عامة ، وفى الشعر خاصة.

وقد شملت هذه الأسس مضامين الشعر ومواضيعه ، وأطره وأشكاله ، وصوره ولغته ، كما تناولت مهمة الشعر ووظيفته ، وحقيقته وماهيته ، وحد الشاعر العظيم وصفته (١).

ولقد كان للفكر النقدى الذى أذاعه المجددون والشعر الذى أبدعوه أثر

(١) انظر فى ذلك: تطور النقد الحديث فى مصر د/ عبد العزيز الدسوقى ، والعقاد ناقدا د/ عبد الحى دياب والنقد العربى الحديث د/ محمد زغلول سلام .

كبير فى توجيه الأدب ونقده ، فراح كثير من الشعراء يدعون أشعارهم على هدى من الشعر الذى قدمه دعاة التجديد بوصفه النموذج التطبيقى لما يدعون إليه.

ويبدو سيد قطب أقرب شعراء جيله من روح التجديد الراشد وأشدهم تأثراً برائد المجددين عباس محمود العقاد ، تنظيراً وتطبيقاً.

فلم يجنح فى نقده إلى تمجيد المثل الغربى ، ولم يفتن بالفكر الأجنبى ، ولم يهدر قيمة التراث العربى ، ويرىء أسلوبه من الرطانة والعجمة ، وسلم منهجه من التعصب لمنهج أو الانغلاق على فكر.

أولى سيد قطب ـ فى تنظيره للشعر ـ عناية خاصة لقوة شخصية الشاعر، وصحة احساسه بالأشياء، وصدقه فى التعبير عن هذا الإحساس، وعمق اتصاله بأسرار الكون ، وينابيع الطبيعة ، وحقائق الحياة.

فالشاعر الحقيقى ـ عنده ـ «هو الذى يحس بالحياة إحساساً عميقاً ، ويترجم عنها للأحياء... هو انسان ممتاز ،لأن الحياة صاغته على مثال خاص ليؤدى بها مهمة خاصة» (١).

والأديب الكبير هو رسول من رسل الحياة إلى الآخرين الذين لم يمنحوا حق الاتصال ، كما منحه ذلك الرسول ، فهو يطلع من خفايا الحياة على ما لا يطلع عليه الآخرون ، وهو يحسها في صميمها مجردة عن الملابسات الوقتية ، والحدود الزمنية ، يحسها كما انبثقت أول مرة من نبعها الأصيل ، وكما تدفقت غير منقطعة فى مجراها الواسع الطويل.

ووظيفته أن يفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما يطيق ، وقيمة الأديب الكبرى إنما تقاس بمقدار اتصاله بالنبع من وراء الحواجزوالسدود » (٢)

---

(١) مهمة الشاعر فى الحياة لسيد قطب ص ٢١ نقلا عن تطور النقد العربى الحديث للدسوقى ص ٤٣٨ ولم أتمكن من العثور على هذا الكتاب لخلو المكتبات العامة من أكثر كتب سيد قطب ـ خاصة نتاجه الأدبى الذى لم يعد طبعه والذى منه (مهمة الشاعر، وقصة بعنوان أشواك ، والترجمة الذاتية التى كتبها عن نفسه) .

(٢) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ـ لسيد قطب ص ٢٥ .

وفى فهمه لطبيعة الشعر ووظيفته ، يذهب الى أنه « ينبغى أن يصور أعماق النفس ، ويصف لك الشعور الحساس وصفا غامضا مبهما ، يدع لشعورك أن ينطلق ، ولخيالك أن يتيه ، لأنه لا يضع أمامك مقاييس وحدوداً، ولكنه يدعك فى ميدان فسيح فى عالم الروح الرحيب » (١) .

وعن أصالة الأديب صاحب الشخصية ، وعلامات هذه الأصالة الدالة على شخصيته فى تناول الأفكار ، والتفاعل معها ، والتعبير عنها ، يقول: « وطابع الشخصية هو السمة الأولى لكل أديب أصيل ، وهو لا يقتصر على النظرة الشعورية الى الكون والحياة ، بل يتعداها الى طريقة تناول الموضوع ، أى الأسلوب ، والى التعبير نفسه ، واختيار الألفاظ فيه» (٢).

ونحن اذا قابلنا هذه الآراء بقول العقاد ـ مثلا :

« اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وانما مزيته أن يقول لك ما هو، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به » (٣).

وقول شكرى: « .. وكل شاعر عبقرى خليق بأن يدعى متنبئا ، أليس هو الذى يرمى مجاهل الأبد بعين الصقر ، فيكشف عنها غطاء الظلام ؟» (٤).

وقول العقاد: « والشاعر فى أوجز تعريف ، هو الإنسان الممتاز بالعاطفة والنظرة الفاحصة إلى الحياة ، وهو القادر على الصياغة الجميلة فى إعرابه عن العواطف والنظرات » (٥)

تبين لنا أنها من وادٍ واحد ، وأدركنا أن سيد قطب اعتنق فى تنظيره للشعر ونقده الأفكار التى أذاعها المجددون ، وفى مقدمتهم العقاد ، الذى كان

---

(١) مهمة الشاعر فى الحياة ص ١٦ ــ ١٧ نقلا عن الدسوقى ص ٤٢٨ .

(٢) النقد الأدبى لسيد قطب ص ٢٤ .

(٣) الديوان فى الأدب والنقد ص ٣٩ .

(٤) انظر مقدمة ديوانه زهر الربيع ص ٢٨٧ من الديوان الجامع .

(٥) راجع النقد العربى الحديث . د/ سلام ص ٢١٩ .

أستاذه ومثله الأعلى ـ خاصة فى مرحلة الشباب ـ لدرجة أنه خاض المعارك الأدبية تحت لوائه ، مدافعا عنه ، رافعا من قدره فوق أقدار خصومه (١).

أما شعره فقد اتسم بعمق النظرة إلى مشكلات الوجود وظواهر الحياة ، وبالتوهج العاطفى وصدق التعبير عن النفس ، مع البعد عن الليونه والرخاوة اللتين أخذنا على أكثر شعراء جيله (٢) ، وبالمحافظة على فصاحة الألفاظ وسلامة الأساليب ، وبالثراء الموسيقى .

والناظر فى هذا الشعر يرى أثر العقاد فيه ، ويتمثل هذا الأثر فى الأصداء التى ترددت فى عناوين القصائد ، وفى الموضوعات والمعانى ، وفى أساليب التعبير عن تلك الموضوعات ، وطرق التصوير لهذه المعانى ، وفيما يلى تفصيل ذلك وبيانه :

أولاً : فى عناوين القصائد :

نشر كل من العقاد ، وسيد قطب شعره على مدى عدة عقود ، ومادمنا نبحث عن أثر الأول فى صاحبه ، لابد أن نتاكد أن شعر العقاد الذى نزعم أنه أثر فى شعر سيد قطب قد ظهر الى الوجود أولا .

ظهرت دواوين العقاد بهذا الترتيب :

يقظة الصباح	عام ١٩١٦
وهج الظهيرة	عام ١٩١٧
أشباح الأصيل	عا م١٩٢١
أشجان الليل	عا م ١٩٢٨
وحى الأربعين	عام ٩٣٣
هدية الكروان	عام ١٩٣٣

(١) جماعة أبولو . د/ عبد العزيز الدسوقى ص ٤٩٥ .

(٢) راجع تطور الأدب الحديث فى مصر د/ أحمد هيكل ص ٣٥٢ .

عابر سبـــــيل	عام ١٩٣٧
أعاصيــــر مغرب	عام ١٩٤٢
بعد الأعاصيـــــر	عام ١٩٥٠
ديوان من دواوين	عام ١٩٥٨
ما بعد البعــــد	عام ١٩٦٧

أما سيد قطب فقد ظهر ديوانه (الشاطىء المجهول) سنة ١٩٣٥

ونشر له فى الدوريات عدد كبير من القصائد قبل هذا التاريخ وبعده ..

وفى سنة ١٩٨٩ أصدر الأستاذ عبد الباقى محمد حسين (ديوان سيد قطب)ضمنه شعره كله ، ما نشر فى الديوان ، وما تبعثر فى الدوريات ، ومن حسنات هذا الديوان الجامع أنه صدر بجداول تبين تاريخ نشر كل قصيدة ، ومكان نشرها ، وأحيانا تبين تاريخ إنشاء القصيدة الذى يسبق تاريخ النشر .

وهذا شىء كان سيد قطب قد صنعه فى ديوان (الشاطىء المجهول)

أستطيع أن أوكد ـ بعد ذلك البيان ـ أن كل قصائدالعقاد التى وردت دراستها أو الإشارة إليها فى هذا البحث ، بوصفها ذات أثر فى شعر سيد قطب قد ظهرت أولا دون شك .

أعود إلى عناوين القصائد ، فأقول: إنه قد وقع التشابه بين عناوين قصائد الشاعرين فى أكثر من خمسةوعشرين موضعا هذا بيانها :

عناوين قصائد العقاد	تاريخ نشرها	عناوين قصائد سيد قطب	تاريخ نشرها
القمة الباردة	فى ديوانه (أشباح الأصيل) سنة١٩٢١ .	على القمة	١٩٣٧
الخريف	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	نداء الخريف خريف الحياة	١٩٤٣ ١٩٣٤
إلى السعادة - السعادة	فى ديوانه(يقظة الصباح) سنة ١٩١٦	السعادة حديث الأشقياء	١٩٣٠
وقفة فى الصحراء	فى ديوانه(يقظة الصباح) سنة ١٩١٦	فى الصحراء	١٩٣٢
حظ الشعراء	فى ديوانه (يقظة الصباح) سنة ١٩١٦ .	سعادة الشعراء	١٩٢٨
إلى صديق	فى ديوانه (يقظة الصباح) سنة ١٩١٦ .	الصديق المفقود	١٩٣٠
البغض والحب	فى ديوانة (يقظة الصباح) سنة ١٩١٦ .	الحب المكروه	١٩٣٤
نفثه	فى ديوانه(وهج الظهيرة) سنة ١٩١٧ .	زفرات جامحة مكبوحة	١٩٢٩
ثورة النفس	فى ديوانه(أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	عزلة فى ثورة	١٩٢٩

عناوين قصائد العقاد	تاريخ نشرها	عناوين قصائد سيد قطب	تاريخ نشرها
أمنيتى	فى ديوانه (أشباح الأصيل) سنة ١٩٢١ .	حلم قديم	١٩٤٥
رؤيا	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	طيف	١٩٢٩
الخالد الميت	فى ديوانه (أشباح الأصيل) سنة ١٩٢١ .	خدعة الخلود	١٩٤٨
موت الحب	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	مصرع حب على أطلال الحب	١٩٣٤ ١٩٣٤
نبئينى	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	حدثينى	١٩٣٤
المغنم المجهول	فى ديوانه (وهج الظهيرة) سنة ١٩١٧ .	الغد المجهول	١٩٣٤
عل باب السماء	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	فى السماء	١٩٣٨
الدنيا الميتة	فى ديوانه (وهج الظهيرة) سنة ١٩١٧ .	الدنيا	١٩٣٠
تبسم	فى ديوانه (وهج الظهيرة) سنة ١٩١٧ .	ابتسامة	١٩٣٠
فراق يوم	فى ديوانه (أشباح الأصيل) سنة ١٩٢١ .	مَرَّ يومٌ	١٩٣٤
شوق إلى الظمأ	فى ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	الظامئة	١٩٣٤
المزمار	فى ديوانه(يقظة الصباح) سنة ١٩١٦ .	العود	١٩٢٧
العقاب الهرم	فى ديوانه(يقظة الصباح) سنة ١٩١٦	الجبار العاجز	١٩٣٤

عناوين قصائد العقاد	تاريخ نشرها	عناوين قصائد سيد قطب	تاريخ نشرها
الموت والخيانة	في ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	الغيرة	١٩٣٤
الشك	في ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	ليلة الشك	١٩٣٤
السُّلُو	في ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	أكذوبة السلوان	١٩٤١
اليقين	في ديوانه (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨ .	اليقين	١٩٣٤
أحلام الموتى	في ديوانه(يقظة الصباح) سنه ١٩١٦ .	السر أو الشاعر في وادى الموتى	١٩٣٤

والتشابه بين قصيدتين في العنوان قد يتبعه اتفاق بينهما في الموضوع وتقارب في المعاني ، وقد تتشابه العناوين وتختلف المضامين .. لكن تشابه العناوين يظل قرينه تدل ـ مع غيرها ـ على تشابه المذهب ، وتقارب المشرب بين الشعراء ، وقد وقع هذا التشابه في العناوين بين العقاد والمازني وعبد الرحمن شكرى ، كما وقع بين عدد من قصائد العقاد ، وعدد من قصائد (الذخيرة الذهبية) وهو كتاب ضم مختارات من الشعر الإنجليزى الذى تأثر به العقاد (١)

ثانياً: في موضوعات الشعر ومعانيه .

موضوعات الشعر ومعانيه هي الميدان الرحب الذى يقع فيه التأثير والتأثر بين الشعراء ، والبحث عن أنساب المعاني هو ما دفع النقاد في القديم وفي الحديث إلى رصد ما سموه (بالسرقات الأدبية) وإلى محاولة الوصول إلى مقاييس تفرق بين التأثر الجائز والسطو المعيب .

---

(١) انظر . شاعرية العقاد . د/ عبد الحى دياب ص ٩٥ .

وفى هذا المبحث محاولة لتتبع المواضع التى تأثر فيها سيد قطب بالعقاد فى هذا المجال ، وقد ظهر لى أن الزمن والمصير ، والرغبة فى المعرفة ، وقضية الوجود والعدم ، وقصة الناس مع الأقدار ، ورثاء الحيوان ، والحب ، هى الموضوعات التى وقع فيها تأثر سيد قطب بالعقاد كثيراً ، وإليك تفصيل ذلك ·

١ ـ الزمن والمصير والرغبة فى المعرفة ·

تحمل أكثر دواوين العقاد أسماء تدل على شدة مراقبته للزمن ، وفرط إحساسه به (يقظة الصباح ـ وهج الظهيرة ـ أشباح الأصيل ـ أشجان الليل ـ وحى الأربعين ـ أعاصير مغرب ـ بعد الأعاصير ـ ما بعد البعد) هكذا يتسق ترتيب ظهور الدواوين مع أجزاء اليوم ، ثم يكون لأربعين عاماً تمضى من عمر الشاعر وحى بدايوان ·

وفى شعره عدد كبير من القصائد التى اتخذت من الزمن موضوعاً لها ، ومن هذه القصائد:(الخريف ـ سوانح الغروب ـ الليل والبحر ـ الشتاء فى أسوان ـ عيش العصفور ـ الزمن ـ قدوم الشتاء ـ زماننا) (١) و (وبعد عام ـ الشيب الباكر ـ العام الجديد ـ فى الربيع ـ غرام الصبا ـ الشيخوخة) (٢) ·

وتأتى الإشارة إلى الزمن وأثره فى الحياة والأحياء فى مواضع كثيرة أخرى ·

وهذه المراقبة الصارمة للزمن ، أدت الى تفكر طويل فى سره ، والى البحث عن مآل الحياة التى يجرها هذا الزمن مسرعاً بها نحو النهاية ·

ففى قصيدة بعنوان (سر الدهر) يسائل العقاد الليل والصبح عن أسرار الكون ، وحقائق الحياة ، فلا يظفر عندهما بجواب ، يقول (٣) :

قال لى الليـل وقـد نبهـته   بسؤال ريع مـنه الوسـن

---

(١) جميعها فى ديوان (يقظة الصباح المنشور سنة ١٩١٦ ·

(٢) جميعها من ديوان (وهج الظهيرة) ١٩١٧ ·

(٣) من أشباح الأصيل الذى نشر سنه ١٩٢١ وهى فى ديوان العقاد ص ٢٦١ ·

« لو علمت السر ما أخفيته فاغنم النوم وسل ما يمكن»
قلت يا ليل فما هذا الظلام أولا تطوى به السر المصونا ؟
وعلام الصمت يا رب الكلام أو ليس الصمت بالسر قمينا ؟
ولم النوم؟ أبرأ بالنيام أيها الجَبار أم تخشى العيونا؟
« يمم الصبح فهذا وقته واسأل الأنوار عما تعلن؟
لا الدجى يهدى ولا الصبح ينير أين من هذين سر الأبد؟
أين من هذين لا أين المصير لحق المولد من لم يولد
إنما العالم طاحون يدور مغمض العين ليوم الموعد
صدق الدهر وما أنصفته أو تدرى الترس ماذا تطحن؟

ويصف العقاد حال الناس مع الزمن ، وهى حال عجيبة، يتعجل الانسان مرور الأوقات ، ويمل الزمن ، ثم يتعلق به بعد ذهابه ، ويتمنى أن يعود ، وهيهات أن يرجع الزمن الذى مضى (١).

إن يوما يمر هيهات يغادى الطريق بعد ذهابه
نحن نستدفع الزمان فإن فات أخذنا بالذيل من جلبابه
يا له زائراً يمل إذا جاء ويفدى بالروح حين غيابه

وينظر العقاد إلى تحولات الزمن وآثارها ، ويرى مظاهر إبلاء الدهر فى الأشياءوالأحياء ، ويتمثل خريف الحياة فى خريف الطبيعة ، فيقول فى قصيدته (قدوم الشتاء) (٢) .

تسير الكواكب سير الحذر ويرجف فى الجو نور القمر
وللشمس مشية مستكرهٍ يساق إلى منظر لا يَسُر
ونهر كمرآة مهجورة على وجهه من جواها أثر

---

(١) مقطوعة الزمن من (يقظة الصباح) ١٩١٦ وهى فى ديوان العقاد ص ١٠٥ .
(٢) (يقظة الصباح) ١٩١٦ وهى فى ديوان العقاد ص ١٠٨ .

وللروض زهر به طائح تقلب فى الأرض كالمحتضر

ونادى المنادى بركب الطيور هيا فقد جان وقت السفر

فهذا يحوم على وكره وهذا يصيح ولما يطر

ألا ما لهذا الضحى كاسفاً كأن الأصيل عليه انتشر

وما للرياح بأعلى الشجر تعج كموج خضم زخر

تنام العيون ويعلولها نشيج إذا الليل أغضى ظهر

تحطم أعوادها العاريات تحطيم ذى جنة منذعر

فياويل من بات فى ليلة يجاوبها بالبكا والسهر

***

شواهد تنبىء أن الزما ن يبلِى النبات ويبلى البشر

تنادى بأن الربيع اندثر وأن الشتاء غدا بالأثر

فيا منظرا مونقا للرياض تأنق فيه الربيع العطر

لقد أنكرتك عيون الشتاء وياحسن ما أنكرت من صور

كما أنكر الشيخ من مجلس تداعى الشباب به للسمر

وكل أوان له شارة وما شارة الدهر الا الغير

أما الإحساس بالزمن فى شعر سيد قطب ، فحسبنا أن نستدل عليه من قول الشاعر نفسه فى مقدمة ديوانه (الشاطىء المجهول) ٠

« تبدو ظاهرة تستحق الالتفات فى شعر هذا الديوان ، فكثير منه يدل على إحساس متيقظ بالزمن ، ودوره ، والأسف على انقضائه ، والتنبه إلى قصر الحياة ، ومحاولة خلودها ، أو امتدادها على الأقل ٠

ويملأ الإحساس بالزمن كثيرا من فصول الديوان المختلفة ، ففى فصل (الظلال والرموز) يبدو هذا الإحساس على أشده فى قصيدة (البعث) :

هكذا عشت كسكان القبور فى ربيع العمر فى العهد النضير

آه لو أستطيع للماضى الحسير   رجعة من بعد ما جاء ومر

كنت أحييه كما يحيا الشباب   نابضا بالحب جياش الأمانى

ممسكا أهدابه خوف الذهاب   مستعزاً فيه حتى بالثوانى

ثم يقول:

وليس غريبا أن نلمح اعتزازه بالماضى وأسفه عليه ، متفشيا فى معظم فصول الديوان ، فهو تتمة لهذا الاحساس الغريب بالزمن ، وهو لهذا يحاول الخلود ، ويسلك إليه طرائق شتى » أ هـ (١) .

ومن القصائد التى اتخذت من الزمن موضوعا لها فى شعره:

خريف الحياة سنه ١٩٣٤ الغد المجهول سنة١٩٣٤ إلى الثلاثين سنه ١٩٣٧ خطأ الزمن الوثاب سنه ١٩٣٧ عهد الصغر سنه ١٩٢٨ جولة فى أعماق الماضى سنة ١٩٢٨ الماضى سنة ١٩٢٩ رثاء عهد ١٩٢٩ عهد ذاهب سنة ١٩٣٠ ليلات فى الريف ١٩٣٣ الليلات المبعوثة سنة ١٩٣٣ .

بين عهدين سنه ١٩٤٢نداء الخريف سنة ١٩٤٣ يوم خريف ١٩٣٢ فى ليلة من ليالى الربيع سنة ١٩٤٥ .

فى قصيدة « الماضى» يعيد سيد قطب فكرة العقاد عن موقف الانسان من الزمن والتى تضمنتها مقطوعة « الزمن » فى صورة أكثر عمقا واتساعا ، فيقول(٢):

شبح الماضى وما الماضى سوى   بعض نفسى قد تولاه العدم

يتراءى كلما شط النوى   فاذا الذكرى شجون وألم

وإذا الكامن فى نفسى ثار

جائشا مضطرما

كالجحيم

---

(١) ديوان سيد قطب ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) ديوان سيد قطب ص ٧٦ . وقد نشرت سنه ١٩٢٦ .

كلما أقبل يوم ومضى أو غل الماضى بمجهول سحيق

ذاهباً عنى كبرق أو مضا ثُم دوًى بعده الصمت العميق

وهو صمت تحته صخب مثار

وحنين أضرما

ووجوم

آه لو ملكت تصريف الزمن كيفما أهوى وأنى أرغب

لرجعت الدهر للماضى إذن فإذا بى حيث كنا نلعب

ورفاق لينو العود صغار

ليس ندرى الألما

والهموم

والفكرة فى أبيات العقاد أكثر تركيزاً ، وصياغتها أشد إحكاما ، أما سيد قطب فقد بسط الفكرة وتوسع فيها ، فتتبع آثار الماضى فى نفسه ، وفتش فى أعماقها عن ذكرياته، وتمنى القدرة على تصريف الزمن وإعادة الماضى ·

وكلا الشاعرين سلك سبيل التصوير لتوضيح فكرته ، فالزمن عند العقاد شخص يتعلق الناس بذيل جلبابه بغية استبقائه ، وزائر يمل إذا جاء ، ويفدى بالروح حين غيابه ، والماضى عند سيد قطب بعض نفسه الذى ذهب ، واليوم الذى يمضى برق يومض سرعان ما يختنفى ، مخلفا وراءه الحنين والوجوم · وتمتاز قصيدة سيد قطب بكثافة الصور ، فلا تكاد جملة تخلو من تشبيه أو استعارة · والأفعال الدالة على ذهاب الزمن ، وبقاء ذكرياته فى نفس الشاعر منتاثرة فى القصيدة · وهى أفعاال بصيغة الماضى الدالة على مرور الزمن وانقضائه مثل :(تولى ـ أقبل ـ مضى ـ شط ـ ثار ـ أوغل ـ أومض ـ دوى ـ أضرما) وأفعال مضارعة للدلالة على بقاء الذكريات وتجدد أحساس الشاعر بها مثل : (يتراءى ـ أهوى ـ أرغب ـ نلعب) ومثل هذه الافعال فى الدلالة على التجدد والحدوث أسماء الأفعال ومنها : (الكامن ـ جائشا ـ مضطرما)وتمتلىء القصيدة بالألفاظ الموحية والمصورة ، وتعبيره : « ورفاق لينو العود صغار · · الخ) ينقل القارىء الى جو الطفولة الناعم البرىء ·

كما جاءت القوافى المتعددة والمتعانقة على هيئة الموشح مناسبة للدفقات الشعورية المتنوعة التى حملتها القصيدة .

ومع ذلك ففى بعض مواضع القصيدة ضعف فى الصياغة . منها : قوله «وهو صمت» ففيه تثرية لا تناسب الشعر ، وقوله :« كيفما أهو وأنى أرغب»، فالجملتان بمعنى واحد . وقوله :« ليس ندرى الألما »، فالضمير المستتر فى الفعل الواقع فى محل خبر ليس (نحن) والضمير المستتر فى ليس (هو) . والضميران غير متفقين ـ كما ترى ـ من وجهين هما الإفراد والجمع ، والتكلم والغيبة . والتعبير [illegible] ندرى .

وفى قصيدته ([illegible] الكآبة والذبول ، والسآمة والركود ، فقد ذهبت [illegible] الأطيار ، وبدت فى الأرض علامات الجدب [illegible] الحياة بارتحال .

يقول سيد قطب (١):

بكر الخريف فلا ورود ولا زهـور	ومشى الركود فلا نسيم ولا عبير
صمتت صوادحها فما تشدو الطيو	ر بها وما تشدو الجداول بالخرير
وسرى القفار بكل مخصبة فما	تجد الخصيب بها وما تجد النضير
والسحب طافية تغشى كالستور	وتسير وانية الخطى سير الأسير
فإذا الحياة يغض رونقها الأسى	وإذا القلوب بها كليم أو كسير

***

والحب !ويح الحب من هذا البكور	غامت عليه سحابة اليأس المرير
وذوت بجنـتـه أفانـين المـنى	وخبا بهيكل حسنه القبس المنير
وسها عن التقديس والتسبيح فى	محرابه العباد مسحورو الدهـور
ومشوا بساحته كما يمشى الخلىُّ	من الغرام فلا حنين ولا شعـور

---

(١) ديوان سيد قطب ص ٥٩ .

هانت شعائره ومس ستره في جرأة غير المقدس والطهور

***

الأرض غير الأرض في دورانها لتكاد من فرط السآمة لا تدور

والريح غير الريح في جولانها لتكاد تكتم في جوانحها الزفير

والطير غير الطير في ألحانها لتكاد تنعب بالخراب وبالثبور

والناس غير الناس في آمالها

ليكاد يجثو اليأس في تلك الصدور

بكر الخريف فويله هذا البكور ودنا المصير فويله هذا المصير

ومظاهر الخريف التي صورتها هذه القصيدة هي المظاهر نفسها التي صورتها قصيدة العقاد (قدوم الشتاء) ، وتتفق القصيدتان كذلك في الربط بين خريف الطبيعه وخريف الحياة ، كما حاول كل من العقاد وسيد قطب أن يصور لنا إحساسه بالخريف ، ويتمثل إحساس كليهما في الانقباض والضيق اللذين نستدل عليهما عند العقاد من قوله :

فيا ويل من بات في ليلة يجاوبها بالبكا والسهر

وعند سيد قطب من قوله :

بكر الخريف فويله هذا البكور ودنا المصير فويله هذا المصير

فكلمة (ويل) ومن معانيها الهلاك والبوار والخسران . استخدمها كلا الشاعرين للدلالة على إحساسه بالخريف ، واتفاق القصيدتين في الموضوع ، وفي منزع التصوير ، وفي التعبير عن الضيق والانقباض ، واستخدام لفظ (ويل) في سياقين متشابهين ، كل ذلك يدل على تأثر سيد قطب في قصيدته (الخريف) بالعقاد في قصيدته (قدوم الشتاء) ، فللعقاد فضل السبق ، لكن سيد قطب يتفوق على العقاد في القدرة على مزج مظاهر الطبيعة بأحاسيس نفسه ، فأغلب صور العقاد تقف بنا على تخوم نفسه ، أما صور سيد قطب فتتجاوز التخوم الى الأعماق ، وتعود مثقلة بأحاسيس الشاعر ، حاملة نفثات صدره وزفرات نفسه، ويدل على ذلك شيوع الألفاظ الدالة على حالات النفس

فى قصيدته مثل : (الأسير - الأسى - القلوب - كليم - كسير - اليأس المرير - حنين - شعور - السآمة - الزفير - الثبور - الصدور - المصير) وغيرها .

ومراقبة الزمن ، وتيقظ الاحساس به ، دفعا كلا الشاعرين إلى التساؤل عن المصير الذى يدفع الزمان الحياة والأحياء إليه .

شغل العقاد بأمر هذا المصير ، فكتب فى الموت عدة قصائده منها: (كأس الموت ، وأحلام الموتى ، ،والموت فى الكرى) (١) .

وعلى الرغم من إحساس العقاد بقسوة الموت وإغراقة فى الأذى ، رأى فيه خلاصا من عذاب الحياة ، وهو لذلك كأس شهيةٌ جديرة بأن يحتفى بها ، ويغنى لها ، ولكن ماذا بعد الموت ؟!

كتب العقاد قصيدة وأرسلها إلى صديفه عبد الرحمن شكرى قال فيها(٢):

ستغرب شمس هذا العمر يوماً ويغمض ناظرى ليل الحمام

فهل يسرى إلى قبرى خيال من الدنيا بأنباء الأنام

ويمسى طيف من أهوى سميرى ويؤنس وحشتى ترجيع هام

وأحلم بالزواهر دائرات وبالزهر المنور والغمام

ألا ليت النيام هناك تحظى بأحلام كأحلام النيام

وليت الورد يورق فوق رمسى فتعبق فى نوافحه عظامى

وأبسم فى أزاهره لدنيا عبست لوجهها فوق الرغام

فأجابه شكرى بأبيات منها :

وكان النصف أن ترضى بموت فلا طيف يساعد باللمام

أليس الكون أكبر منك شأنا وأولى بالمقادر والنظام

فراجعه العقاد بقوله:

---

(١) جميعها فى ديوانه يقظة الصباح سنة ١٩١٦ ، وهى فى ديوانه الجامع ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ٥٩ .

(٢) انظر ديوان العقاد ص ١٠١ .

أبيتَ عليَّ أحـلاً الرجـام تنير حواشي المـوت الزؤام

رضينا بالحمام أصـم بحشـو منافذ حسه سافي الرغـام

رضينا بالحمام كما رضيـنا بعيش نوره ظـل الحمـام

وهذا الرضا الذى أعلنه العقاد هو فى الحقيقة تسليم العاجز ، الذى حاول أن يعرف ، ثم أدرك أن الكون أكبر منه شأنا ، وأولى بالمقادر والنظام، لما لفته إلى ذلك صديقه .

وكما حاول العقاد وتساءل ، ثم انتهى إلى العجز والتسليم ، حاول سيد قطب وتساءل ، ثم انتهى إلى نهاية صاحبه .

لقد ذهب الشاعر - ليلاً - إلى المقابر - متأملا ، متفكراً ، فشعر كأن أصواتاً من وراء الحفائر تتناجى ، ثم تتساءل (١) .

من الطارق السارى خلال المقابر كخفقة روح فى الدجنات غابر

من الوجل المذعور فى وحشة الدجى

تقلبه الأوهام فى كل خاطـر

ينقل فى تلك الدياجير خطوه ويخطو فى همس كهمس المحاذر

وقد سكنت من حوله كل نأمة سوى قلبه الخفاق بين الدياجر

وغشاه روع الموت، والموت روعة تغشى فيغفو كل نكس وقادر

وهنا يقدم الشاعر نفسه ، فيقول :

هو الشاعر الملهوف للحق والهدى وللسر لم يكشفه ضوء لنا ظاهر

تحير فى سر الحياة وما اهتدى إليه ، ولم يقنع بتلك الظواهر

ثم يتخيل الشاعر همسا بين الموتى ، وأخذاً ورداً ، فهذا فتى منهم ، حديث عهد بالدنيا يقول لرفاقه :

---

(١) ق (السر أو الشاعر فى وادى الموتى) وقد نشرت سنه ١٩٣٤ م انظر ديوان سيد قطب . ١٢٠ .

لعل الذى قد دب فى ذلك الحمى   وأيقظ فى أحشائه كل سادر

أخو صبوة يهفو إلى قبر ميت   له عنده وجد وتحنان ذاكر

وقالت أمرأة منهم :

الا ربما كانت ثكولا حزينة   على فلذة من قلبها المتناثر

وربما كانت عجوزاً تأيمت   وضاقت بدهر ناصب المون غادر

وبينما هم فى حدسهم مختلفون ، جلجل صوت شيخ منهم قائلا :

من الطارق السارى خلال المقا[illegible]   فأقلق منا كل غاف وساهر

فقال أخو الأحياء وا[illegible]

من الوجل الاخاذ فى صوت حاسر

أنا الحى لما يدر أسباب خلقه   أنا المدلج الحيران بين الخواطر

دلفت إلى وادى المنايا لعلنى   أفوز بسر فى حناياه غائر

أما تعلمون السر فى خلق عالم   يموت ويحيا بين حين وآخر

وماذا لقيتم بعدما خلفتمو   قيود الليالى الخادعات المواكر

وماذا وراء الغيب والغيب مطبق   وهل يتجلى مرة للنواظر

سؤال أخى شوق قد طال شوقه   وحيرته بين الشكوك الكوافر

ثم ينطق الشاعر شيخ الموتى بخلاصة ما توصل اليه تفكير الشاعر فى أمر الموت فيقول :

وجلجل صوت الشيخ يدوى كأنه   يحدث من كون قصى المعابر

أيا ويلها تلك الحياة وأهلها   تكشف عن بلوائها كل ساتر

وتطلب أسباب الشقاء لنفسها   فتضرب فى تيه من الشك غامر

وتسأل عن سر وليست بحاجة   الى السر تشريه بأنفس حاضر

لقد أغمض الموت الرحيم جفوننا وهـدأ فى أفكارنا كل نافر

نسيناه فارتحنا من الحيرة التى خسرنا بها الأعمار وهى نواضر

ثم ينهى سيد قطب قصيدته ، مصوراً حسرته ، وإعياءه ، وحيرته ، إذ لم يجد فى وادى الموتى كشفا للسر ، ولا إجابه للسؤال :

فألقى سراباً ثَمّ لا ينقـع الصدي فواندماً عن بحثه المتواتر

فقد كان خيراً أن يعيش على المنى ويأمل بعد الموت كشف الستائر

وياليت هذا الموت يسرع خطوه فيطوي حيا عمره ربح خاسر

وهكذا تظل معرفة سر الموت وما بعده رهينه بالموت نفسه،فيتمنى الشاعر - أن يسرع الموت خطوه إليه ، لعل الستائر تكشف ، والأسرار تعرف.

وارتباط الكشف بالموت معلوم من قول الله ـ عز وجل :

﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(١).

ولقد أدرك العقاد أن قمة المعرفة لا تتحقق لأحد الا عند فراق الحياة ، وعند ئذ فلا فائدة من المعرفة ، وعلى ذلك فخير للأنسان ألا يطلب هذه القمة الباردة ، يقول العقاد فى قصيدته (القمة الباردة) (٢) :

اذا ما ارتقيت رفيع الذرى فإياك والقمة الباردة

هنالك لا الشمس دوارة ولا الأرض ناقصة زائده

ولا الحادثات وأطوارها مجددة الخلق أو بائدة

ويا بؤس فان يرى ما بدا من الكون بالنظرة الخالدة

إلى الغور أما ثلوج الذرى فلا خبر فبها ولا فائدة

وتخيل سيد قطب أنه جَدّ فى طلب المعرفة حتى وصل إلى قمتها ، فلما أدرك هذه القمة ، وجد الزمان عندها يلفه إلى الضفة الأخرى ـ ضفة الموت -

(١) سورة ق الآية ٢٢.

(٢) ديوان العقاد ص ٢١٠ ، والقصيدة من (أشباح الأصيل) سنة ١٩٢١

يقول فى قصيدة (على القمة) (١) :

دلفت إليها والخطا تسبق الخطا ... وفى النفس شوق يستحث ويلهب
وقلت هنا يا نفس أشرف بقعة ... وأرحب أفق فى السماوات يرقب
وانك من فوق التلال طليقة ... ولم يبق مستور عليك مغيب
فما راعنى الا الزمان يلفنى ... إلى الضفة الأخرى كما لفَّ كوكب
رويدك يا هذا الزمان فاننى ... من الهوة الجرداء أخشى وأرهب

وهذه القصيدة تقدم الفكرة نفسها التى قدمتها قصيدة العقاد « القمة الباردة » ، غير أن سيد قطب لم يسلك طريق المباشرة تحذيراً وأمراً ، كما سلكه العقاد ، وأنما عرضها فى صورة تخييلية غنية بالحركة والحياة ، فالخطا تسبق الخطا ، والشوق يستحث ويلهب ، والزمان يلف ، والعمر مجدب ، والدهر يلعب ، وكلها صور أظهرت المعنويات ؛ بل جعلتها شخوصا تتحرك وتفعل .

٢ - الوجود والعدم

فى قصيدته (بين المعرى وابنه) يتخيل العقاد حواراً بين أبى العلاء وابنه المستكن فى الغيب ، والذى لم يشأ له أبوه أن يخرج إلى عالم الحياة حتى لا يضار بأذاها .

والقصيدة تعرض رأيين فى أمر الوجود والعدم ، فالأب ينتصر للفكرة الرافضة للوجود ، المؤثرة للعدم ، ويحاول أن يقنع الابن بما يراه ، والابن الذى لم يجرب الحياة ، تدفعه رغبة شديدة فى الخروج إلى الوجود من ضمير الغيب .

وفكرتها مستوحاة من بيت أبى العلاء:

وإذا أردتم بالبنين كرامة ... فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

ويخلص العقاد إلى أن الوقوف عند باب الحياة خير من الولوج إليها ،

---

(١) ديوان سيد قطب ص ١٣٨ ، وقد نشرت أول مرة سنة ١٩٣٧ .

لأن شرها ثقيل ، وخيرها قليل ، والفناء مصيرها ٠

وهو الأمر الذى حققه أبو العلاء - مع ابنه ، فلم يتزوج وهو ما فعله العقاد بعد ذلك ، وهو ما فعله سيد قطب أيضا ٠

فهل فعلوا جميعا ذلك رحمة بأبنائهم ، وحماية لهم من شرور الحياة ؟

هذا ما قاله العقاد ، وهذه هى قصيدته (١):

يا أبى طال فى الظلام قعودى فمتى أنت مخرجى للوجود

طال شوقى اليك فاحلل قيودى

يا أبى عالم الظلام عنيف ليس يقوى عليه طفل ضعيف

فأجرنى من ظله المسدود

حدثونا عن الحياة العجاب فلهجنا بحسنها الخلاب

وظمئنا لحوضها المورود

***

وبعد إلحاح طويل من الابن على أبيه أن يخرجه للوجود ، قال الأب :

ولدى !! أننى أبوك الرحيم أنا بالعيش يا بنى عليم

لا تصدق مقالة من بعيد

ما حياة تشقى وتسعد فيها تتعنى لكن بما يعنيها

في عظيم تبلى به أو زهيد

يحسب الحىُّ جهدَه لهواه جَهِلَ الحىُّ جُهْدُه لِسِواه

إنما المرء آلة للجدود

إن غُنْمَ الحياة من لم يجده لم يمتع به ولم يفتقده

فاغنم ربح شرها المفقود

(١) القصيدة من ديوان (وهج الظهيرة) سنة ١٩١٧ ٠ انظر ديوان العقاد ص ١٨٨ ٠

شرها يـــا بنى شـــر ثقـيل   خيرهـا يا بنى خير قليل

أهلها يا بنى أهل حقود

زعموهـا إلــى الخلـود تـؤدى   ما رأينا سوى فناء ولحد

فيه مود على تجاليد مودى

قف بباب الحياة لا تدخلــها   واعتصم يا بنى ما استطعت منها

سوف ألقاك ـ فانتظر ـ بالوصيد

هكذا أقنع [illegible] فتنـ[illegible] بعيدا

[illegible]

اللحود ، [illegible] سيد قطب

ـ فى قصيدته [illegible]

قلت ماذا ؟ قال لى رجع الصـــدى   إيه ماذا ؟ قلت للوهم علاما

قال لى اخشع أنت فى وادى الردى   حيث يطوى الضوء طراً والظلاما

ها هنا تثوى الأمانى ها هنا

فى مهاوى اليأس فى كهف الفنا

كل شيء هالك حتى أنـا

والفناء والزوال هما مصير الحياة والأحياء ، والبحث عن حكمة الدهر وأسرار الوجود لا يعدو أن يكون خبطا فى وادى الظنون ، حتى يغول الحياة غول المنون ، فيغمرها عندئذ فيض اليقين ٠

هذا ما تقوله قصيدة(فى الصحراء) لسيد قطب ، وفيها يتخيل الشاعر حواراً بين نخلتين صغيرة وكبيرة ، الصغيرة [٢] :

ما لنا فى ذلك القـفر هنــا   ما برحنا منذ حين شاخصات

كل شيء صامت مــن حولنا   وأرانا نحن أيضا صامتات

---

(١) ديوان سيد قطب ص ١١٣ ٠ وقد نشرت أول مرة سنة ١٩٣٢ ٠

(٢) ديوان سيد قطب ص ١١٥ ٠ وقد نشرت اول مرة ١٩٣٢ ٠

تطلع الشمس علينا وتغيب

ويطل الليل كالشيخ الكثيب

والنجوم الزهر تغدو وتـــئوب

وهجير وأصيل ٠٠ وطلوع وأفول ثم نبقى فى ذهول ساهـمات !

***

أفلا تدرين يا أختى الكبيرة ما الذى أطلعنا بين اليباب

أيما إثم جنينيا أو جــريره سلكتنا فـى تجاويف العذاب

قد سئمت اللبث فى هذا المكان

لبثة المصلوب فى صلب الزمان

أفـــما آن لتــبديل أوان؟

حدثينى لِمَ نشقى٠ ٠؟ حدثينى كم سنلقى٠ ٠؟ حدثينى كم سنبقى؟ واقفات

***

الكبيرة :

أنا يا أختـاه لا أدرى الجــواب ودفـين الســر لــم يكشف لنـا

منذ ما أطلعت فى هـذا الخراب وأنـا أسـأل : مـا شأنـى هـنا

فيجيب الصمت حولى بالسكون

وأنا أخبط فى وادى الظنـــــون

لست أدرى حكمة الدهر الضنين

غير أنا حائرات٠ ٠ ٠ والليالى العابثات ٠ ٠ ٠ تتجنى ساخرات لاهيات !

وبعد تقليب الظنون فى محاولة للإجابة ، تقول النخلة الكبيرة:

لست أدرى كل شيء قد يكـون فتلقى كـل شيء فــى سكـــون

وإذا مــا غــالنا غول المــنون فــهنا يغمرنــا فيض الــيقين

***

ثم ساد الصمت كالطيف الحزين

وتسمعت لأقدام السنيــــــن

وهى تخطو خطوة الشيخ الرزين

هامسات فى الرمال... منشدات فى جلال... كل شىء للزوال

والشتات

وهذه القصيدة تشبه قصيدة العقاد (بين المعرى وابنه) فكلتاهما اتخذت من الحوار أسلوباً حاول كل من الشاعرين بث رأيه فى الوجود من خلاله ، وكما اختفى العقاد وراء المعرى وابنه ، اختفى سيد قطب وراء النخلتين ، والنخلة الكبيرة التى افترض فيها المعرفة تقابل الأب فى قصيدة العقاد ، والنخلة الصغيرة تقابل الابن .

وخلاصة الفلسفة التى تضمنتها قصيدة «فى الصحراء» أن الليالى العابثات تتجنى على الأحياء ساخرات لاهيات. وأن كل شىء مصيره إلى الزوال والشتات.

ومع اتفاق القصيدتين فى الفكرة والأسلوب امتازت قصيدة سيد قطب على قصيدة العقاد ببعدها عن نبرة الخطابة ونغمة الوعظ اللتين سادتا فى قصيدة العقاد.

كما تميزت بكثرة الأساليب المتنوعة بين الخبر والانشاء ، والاستفهام والجواب وباحتشاد الألفاظ الموحية مثل (القفر ـ شاحضات ـ صامت ـ الكئيب ـ افول ـ ذهول ـ اليباب ـ العذاب ـ المصلوب ـ نشقى ـ حائرات ـ عابثات ـ ساخرات ـ غول المنون ـ الزوال ـ الشتات).

وكلها تمثل المعانى التى بثها الشاعر فى الحوار بين النخلتين ، والتى تضمنت فلسفة الوجود كما رآها.

٣ ـ الناس والأقـــدار :

« الحياة كالمرأة إذا أحبت امرءاً قيدته بأحابيلها ، وعلقته بهواها ، فمن كان حى النفس تحتفظ الحياة بوجوده ، مقيداً بالغرائز والأهواء ، ولا تضعف هذه الغرائز والأهواء فى الإنسان حتى يكون منبوذاً من الحياة كأنه عاشق لها مملول ، لا تبالى هى أن تطلق له القيد ، وترسله حراً متى شاء ، فكلما طالب قيد ، وكلنا مزاحم على حانوت القيود ، ونحن على هدى من سبل الحياة ، مادمنا مقيدين بوهم من أوهامها أو عاطفة من عواطفها ، لأن قيودها تلك، هى الأزمة التى تقودنا بها إلى حيث تريد » .

بهذا التقديم قدم العقاد قصيدته (حانوت القيود) التى يقول فيها[1]:

جزى الله حانوت القيود فانه ... مناط الأمانى من بعيد ومكثب

فهذا إلى قيد من العـقل ناظـر ... وما العقل إلا من عقال مؤرب

وهذا الى قيد من الحب شاخص ... وفى الحب قيد الجامح المتـوثب

ورب رخى البال تمت حـظوظه ... يقـيد دنـياه بعنقـاء مـغرب

أمانى يقـفوها فـتربط خطـوه ... ربـاط الدياجـى خـطوة المتنكب

وآخـر أضنته المـلالـة باسـط ... يديه الى الأعمال فى غير مأرب

إذا ما رأى المكدود يمقـت عيـشه ... تمـنى على الأيـام شقوة متـعب

وكم طامع فى الجاه والجاه عصـمة ... ولـكنـه كالمـعقل المتـأشـب

ورب عقيم حطم العقـم قيـده ... يحن إلى القيد الثقيل عـلى الأب

اذا مَنَّـت الـدنـيا عليه أجابـها ... بلعنة موتـور وعـولة متـرب

هذه هى قصة الناس مع الحياة ، تقيدهم بالرغائب والآمال ، وتقودهم بالأمانى ، ومن حرم بعض الرغائب خفت عنه القيود ، لكن الإنسان لا يرضى إلا بالقيود، فهذا يطلب قيد الحب ، وذاك يطلب قيد العقل ، وآخر يبحث عن قيد الجاه .

---

(١) من ديوان (أشباح الأصيل) سنة ١٩٢١ ـ انظر ديوان العقاد ص ٢٠٨ .

والعقيم يحن إلى قيد الأبناء - وهكذا - والناس مع ذلك لا يرضون عن أقدارهم ، ولا يسعدون بحظوظهم ، فيشكون من القدر ، وحق للقدر أن يشكو منهم ، يقول العقاد فى قصيدة (القدر يشكو)(١):

صغير يطلب الكبرا	وشيخ ودّلو صغرا
وخال يشتهى عملا	وذو عمل به ضجرا
ورب المال فى تعب	وفى تعب من افتقرا
ويشقى المرء منهزما	ولا يرتاح منتصرا
ولا يرضى بلا عقب	فان يعقب فلا وزرا
ويبغى المجد فى لهف	فان يظفر به فترا
ويخمد إن سلا ، فاذا	توله قلبه زفرا
فهل حاروا مع الأقدا	ر أم هم حيروا القدرا
شكاة ما لها حكم	سوى الخصمين إن حضرا

وعالج سيد قطب هذا الموضوع نفسه فى قصيدة بعنوان (التجارب) كتب لها مقدمة قال فيها: «كثيراً ما يبرم الانسان بماضيه أو حاضره ، ويسخط على تجاربه ومصائبه ، وقد تصور الشاعر شقياً أعفته الأقدار من ماضيه وتجاربه ، وأطلقته كأنما ولد فى لحظته ، ولكنه لم يستطب حاله ، لأنه لم يجد ركيزة يركن إليها ، وود لو أن الأقدار وهبته ماضياً سعيداً ، فاستجابت له ، ولكنه عاد يشعر بغربته عن ذلك الماضى ، ولم تعد هناك قيمة لآماله التى خلفها ماضيه هو ، وارتبطت به ، وعندئذ عاد لماضيه فى لهفة واشتياق اليه»(٢) .

شكا بؤس ماضيه الحفيل الجوانب	بكل مصاب فادح العبء صائب
وضاق به صدراً على طول صحبة	تمل ويا بئس الأسى من مصاحب
وود لو أن الدهر يعفيه برهة	من الغابر المملول جم النوائب

---

(١) من ديوان العقاد وحى الأربعين سنة ١٩٣٣ ، انظر ٥ دواوين للعقاد ص ٣١٦ .

(٢) ديوان سيد قطب ص ١٢٩ وقد نشرت أول مرة سنة ١٩٣٤ .

فأصغت له الأقدار فـى أمنـياته   على أنها لم تصغ يوما لطالـب

وأعفته من مـاضيـه حتى كأنـه   وليدٌ خليٌّ القلب من كل نائب

ولما استجابت الأقدار لهذا الرافض لماضيه ، المتبرم بحاله ، لم يرض عن صنعها ، وضاق بما استحدث له:

فعاد إلى الأقدار يشكو صنيعهـا   ويوسعها فى شكوه عتب عاتب

والفكرة هنا معروضة فى ثوب قصصى أضفى عليها حياة ورونقاً باعدا بينها وبين جفاف السرد الذى نلاحظه على قصيدتى العقاد السابقتين.

وللأقدار سنن لا تتبدل ، تتمثل فى السلب بعد العطاء ، واسترداد بعض النعم بعد منحها ، وقد تأمل العقاد ثلاثة نماذج يتجلى فيها فعل الأقدار فى تبديل الأحوال ، هذه النماذج هى :العقاب الهرم ، والشاعر الأعمى ، والحسناء العمياء ، ووقف سيد قطب عند نموذج واحد فى قصيدة (الجبار العاجز).

وعاطفة الاشفاق ، وحس التأمل هما الدافعان الى هذه القصائد جميعاً، ولست أبالغ اذا قلت: إن قصائد العقاد الثلاث من أجود شعره ، وأكثره امتلاء بالعاطفة الدافئة ، وأبعده عن السيطرة العقلية الحادة التى فرضها العقاد على أكثر شعره.

ولهذا تفوقت قصائد العقاد هنا على قصيدة سيد قطب تفوقاً كبيرا.

يقول العقاد فى قصيدة «الشاعر الأعمى»(١) :

شكاا الشاعر الباكى عمى قد أصابه   وأظلم ما نال العمى جفن شاعـر

ينوح بعين لم يدع عندها البلـى   سوى حزن ناضب الماء غـائر

وتلحظ عينُ الشمس شزراً جـبينَه   فيطرق إغضـاء بمقلة حاسـر

ويسألهم: هـل أومض البرق فى الدجى   وهل طلعت فيه وجـوه الزواهـر

وهـل يلمع الـدر المنضـد والحـلى   على الغيد أم بات الحصى كالجواهر

(١) من (يقظة الصباح) سنة ١٩١٦ ـ انظر ديوان العقاد ص ٣٣.

تكـــاد تشق الأرضَ زفـرةُ صـدره اذا راح يلـــحاه بصيحة حـائـــر
تجود لعين الذئب يـا أفـــق بـالسنى ليهديه فـى فتكه بـالجـــــآذر
وترميه فـــى بئـــر عـــميق قرارهـا وتسفكه فـــوق البـــطاح الغوامـــر
وتسلبني نوراً أراك بـــوحيـــه فاظهر ما أخفى سوادُ الدياجـــر
وأرجعه معنى على الطرس مشـرقاً يضِيء سناه مظلـــمات السرائـــر

أرأيت كيف تعمق العقاد سرائر صاحبه ، وتَسَمَّعَ همس نجواه ، ونبض إحساسه؟ .

وكيف فهم لغة إطار [illegible] صور مأساته ، فجعل عينه تنوح ، والـ[illegible] سَمَّعَ سؤالَه عن البرق والنجوم ، والدر والحلى ، [illegible] الذى يجود بالنور لعين الذئب الفاتك ، ويرميه فى الآبار ، ويسكبه فوق البطاح ، ثم يمسك هذا النور عن عينيه؟ .

وفى قصيدة العقاب الهرم يصور العقاد نموذجاً آخر للعجز والانكسار بعد القدرة والشموخ فيقول (١) :

يهم ويعييه النهـــوض فيجثـــم ويعزم إلاريشـه ليـــس يعـــزم
يلملم حدباء القـدامى كأنهـــا أضالـــع فـــى أرمامها تتهشـــم
ويثقله حمل الجناحـين بعدمـــا أقلاه وهـــو ا لكاســـر المتقحم
ويلحـــظ أقـــطار السماء كأنـــه رجيم على عهد السماوات يتدم

وفى قصيدة (حسناء عمياء) بتأمل العقاد فعل الأقدار فى فتاة جميلة كان طرفها يأسر الناظرين ، ثم غاض سحره ، وذهب نوره ، فعادت الحسناء ضريرة حسيرة البصر (٢):

قـــرة العـــين عـــزاء لك فـــى الكون المنير

---

(١) (من ديوان(يقظة الصباح)سنة ١٩١٦ - انظر ديوان العقاد ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ٨٩.

إن طرفا يـــأسر الـــ ـناس هــو الآن أسـير

إن سحراً غـَاضَ مــن عينيك هيهـات يحـور

صدت الشمس ضياهـا عنك يـا أخت البدور

غـريت عنـك غروبـا مـاله الـدهـر بكـور

ليت نور العين مصبـا ح معـــار فنــــعير

ليس أولـى ببكا العيـ ـن من الحسن الضرير

وجمال عـن جمال الـ ـكون مكفوف حسـير

مطمح الأبصار بــدع أن يـرى غـير بصير

أما قصيدة (الجبار العاجز) لسيد قطب ، فلا تتعدى الوصف السطحى لرجل متحطم ، صريع أشل ،تخيل الشاعر أنه كان جباراً قبل أن يلحقه هذا العجز ، يقول (١):

حطم الدهر قواه فانحطم وتنزَّى الـداء فيه والألـم

ودوت من فيه تعوى صرخة تـتلوى فـيه حتى تحـتدم

صرخة الجبار يشكو مرغماً ذلة الشكوى وإهوان الرغـم

تسمع الـقوة فـى صـرختـه من وراء العجز تدوى فتصم

ويهم اليأس فى أشلائه ناهضاً ، لكنما العجز جثم

والعاطفة هنا باردة ـ إذا قيست بعاطفة العقاد فى القصائد الثلاث وكلمة (إهوان) مخالفة للقياس الصرفى ، وصحتها (إهانة) لكن الشاعر أبقاها على أصلها ليسلم الوزن ، ثم أن البيت الأخير يكاد يكون ـ فى اللفظ والمعنى ـ هو بيت العقاد الأول فىقصيدته (العقاب الهرم):

يهم ويعييه النهوض فيجثم ويعزم إلا ريشه ليس بـعزم

---

(١) ديوان سيد قطب ص ٢٤٠ .

٤ ـ رثــاء الحــيوان :

نشر سيد قطب فى نوفمبر ١٩٣٨ قصيدة بعنوان (موت سوسو) قال فى تقديمها: «سوسو هر أليف ظريف انطفأت فيه شعلة الحياة المقدسة بين يدى وهذه مرثيته ، أو مرثية الشعلة الخابية فيه»(١).

وهذه القصيدة أقرب إلى التأمل فى حقائق الموت والحياة منها إلى الرثاء ، إذ لا تظهر فيها عاطفة الشاعر نحو هذا الحيوان ، ولا تحدثنا عن شىء من صفاته وأحواله.

يقول سيد قطب واصفاً همود القط ، وذهاب نبض الحياة من قلبه ، وغياب لألائها عن عينيه:

لقد همدت فى الضلوع الحياة فما يرجف القلب أو يخفق
وقد غاب لألاؤها فى العيون فما ترمق الكون أو تبرق
وقد سكنت نأمة فى حشاه فما عاد يقفز أو يمرق
فيا قربها لحظة فى الزمان ويا بعد آثارها تنطق
وتنقل من عالم صاخب إلى عالم صمته مطبق

ثم يتخذ الشاعر موت قطه معبراً للتفلسف ، والنظر فى أمر الحياة بوصفها وحدة فى جميع الأحياء ، يفزعها موت الفراش ، كما يفزعها موت الرجال فيقول:

وإن الحياة لمجنونة بأبنائها الكل لا تفرق
فجيعتها فى صغار الفراش كموت الفتى حادث مرهق
هو الموت فى كنهه واحد ويزهق من بعد من يزهق
يعز على النفس فقد الحياة فتجزع للموت إذ يطرق

وفى سنة ١٩٤٢ نشر العقاد ديوانه (أعاصير مغرب) متضمناً قصيدة فى رثاء كلبه (بيجو) ، وقد حملت القصيدة عاطفة حارة تفيض بالحزن والأسى

(١) انظر ديوان سيد قطب ص ٢٦٨ .

على الكلب الفقيد ، وتدل على المنزلة التى كان يتبوؤها عند صاحبه ، كما تدل على عظم مصابه فيه.

وقد أجاد العقاد توظيف التكرار للتعبير عن تلك المعانى ، فكرر لفظ (حزن) سبع مرات واسم الكلب تسع مرات ، وتناثرت فى القصيدة الألفاظ الدالة على الحزن والاحساس بالفقد كما فى قوله(١) :

حزناً على بيجو تفيض الدموع

حزناً على بيجو تثور الضلوع

حزناً عليه جهد ما أستطيع

وإن حزنا بعد ذلك الولوع

والله - يا بيجو - لحزن وجيع

ويصور العقاد أطرافاً من حياة كلبه ، و ألواناً من حركاته ومداعباته ، وصياحه ونباحه ، وصدقه ووفاءه فيقول:

حزناً عليه كلما لاح لى

بالليل فى ناحية المنزل

مسامرى حينا ومستقبلى

وسابقى حينا إلى مدخلى

كأنه يعلم وقت الرجوع

***

بيجو الذى أسمع قبل الصباح

بيجو الذى أرقب عند الرواح

بيجو الذى يزعجنى بالصياح

---

(١) أعاصير مغرب ص ١٧٥.

لـو نبحة منه وأين النبـاح؟

ضيعت فيها اليوم ما لا يضيع

ثم يبكى العقاد كلبه ، مثنياً على وده وسخائه ، وكرمه ووفائه فيقول:

أ بكيك أ بكيك وقـل الجزاء

يا واهب الود بمحض السخاء

يكذب من قال طعام ومـاء

لو صح هذا ما محضت الوفاء

لغائب عنك وطفـل رضـيع

وفى نوفمبر ١٩٤٢ نشر سيد قطب قصيدة أخرى فى رثاء الحيوان بعنوان: (نوسة) أو شطر من العمر (١)

قال فى تقديمها:

«نوسة قطة صحبتنى اثنى عشر عاماً ، تحتل مكان الطفل الحبيب وتشغل فراغه من نفسى وزمنى ، وتمنحنى من الود والثقة والدعابة كفاء ما أمنحها من العطف والعناية والملاعبة ، ثم ماتت بين يدى».

ويبدو لى أن« نوسة» هى «سوسو» الهر الذى رثاه الشاعر سنة ١٩٣٨ . كأنه قرأ قصيدة العقاد فى رثاء كلبه فأعاد تمثل تجربته ورأى أنه فى القصيدة الأولى لم يبن عن عاطفته نحو قطه ، وأنه لم يصفه ، ولم يتحدث عنه (٢).

فأنشأ هذه القصيدة التى جاءت ـ فى رأيى ـ أرقى تصويراً ، وأبلغ تعبيراً عن الحزن الشفيف والعاطفة الإنسانية الراقية من قصيدة العقاد ، وذلك من عدة وجوه هى:

---

(١) ديوان سيد قطب ص ٢٧١ .

(٢) الدليل على ذلك أنه ذكر أن(نوسة) صحبته اثنى عشر عاما ، وقصيدته فى رثائها كانت سنة ١٩٤٢ م ، وقصيدته الأولى فى رثاء (سوسو) كانت سنة ١٩٣٨ م، وبين التاريخين أربعة أعوام فقط . إلا إذا افترضنا أنه اقتنى الاثنين معا ، متعاصرين، وذلك أمر بعيد عادة .

١ - بنى سيد قطب قصيدته على استخدام ضمير الخطاب الذى يدل على حضور القطة فى وجدانه وقربها من نفسه ، فتكرر ضمير الخطاب فيها سبعاً وعشرين مرة ، فى سياقات - تدل على حزن عميق وحنو رقيق ، وعطف شفيق ، كما فى قوله:

أغمضى عينيك قد آن الأوان ودعينى نهبة للشجن
وأمنى دنياك فى آتى الزمان ودعينى لعبة للزمن

***

هذه كفى وقد مرت عليك فى حنان وارتياع وولوع
لم تحسيها ولم ينبض لديك قلبى النابض من بين الضلوع

***

هذه الكف التى كم دللتك وسدتك اليوم أطباق الثرى
أى حاليها ترى أحنى عليك؟ ليتنى أدرى ومن فينا درى؟

أما العقاد فقد تحدث عن كلبه بضمير الغائب ، ولم يخاطبه إلا قليلاً.

٢ - توسع سيد قطب فى وصف قطته فتحدث عن جلوسها ووثوبها، وأكلها وهمهماتها ، وصوتها ، وقطاتها ، وألاعيبها ، وخمشها ، والتوائها وتثنيها ، ونعتها بالوثوق والاعتداد والذكاء ، وحسن الصحبة ، والود والوفاء ، ويتراءى له كل ذلك ، فيتساءل عنه فى تعجب وتحسر ، كما فى قوله:

هذه أنت إلى حضنى أويتِ هذه أنت أمامى قد ربضتِ
هذه أنت على صدرى وثبتِ لهف نفسى أين أنت أين أنتِ؟
ها هو الصبح فأين الوثبات هذه كفى فأين اللمسات
ها هو الأكل فأين الهمهمات أين أين كل ما قد كان فات

٣ - رفع سيد قطب قطته إلى منزلة الطفل ، وأحلَّها من نفسه محل الابنة ، وذلك فى قوله:

أنا يا نوسة والعهد قريب موحش النفس شجى للمغيب

موضع الصاحب والطفل الحبيب قد خلا فى ذلك القلب الغريب

وقوله :

طالما أحسست أنى لك وحدكِ لا تطيقين شريكاً أو شبيهاً

طالما وطأت فى حجرى مهدك فعلة الطفلة فى حضن أبيها

وقوله :

إننى أبكيك يا ظ[illegible] يا طيف البنين

ولم يقع العقاد [illegible]

٤ ـ سلمت [illegible] إذ قال :

[illegible]

والله ـ [illegible]

ومن النثرية التى تمثلت فى قول العقاد :

يكذب من قال طعام وماء

لو صح هذا ما محضتَ الوفاء

لغائب عنك وطفل رضيع

فالقسم بالله على أن الحزن موجع ، والبرهنة على وفاء الكلب برهنة منطقية فى قوله : لو صح هذا . . . الخ أفقد التعبير كثيراً من رواء الشعر .

٥ ـ أخذ سيد قطب من العقاد وصف الحيوان بالود المحض والوفاء الخالص ، المنزهين عن انتظار الثمن ، لكنه عبر عن هذا المعنى بطريقة أقرب إلى روح الشعر ، فلم يبرهن على ادعائه برهنة منطقية ، وإنما أكد معناه بطريقة تصويرية توضح لنا حال القطة معه فقال :

لم يكن ود بطون وطعام إنما اصطحاب ووفاء

---

(١) من ديوان أشباح أشجان الليل سنة ١٩٢٨ انظر ديوان العقاد ص ٣١٤ .

طالما آثرت إن غبتُ الصيام   أو تلوذين بصمت وانزواء

٥ ـ شعر الحب :

فى شعر الحب والغزل عند الشاعرين تبدو روح السمو بالحب وفيه على قدر من التوازن بين المثالية والواقعية ، فالعقاد يصف محبوبه بأنه جميل ، مضىء مشرق ، وأحياناً يهجر ، وقد يغدر ، كما يصفه بالجمال الروحى ، فهو ذكى ، طاهر ، ظريف.

وهذه المعانى نفسها هى التى تطالعنا فى شعر الغزل والحب عند سيد قطب.

لكن الشاعرين يتساميان ، ولا يتركان للنزعات الجسدية ، والنزغات الغريزية أن تطمس ألق الحب ووميضه فى الروح.

ففى قصيدة (نبثينى) يسمو العقاد بالحب إلى درجة يبطل معها تعليله ، ويصبح الحب نفسه هو علة الحب ، فيقول (١):

يا رجائى وسلوتى وعزائى   وأليفى إذا اجتوانى الأليف

نبثينى ، فلست أعلم ماذا   منك قلبى بحسنه مشغوف

كل حسن أراك أكبر منه   إن معناك تالد وطريف

لست أهواك للجمال وان كا   ن جميلاً ذاك المحيا المعفيف

لست أهواك للذكاء وان كا   ن ذكاء يذكى النهى ويشوف

لست أهواك للدلال وان كا   ن ظريفاً يصبو إليه الظريف

لست أهواك للخصال وان رف   علينا منهن ظل وريف

لست أهواك للرشاقة والرقة   والأنس وهو شتى صنوف

أنا أهواك أنت فلا شىء   سوى أنت بالفؤاد يطيف

إن حبا يا قلب ليس بمنسـ   ـيك جمال الجميل حب ضعيف

وهذا المعنى هو ما نجده فى قصيدة سيد قطب (لماذا أحبك) والتى يقول

---

(١) من ديوان (أشجان الليل) سنة ١٩٢٨م انظر ديوان العقاد ص ٣١٤ .

فيها (١) :

لماذا أحبك؟ هل تفكرين؟ وما السر فى الأمر؟ هل تعلمين؟

أللحسن؟ كم قد لقيت الحسان فما هجن بى ومضة من حنين

أللعطف؟ انى القوى العطوف فما أرتجي رحمة العاطفين

أللنظرات واللفتات والسحر فى مهجتى تسكبن

وبعد هذه التساؤلات عن سبب الحب التى تشبه تساؤلات العقاد ، يعلل سيد قطب حبه بالكمال ، لا الجمال ، فيقول:

وأعجبنى هذا الكمال وإنى عليه الحفيظ الأمين

ومن يتتبع أحوال الحب والمحبوب ، فى شعر الشاعرين يجد بينهما تشابها فى كثير من المواضع.

ثالثاً : فى التصوير والتعبير :

استخدم العقاد القص والحوار إطاراً فنياً ونمطاً تعبيرياً لعرض الأفكار والمواقف فى كثير من القصائد.

انظر مثلاً: الشاعر الأعمى - أمنا الأرض - حانوت القيود - المعرى وابنه - سباق الشياطين - ترجمة شسيطان.

واستخدم سيد قطب القص والحوار إطاراً فنياً فى كثير من القصائد.

انظر مثلاً: إلى الشاطىء المجهول - فى الصحراء - الشاعر فى وادى الموتى - التجارب - فى مفرق الطريق.

واذا كانت الأطر الفنية أشكالا متاحة لجميع الشعراء ، ولا يستدل منها على أصداء التأثير والتأثر ، فاننا نستطيع تلمس هذه الأصداء فى بعض الصور الجزئية التى تأثر فيها سيد قطب بالعقاد.

من ذلك مثلاً: إحالة القارىء إلى ما تمكنه رؤيته أو تخيله لإدراك مالا

---

(١) ديوان سيد قطب، ص ١٧٢ وقد نشرت أول مرة سنة ١٩٣٤ م.

تمكن رؤيته أو تخيله ، كما ورد فى قول العقاد من قصيدته ترجمة شيطان(١).

هل شهدت الجيش فى هول الفرار   أو رأيت الطير راعتها الـديم
ان تكن لم ترها فارصد لها   تدر ما فزعة أملاك السماء

وقد تأثر سيد قطب بهذه الصورة ، فقال من قصيدته« الشاعر فى وادى الموتى» (٢):

أريت لو أن الهول صور منظرا   تجلله الأخطار جد غوامر
كذلك ساد الصمت بين الحفائر   وران على أرواحهم والضمائر

كما تأثر سيد قطب فى قوله:

هنا لك دوت فى السماكين صيحة   دعاء لعزرائيل والكون سادر

بقول العقاد:

هاتف فى الخلد لما هتفا   نفذ السهم فمن ذا الهاتف

ويتضح تأثر سيد قطب بالعقاد فى الخيال والعبارة معا فى قصيدته: «عاشق المحال» التى تأثر فيها بقصيدة « ترجمة شيطان» ، بل إن (عاشق المحال) ليس واحداً غير إبليس الذى ترجم له العقاد فى قصيدته:

يقول العقاد فى صدر قصيدته (٣):

صاغة الرحمن ذو الفضل العميم   غسق الظلماء فى قاع سقر
ورمى الأرض به رمى الرجيم   عبرة فاسمع أعاجيب العبر
خلقة شاء لها الكنود   وأبى منها وفاء الشاكر
قدر السوء لها قبل الوجود   وتعالى من عليم قادر

ويقول سيد قطب (٤) :

---

(١) من أشباح الأصيل ١٩٢١ـ وانظر ديوان العقاد ص ٢٤٨.

(٢) ديوان سيد قطب ص ١٢٧ وقد نشرت أول مرة سنة ١٩٣٤م.

(٣) ديوان العقاد ص ٢٤١ .

(٤) ديوان سيد قطب ص ٤٦ ، وقد نشرت هذه القصيدة سنة ١٩٤٢

ضـقت بالقـيد فانطـلق   أيهـا الآبـق الشـرود

قـد تحـررت فاسـتبق   للصراعـات مـن جديـد

جمـرة أنـت تتقـد   خلف سـتر مـن الرمـاد

وهـى تذكـو بـلا مدد   ثـم تغـدو الـى نفـاد

أنـت مـن طيف القلـق   صاغـك الله والجمـوح

تعشـق الأيـن والحـرق   والعقابيـل والجـروح

ضقـت بالقيـد ذهـب   ضقـت [illegible] القـرار

فانطـ[illegible] ثـ[illegible]   [illegible] والعـثار

[illegible] ،

وكتب عليه [illegible]

وعاشق المحال آبق [illegible] تنقد ، [illegible] القلق والجموح ، عاشق للتعب والعذاب ، ضائق بالامن وال[illegible] يعيش للخو ف والعثار ٠

من ذلك أيضا تأثر قطب فى قوله (١) :

لم يكـن ود بطـون وطعـام   إنمـا ود اصطـحاب ووفـاء

طالمـا آثـرت إن غبت الصيام   أو تـلوذ ين بصمت وانـزواء

بالعقاد فى قوله (٢) :

يكذب من قال طعام وماء

لو صح هذا ما محضت الوفاء

لغائب عنك وطفل رضيع

ومن هذا الباب أيضا ، تأثر سيد قطب فى قوله (٣):

---

(١) ق : نوسه أو شطر من العمر ديوانه ص ٢٦٨ ٠

(٢) ق بيجو (اعاصير مغرب) ص ١٧٥ ٠

(٣) ديوان سيد قطب ص ١٦٠ من قصيدة (هى انت) وقد نشرت سنة ١٩٣٠ ٠

هى أنت التى أطافت بنفسى وتراءت فى خاطرى من بعيد
هى أنت التى تلاقت روحها مع روحى فهامتا فى الوجـود
هى أنت التى تحدث عنها خطراتى فى يقظتـى وهجـودى

يقول العقاد (١) :

أنا أهواك أنت فلا شـىء سوى أنت بالفؤاد يطـيف

ومنه أيضا تأثر سيد قطب فى قوله (٢) :

الحب فاض على الحياة بخصبه وأجد عمرانا بكل مخرب
وأزاح أستار الدجى فتكشفت ظلماته عن كل زاه معجب
وكذلك تحلولى الحياة وتجتلى وتعز ساعات الغرام المخصب

يقول العقاد (٣) :

لمـــا رأتنــــى أهـــلا لأن ترانــــى محـــبا
وأرسلـــت لــى نــورا من قلبـها الرحـب رحبا
ردت الـــى حياتـــى روحـــا وجسمـــا وقلبـــا
وأخصـب الشعـر عنـدى وكـــان بالأمـس جدبـا

ففى القولين تجد الحب يفيض بالنور والخصب والحياة ، فيبدد الظلام والجدب والفناء .

***

(١) ديوان العقاد ص ٣٢٥ من قصيدة (نبئينى) وهى من (أشجان الليل) ١٩٢٨ .
(٢) من ق الحياة الغالية . فى ديوانه ص ١٩٤ . وقد نشرت ١٩٣٤ .
(٣) ق (صوت من السماء) ديوان العقاد ص ٣٣٠ ، وهى من (أشجان الليل) سنة ١ ٩ ٢ ٨ .

تأثـــر لا تقليـــد

لم يجاوز تأثر سيد قطب بالعقاد دائرة الاتباع المبدع ، الذى يضيف فيه اللاحق إلى معانى السابق ، أو يعيد صياغتها فى صور أوفى ومعارض أرقى ٠ ومن المقرر – عند أهل العلم ـ أن التوارد على المعانى أصل من أصول القول ، وسنة متبعة فى الأدب ، وان الاستقلال التام ، والتفرد الكامل لا يدعيان لأحد ، وإذا وقع شيء منهما للشاعر كان فى حكم النادر الذى يشار إليه ، ويعرف صاحبه به ٠

بل إن اللاحق يكون أحق بالتقديم [illegible] إلى معنى السابق ، أو أجاد فى التعبير عنه على وجه من الوجوه ٠

يقول ابن [illegible]

« إن المتبع [illegible] أو [illegible] إن كان كزاً ، أو يبينه [illegible] كان سفسافا ،أو رشيق الوزن إن [illegible] او اولى به من متبوعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر » (١) ٠

ويقول الدكتور على صبح :

« وربما يسمو متأخر فى تصويره عن متقدم حذا حذوه مع اتحاد المعنى المطروق ، حتى يكاد أن ينسب الابداع والابتكار إلى المتأخر» (٢) ٠

ويقول الدكتور كمال لاشين :

« إن الاتباع الحسن أحد مضمارى الشاعرية ، وأن معانى الشعر تقلب ، وتتولد وتتناسل ، وأن بعض الشعراء يأخذ من بعض ، ويطوى فى إجادته وإحسانه طرفا من إجادات سابقيه واحسانهم ، وأن المتبع المحسن يبلغ بحسن الاتباع درجة السابق إلى المعنى المبتدىء له ، ويهب مبتذل المعانى حياة جديدة

---

(١) العمدة ص ٤٦١ ٠

(٢) عبقرية ابن الرومى ص ٢٢٤ ٠

فيريكها فى صورة المخترع»(١) ·

وقد دلت الموازنة بين العقاد وسيد قطب فى مواضع التأثير والتأثر على أن سيد قطب ـ رحمة الله ـ كان صاحب موهبة كبيرة ، وشاعرية متدفقة ، وثقافةمتمكنة ، أتاحت له أن يجرى مع العقاد فى سباق ، وأن يسبقه فى كثير من الآحيان ·

ويبدو أن تجاهل أكثر مصادر التاريخ الأدبى فى عصرنا لسيد قطب وشعره كان امتداداً للمحنة التى أحاطت بالرجل ، وانتهت به إلى لقاء الله شهيداً ·

والله المستعان وبه التوفيق · وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلــــه وصحبه وسلم ·

---

(١) الابتداع والاتباع ص ١٤٤ · وراجع فى ذلك أيضا السرقات الأدبية د/ بدوى طبانة ١٥ ·

المراجـــع

* القـــرآن الكريم ٠

* ابن رشيق ـ العمدة فى صناعة الشعر ونقده ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط أولى ١٤٠٣ عـ ـ ١٩٨٣ م ٠

* د / أحمد هيكل ـ تطور الأدب الحديث فى مصر ـ دار المعارف ١٩٧٨م ٠

* د/ بدوى طبانة ـ السرقات الأدبية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ٠

* سيد قطب ـ ديوان سيد قطب جمع عبد الباقى محمد حسين ـ دار الوفاء ـ الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م٠

ـ النقد الأدبى ـ أصوله ومناهجه ـ دار الشروق ٠

* عبد الحى دياب ـ شاعرية العقاد فى ميزان النقد الحديث ـ دار النهضة العربية ٠

ـ عباس العقاد ناقدا ـ الشعب ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

* د/ عبد الرحمن شكرى ـ ديوانه الجامع ـ تحقيق نقولا يوسف ـ المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ م ٠

* عبد العزيز الدسوقى ـ جماعة أبولو وأثرها فى الشعر الحديث ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧١ م ٠

ـ تطور النقد العربى الحديث فى مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م ٠

* عباس محمود العقاد ـ أعاصير مغرب ـ التجارية ـ ١٩٤٢ م ٠

* عباس محمود العقاد ـ ديوان العقاد ـ أسوان ١٩٦٧ م ٠

ـ ٥ دواوين للعقاد ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٣ م ٠

ـ الديوان فى الأدب والنقد ـ بالاشتراك مع المازنى ٠

* د / على على صبح ـ عبقرية ابن الرومى ـ مطبعة الأمانة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م ٠

* د٠ كمال لاشين ـ الابتداع والاتباع ـ مطبعة الحسين ـ القاهرة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م ٠

* د/ محمد زغلول سلام ـ النقد العربى الحديث ـ أصوله ، قضاياه ، مناهجه ـ مكتبة الأنجلو المصرية ٠

❊ ❊ ❊

المنهج التكاملى فى البحث الأدبى

بين النظرية والتطبيق

دكتور

د . أحمد محمد محمد الأعرج

البحث : هو طلب الحقيقة ، وتقصيها ، وإذاعتها فى الناس[1] .

وبكلمة «الحقيقة» يتضح المعنى الإنسانى للبحث ، ويدخل فى هذا المعنى الشمول ، فيما يتصل بالفكر البشرى ، من علوم وفلسفة وفنون ، وغير ذلك .

وفى إطار الحقيقة هذه يلتقى الباحثون من كل صنف ، الفلاسفة والعلماء والنقاد ودارسو الأدب والتاريخ واللغة والطب والكيمياء . . . هذا هو مفهوم البحث عامة .

أما البحث الأدبى فهو طلب الحقيقة الأدبية، وتقصيها فى مصادرها، وإذاعتها .

فالمادة التى يقوم عليها البحث الأدبى هى الأدب.

والأدب العربى له عصوره المتعددة ، بدءاً من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث والمعاصر، وله أعلامه ، وشخصياته المتمثلة فى الأدباء والرواة والنقاد وله قضاياه الكثيرة المتنوعة مثل قضية الطبع والصنعة والأصالة والمعاصرة ، مقدمة القصيدة العربية ، الصعلكة وأثرها على الشعر العربى ،

---

(١) منهج البحث الأدبى ص ٢٧ د/ على جواد الطاهر.

وللشعر فنونه ومدارسه ، وللنثر كذلك :

فمن فنون الشعر: المدح ، الفخر ، الهجاء ، الغزل ، الرثاء ، العتاب ، الاعتذار ، الوصف ، ومنه الشعر السياسى ، الشعر الوصفى ، الشعر المسرحى ، الشعر القصصى ، شعر التأمل.

وهناك مدارس للشعر فى العصر ا لحديث مثل مدرسة المحافظين ومدرسة الديوان ، وجماعة أبولو ، ومدرسة المهجر ، وغير ذلك من المدارس.

ومن فنون النثر الأدبى :

الخطابة ، الرسائل الأدبية ، القصة ، الأقصوصة ، الرواية ، المقالة .

هذه هى مادة البحث الأدبى ، وللباحث حرية الاختيار ، يختار منها ما يلائم رغبته ، وميله ، وذوقه.

فبعض الباحثين قد يؤثر اتجاهاً معيناً ، أو لوناً معيناً والبعض الآخر لا يقبل هذا الاتجاه ، ولا يميل اليه ، فيختار اتجاهاً آخر ، قضية من قضايا الأدب، أو ظاهرة فنية أو نظرية جديدة ، أو مدرسة أدبية ، أو عصراً أدبياً ، أو شاعراً من عصر أدبى ، أو تحقيقاً لمخطوطة فى الأدب من التراث القديم... الى آخر الموضوعات التى تصلح للدراسة.

هذا عن البحث ، أما المنهج فهو فى أبسط تعريفاته وأشملها: «طريقة يصل بها إنسان الى حقيقة » [1].

ومما لا ريب فيه أن الإنسان قد اكتشف المنهج مبكراً ، بحكم ما له من ذكاء أنعم الله به عليه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الصعاب التى يتعرض لها فى حياته ، جعلته يفكر فى اجتيازها وكيفية التغلب عليها ، فاتخذ لنفسه منهجاً فى حياته.

وكانت سمة هذا المنهج أنه فردى ، ثم تقدم هذا المنهج بسبب تراكم التجارب ، واتساع الاجتماع ، لأن المنهج يوفر على الإنسان كثيراً من الجهد والعناء ويسهل مهمته فى الحياة.

---

(١) منهج البحث الأدبى ص ١٩ وما بعدها.

ولما كانت للإنسان حضارة وثقافة ، وصور شتى من المعرفة والعلم ، خطا منهج الانسان فى حياته خطوة أخرى نحو الارتقاء والتطور.

فإنه لا يمكن لعاقل أن يتصور الحضارة الأولى فى العراق ومصر والصين مثلاً من غير منهج ... حتى إذا كان الإغريق جاءت كلمه منهج تعنى البحث أو النظر أو المعرفة ، وأصبح لكل فيلسوف منهجه.

فالبحث المنهجى وليد الثقافة ، وأثر من آثارها ، لأنه تحديد والتزام ، وخطة يلتزمها الباحث أو يلزم نفسه بها فى بحثه.

وقد قيل: إن أول منهج وضع للبحث العلمى ، وطريق الاستدلال فيه والاستنباط هو منهج أرسطو الذى سماه باسم المنطق (١).

وقد تحدث فيه عن الكليات - الخمس: الجنس ، النوع ، الفصل ، الخاصة ، العرض - ومنها تتألف الحدود والتعاريف ، وقد أسهمت تلك الكليات إسهاماً عظيماً فى جميع العلوم عند العرب.

وقد اهتم العرب بمنطق أرسطو منذ ابن المقفع ، فأخذوا يترجمونه أولاً، ثم مضوا يشرحونه ، ويلخصونه فى مصنفات كثيرة ، واستلهموا هذا المنطق فى وضع علومهم فهو ماثل فى علم الفقه وأصوله ، فقد تحدث الفقهاء عن الحدود والتعاريف ، والكلى والجزئى ، والعام والخاص ، والقياس.

كما تجده ماثلاً فى علوم اللغة والنحو ، فقد توسع علماء اللغة والنحاة فى الحديث عن القياس ، وعن العلل التى يقوم عليها القياس.

وربما كان أهم بحث أدبى عند العرب يتضح فيه تأثير المنطق الأرسطى ، والتأثر بمنهجه كتاب «البرهان فى وجوه البيان » لأبى الحسن اسحاق بن ابراهيم ابن سليمان بن وهب الكاتب ، من كتاب القرن الرابع الهجرى.

فقد عقد مؤلف كتاب « البرهان» فصلاً للقياس تحدث فيه عن الحد والوصف ، ونقل صور القياس ، وصرح أنه نقل الفصل كله عن المناطقة اذ يقول فى نهايته (٢) «هذه جمل فى وجوه الاستدلال والقياس ، تدل ذا اللّب على ما يحتاج اليه ، من أراد استيعاب ذلك نظر فى الكتب الموضوعة فى

(١) البحث الأدبى ص ٧٩ وما بعدها د/ شوقى ضيف.

(٢) البحث الأدبى ص ٨١.

المنطق ، فانما جعلت عماداً وعياراً على العقل ، ومقومة لما يخشى زلله ، كما جعل البركار لتقويم الدائرة ، والمسطرة لتقويم الخط».

هذا وقد وضعت للعلوم الدينية مناهجها التى تعنى بها مباحث علم الأصول والتى تتناول الكتاب والسنة ، والإجماع والقياس.

وبالمثل وضعت أصول النحو واللغة على نحو ما يتضح ذلك فى كتاب «الخصائص» لابن جنى.

هذا وتميّز البحث فى الحديث النبوى بمنهج خاص حيث عنى الباحثون بالرواية عناية شديدة ، فكل حديث لا بد أن يشفع بسند ، ويدرس رجال السند - الرواة - بالتفصيل ، ووضعت فى السند كتب كثيرة ، كما وضع مصطلح الحديث الذى تناقش فيه الرواية مناقشة واسعة.

وقد طبّق الأدباء والنقاد قديماً كل ما اتخذه المحدّثون من مناهج على رواية الشعر وأخبار الشعراء.

ومن يرجع الى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفانى ، وهو من أكبر المصنفات التى تحتوى على تراجم للشعراء فى العصر الجاهلى والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، وآراء النقاد فيهم ، وأذواق عصورهم يثبت له ذلك.

فقد تمت هذه التراجم باستقصاء أخبار الشعراء ، وكل ما يتصل بأخلاقهم واستقصاء آراء النقاد فيهم ، وكثيراً ما يرجع الى ديوان الشاعر ليقف منه على هذه الظاهرة أو تلك ، فعل ذلك مع ابن ميادة (١) «ليتأكد من عقيدته، وهل هو مسلم أو مسيحى فرجع أبو الفرج الى أشعار ابن ميادة ، فلاحظ أنه يقسم بالإنجيل والرهبان والأيمان التى يحلف بها النصارى ، فجزم بمسيحيته».

إنّ ما سار عليه أبو الفرج ، يوضح من بعض الوجوه ، كيف كانت البحوث الأدبية عند العرب ، تعنى بالاستقصاء ، والاستقراء ودقة الملاحظة ، والاستنباط وسداد الاستدلال ، مما أداهم الى أن يكتشفوا خصائص الشعراء ، ومذاهبهم الفنية.

---

(١) البحث الأدبى ص ٨٢.

وبعد فانه يسير الزمن ، ويتقدم الفكر الإنسانى ، ويتضح من المنهج أنواع بمقتضى العلم الذى يقصد اليه ، من تلك المناهج.

أولاً : المنهج التاريخى فى البحث الأدبى :

وهو الذى يقوم باستخدام مناهج وقوانين العلوم التجريبية على الأدب ، وأطلقوا عليه التاريخ الطبيعى ، وطبق أصحاب هذا المنهج على الأدباء منهج الطبيعيين فى تصنيف النباتات ، والحيوان ، ورتبوا الأدباء فى طبقات ، وصنفوهم فى فصائل ، حسب [illegible]

وقد أفاد [illegible] على ضؤ تقسيمها [illegible] حلقات زمانية فى القرنين [illegible] وذلك لدراسة الظواهر المؤثرة [illegible] والأسلوب عند الموازنة بين شاعرين فى بيئة [illegible] ، ويفيد هذا المنهج أيضاً فى قضية التأثر [illegible] إبراز السابق من الأفكار والمتأخر منها ، والمتقدم من الشعراء والكتاب والمتأخر منهم ، ليحكم للأول بالسبق وللمتأخر بالفضل فى التصرف فى الأخذ والزيادة والحسن.

كما يفيد المنهج التاريخى أيضاً فى فهم بعض الأغراض الشعرية مثل: الشعر السياسى ، أو الغزل العذرى ، أو المناقضات الشعرية ، وذلك بالتعرف على بيئات الأدب ، والظروف المحيطة بمن ظهر بينهم هذا الأدب ، ولا يتم ذلك الا بالمنهج التاريخى (١).

النقاد العرب والمنهج التاريخى :

إن من يطلع على كتب التراث فى الأدب لدى النقاد القدامى والمؤلفين يظهر له بجلاء أن المنهج التاريخى بأسسه وأصوله ، كان معروفاً لديهم منذ أوائل القرن الثالث الهجرى فى بحوثهم الأدبية.

واذا كان المنهج التاريخى قد عرفه الغرب وظهر لديهم خلال النصف

---

(١) مناهج البحث ص ١٩ د/ سعد ظلام «بتصرف».

الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، فان العلماء العرب والنقاد قد عرفوا هذا المنهج منذ القرن الثالث الهجرى ، كما قلت آنفاً ـ ففضل السبق للعلماء العرب والنقاد القدامى.

ومن يقرأ كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى المتوفى عام ٢٣١هـ يلاحظ أن المنهج التاريخى ظهر بأسسه وأصوله عند ابن سلام ، حيث قرر ابن سلام أثر البيئة فى تكوين الملكات الشعرية ، وفى توجيهها ، وفى الطابع الذى يغلب عليها ، وذلك فى تقسيمه الشعراء الى طبقات ، وتنبه ابن سلام أيضاً الى الظروف الاجتماعية المحيطة ببيئة الشاعر ، وذلك فى وفرة الشعر أو قلته ، فهو يعلل قلة الشعر بمكان وكثرته بمكان آخر بقوله (١) : «وبالطائف شعراء و وليس بالكثير ، وانما يكثر الشعر بالحرب التى تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج بالمدينة ، أو قوم يغيرون أو يغار يعليهم ، والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا».

ولما كان للبيئة أثرها على ألفاظ الأدب من ناحية اللين والرقة ، أو الخشونة والغلظة أشار الى ذلك ابن سلام بقوله عن شعر عدى بن زيد (٢) «كان عدى يسكن الحيرة ، ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقة ، من أجل ذلك حمل عليه كثير وتخليصه شديد».

هذا ولم يكتف ابن سلام بالبيئة ـ زمانا ومكانا ـ فى المفاضلة بين الشعراء وترتيبه لطبقاتهم ، فقد أضاف عنصراً آخراً ـ وجعله أساساً من أسس المفاضلة ـ هذا العنصر يتصل بالمادة التى أنتجها الشاعر وخلّفها من حيث وفرة الإنتاج ، وجودته ، وتعدد أغراضه ، وهو بهذا يلحق الشاعر بالطبقة التى يستحق أن يكون فيها ، يقول ابن سلام (٣) «وكان الأسود بن يعفر شاعراً فحلاً ، وكان يكثر التنقل فى العرب يجاورهم فيذم ويحمد ، وله فى ذلك أشعار ، وله واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر ، لو شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته «ثم ألحقه بالطبقة الخامسة من طبقات الشعراء الجاهليين».

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج١ ص٢٥٩ ت محمود شاكر .

(٢) المرجع السابق ج١ ص١٤٠. (٣) المرجع السابق ج١ ص١٤٧ .

كما أنه قدم كُثَيِّر عزة ، على جميل بثينة ، حيث وضع كثيراً فى الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين ، ووضع جميلاً فى الطبقة السادسة منهم ، مع اقتناع ابن سلام بأن جميلاً كان أرسخ قدماً وأطول باعاً فى شعر الغزل والنسيب من صاحبه ، ولكن ابن سلام كان يقول عن كثير (١) «وله أى لكثير فى فنون الشعر ما ليس لجميل».

فابن سلام قدم كثيراً لإجادته ، ووفرة إنتاجه ،وتعدد فنونه وأغراضه.

وليس ابن سلام وحده الذى التزم المنهج التاريخى ، فهناك غيره كثير منهم أبو محمد عبدالله بن [illegible] المتوفى عام ٢٧٦هـ.

فقد التزم ابن قتيبة [illegible] عليه فى كتابه الشعر والشعراء هذا الكتاب [illegible] ـمين :

القسم الأول :

الشعر وفيه تحدث ابن قتيبة عن الشعر وأغراضه ، وأنواعه ، وألفاظه ، وقواعد نقده ، وذلك من خلال المقدمة التى أعدها ابن قتيبة لكتابة ، فهذه المقدمة تمثل بحق مذهب ابن قتيبة فى النقد فهو القائل (٢) : «هذا كتاب ألفته فى الشعر ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها».

القسم الثانى :

وفيه قال: «وكان قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الادب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج٢ ص٥٤٥.

(٢) الشر والشعراء ج١ ص٥٩ت / احمد شاكر ط دار المعارف.

وفى كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من خفى اسمه ، وقل ذكره وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخبار».

إن حديث ابن قتيبة عن الشعراء ، وأزمانهم ، وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف منهم باللقب أو الكنية ، من صميم المنهج التاريخى.

كما التزم ابن قتبة بالمنهج التاريخى فى تراجمه للشعراء الذين ذكرهم فى كتابة حيث يذكر نسب الشاعر فى تسلسل وترتيب وقد يذكر موطن الشاعر ليحدد منزلته اللغوية ، وسلامة سليقته ، وقد يذكر عدد قصائده ، وما يستحسن له من معان ، وما يتمثل به من شعره ، وما سبق اليه من المعانى.

يقول ابن قتيبة عن زهير بن أبى سلمى (١) :هو زهير بن ربيعة بن قرط ،والناس ينسبونه الى مزينة ، من مزينة مضر ، وكان زهير جاهلياً لم يدرك الإسلام ، وانما أدركه ابناه كعب وبجير.

وأنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير فقد كان له ولدان: كعب وبجير كل منهما شاعر ، وكان لكعب ابن يقال له عقبة بن كعب شاعر ، ولقبه المضرّب ، وذلك أنه شبب بامرأة من بنى أسد فقال (٢) :

ولا عيب فيها غير أنك واجد ملاقيها قد ديثت بركـوب

فضربه أخوها مائة ضربة بالسيف فلم يمت ، وأخذ الدية ، فسمى «المضرّب» وولد لعقبة «العوام» وهو شاعر.

فهؤلاء خمسة شعراء فى نسق: العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى ، وكان أبو سلمى أيضاً شاعراً وهو القائل فى خالة أسعد المرّىّ وابنه كعب بن أسعد ، وكان حمل أمه وفارقهما (٣) :

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ج١ ص ١٤٢ .

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص ١٤٣ .

لَتُصـــرَفَــنْ إبــل مــحبة   من عند أسعد وابنه كعب
الآكلين صريــح قومهـــما   أكل الحبارىُ بُرْعُم َالرُّطْب

وكان زهير رواية أوس بن حجر ، وكان أيضاً أستاذ الحطيئة ، الشاعر المخضرم ـ وقد سئل الحطيئة عنه فقال (١) : «ما رأيت مثله فى تكفيه على أكتاف القوافى ، وأخذه بأعنتها ، حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذما».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عباس رضى الله عنهما (٢) : «أنشدنى لشاعر الشعراء » الذى لم يعاظل بين القوافى ، ولـم يتبع وحشىّ الكلام ،قال: من هويا أمير المؤمنين؟ قال: زهير ، فلم يزل ينشده الى ان برق الصبح».

وكان جيد شعره فى هرم بن سنان ، وقال عمر رضى الله عنه لبعضَ ولد هرم (٣) «أنشدنى بعض ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال عمر :لقد كان يقول فيكم فيحسن فقال: يا أمير المؤمنين ، إنا كنا نعطيه فنجزل ! فقال عمر رضى الله عنه: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم».

وكان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله (٤):

يؤخر فيودع فى كتاب فيدخـــر   ليوم الحساب ، أو يعجّل فينقم

ومما تمثل به من شعره (٥) :

وهل ينبت الخطى الا وشيجة   وتغرس إلا فى معادنها النخل

ويستحسن قوله (٦) :

هو الجواد الـذى يعطيك نائـله   عفواً ويُظْلم أحياناً فينْظَلــم

ان ما قاله ابن قتيبة فى حديثه عن زهير قام على أساس المنهج التاريخي ، فقد ذكر نسب الشاعر ، وقبيلته ، وزمنه ، والشعراء من ولده ، وتقصى ما

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص١٤٣.
(٢) الشعر والشعراء ج١ ص١٤٣.
(٣) المرجع السابق ج١ ص١٤٤ .
(٤) المرجعالسابق ج١ ص ١٣٩.
(٥) المرجع السابق ج١ ص١٤٠.
(٦) المرجع السابق ج١ ص١٤١.

قاله النقاد والشعراء عنه وبعض ما يستحسن من شعره وما يتمثل به منه.

وممن ظهر المنهج التاريخي في بحثه أيضاً: القاضي الجرجاني المتوفى عام ٣٦٦ هـ صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه.

فهو يتحدث عن اختلاف الشعراء وتباينهم في نظم الشعر من ناحية رقة الشعر وصلابته ، ورجع ذلك الى اختلاف الطبائع ، تلك الطبائع الشديدة التأثر بالاقليم والبيئة التى نشأ بها ، فانه من القواعد الثابتة فى علم الطبيعة ، أن للأقاليم تأثيراً فى أخلاق الناس وأبدانهم ، فيختلفون صحة ونشاطاً ، وبديهة وذكاء باختلاف الإقليم ، ويقال على الإجمال (١) «إن أهل البادية أصفى ذهنا من سكان المدن ، وأهل البلاد الباردة آسرع حركة ، وأكثر نشاطاً من أهل البلاد الحارة».

يقول الجرجانى مقرراً ذلك (٢) : «وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دمائه الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز الالفاظ ، وعر الخطاب حتى انك ربما وجدت الفظاظة فى صوته ، ونغمته ، وفى جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة ، أن تحدث بعض ذلك.

ولذلك تجد شعر «عدى» وهو جاهلى ـ أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة ، وايطانة الريف وبعده عن جلافة البدو ، وجفاء الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك فإن اتفقت لك الدماثة ، والصبابة ، وانضاف الطبع الى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها».

إن القاضى الجرجانى بهذا القول يخبر عن أثر االبيئة فى الشعر ، ففى

---

(١) تاريخ آداب العرب ج١ ص٢٧ جرجى زيدان ط بيروت .

(٢) الوساطة ص١٦ ، ١٧ ط الحلبى.

البادية جفاء ، وخشونة ألفاظ ، لمن أقام فيها ، ويستدل على ذلك بأن شعر عدى بن زيد أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ، لملازمة عدى الحاضرة ، واستيطانة الريف ، وبعده عن البداوة ، وجفاء الأعراب ، ويرى الجرجانى أن الموضوع الشعرى له دخل كبير فى سلامة الألفاظ ، ورقتها ، فالغزل يتطلب الفاظاً سهلة رقيقة ، تتفق مع الغرض ، ومع طبيعة الشاعر العاشق المتيم.

وبعد فانه لما كان الاستقراء يمثل روح المنهج التاريخى: نرى القاضى الجرجانى يدعو الى الاستقراء ، وذلك بقوله (١) : « اذا أردت أن تعرف موقع الفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير ، وذى الرمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمى العرب ومتغزلى أهل الحجاز كعمر وكثير وجميل ونصيب ، وأضرابهم ، وقسهم بمن هو أجود منهم شعراً ، وأفصح لفظاً وسبكاً ، ثم انظر وأحكم وانصف».

ان التصفح والتتبع ما هو الا استقراء ، والاستقراء روح المنهج التاريخى.

هذا وقد ظهر المنهج التاريخى فى الأدب الحديث ، حيث برز أثر البيئة جلياً فيما كتبه العقاد عن ابن الرومى «حياته من شعره» وفيما كتبه الدكتور طه حسين فى كتبه «فى الأدب الجاهلى ، و حديث الاربعاء ، وتجديد ذكرى أبى العلاء».

فها هو ذا الدكتور طه حسين يبين أثر البيئة المكانية والزمانية فى تكوين الانسان وتنشئة نفسه ، والهامة ما يعن له من الخواطر والآراء ، فهو يقول(٢) : «فاعتدال الجو وصفاؤه ،ورقة الماء وعذوبته ، وخصب الأرض وجمال الربى ،ونقاء الشمس وبهاؤها كل هذه علل تشترك مع غيرها فى تكوين الرجل وتَنْشى ءِ نفسه بل فى إالهامه ما يعن له من ا لخواطر والآراء».

---

(١) الوساطة ص٣٣

(٢) تجديد ذكرى ابى العلاء ص١٥ ط دار المعارف

ثانياً : المنهج النفسى :

ان الاتجاه النفسى فى بحث الأدب قديم ، قدم الإغريق ، فها هو ذا أفلاطون يقول عن الشاعر: (١) « ان الشاعر ينظم شعره عن إلهام ، وحال تشبه حال الجنون فهو لا يصدر فى شعره عن عقله ،كما وصمه بأنه مريض مرضاً نفسياً أو عصبياً ، وأنه لذلك يضر المجتمع الرشيد فى مدينته الفاضلة أو المثالية».

وقد تابع «أرسطو استاذه أفلاطون وذلك فى الحديث عن الشعر والشعراء «وله تأملات مختلفة فى نفوس الشعراء والنفس البشرية».

كما تابع «هوراس» تأملات أرسطو ، وكذلك «لونجنيوس» فى مقالته عن الأسلوب اذ جعل من بواعث التأثير فى الشعر قوة العاطفة» (٢).

هذه التأملات النفسية التى ظهرت عند افلاطون وأتباعه لم يظهر لها أثر فى نقد العصور الوسطى.

حتى اذا كان عصر النهضة ، عادت هذه التأملات الى الظهور من جديد ، ونمت حيث فرّق ، كولريدج «فى كتابه سيرة أدبية» بين الشعر والعلم قائلاً (٣) انهما يختلفان بسبب مخاطبة أولهما للعاطفة ، ومخاطبة ثانيهما للعقل».

ثم بدأت الدراسات النفسية الحديثة فى الأدب بدءاً علمياً بنشر «فرويد» كتابه« تفسير الاحلام» سنة ١٨٩٦م.

ويرى «فرويد» أن (٤) «الإبداع فى الفن - شعراً وغير شعر - انما هو تنفيس عن رغبات جنسية مكبوتة فى الاشعور كبتت منذ عهد الطفولة ، أو قمعت قمعاً شديداً».

فالإبداع الفنى - عند فرويد - مستمد من عالم الجنس المكبوت فى داخل الفنان ومن العقد التى وقف عندها «فرويد» طويلاً عقدة «أوديب» هذه التى أشعلت فى قلب «أوديب» غيرة محمومة من أبيه على أمه ».

وفى اطار الاتجاه الفرويدى ، برزت نظرية النرجسية التى يتداولها كثير

---

(١) البحث الادبى ص١٠٥ د/ شوقى ضيف . (٢) البحث الادبى ص١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٥ (٤) المرجع السابق ص ١٠٧ .

من النفسيين ، نسبة الى زهرة النرجس ، واسطورتها اليونانية التى تزعم أنها كانت فى أصلها فتى سوى الخلق مكتمل الشباب ، بارع الحسن ، لذلك هامت به العذارى وفتنّ فتوناً ، وهو صاد عنهنّ حتى إذا طال بهن العذاب والشقاء ، اتجهن الى آلهتهن بالدعاء أن تنقذهن منه فاستجابت لهن ، وأنزلت به عقاباً صارماً ، فَفُتِن بحب نفسه وشقى بهذا الحب شقاء لا حد له ، فقد ذهب هذا الفتى السوى ذات يوم يرتوى من ينبوع فاذا به يبصر صورته فى الماء ، فيبهره جمالها ، فظل مشدوداً اليها لا يتحول بصره عنها ، حتى نزل به الفناء.

فبحثت عنه عرائس الماء ، فلم تجد سوى نرجسه ترمز اليه ، نرجسة ترنو دائماً الى الماء ، ولا تنظر الى السماء.

وقد اتخذ علماء النفس هذه الأسطورة للدلالة على عقدة جنسية بالغة التعقيد ، هى عقدة الفتنة بالجسد ، لا عند منْ يصبون الى الفتون الجسدى فى غيرهم ، وانما عند من يصبون الى الفتون الجسدى فى أنفسهم ، فهم يحسون فى أعماقهم بحاجة شديدة الى من يعشقهم (١) .

وحقاً أن الفنان شاعر أو غير شاعر يشغل بنفسه - كثيراً - ويطفى عنده حبه لذاته على حبه لغيره هذا شىء والقول بأنه مريض بداء عبادة ذاته وجسده شىء آخر.

كما أن الشاعر يستلهم فى فنه النفس الجماعية - غالباً - لا نفسه الفردية ، وأن إرادته تتعطل الى حد كبير لتحل محلها إرادة الجماعة.

وبعد فان مقياس جودة العمل الأدبى ، ورداءته عند النفيسيين ، لا تعلل بجماليته ولفتاته الذوقية الشعورية ، وحسن التصوير وجمال الأسلوب ، وانما تعلل بالقيم النفسية ومدى التأثير النفسى فى القارىء.

وقد أفاد البحث والنقد من علم النفس ، وذلك لأن المنهج النفسى يعنى بدراسة نفس الأديب ، باعتبارها المنبع الذى يصدر عنه الأديب أعماله ، فيجب أن تدرس هذه النفس ليتفهم ما يصدر عنها ، فأى أثر أدبى لا يمكن فهمه الا اذا فهمت نفس صاحبه.

---

(١) البحث الأدبى ص ١١٠ وما بعدها بتصرف . د/ شوقى ضيف .

إن هذا الأمر واقع صحيح الى درجة كبيرة ولكن (١) « ينبغى عدم المغالاة فى هذه الناحية ، فان المغالاة ضارة بالفن غاية الضرر ، فكثيراً ما تكون المغالاة فى حياة المؤلف أو الأديب أو الشاعر سبباً فى عدم تقدير القطعة الأدبية تقديراً فنياً صحيحاً».

هذا وليس المنهج النفسى بغريب على الباحثين العرب فقد عرفوه ، وبحثوا على أساسه فى كثير من مؤلفاتهم ، وتوصلوا من خلال استعانتهم به الى نتائج مفيدة للأدب ، وللبحث الأدبى.

ومن الباحثين القدامى الذين استلهموا النفس فيما كتبوا «ابن قتيبة» وذلك فى كتابة الشعر والشعراء ، فهو يقول(٢): «وللشعر تارات ـ أى أوقات ـ يبعد فيها قريبة ، ويستصعب فيها ريّضه ، وكذلك الكلام المنثور فى الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الأديب،وعلى البليغ الخطيب ، ولا يعرف لذلك سبب الا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم».

ويقول أيضاً: «وللشعر أوقات يسرع فيها أتيّه ، ويسمح فيها أبيّه منها أول الليل قبل تفشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغذاء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير».

ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب.

كما أخبر ابن قتيبة عن أثر صفاء النفس وجلاء همومها فى العملية الابداعية فيقول (٢) «قيل لكثير: يا أبا صخر كيف تصنع ، إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف فى الرباع المخلية والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرصنه ، ويسرع الىّ أحسنه».

ويقول ابن قتيبة أيضاً: «وقيل للشنفرى ـ الشاعر الجاهلى ـ حين أُسِر: أنشد ، فقال : الإنشاد على حين المسرة».

ان ما أخبر به كثير والشنفرى يدل دلالة واضحة على أثر العامل النفسى

---

(٢) مناهج البحث ص ٥٩ د/ سعد ظلام . (٢) الشعر والشعراء ١ / ٨٠ ، ٨١ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٧٩ .

فى إنشاء الأدب وإنشاده.

كما أن حديث ابن قتيبة عن بناء القصيدة من ناحية الابتداء ، وتعدد الموضوعات خير دليل على تمثله المنهج النفسى ، وإفادته منه فهو القائل (١) : «ان مُقَصّد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكى ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها . . . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعى الأسماع اليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، والف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام ، فاذا علم أنه استوثق من الإصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرّ الهجير وانضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم أنه أوجب على صاحبه - الممدوح - حق الرجاء ، وذمامه التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزّه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيل» .

ان هذه الأقوال المأثورة عن ابن قتيبة خير دليل على تمثله المنهج النفسى وافادته منه .

ومن الباحثين الذين نظروا الى المنهج النفسي فى بحوثهم القاضى الجرجانى صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه فقد تحدث عن اختلاف الشعراء باختلاف الطبائع فقال (٢) : «ان الشعر علم من علوم العرب ، يشترط فيه الطبع والرواية ، والذكاء ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان» .

ويقول أيضاً (٣): «وقد كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٧٤ ، ٧٥.

(٢) الوساطة ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

أحوالهم ، فيرق أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت الفظاظة فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى ﷺ : «من بدا جفا » ، ولذلك تجد شعر عدى - وهو جاهلى - أسلس من شعر الفرزدق ،و رجزرؤبة ، وهما آهلان للازمة عدى الحاضرة ، وايطانة الريف وبعده عن جلافة البدو ، وجفاء الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك ممن قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع الى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها».

فالجرجانى يتحدث عن أثر اختلاف الطبائع والغرائز البشرية فى العملية الإبداعية فالشاعر الجاهلى المقيم فى الحضر ، يرق لفظه ، ويلين طابعه ، ويأتى شعره أسلس ، وأرق من شعر شاعر إسلامى عاش فى البادية ، وتأثر بجلافة البدو ، وجفاء الأعراب ، وكذلك يأتى شعر الشاعر العاشق المتيم رقيقاً لفظه ، واضحاً معناه ، وذلك أثر الصبابة والدماثة ، فان سلامة اللللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقد ر دماثة الخلقة.

فاذا ما تكلف الشاعر غير طبعة فإن (١) : «مع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سببا لطمس المحاسن».

وممن وقف عند النفس البشرية ، وما يؤثر فيها من عوامل ، وأثر هذه العوامل على العملية الابداعية فى الأدب «بشر بن المعتمر» المتوفى فى مطلع القرن الثالث الهجرى.

وقد ضمن بشر آراءه فى الأدب ونقده ، صحيفته التى نسبت اليه وأخذت مكانها عن جدارة ، وكانت دليلاً ومرجعاً لكثير من الأدباء ، والنقاد

(١) الوساطة ص ١٩ .

من بعده ، وقد افتتح بشر صحيفته بقوله (١) : «خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وتعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد ، والمطاولة ، والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة».

ان بشر بقوله السابق يوجه الباحث والأديب والناقد الى اغتنام اللحظة التى يفرغ فيها باله وتنشط نفسه نشاطاً يهيئها للاستجابة لما يتطلبه الموقف من فكر ومعنى ، والمبادرة باللفظ والعبارة عن الكد والمعاناة والاستكراه ، فان للنفس نفوراً عن العمل ، كما أن لها نفوراً عن الغذاء والشراب ، وأن إكراه النفس على غير ما تقبل عليه لا يفيد العمل بقدر ما يضره ويفسده.

ولذا (٢) يجب على الشاعر والكاتب ألا يعاود الكتابة أو النظم الا اذا كانت نفسه فى حالة من النشاط والصفاء عالية ، لتقبل على الفكرة ، وعلى معالجتها بصدر مشرق ، وقلب مفتوح ، فيكون الابداع ، ويكون الحسن وتكون الجودة ، لأن القلب فى هذه الحالة اكرم جوهراً ، والابداع أشرق حسناً ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ».

كما ظهر الاتجاه النفسى عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى - صاحب كتابى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - وذلك من خلال حديثه عن قوة تأثير التمثيل فى النفس ، حيث يقول (٣) : «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية الى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها ، فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن

(١) فن النقد الأدبى عند العرب ص ١٣٢ د. محمد طاهر درويش

(٢) مناهج البحث ص ٨٢ .

(٣) أسرار البلاغة ١ / ٢٢٥ شرح خفاجى .

تعطيها محبة وشفقاً ».

ثم يتحدث عن العلة والسبب فى ذلك فيقول (١) : «فأما القول فى العلة والسبب لم كان للتمثيل هذا التأثير ، وبيان جهته ، ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه فغيرها ، واذا بحثنا عن ذلك ، وجدنا له أسباباً وعللاً ، كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف.

فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها اياه الى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة ، والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين».

فالشيخ عبد القاهر يتحدث فى هذا الجزء عن أثر التمثيل فى نقل النفس من المعقول الى المحسوس ، ومن الفطرى الى الضرورى ، وهذا أدعى الى إدراكه والتأثر به ، وهذا هو السبب الاول من أسباب قوة تأثير التمثيل.

أما السبب الثانى فهو أن التمثيل يجمع بين المتباعدين أو أنه يريك الشىء فى غير موضعه ، وهذا يترك بلا شك تأثيره الرائع فى النفس ، لأنها تجد الشىء فى غير ما ألفته ، وتراه فى غير موضعه ، كان ذلك أجلب للسرور لديها ، وأحلى فى التقبل ، وألطف وأحب.

يقول الشيخ فى السبب الثانى (٢) :«وهكذا اذا استقريت التشبيهات ، وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت النفوس أعجب ،ولها أطرب ، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤتلف لاطراف البهجة ، انك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين

---

(١) اسرار البلاغة ١/ ٢٣٤..

(٢) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٤٥ .

مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الانسان وخلال الروض».

بما سبق يثبت ما للتمثيل من أثر صبابة النفس ، وشغفها بالشىء حين يظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، أو خرج من موضع ليس بمعدن له ، وهذا مما يثير قوى الاستحسان فى النفس ، وكامن الاستظراف.

وبعد فان ما قاله الشيخ عبد القاهر خير دليل على استلهامه روح المنهج النفسى ، وافادته منه ، ومعرفته به .

كما ظهر المنهج النفسى بجلاء ووضوح فى بحوث ، ومؤلفات الباحثين والنقاد المعاصرين ، ومن هذه البحوث:

ابن الرومى حياته من شعره للعقاد.

والاسس النفسية للإبداع الفنى لمصطفى سويف.

ومن الوجه النفسية فى الأدب ونقده لمحمد خلف الله أحمد.

ومما هو جدير بالذكر أن المنهج النفسى يفيد اذا ما كان منارة تهدى الباحث أما التوسع فى استخدامه ، والمغالاة فيه فانه يعوق البحث الأدبى ، حيث يحوّل الأدب الى تحليل نفسى.

ولذا وجهت الى المنهج النفسى بعض المآخذ والعيوب منها (١) :

ـ ان الباحثين وفق المنهج النفسى يهتمون أولا وقبل كل شىء بالأديب ، ولا يهتمون بالنص كثيراً ، كما أنهم يدرسون النماذج الأدبية على أنها نماذج بشرية.

ـ ان المنهج النفسى يقدر الأثر الأدبى بقدر ما يحدثه من تنظيم للدوافع والعواطف ، وليس بقد ما فيه من أسس أو قيم شعورية ، ولذا كان المقياس الحقيقى للأدب عند هؤلاء الباحثين ، انما يكون فيما يتركه فى نفوسنا من رضى وتَسَامٍ ، غايته إحداث تسام فى النفوس ، بتنظيم ، الدوافع ، كما نظّم دوافع الأديب ، وجعله يتسامى.

---

(١) مناهج البحث الادبى ص ١٠٣ ، ١٠٤ د/ سعد ظلام .

- ان الناقد على ضؤ المنهج النفسى يقبل على دراسة الأديب وآثاره ، وقد استقرت هذه الآراء فى نفسه ، مبتغياً التطبيق ، وكثيراً ما يضلله ذلك لسبب بسيط جداً ، وهو أنه يحكم قبل أن يدرس.

ثالثا : المنهج الفنى :

إن أصحاب هذا المنهج يعنون ببحث البناء الفنى للعمل الأدبى ، وفحص مقوماته فحصاً دقيقاً ، دون التدخل فى أى شىء خارجى ، يتصل بالمجتمع ، وعلاقاته كما أنهم أيضاً لا يقفون عند شخصية الأديب ، سواء كان شاعراً ، أو ناثراً.

فقد اكتفوا بالتحليل الدقيق للعمل الأدبى تحليلاً ، لا يخرج عن كيانه وجوهره اللفظى والمعنوى والتصويرى دون اللجؤ الى أمر خارج عن النص كاستحياء التاريخ ، واستجلاء أحداثه ، أو الالتجاء الى النفس ، ومسار بها الغامضة ، وأغوارها المعقدة.

وبعد فانه يمكن القول إن مهمة الباحث وفق المنهج الفنى (١) : «التعرف على مصادر الجمال فى العمل الأدبى ، وهل هذا الجمال يرجع الى المعنى أو الى اللفظ المفرد ، أو الى النظم أو الى الصورة الكلية للقصيدة بأكملها ، وعلى الباحث أن يحدد سمات وخصائص الجمال فى كل ما تقدم ، أو يكتفى بالاحساس بالجمال فقط ، من غير أن يتعرف على أسبابه ودواعيه».

واذا كان الأدب هو (٢) «النشاط الانسانى المعبر عن الحياة تعبيراً رشيقاً» أو هو (٣) «العبارة الفنية عن موقف انسانى عبارة موحية».

فالتعرف على مصادر الجمال فى العمل الأدبى ، يتم بدراسة وبيان مقومات العمل الأدبى ، وعناصره الاساسية من تجربة شعورية وعاطفة ، وخيال وايقاع . . .

---

(١) معالم البحث الادبى ص ٧٦ د / على صبح . (٢) مناهج البحث ص ٥ د / سعد ظلام .

(٣) فى النقد الادبى ص ١٣ د / سعد ظلام .

التجربة الشعورية :

وهى «تعنى أن يفكر الأديب فى أمر من الأمور ، بحيث يملك عليه التفكير شعوره واحساسه ، ثم يخرج هذا التفكير فى صورة أثر أدبى يرضى به نفسه ، لانه عبر عما يجيش فيها تعبيراً ملفوظاً ، وفى الوقت ذاته يكشف لغيره عما يدور فى جوانحه ، وفى هذا وذاك إحساس بالمتعة والحياة والجمال » (١).

والتجارب الأدبية ليست مقصورة على شىء دون شىء بل (٢) «ان كل ما فى الحياة صالح لأن يكون موضوعاً للتجربة ، فالكون بكل ما فيه أمام الأديب موضوع لتجربته الأدبية».

والتجربة الأدبية ليس بلازم أن تكون تجربة خاصة بالأديب فهناك (٣) «التجربة الشخصية والتجربة التاريخية الأسطورية ، والتجربة الاجتماعية ، والتجربة الخيالية».

العاطفـــة :

وهى الأسس والينابيع التى يتفجر عنها الشعر فالطبع الموهوب لا يكفى وحده للتفريد بالشعر ، بل لا بد من مثير يدفع الى نظمه ، هذا المثير هو الانفعال أو العاطفة.

وقد ذكرا بن قتية الينابيع التى يتفجر عنها الشعر حيث قال (٤): «إن للشعر دواع ، تحدث البطىء ، وتبعث المتكلف منها: الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب».

وقد روى ابن قتيبة ما يؤيد ما ذهب اليه فقال (٥): «قيل للحطيئة أى الناس أشعر ؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه حية فقال: هذا إذا طمع».

---

(١) فى ميزان النقد الأدبى ص ١٧ د / طه أبو كريشة . (٢) عيار الشعر ص ١٠ ، ١١ لابن طباطبا .

(٣) فى ميزان النقد الأدبى ص ١٨ ، ١٩ د / طه أبو كريشة .

(٤) الشعر والشعراء جـ١ ص ٧٨ . (٥) الشعر والشعراء جـ١ ص ٧٩ .

وروى ابن قتيبة أيضا أن احمد بن يوسف الكاتب قال لأبى يعقوب الخريمى: مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد - كاتب البرامكة - أشعر من مراثيك فيه وأجود؟ فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد» .

وأخبر ابن قتيبة « ان عبد الملك بن مروان قال لأرطأة بن سهية: »هل تقول الآن شعرا؟ فقال: (كيف اقول وانا) ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه» .

كما حصر ابن رشيق هذه الانفعالات فى أمور أربعة (١) «الرغبة ، الرهبة الطرب ، الغضب ، ورأى أن أغراض الشعر تنبعث عنها ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومعا الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد ، والعتاب الموجع» .

هذا والعاطفة التى تتصل بحياة الناس وسلوكهم أرقى من العواطف التى تثير لذة الحواس ، ولذا فإن أرقى العواطف الأدبية هى التى تحمى الضمير ، وتزيد حياة الناس قوة .

ورقى العاطفة هو عنصر من عناصر نجاح العاطفة ، وهو ما يطلق عليه « السمو» وعلى هذا اذا اردنا ان نقوم عملا أدبيا تساءلنا هل هو يثير فينا أنفعالاوميلا الى الحياة الراقية أم لا ؟ فبقدر ما يثير من انفعال وميل الى الحياة الراقية يكون رقية .

ومن عناصر العاطفة أيضا « الثبات» وهو الأمر الذى (٢) « يجعل القارىء يعيش فى جو الأثر الادبى متتبعا خطاة ، مشدود الانتباه ، متيقظ الوجدان ، وكلما عاد اليه مرة بعد أخرى تجدد الانفعال والإعجاب» .

كما اشترط النقاد فى العاطفة « القوة والعمق» فالعاطفة يجب أن تكون قوية تنبىء عن نضج الموضوع لدى الأديب فالشاعر الذى يختلط شعره بالقلب ، ويمس شفافه ، ويعلق بالنفس هو شاعر عاطفته قويه عميقه .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٧٧ . (٢) فى ميزان النقد الأدبى ص ٤٤ د. طه أبو كريشة .

(٣) أسس النقد الأدبى ص ٥٠٦ د. أحمد بدوى

والشعراء يختلفون فى ذلك الأمر ، وقد روى (٣) أنه ذكر شعر الحارث بن خالد ، وشعر عمربن أبى ربيعه ، عند ابن أبى عتيق ، ففضل بعض الجالسين شعر الحارث بن خالد ، فقال له ابن أبى عتيق: بعض قولك يابن أخى ان لشعر عمر بن ابى ربيعة نوطة بالقلب ، وعلوق بالنفس ، ودرك للحاجة ليست لشعر...» .

ومن المعايير الأدبية التى توزن بها العاطفة « الصدق ، الذى يتحقق (١) فى هذا التجاوب الذى يحدث بين القارىء وبين ما يقرأ من أدب ، ويبدو الصدق أيضا فى الأثرالذى تتركه القصيدة مثلا فى نفس القارىء ، حتى يخيل اليه أنه لو قال شعرا لما عدا قوله ما يقرأ ...ان المشاركة الوجدانية هى أولى علامات الصدق الفنى ، و[illegible] ... ان نجاح الشاعر هو فى أن يجعلنا نحس [illegible] فى جوّه وننفعل بانفعاله ، ونقول هذا ما كنا نقوله فعلا لو كنا مكانه ، وانه بذلك يعبر عنا ويترجم عما فى نفوسنا» .

الخـــيال:

وهو عنصر من عناصر الأدب ، كما أنه خير وسيلة لتصوير العاطفة ، لأنه اللغة الطبيعية لأداء الانفعالات . هذا وبعض أنواع الأدب أحوج الى الخيال من بعضها الآخر ، فالشاعر والروائى يحتاجان الى قدر من الخيال أكبر مما يحتاجه قائل الحكم والأمثال .

والخيال (٢) « ملكة غامضة لا يمكن تعريفها ، وانما يمكن معرفتها بأثرها» والأدب لا يكون ممتعا مثيرا للجمال النفسى الا اذا مسه الخيال مسافخفف من جفاف الفكر وأجرى ماء يلين من صلابة العقل ، وبجانب ذلك فإن للخيال دورا فى إبراز الخبىء وكشف الأستار والحجب ، وتشخيص المتخيل وتجسيم المتوهم ، وإحضار الغائب ماثلا للحس والعيان ، قطعا لحجة من يمارى ويشك، وتقريبا للقارىء نحو دائرة التسليم والاقتناع» (٣) .

---

(١) فى ميزان النقد الادبى ص ٤٥ . (٢) النقد الأدبى ص ٣٨ أحمد أمين .

(٣) فى ميزان النقد الأدبى ص ٣٠ .

هذا والخيال أنواع وألوان منه الخيال « المؤلف» وهو الذى يؤلف بين مناظر مختلفة ، فالشاعر يشعر بالشىء وأثره فى نفسه ، وهذا يستدعى عنده صورة أخرى ، أثارت مثل ذلك الشعور من قبل فيؤلف بين الشعورين بضرب من التشبيه .

كما عرف العرب أيضا الخيال الذى يبتكر الشخصيات التى لا وجود لها ، وينسب اليها ما شاء من الأقوال والأفعال كما فى المقامات وعرفوا أيضا الخيال الذى ينطق الحيوان والشجر والجماد ، ويجرى على ألسنتها ما ينبغى أن يجرى على ألسنه العقلاء من الناس ، ويجعلها تتصرف كما يتصرف هؤلاء العقلاء .

ويظهر الخيال - غالبا - بجلاء فى أبواب المجاز المرسل والتشبيه والاستعارة بنوعيها .

ولما كان الكلام المشتمل على الخيال أروع وأشد تأثيرا فى النفس من الكلام الذى يكون حقيقة كله ، جاء قولهم (١) « المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع» .

وقد صور الشيخ عبد القاهر الجرجانى دور الخيال مستعينا باحدى صوره وهو التمثيل فقال عن التمثيل (٢) : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصيلة الى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ، ورفع أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف من قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة ، وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا» .

أما لماذا كانت هذه الصله الوثيقة بين النفس ، والخيال ، فيجيب عن ذلك الشيخ عبد القاهر بقوله (٣) « ان أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وان تردها فى الشىء تعلمها اياه الى شىء آخر هى بشأنه أعلم وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم باالاضطرار والطبع

---

(١) أسس النقد الأدبى ص ٥٠٩ .

(٢) أسرار البلاغة ١ / ٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق جـ١ ص ٢٣٤ .

لأن العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ،كما قالوا ليس الخبر كالمعاينه،ولا الظن كاليقين » ٠

ويقول الشيخ أيضا (١) : « وهكذا اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت النفوس أعجب ، ولها أطرب ، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياع ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤتلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض وفى خلقة الانسان وخلال الروض » ٠

هذا والخيال مقبول (٢) « اذا لم يخرج الى الشطط والمستحيلات فى تمثيل ما لا تقبله الأوهام والظنون وانما لابد من شبه يقره العقل وملاءمة سوية صحيحة ٠٠ ليكن للخيال دور فى تصوير المعانى ، ولكن ليس بالدرجه التى تدخلنا فى عالم المستحيلات وتبعدنا عن عالم الواقع، فيتحول التعبير فى نهاية الأمر الى طلسمات وأوهام ، تقصد لذاتها ، وتصبح هى غاية الأديب ، حبا فى الإغراب والإبعاد » ٠

حقا ان الكلام المشتمل على الخيال يجعل النفس شديدة الأنس به ، سريعة الى التاثر بصورة ٠

ونتأمل قول امرىء القيس : (٣)

فقلت لـه تمطّى بصلبه ‏ ‏ ‏ ‏ وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد اشتمل هذا البيت على استعارة ،استحسنها النقاد،والسر فى ذلك ، يعود الى أنها نقلت الى السامع والقارىء شعور الشاعر واحساسه ازاء هذا الليل الطويل ، فهو يحس به ثقيلا بالغ الطول ، قد مضى زمن مد يد منذ بدأ أوله ، وها هو ذا وسطه يتطاول ، ،يسير فى بطء ولا يزال المدى بعيدا بينه

(١) أسرار البلاغة ١/٢٤٥٠

(٢) فى ميزان النقد الأدبى ص ٣١ ٠

(٣) مختار الشعر الجاهلى جـ١ ص٢٩ ٠

وبين آخره ٠

ان الشاعر يحس بكل دقيقة تمر به ، لأنه أرقِ ، بات يتلوى من الألم ، ويحس بثقله وشدة وطأته عليه كما يحس بذلك من يجثم على صدره حيوان ضخم الجثه كالجمل ٠

ومن هنا كان تشبيه الليل بالجمل تعبيرا صادقا عن شعور بثقل الليل ٠

واذا كان امرؤ القيس قد جعل الليل جملا تمطّى بصلبه وأردف أعجازا ، فان أبا ذؤيب الهذلى قد صور المنية حيوان مفترسا عنيفا بالغ العنف ، كما صور الانسان مغلوبا أمام هذا الوحش الكاسر ، لا يلبث أن يخر صريعا ، اذا أنشب فيه الوحش أظفاره ، يقول أبو ذؤيب : (١)

واذا المنية أنشبت أظـفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفـع

فقد نجح الشاعر ببيته السابق فى إبراز عجز الأنسان وضعفه أمام قوة الموت وجبروته ، وذلك فى صورة ملموسة ٠

فالاستعارة لها فضل كبير فى تصوير عاطفة الشاعر ، واحساسه تصويرا قويا قادرا على نقلها فى وضع مؤثر الى القارىء والسامع ٠

ان ملكة الخيال ذات قيمة كبيرة فى الأدب ، بل تكاد تكون أقوم الملكـات ٠

هذا وللخيال الأدبى ارتباط كبير بالعواطف ، فكلما كانت العاطفة قوية احتاجت الى خيال قوى يعين عليها ٠

التعـبير أو الأسـلوب :

هذا العنصر هو الأداة التى بواسطتها ينقل الأديب إحساسه المضمر فى نفسه الى الناس ، وقد وشّاها بصور الخيال ، وظلاله ، فيؤثر فى نفوسهم ، ويدفعهم الى مشاركته الوجدانيه فيما نفعل به ٠

والاديب الفذ ذو القدرة على التعبير يختار الفاظه ، ويهيىء لها الجو الفنى الذى تشع به الصور والظلال والايحاء بالمعنى ٠

اذن فلا بد من أن يكون اللفظ ملائما للجو الشعورى موحيا به ، معانقا

---

(١) المفضليات جـ٢ ص٢٢٢ المضلية رقم ١٢٦ ٠

له ، متسقا معه ، رقة ودقة أو فخامة وضخامة .

كما أنه لا بد من أن تتآلف الألفاظ فيما بينهما ، وتقبل كل كلمة منها على الأخرى وتعانقها ، وتفسح مكانا بجانبها كما أن الشاعر الفحل يجانس بين ألفاظه ومعانيه .

والمجانسة تظهر مقدرة الشاعر ، وبراعته فى امتلاك زمام الكلمة ، وتطويعها لمعانيه ، وأغراضه لتكون صدى حسه ، فيجعلها ترق فى موضع الرقة ، وتعنف فى مواضع العنف .

وخير مجال تظهر فيه رقة الألفاظ هو النسيب والاعتذار ، كما أن خير مجال تظهر فيه قوة الألفاظ وعنفها ، الفخر والهجاء .

هذا ومن عناصر الأسلوب الأدبى الإيقاع ، وهو عنصر يمتاز به الفن عن العلم فلا يوجد فى العلوم ـ الطب والهندسة ، والفلسفة وغيرها من العلوم ـ إيقاع ، وانما يوجد الايقاع فى الفنون ـ الأدب ، الرسم ، النحت ، الرقص ، ويختلف ـ بالطبع ايقاع هذه الفنون شكلا ونوعا ودرجة .

ويتمثل إيقاع الأدب فى موسيقاه ، وموسيقى الشعر نوعان : موسيقى خارجية وأخرى داخلية .

وتنبعث الخارجية من مصدرين هما: وحده الوزن ووحده القافية:

أولا : الـــوزن:

وهو بحر الشعر ، ولما كانت بحور الشعر قائمه على تفعيلات ذات ايقاعات خاصة ، نشأت عن الحركه والسكون ومنهما تتكون التفعيلة التى يقوم على أساسها البحر الشعرى وبحور الشعر متعددة منها القصار ، ومنها الطوال ، وكل منهماله ايقاعة الموسقى.

«ولقد بحث النقاد فى موسيقى الشعر عن العلاقة التى تربط الأوزان بالاغراض الشعرية متسائلين: هل هناك أغراض تناسبها بحورمعينه يحسن أن تصاغ فيها ؟

من النقاد من يرى أن على الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، وينظر

(١) فى ميزان النقد الأدبى

فى أى الاوزان يكون أحسن استمرارا ، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه به ، ولا يضيق عن استيعاب معانيه» (١) فأصحاب هذا الرأى يرون أنه على الشاعر أن يلائم بين الوزن الشعرى والغرض الذى يعبر عنه».

فالأوزان الطوال مثل الكامل والبسيط والوافر والطويل فبها رصانة وفخامة تصلح لمقاصد الجد كالفخر ونحوه ، والشاعر يجد فيها ميدانا فيسيحا ، ومجالا رحبا لتحليل عواطفه تحليلا دقيقا فيه استقصاء وعمق ، ويجد أيضا فى اتساع مقاطعها متنفسا لمشاعره الفياضة التى لا تنهض بها قصار الاوزان .

ومن النقاد (١) « من ينفى الربط بين موضوع القصيدة ، والوزن الذى تنظم فيه ، فحقائق شعرنا تنقض ذلك نقضا تاما ، إذ القصيدة تشتمل على موضوعات عدة ، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها ، لا تنظم الا فيها ، فكل موضوع نظم فى أوزان مختلفه ، وكل وزن نظمت فيه موضوعات مختلفة » .

فالقصيده القديمة كانت تتنوع فيها الأغراض ، حيث تحتوى على بكاء الأطلال والغزل والوصف والمدح أو الفخر أو الهجاء ... وكل غرض من هذه الأغراض يصدر عن عاطفة تختلف عن عاطفة الغرض الآخر ، ومع ذلك فقد كان القالب الذى تصب فيه هذه العواطف واحدا من أول القصيدة الى آخرها (٢) « لذلك فان من الأفضل ترك الحرية للشاعر لانه هو الذى يستطيع أن يدرك أى وزن من الأوزان أنسب لحالته النفسية وغرضه ، وهو الذى يستطيع أن يحدد الموقف الخاص دون التقيد بما يملى عليه من الخارج ، وبالربط بين حالته وبين ما اهتدى اليه ، يستطيع ان يستوفى تجربته الشعرية ، ويستوعب ما يجيش فى نفسه وخواطره ، ثم ليكن هذا الوزن على أى بحر من بحور الشعر » .

ثانـيا : القافيـة :

وهى الركن الثانى من أركان الموسيقى الخارجية ، وشريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، فان الكلام لا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافيه

(١) فى النقد الأدبى ص١٥٢ د/ شوقى ضيف .

(٢) فى ميزان النقد الأدبى ص ٣٣ .

متحدة فى القصيدة كلها ، كما جرى عليه الشعر الجاهلى والإسلامى ، قبل أن ينظم بعض المشعراء شعرا تعددت قوافيه ، ولكن ظلت الغالبية العظمى من الشعر العربي متحدة القافية ، وظل ذوق نقاد العرب مؤثرا هذه الوحدة ، واجداً فيها جمال الأسلوب وكمال الموسيقى ·

وقد عنى النقاد بالقافية لانها أخر ما يطرق السمع من البيت ، وعندها يقف الشاعر قليلا ، تاركا هذه القافية تعمل عملها فى النفس ، ولذا غالى بعض النقاد فى ذلك فقال: (١) « القافية وان كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت أو القصيدة » ·

هذا عن الموسيقى الخارجية ، أما الموسيقى الداخلية ، فانها تكمن فى الانغام الشجية ، والايقاعات الساحرة التى تتسرب الى نفس السامع وقلبه من جو الألفاظ فى تناسب أجزائها ، وائتلاف أصواتها ويزيد فى روعه الإيقاع الداخلى للأبيات ما بها من محسنات بديعية تأتى طبعا وعفوا ، لا صنعة وتكلفا

وبعد فها هى ذا مقومات العمل الادبى ، التى يجب على الباحث وفق المنهج الفنى أن يقف عندها ، راصدا سماتها ، ومبينا مدى اجادة الأديب أو تقصيره ·

فالمنهج الفنى يعتمد ـ كما قلت آنفا ـ على دراسة عناصر الأدب ، ويلجأ الى تحليل النصوص على أساس مقوماتها الأساسية والعناصر المكونَه لها ·

لذا فالمنهج الفنى أصيل لأنه لايبعد بالبحث الأدبى عن طبيعته أو وظيفته الأساسيهَ ·

المنهج التكاملى :

بعد بيان أسس وأصول المناهج السابقة من تاريخية ونفسية وفنية ، يمكن القول أن هذة المناهج تفيد فى البحث والنقد ، حينما تتخذ منارات ومعالم على طريق البحث والنقد ، فاذا ما صارت قيودا وحدودا على الباحث أو الناقد فإنها تضر البحث والنقد ، حيث يصير الباحث والناقد أسيرا لها ، محاصرا بقيودها وحدودها ·

---

(١) العمدة جـ١ ص ١٤٤ ·

«فعلى الباحث وفق المنهج التكاملى أن يستلهم روح المنـــهج التاريخـــى ،والمنهج النفسى ، والمنهج الفنى ، أو بمعنى آخر أنه لا بد أن يتحول عقل الباحث الى ما يشبه مرآه تعكس أضواء تلك المناهج لكى يكشف القيم الفنية الكثيرة فى دراسته ، ويتعرف عليها ويوضح خصائصها واتجاهاتها فى موضوع بحثه .

وهذا المنهج يتطلب من الباحث جهدا خاصا ، كما يحتاج الى سعة الاطلاع والتعمق فى جوانب هذا المنهج ، والتعرف على أصوله .

وهذه المشقة التى تلحق الباحث وفق المنهج التكاملى ، ترجع الى التقاء كل المناهج فى منهج واحد .

أما لو اتبع الباحث منهجا واحدا،فانه لا يعانى مثل هذه المشقة والجهد ، ولكنه لا يصل الى النتائج التى يتوصل اليها لو اتبع المنهج التكاملى » (١)

وقد سلك النقاد القدامى والباحثون ذلك المنهج فى بحوثهم وكتبهم ، فابن سلام الجمحى كان يمزج بين المنهج التاريخى والفنى ، حين قسم الشعراء الى طبقات أو أقسام ، واتخذ لذلك التقسيم أسسا ومبادىء هى الزمان والمكان، والفن الأدبى .

فالحديث عن الزمان والمكان من أصول المنهج التاريخى ، والفن الأدبى اتجاه أدبى فنى ، وهو اساس المنهج الفنى .

ولكى يتضح هذا المنهج عند ابن سلام نذكر حديثه عن الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية ، فقد جعل شعراء هذه الطبقة أربعة وهم: (٢)

١ - نابغة بنى جعدة وهو: قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

٢ - أبو ذؤيب الهذلى وهو: خويلد بن خالد بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل .

٣ - الشماخ بن ضرار بن سنان بن أمامة إحدى بنى سعد بن ذبيان .

---

(١) مناهج البحث الأدبى ص ٢١١ د / سعد ظلام .

(٢) طبقات فحول الشعراء جـ١ ص ١٢٣ وما بعدها .

٤ - لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر .

وبعد أن عرّف ابن سلام بهؤلاء الشعراء حيث ذكر نسبهم فى إجمال ، أخذ يتحدث عنهم ذاكرا أخبارهم ، ومنزلتهم الأدبية بين شعراء عصرهم ، وذلك بإسهاب فيقول: وكان النابغة قديما شاعرا مغلقا ، طويل البقاء فى الجاهليه والاسلام ، ثم حكم على شاعويته فقال: مختلف الشعر مغلبا ، وساق بعض الآراء فى شاعريته حيث قال: الفرزدق : مثل الجعدى مثل صاحب الخلقان ، ترى عنده ثوب عصب ، وثوب خز ، والى جنبه سمل كساء .

كما ذكر ابن سلام طرفا من أخبار الجعدى ، فقال: دخل النابغة على عثمان بن عفان فقال: استودعك الله يا امير المؤمنين ، وأقرأ عليك السلام ، قال: لمه؟ قال: أنكرت نفسى فأردت أن أخرج الى إبلى فأشرب من ألبانها ، وأشم من شيح البادية ، وذكر بلدة فقال عثمان: يا أبا ليلى: أما علمت أن التعرّب بعد الهجرة لا يصلح ، قال لا والله ما علمت ، وما كنت لأخرج حتى أستأذنك ، فأذن له ، وضرب له أجلا فخرج من عنده ، فدخل على الحسن ابن على فودعه ، فقال له الحسن أنشدنا من بعض شعرك فأنشده:

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له يا أبا ليلى: ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأميةَ بن أبى الصلت ، قال: يا ابن رسول الله ، والله انى لأوّل الناس قالها .

وان السروق من سرق أمية شعره .

ثم ذكرابن سلام ان النابغة الجعدى علوى الرأى - أى أنه يشايع ويؤيد مذهب العلويين .

ان سمة المنهج التاريخى والنفسى جلية فيما سبق من أخبار ، كما أن سمة المنهج الفنى ظاهرة فيما ساقه ابن سلام من أخبار للفرزدق عن شاعرية الجعدى ، ومنزلته الأدبية .

ثم انتقل ابن سلام الى الحد يث عن أبى ذؤيب الهذلى فقال عن شاعريته (١) « وكان أبو ذؤيب شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن وساق خبرا لأبى عمرو بن العلاء حيث سئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ قال

حسان : حيا أم رجلا ؟ قال: حيا ، قال: أشعر الناس حيا هذيل: وأشعر هذيل ـ غير مدافع ـ أبو ذؤيب ·

ثم تحدث ابن سلام عن الشماخ فقال: فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر يريد عبارات الشعر وألفاظه وصياغته ـ أشد أسرا من لبيد ،وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقا »·

يريد أن كلام الشماخ قليل الماء غير ليّن ولا سهل ، أو غير مسترخ ولا ضعيف ان ما قاله ابن سلام عن شعر الشماخ من صميم المنهج الفنى وأساس من أسسه ·

ومن الناحية التاريخية ذكر ابن سلام ، أن للشماخ أخوين ، الأول يسمى مزرد والثانى جزء وكلاهما شاعر ، إلا أن أفحلهم الشماخ ·

وتحدث ابن سلام عن لبيد فقال: « وكان لبيد بن ربيعه أبو عقيل فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلما رجل صدق ·

وقال: كتب عمر الى عاملة أن سل لبيدا ، ما أحدث من شعر فى الاسلام ، فقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر فى عطائه ، فبلغ به ألفين ، فلما ولى معاوية قال: يا أبا عقيل: عطائى وعطائك سواء ، لا أرانى الا سأحطك ، قال: أو تدعنى قليلا ، ثم تضم عطائى الى عطائك فتأخذه أجمع ·

ويقول ابن سلام : « وعمّر لبيد عمرا طويلا ، وكان فى الجاهلية خير شاعر لقومه ،يمدحهم ويرثيهم ، ويعد مناقبهم ، وكان يطعم ما هبت الصبا ·

وكان المغيرة بن شعبة إذا هبت الصبا قال : أعينوا أبا عقيل على مرؤته»

وبعد فإن ما قاله ابن سلام عن شعراء هذه الطبقة فيه روح المنهج التاريخى ، وذلك بذكر عناصره من زمان ومكان ، فالشعراء الأربعة ـ أصحاب هذه الطبقة ـ من شعراء البادية ، كما أن كلا منهم مخضرم ، عاش الجاهلية والاسلام ،وحسن إسلامه ، ثم إن الأخبار التى ساقها عن هؤلاء الشعراء ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ١٣١ وما بعدها ·

كانت على هدى المنهج التاريخى ، من ذلك قوله عن النابغة حين دخل على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحين سئل حسان عن أشعر الناس ، وما كتب به عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الى عاملة ، ليسأل لبيدا عما أحدث من الشعر فى الاسلام ·

ثم ان روح المنهج النفسى واضحة أيضا فى بعض ما قاله ابن سلام عن هؤلاءالشعراء،فها هو ذا النابغة الجعدى يتبرم بحياة الحضر،والاستقرار، ويضيق بهما ، حتى صارت نفسه كأنها غريبة عليه ، لذا أراد أن يخرج الى البادية ، فيشرب من ألبان ابله ، ويشم من شيح البادية ، ثم ان رأيه ، وهواه مع العلويين ، ولذلك حكم ابن سلام على الجعدى بأنه علوى الرأى ·

أما عن المنهج الفنى فلم يتركه ابن سلام ، بل تمسك به ، وذلك واضح فيما أصدره من أحكام على الشعر والشعراء - أهل هذه الطبقة - فهو يقول : وكان النابغة شاعرا مغلقا ، مختلف الشعر مغلبا ، مثله مثل صاحب الخلقان ، وكان أوصف الناس لفرس ·

وكان أبو ذؤيب شاعرا فحلا ، لا غميزه فيه ولا وهن ،وكان فصيحا كثير الغريب متمكنا فى الشعر ·

ويقول عن الشماخ : أما الشماخ فكان شديد متون الشعر أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبييد أسهل منه وكان لبيد فارسا شاعرا ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام ·

وكما صنع ابن سلام فى كتابه طبقات فحول الشعواء ، صنع ابن قتيبة فى كتابة الشعر والشعراء ، والآمدى فى كتابة الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، والقاضى الحرجانى فى كتابة الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وأبوهلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، وابن رشيق فى كتابة العمدة ، وغير هؤلاء كثير فهم يثبتون النصوص ، ويوثقون صلتها بأصحابها ويبحثون عن السرقات والتاثر والتأثير بين السابق واللاحق ، ويبينون من أحسن منهم وأجاد فى الاخذ والتصرف ،ومن قصر وأفسد،ويتحدثون عن أثر البداوة والحضارة فى الأدب ، وكل هذا من أوليات المنهج التاريخى ، وان كان المنهج الغالب على اتجاهات هؤلاء المؤلفين هو المنهج التكاملى ·

كما وضح المنهج التكاملى فيما كتبه كثير من نقاد العصر الحديث ومؤلفيه (١) .

وبعد فانه لكى تبرز سمات المنهج التكاملى بعناصره المختلفة فى صورة تطبيقية ، أذكر نموذجا أدبيا ـ نصا شعريا ـ يُدْرس ويُحَلّل وفق المنهج التكاملى .

يقول ابو أحمد عبد بن جحش: (٢)

ولما رأتنى أم أحمد غـــاديا … بذمة من أخشى بغيب وأرهب

تقول فإما كنت لابد فاعــلا … فيمم بنا البلدان ولتنأ يـثرب

فقلت لها: بل يثرب اليوم وجهنا … وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

الى الله وجهى والرسول ومن يقــم … الــى الله يوما وجهه لا يخيّب

دعوت بنى غنم لحقن دمائهم … وللحق لما لاح للناس ملحب

أجابوا بحمد الله لما دعـاهم … الى الحق داع والنجاح فاوعبوا

وكنا وأصحاب لنا فارقوا الهدى … أعانوا علينا بالسلاح و أجلبوا

كفوجين أما منهما فمـوفق … على الحق مهدى وفوج معذب

طغوا وتمنوا كذبــه وأزلهم … عن الحق ابليس فخاب وخيبّوا

ورعنا الى قول النبى محمد … فطاب ولاة الحق فينا وطيّبوا

نمت بأرحام اليهم قريبة … ولا قرب بالأرحام اذ لا تقرب

فأى ابن أخت بعدنا يامننكم … وأية صهر بعد صهرى يرقب

ستعلم يوما أيـنا اذ تزايلوا … وزيّل أمر الناس للحق أصوب

وبعد فقبل تحليل النص أدبيا ، يُعّرف بصاحبه ، ومن خلال التعريف يظهر المنهج التاريخى بعناصره ، فصاحب القصيدة هو (٣) أبو احمد عبد بن جحش بن يعمر بن صبره بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان كنيته: أبو احمد

---

(١) مناهج البحث الادبى ص ٢١٠ ، ٢١١ د / سعد ظلام .

(٢) السيرة النبوية حـ ١ ص ٤٧٣ لابن هشام . (٣) الاستيعاب جـ ٤ ص ١٥٩٣ لابن عبد البر .

أمه : أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لأبى احمد أخوان : عبد الله ، وعبيد الله ، مات عبيد الله بأرض الحبشة نصرانيا.

وكان لأبى أحمد أيضاً ثلاث أخوات: زينب ـ أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ ـ وحمنة ، وام حبيبة ولجميعهن صحبة.

وكان ابو احمد متزوجاً من الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب ، وهو أول من خرج مهاجراً من مكمة الى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان ذلك فى صحبة أخيه عبد الله ، كان ابو احمد ضرير البصر ، سليم البصيرة ، فقد كان يطوف بمكة أعلاها وأسفلها ، بغير قائد ، وفى ذلك يقول:

حبّذا مكة من واد ... بها أهلى وعوّاد

بها ترسخ أوتادى ... بها أمشى بلا هاد

وقد توفى أبو احمد سنة ٢٠ هـ.

وبعد فان المنهج التاريخى بأسسه وأصوله قد بدا واضحاً فى التعريف بأبى احمد وذكر نسبه وأمه واخوته ، وزوجه ، وهجرته ، ووفاته.

أما عن المنهج الفنى القائم على تحليل النص الأدبى وبيان مقوماته الأساسية فيمكن القول: ان شعر أبى أحمد عامة وقصيدته التى نحن بصدد الحديث عنها خاصة ، تعبير صادق عن عاطفة المسلمين وشعورهم فى مكة ، حيث آذتهم قريش واستضعفتهم فدفعتهم الى أن يغادروا أرضهم وديارهم وأموالهم إلى دار الهجرة ـ يثرب ـ المدينة المنورة.

الدراسة التحليلية :

بدأ الشاعر قصيدته بهذا الحوار الذى جرى بينه وبين أمرأته أم أحمد ـ فهى ترى فى الذهاب الى يثرب مضرة وهلاكاً ، ولذا حاولت أن تمنعه من التوجه الى يثرب ، وان كان لا محالة فاعلاً ، فليتوجه الى بلد آخر ، ولكن أبا أحمد رجل استقر الايمان فى قلبه ، فعلم أنه لا يصيبه الا ما كتب له ،

فأخبرها أن كل شىء بارادة الله وأمره وما يشأ الرحمن فالعبد يركب ، ثم طمأنها بأن فعله هذا طاعة لله وللرسول ﷺ ومن قصد الله وسعى فى طاعته لا يخيب سعيه ، ولما كان الدين النصيحة كما أخبر الرسول ﷺ - فقد وجه أبو أحمد نصيحته الى قومه وعشيرته ليحقن دماءهم ، وذلك بدخولهم فى الاسلام ، وقد استجابوا لنصحه ، ولبوا دعوته فكانوا أهل إسلام ، حيث أوعب الى المدينة الرجال والنساء.

ثم أخبر أبو أحمد مقارناً بين حال من أسلم من أهله وعشيرته ، وحال من بقى على ملته وأعتقاده من أهل مكة.

فمن أسلم موفق الى الخير مهدى، ومن بقى على أعتقاده خاب وخيب ، ثم أعلن مقاطعته لهؤلاء القوم ، فهم وأن كان بينهم قرابة - ذات رحم ومصاهرة - قريبة ولكن طالما أنهم يخالفونهم فى العقيدة، فلا رحم ولا أنساب، فأخوة الايمان تفوق أخوة النسب.

وقد تضمنت هذه القصيدة معانى عدة كلها ذات صلة وثيقة وقوية بالدعوة الاسلامية ، وما أرسته من قيم أخلاقية ، وجب على كل مسلم أن يتخلق بها ، من هذه المعانى:

١ - التوكل على الله الذى يخشى بطشه ، ويرهب جنابه.

٢ - لا يقع شىء فى الكون الا بأمر الله جل جلاله.

ان ما يحدث فى الوجود كله كائن بأمر الله ووفق مشيئته ، وما يشأ الرحمن فالعبد يركب - وقد نظر الشاعر فى هذا المعنى الى قوله تعالى: (١) ﴿ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله . . .﴾.

٣ - حياة الانسان وعمله يجب أن يكون لله ، وقد نظر أبو أحمد الى قوله تعالى(١): ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾.

٤ - الدين النصيحة: كما جاء فى الحديث الشريف الذى رواه تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ ، أنه قال (٢) (الدين النصيحة ثلاثا) قلنا: «لمن يا رسول الله؟» قال؟ لله - عز وجل - ولكتابه - ولرسوله -

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٦٧.

ﷺ ـ ولأئمة المسلمين وعامتهم ـ رواه مسلم.

من هذا المنطلق وجه الشاعر نصبيحته الى قومه حيث قال :

دعوت بنى غنم لحقن دمائهم ٠٠ وللحق لما لاح للناس ملحب

٥ ـ الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى.

من التزم بطاعة الله ورسوله ـ ﷺ ـ وفّق الى الخير والهدى ، وطهر عمله وقلبه ، ومن أساء وكذّب فقد خاب وخيّب وخبث عمله.

٦ ـ الأخوة فى الله تفوق أخوة النسب: وقد أخبر الحق جل جلاله فقال(١): «انما المؤمنون أخوة» والأخوة فى الله تجعل المؤمن يؤثر أخاه على نفسه ، وقد صدق الله حيث أخبر عن الأنصار بقوله(٢) : ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

ان قرابة النسب والأرحام ، اذا لم تراع حقوق الله وحدوده ، فلا فضل لها ، وكأنها لم تكن.

وقد كانت قرابة الشاعر وعشيرته بأهل مكة قوية ، فإن آل عبد المطلب أخوالهم ، وأبا سفيان بن حرب صهر أبى أحمد ـ الشاعر ـ ولكن لم يؤدوا للقرابة حقها ، وللمصاهرة فرضها ، ولذلك أعلن الشاعر أنه لا قرابة بينهم:

تمتّ بأرحام اليهم قريبة ولا قرب بالأرحام اذا لا تقرب

وقد تميزت ألفاظ هذه القصيدة بالوضوح ، فلا غرابة ـ فى معظمها ـ ولا خشونة ، وأرى أن ما وسمت به الألفاظ من وضوح وسهولة ، ما هو الا أثر من آثار المعانى التى جاءت الألفاظ معبرة عنها ، فالمعانى قريبة التناول واضحة لا عمق فيها ولا التواء ، لأنها معان تقرر حقائق واضحة ، وقيم أخلاقية سامية.

كما وسمت الألفاظ ـ فى معظمها ـ بالقوة والإيحاء وبالنظر الى الشطر

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

(٢) سورة الحشر الآية : ٩ .

الثانى من البيت الأول «بذمة من أخشى بفيب وأرهب» يتحقق صدق ما قلته ، فلفظ «الذمة» من معانية: الرعاية والحفظ والحماية ، هذه المعانى ـ وغيرها ـ يوحى بها لفظ «ذمة» ولو عبر الشاعر بلفظ آ خر ما أفاد ذلك.

كما أن التعبيرباسم الموصول «من» وصلته «أخشى وأرهب» فيه ما فيه من ايحاءات ، فالفاظ الخشية والرهبة والغيب توحى بالكثير من المعانى التى تجعل الانسان على يقين بأن الله يُخشى شأنه ويُرهب جنابه ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

كما أشتملت هذه القصيدة على ألفاظ كثيرة ذات دلالة اسلامية منها: لفظ الجلالة ـ الله ـ الحمد ، الهدى ، الرحمن ، الحق ، النبى محمد.

وبالنظر الى الأسلوب الذى نظمت عليه القصيدة ، يمكن القول أن غرض الشاعر وجل همه أن يقنع من يستمع اليه ، أو تصل الى مسامعه هذه الأبيات بالحجة والبرهان ، لذا غلب الأسلوب الخبرى على أبيات القصيدة ، وذلك واضح منذ مطلع القصيدة حيث أخبر الشاعر أن زوجه أم أحمد تريد أن تثنية عن الهجرة الى المدينة ، وأنها تخشى عليه الهلاك ، ولكنه يقرر بقوة إيمانه وصدق يقينه ، أن كل شيء فى هذا الوجود انما هو بأمر الله . وما يشأ الرحمن فالعبد يركب ، وأنه أقام وجهه الى الله ، ومن يقم وجهه الى الله لا يخيبّ ، ثم بين حال من أسلم وحال من بقى على كفره وعناده ، كما أعلن عن مقاطعته لأقاربه هؤلاء الذين أزلهم ابليس عن الحق.

وأخيراً ختم الشاعر قصيدته بهذا الاستفهام ـ وهى الصورة الوحيدة من صور الأسلوب الانشائى ـ الذى خرج عن معناه الحقيقى الى معنى مجازى وهو الانكار والتوبيخ:

فأىّ ابن أخت بعدنا يأمننكم ... وأيّة صهر بعد صهرى يرقب

وبالنسبة لعاطفة الشاعر والقصيدة ، يمكن القول: إن أبيات القصيدة تنم عن عاطفة جياشة لشاعر مؤمن ـ أحسبه صادقاً فى إيمانه ـ فهو لم ينظم هذه القصيدة تملقاً لأحد ، ولا رهبة من أحد ، وأنما نظمها ليقرر بها حقائق اسلامية ، وقيماً أخلاقية ، يجب أن تسود بين أبناء الأمة الاسلامية.

كما أن هذه القصيدة تدل على قائلها دلالة واضحة ، وذلك بما تضمنته

من ألفاظ وأسماء نحو: أم أحمد ، بنى غنم ، أرحام قريبة ، ابن أخت ، فهذه الألفاظ ، وتلك الأسماء دليل قوى على أن هذه الأبيات لرجل من بنى غنم ، وأن هذا الرجل هو أبو أحمد بن جحش زوج الفارعة بنت أبى سفيان ، وابن أخت أبى لهب بن عبد المطلب.

وبعد فهذه أسس وأصول المنهج التكاملى فى البحث الأدبى حاولت جاهداً قدر طاقتى - تجليتها فى ايجاز - لتكون عوناً للباحثين والدارسين ، لتأخذ البحوث الأدبية دورها التاريخى على أساس من العلم واليقين ، وبما أن البحث مظهر حضارى ، فان المنهج قرين البحث ، بل إنه السبيل الى نجاحه.

والحمد لله رب العالمين ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله و[illegible]

***

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم ..

١ - أسرار البلاغة - للإمام عبد القاهر الجرجانى - شرح وتعليق د/ عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة.

٢ - أسس النقد الأدبى عند العرب - د/ أحمد أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر.

٣ - تجديد ذكرى أبى العلاء - د/ طه حسين - الطبعة التاسعة - دار المعارف.

٤ - تاريخ آداب العرب - جرجى زيدان - طبعة بيروت سنة ١٣٨٣م.

٥ - جامع العلوم والحكم تأليف ابن رجب الحنبلى البغدادى - طبعة دار عمر ابن الخطاب - للطباعة والنشر.

٦ - عيار الشعر - لابن طباطبا العلوى - تحقيق طه الحاجرى - د/ محمد زغلول سلام - المطبعة التجارية بمصر سنة ١٩٥٦م.

٧ - طبقات فحول الشعراء - لابن سلام الجمحى - طبعة ليدن - وطبعة - دار المعارف - تحقيق محمود شاكر.

٨ - فن النقد الأدبى عند العرب - د/ محمد طاهر درويش - ط دار المعارف.

٩ - فى النقد الأدبى - د/ سعد ظلام - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٥هـ مطبعة السعادة.

١٠ - فى النقد الأدبى - د/ شوقى ضيف الطبعة الخامسة دار المعارف.

١١- فى ميزان النقد الأدبى - د/ طه مصطفى أبو كريشة - مطبعة المليجى ١٣٩٦هـ.

١٢- مختار الشعر الجاهلى - الجزء الأول تحقيق مصطفى السقا - الطبعة الرابعة الحلبى والجزء الثانى تحقيق محمد سيد كيلانى - الطبعة الثانية - الحلبى.

١٣ـ معالم البحث الأدبى ـ د/ على صبح ـ دار أبو المجد للطباعة ١٤٠٧هـ.

١٤ـ منهج البحث الأدبى ـ د/على جواد طاهر ـ المؤسسةالعربيللدراسات والنشر ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩م ـ بيروت.

١٥ـ مناهج البحث الأدبى ـ د/ سعد ظلام ـ مطبعة السعادة.

١٦ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ـ لأبى يوسف بن عبد البر ـ تحقيق على محمد البجاوى مطبعة نهضة مصر.

١٧ـ البحث الأدبى د/ شوقى ضيف ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف.

١٨ـ السيرة النبوية لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ـ مطبعة الحلبى ١٣٧٥هـ.

١٩ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ تحقيق احمد شاكر ـ مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦٦م.

٢٠ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ لابن رشيق ـ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة سنة ١٣٧٤هـ.

٢١ـ المفضليات ـ للمفضل بن محمد الضبى ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ مطبعة دار المعارف.

٢٢ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه ـ للقاضى الجرجانى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى ـ طبعة الحلبى سنة ١٣٧٠هـ.



القسم الرابع

قسم أصول اللغة

١ - رؤية لغوية جديدة للإبدال فى الحروف الصامتة

أ.د. عبد الغفار حامد هـــلال

٢ - الجيم للشيبانى (دراسة إحصائية وتحليلية)

د. عبد المنعم عبد الله محمد

٣ - علم التجويد . أهميته ومنزلته بين علوم العربية

د. رشـــاد محمـد رشـــاد

رؤية لغوية جديدة
للإبدال في الحروف الصامتة

بقلم
أ٠د٠ عبد الغفار حامد هلال

نشرنا فى العدد العاشر من مجلة الكلية(١٤١٢ ه ـ ١٩٩٢ م) (ص ٢١٠ ـ ٢٦٧) بعض هذا الموضوع فتحدثنا عن معنى الإبدال وبعض أسبابه التى دعت وتدعو إليه وعرضنا رأيا جديدا لتحليل ألفاظ الإبدال للوصول فيها إلى الرأى الحق ، والتفسير العلمى الصحيح ، فيما لم يضع له العلماء مصطلحا لهجيا أو لغويا وحاولنا تفسير طائفة من هذه الكلمات التى قيل فيها بالإبدال بعد أن رتبناها وفق الألفبائية ليكون ذلك أيسر فى ضبطها وسرعة الوصول إليها٠

وقد عرضت يعض هذه الكلمات فيما نشر من قبل(من حرف الهمزة إلى حرف الثاء)٠

وها أنذا أعرض هنا الحديث عن بقيتها إن شاء الله تعالى وفق الترتيب الذي أشرت اليه ٠

الجيم والحاء:

من ذلك : حفأ به الأرض : ضربها به والجيم لغة وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد ، ذهبوا وجاءوا ، ودعاهم الجفلى والحفلى أي بجماعتهم والجيم أكثر ، وأجمّ الأمر والفراق: دنا وحضر لغة فى أحمّ ، والعلاقة الصوتية بعيدة بين الحاء والجيم فهما لغتان مع الربط بينهما لملابسة ما وربما دخل ذلك التصحيف (١) ·

الجيم والخاء:

جلع وخلع: ترك الحياء وتكلم بالقبيح ، وجلع ثوبه ، وخلعه بمعنى (٢)

الجيم والشين:

من أمثلة ذلك: (إذ ذاك إذ حبل الوصال مدمش) ·

صرح ابن جنى بأن أصل (مدمش)(مدمج) فالشين بدل من الجيم(٣) واتحاد المخرج بينهما والاتفاق فى بعض الصفات إذ هما من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ومتفقان فى الاستفال والانفتاح والإصمات يبيح التبادل بينهما ولكنهم قالوا: إنه لم يوجد مثال آخر لذلك وقال ابن عصفور: إنه أبدل الجيم شينا لتتفق القوافى ولا يحفظ غيره(٤) ولم ينبه ابن جنى على ذلك ، ولعل منه ما جاء فى المثل: شر ما أشاءك (٥) أي ما أجاءك أي ألجاك واضطرك إلى المجيء فأشاءه: لغة فى أجاءه وتميم تقول: شر ما يشيئك إلى مخة عرقوب ·

الجيم والقاف والكاف:

من ذلك: القريث لغة فى الجريث وهو نوع من السمك(٦) ، وريح

(١) من أسرار اللغة ٥٢ ·
(٢) اللسان ٨/٤٠٢ ، ٤٣٠ .
(٣) سر الصناعة ١/ ٢١٥ ·
(٤) الأ شمونى مع العينى ٤/ ٣٣٥ ·
(٥) مجمع الأمثال ٢/١٥١ ، واللسان : (جيأ وشيأ) ·
(٦) اللسان (قرث) ·

سيهك وسيهج:(١) شديدة ورجل عريض الكبهة والجبهة ، ويقال فى عمك:عمج، ومن ذلك ما ورد فى حديث عائشة أنها(استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى دخول أبى القعيس عليها فقال:ائذنى له فإنه عمج)يريد عمك من الرضاعة ، فأبدل الكاف جيما (٢) .

ويري بعض اللغويين في تفسير ذلك الإبدال أن هذه الجيم التى جاءت مكان القاف أو الكاف هى جيم عربية خالصة وأن إبدالها من الصوتين السابقين جائز لوقوعه فى بعض كلمات العربية ولتجاور مخرج الجيم ومخرجى القاف والكاف.

ويري آخرون أن هذه الجيم هى أحد الحروف الفرعية التى مخرجها بين الجيم والقاف أو بين الجيم والكاف وهى من الحروف غير المستحسنة التى لا تقع فى القرآن ولا فى الشعر الفصيح(٣).

وذكر ابن دريد أن للعرب حروفا لا تتكلم بها إلاضرورة فإذا اضطروا إليهاحولوهاعند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها مثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم والكاف وهى لغة سائر اليمن(٤).

وذكر ابن فارس أن هذه الحروف ترجع إلى اللغات فهى لغة لقوم(٥) واستأنس بعض المحدثين لذلك بوجود الجيم الكافية التى كانت - فى رأيهم - أصلا للجيم المعطشة كما نري فى الجيم الشامية والجيم القاهرية (٦) وأساس هذا الرأي ما ذكره المستشرق برجستراسر من أن الجيم - عند أكثر العرب - كانت بسيطة مجهورة شديدة مثل نطقها الآن عند المصريين وأنها كانت تمثل الكاف التركية فى مثل كلمة:كاه (٧).

وهذا فى رأيهم يسوغ التبادل بين الجيم والقاف والكاف وفى رأينا أن الجيم العربية لها طابع خاص يختلف عما رأي برجستراسر ومتابعوه والدليل

---

(١) القلب والإبدال لابن السكيت ص ٣٨.

(٢) النهاية ٣/ ٣٠٣(عم).

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٢ .

(٤) مقدمة الجمهرة ٤,٥ .

(٥) الصاحبى ص٣٧ ، ٣٨ .

(٦) الأصوات اللغوية ص ٨٥ .

(٧) التطور النحوى ص ٩ .

التاريخى غير متحقق بين أيدينا وإن كان القول بالتطور متمثلا فيما قبل عصر تهذيب اللغه.

وقد ذكر الخطابى أن إبدال الكاف جيما فى الحديث تصحيف من نقلة الحديث لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتكلم بهذه اللهجات المضعوفة وإنما يتكلم باللغة العالية.

ونري أنه لا مانع من نطقه بذلك كما يري العلماء فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يخاطب العرب بلغاتهم، كقوله(ليس من امبر امصيام فى امسفر) وغير ذلك، وقد نسب هذا الإبدال ـ كما رأينا ـ إلى بعض العرب وهم طائفة من اليمن(١).

الحاء والخاء:

من أمثلته: الرحم: القرابة والرخم بالكسر مثله وذهب سيبوبه إلى أن هذامطرد فى كل ما ثانيه من حروف الحلق وهو لغة بكر ،وكذلك رحمه رحمة، قال الليث: زعم أبو زيد الأنصاري أن من أهل اليمن من يقول :رخمته رخمة يعنى رحمته رحمة ويقال: ألقى الله عليك رحمة فلان أى عطفه ورقته قال: وسمعت أعرابيايقول: هو راخم له (٢) ومنه: يتخوف مالى ويتحوفه: يتنقص ويأخذ من أطرافه وقرأ يحيى بن يعمر وعكرمة وابن أبى عبلة(إن لك فى النهار سبخا طويلا) (٣) بالخاء وقال الفراء: إنه سأل أبا ريد الكلابى عن هذا الحرف فقال: أهل باديتنايقولون: سبخ عنه: للمريض والملسوع ونحوه. ومن ذلك: الحلتيت بالحاء والخاء يقوله البحرانيون لصمغ يقال له الأنجزد (٤) ويقول الليث: الحلتيت الأنجزد ، والذي حفظته عنالبحرانيين الخلتيت(٥) بالخاءوالخترمة: الدائرةالتى عند الأنف وسط الشفة العليا وسمعت ـ عن أبى

---

(١) النهاية ٣/ ٣٠٣

(٢) التهذيب ٧/ ٣٨١ ، ٣٨٢ ، واللسان ١٥/ ١٢٥ ، والصحاح ٥/ ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ .

(٣) المزمل ٧ ، وانظر البحر ٨/ ٣٦٣ ، ومعانى القرآن ٣/ ١٩٧ .

(٤) التهذيب ٧/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ (حلت) . (٥) نفسه ٤/ ٤٤١ (خلت) .

حاتم ـ بالخاء وهما لغتان (١)٠

ويقول الأزهري: قال الليث: الفخيخ دون الغطيط تقول: سمعت له فحيحا والأفعى له فخيخ٠ قلت: أما الأفعى فإنه يقال فى فعله: فح يفح فحيحا بالحاء ، ثم يعقب الأزهري بقوله: ولم أسمع لأحد فى الأفعى وسائر الحيات فخيخ بالخاء، وهو عندي غلط اللهم إلا أن تكون لغة لبعض العرب لا أعرفها، فإن اللغات أكثر من أن يحيط بها رجل واحد(٢)٠

وقال ابن جنى: إن الحاء لا تكون بدلا أبدا إلا فيما شذ عنهم (٣) مثل إبدالها من الخاء أنشد ابن الأعرابى:

ينفحــن مــنه لـهبا مـنفوحا لمعا يـُري لاذاكيـا مـقدوحا

قال: أراد منفوخا فأبدل الخاء حاء قال: ومثله قول رؤبة:

غمـر الأجاري كريـم السنـح أبلـج لم يولد بنجم الشّـح

قال: يريد السنخ(٤)٠

وقد بنى ابن جنى رأيه على عدم ورود أمثلة من هذا الإبدال ويقول العلماء: إن ذلك لم يرد إلا فى الشعر ـ شاذا ـ ليوافق الشاعر بين روي أبيات القصيدة إذا كانت حائية فقد أراد الشاعر الأول ينفخن ومنفوخا بالخاء المعجمة فيهما فقالهما بالحاء المهملة ليوافق روي الرجز كله لأنه حائى ، وأنا أرجح أن الإبدال غير واقع هنا على الرغم من قرب المخارج والصفات ـ لأن الضبط مختلف فينفخ بضم الفاء وينفح بفتحها فالأول من نفخ والثانى من نفح والنفح يناسب النار أيضا اذ منه يشتد اللهب ويقوي اشتعاله ففى القاموس(نفح الطيب كمنع فاح والريح هبت)وهذا مما يناسب النار ويقال نفخ بفمه أخرج منه الريح فعلى هذاكل منهما مادة مستقلة وليست الحاء بدلا من الخاء على سبيل الشذوذ

(١) نفسه٥/ ٣٣٣ (حترم) ، ٧/٦٨٩ (خترم) ٠

(٢) التهذيب ٧/ ١٠ ٠

(٣) سر الصناعة ١/١٩٦ ٠

(٤) المصدر السابق ١/ ١٩٦ ، ١٩٧ ، وسنخ كل شيء أصله ٠

أو الضرورة (١) على أن الحاء تبدل من الخاء لتناسب المعانى كما فى النضح والنضخ(٢) ، ولا مانع من الناحية اللغوية لهذا الإبدال حيث توجد المسوغات ولكن الذي جعل ذلك شاذا ـ فى نظر العلماء ـ هو عدم استعمال كلمات من هذا النوع إلا أن الشعراء ربما اضطروا إلى هذا الإبدال كما حدث فى المثال الثانى على وجه التأكيد « فقد أبدل الحاء من الخاء لمكان الشح وبعضهم يرويه بالخاء لأنهما جميعا حرفا حلق(٣).

وقال ابن جنى إن الخاء لا تقع بدلا ونفى أن تكون الخاء فى خمص الجرح بدلا من الحاء فى حمص قال: فأما ما قرأته على أبى علىّ عن أبى بكر عن بعض أصحاب يعقوب من أن أبا زيد قال خمص الجرح يخمص خموصا وحمص يحمص حموصا وانخمص انخماصاً قال أبو على وانحمص انحماصا ذكره أبو زيد فى مصادره إذا ذهب ورمه فلا يكون الحاء فيه بدلا من الخاء ولا الخاء بدلا من الحاء ألاترى أن كل واحد من المثالين يتصرف فى الكلام تصرف صاحبه فليست لأحدهما مزية من التصرف والعموم فى الاستعمال يكون بها أصلا لصاحبه (٤) ، وقد طبق ابن جنى قاعدته التى قال بها فى الإبدال هنا وهى الاعتماد فى معرفة الأصل والفرع على كثرة التصرف وشيوع الاستعمال فلتساوي اللفظين عدهما من اختلاف اللهجات ، وقد قلنا إن تلك القاعدة غير دقيقة فلابد من نظرة واعية لمعرفة صحة النتائج وعدمها ، فالباحث فى المعاجم يرى لكل مادة منهما معانى مستقلة عن الأخري فى بعض جوانبها ، فمادة حمص هى : حمص الجرح: سكن ورمه حمصا وحموصا ، والأرجوحة سكنت فورتها والقذاة أخرجها من عينه برفق والحمص: أن يترجح الغلام على الأرجوحة من غير أن يرجح ، وذهاب الماء عن الدابة والأحمص: اللص يسرق الحمائص جمع حميصة وهى الشاة المسروقة وحمص تحميصا: اصطاد الظباء نصف النهار وانحمص: انقض وتضاءل (٥) ، فكل المعانى التى ذكرها ـ

---

(١) ولكل من المادتين معان أخرى. القاموس١/ ٢٩٩, ٣٢٠.

(٢) اللسان ٣/ ٥٠٤.

(٣) انظر فى أقوال العلماء: شرح شافية ابن الحاجب للرضى ٣/ ١٢٠٠.

(٤) سر الصناعة ١/ ١٩٩ ، ولسان العرب ٨/ ٢٩٧. (٥) القاموس ٢/ ٢٩٩.

غير سكون الورم للجرح والانقباض والتضاؤل - لا تمت لمعنى التضاؤل بصلة إلا على سبيل التشبيه والمجاز وهى كثيرة بل منها ما لا يمكن أن يمت بأية صلة لذلك مثل ترجح الغلام واصطياد الظباء نصف النهار ، ومادة(خمص)تدل كلها على معنى التضاؤل وأغلبها على سبيل الحقيقة لا المجاز وهذه المعانى هى: خمص الجرح وانخمص: سكن ورمه والخمصة: الجوعة وبطن من الأرض صغير لين الموطىء والمخمصة: المجاعة وقد خمصه الجوع خمصا ومخمصة وخمص البطن مثلثة الميم: خلا وخميص الحشا : ضامر البطن وتخامص عنه: تجافى والليل رقت ظلمته عند السحر والأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض(١) ·

فاذا كان لكل منهما معان مستقلة على هذا النحو فلا ريب أن كلا منهما لغة مستقلة فلا إبدال بينهما واتفاقهما من قبيل التوسع المعنوى إذ معنى التضاؤل والضمور واضح فى مادة(خمص) على سبيل الحقيقة أما معانى مادة(حمص)من صيد الحمائص وسرقتها والتأرجح وغير ذلك فلا يمكن اتصالها بمعنى التضاؤل والضمور(٢) إلا من طريق بعيد واذا اختلف معنى المادتين فأولى بهما ألا يكون للإبدال إليهما سبيل إذ الشرط التقاء المعانى على سبيل الحقيقة ، وعلى فرض التسليم بوجود المادتين يمكن - أيضا - أن يكون التصحيف سري إليهما فنشأت إحدي المادتين عن الأخري·

وما نسب فى بعض الأمثلة إلى بنى بكر دليل على ذلك إن صح يدخل فى اختلاف اللهجات ·

الحاء والعين:

العرجلة: القطيع من الخيل وهى فى لغة تميم الحرجلة (٣) فالعين بدل من

---

(١) القاموس ٣٠١/٢ ·

(٢) ومع أخذ ابن جنى له من الشىء الخميص الضامر فى الأول والحمصة لأنها صغيرة مجتمعة فى الثانى فإننا نشاهد أن الاشتقاق الأول على سبيل الحقيقة لأن ضمور البطن قد يكون بعد التضخم أما الحمصة فإنها باقية على حال الضمور منذ بدء وجودها ، سر الصناعة ١٩٩/١ ·

(٣) التهذيب ٣/ ٣٢٠ (رباعى العين) .

الحاءوقد يستعمل العربى ما غيره أقوي منه فالتميميون استخدموا الحاء المهموسة، ويدعى بعض الباحثين أن الكلمة(حرجل) آرامية وأنها الصيغة القدمى [1] تطورت عندغير تميم.

ولست مع صاحب هذا الرأي لأن العربية أقدم من الآرامية . ومن ذلك أيضا بعثرت وبحثرت لغتان (٢). وقرأ عبد الله بن مسعود(إذا بحثر ما فى القبور) وقال الفراء: سمعت بعض أعراب بنى أسد يقرأها(بحثر) (٣).

وقد فضل التميميون الحاء هنا على العين خلافا للنظريات الحديثة التى تجعل البدو يفضلون الأصوات المجهورة والشديدة.

الخاء والغين:

من أمثلة ذلك ما جاء من نحو: خمر الناس وخمرتهم وخمارهم: جماعتهم وكثرتهم ، لغة فى غمر الناس وغماوهم والخمرة لغة فى الغمرة (٤). وأمرغ العجين: أكثر ماءه لغة فى أمرخه فلم ييبسه (٥). وخطر بيده يخطر وغطر يغطر .

وقد تردد ابن جنى فى إثبات الإبدال بين الخاء والغين فأتى بلفظ(كأنّ)التى تدل على هذا التردد ولم يتبع مقياسه فى بيان الأصالة والفرعية المبنى على الشيوع والاستعمال ، قال:(وقالوا: خطر بيده يخطر وغطر يغطر فالغين كأنها بدل من الخاء لكثرة الخاء وقلة الغين وقد يجوز أن يكونا أصلين إلا أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه) (٦).

ونفهم من كلامه أنه متردد بين أن تكون الغين بدلا من الخاء أو تكون كل منهما أصلا فى إحدي اللهجات .

---

(١) الدخيل فى اللغة العربية بحث منشور بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . م ١٠ ج ٢ ص١٠٣ .

(٢) التهذيب ٣/ ٣٦٠ (رباعى العين) . (٣) معانى القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦ .

(٤) اللسان (خمر) . (٥) السابق (مرغ) .

(٦) سر الصناعة ١/ ٢٤٧ .

وقد أخل بمقياسه لحكمه بأن كلا من اللفظين لغة على الرغم من أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه .

وظاهر أن العلاقة الصوتية بين الخاء والغين تسوغ التبادل بينهما فكلاهما من حروف الحلق من أدناه وتتفق الخاء والغين فى الرخاوة والاستعلاء . ويبدو أن ذلك الاختلاف ناشىء عن اختلاف اللهجات فكل منهما لقبيل من العرب والغين للبدو لميلهم إلى الحروف المجهورة والمستعلية والخاء للحضر وهو المشهور فى كتب اللغة.

الخاء والقاف:

ورد التبادل بين الخاء والقاف فى قولهم: المِخصل: القطّاع من السيوف وغيرها لغة فى المِقصل ولعل بين الصوتين تجاورا فى المخارج ، فالخَاء من أدنى حروف الحلق إلى الفم والقاف من أقصى اللسان وهما وإن اختلفا فى الجهر والهمس والرخاوة والشدة فالقاف مجهورة والخاء مهموسة والقاف قليلة الشدة والخاء رخوة فإن بينهما تشابها فى بعض الصفات كالاستعلاء مما يسوغ التبادل بينهما .

ويمكن أن ينشأ التبادل لتداخل الصوتين وقرب مكانيهما أو لعدم تدقيق الناطق واحتراسه حال نطقه فسمع كذلك ، أما احتمال التصحيف فى ذلك فإنه مبنى على الكتابة وهذا وإن كان جائزا فإنه لا ينبغى الأخذ به إلا بدليل.

ومع هذا فالناطق بالقاف قبيل من العرب ربما كان من البدو على حين أن الناطق بالخاء قبيل آخر ربما كان حضريا لهمس الخاء ورخاوتها.

الدال والذال:

من ذلك: خردلت اللحم وخرذلته،ـ بالدال والذال ـ أي فصلت أجزاءه وقطعته.

وفى الحديث عن أهل النار(فمنهم الموبق بعمله ومنهم المخردل)والمقصود: المرمى المصروع أو المقطع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوى فى النار(١)٠ ويقال: داف الجريح ودفف عليه ، أي أجهز عليه يروي بالدال والذال بمعنى وفى حديث ابن مسعود أنه(داف أبا جهل يوم بدر) أي أجهز عليه وتمم قتله، وفى رواية: قعص ابنا عفراء أبا جهل ودفف عليه ابن مسعود (٢)٠ وقال صلى الله عليه وسلم لبلال: (إنى سمعت دفّ نعليك فى الجنة) أي صوتهما عند الوطء عليهما ويروى بالدال والذال (٣)٠ ويقال: دوخه الأسر وهو المشهور وديّخه بالدال وبعضهم يرويه بالذال المعجمة وهو لغة شاذة (٤) ، والذام: العيب يروي بالدال والذال وقد قالت عائشة رضى الله عنها لليهود(عليكم السام والذام) ، ويهمز ولا يهمز (٥) ، والتدبيح ـ بالدال المهملة ـ وهو المشهور ويقال بالذال وفى الحديث: (نهى عن التذبيح)بالذال ، هكذا جاء فى رواية (٦) ، ومدكر ـ بالدال والذال ـ قرأ ابن مسعود: (فهل من مذكر)بالذال (٧)٠ و(شرد) رويت بالدال والذال ، قرأ الأعمش: (فشرذ بهم من خلفهم) (٨) بالذال (٩)٠

ونقل أبو الطيب اللغوي: وقال أبو عمرو : ما ذاق عدوفا وما ذاق عذوفا أي ما ذاق شيئا (١٠)٠

وذبرت الكتاب أذبره ذبراً: إذا كتبته ، وحكى اليزيدى دبرته أدبره دبرا بالدال غير المعجمة (١١)٠ ويقال: غلام جادل وجاذل اذا ترعرع وكبر (١٢) ومرد الخبز ومرذه : أي مرثه.

ويتضح مما سبق أن كلمات رويت بالوجهين الدال والذال ، ويشير

---

(١) النهاية ٢/ ٢٠ ٠

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٢٥، وقَعَصَه قَعْصًا: طعنه بالرمح طعنا سريعا ، وقتله مكانه.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٦٢(ذفف) ٠

(٤) المصدر السابق ٢/ ١٤٧ (ديخ) ٠

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٥١(ذام)٠

(٦) المصدر السابق ٢/ ١٥٤(ذبح) ودبّح فى ركوعه بسط ظهره وطاطأ رأسه فكان أكثر انخفاضا من عجزه. ٠

(٧) من الآية ١٥ من سورة القمر ٠

(٨) من الآية ٢٧ من سورة الأنفال ٠

(٩) البحر ٤/ ٥٠٩ ، والإتحاف ٢٣٨ ٠

(١٠) الإبدال ١/ ٣٥٣ ٠

(١١) المصدر السابق ١/ ٣٥٣ ٠

(١٢) المصدر السابق ١/ ٣٥٤ ٠

يروي بالذال وليس اللغويون إلى شهرة إحداهما وقلة الأخري كأن يقال(يروي بالذال وليس بالكثير) أو والمشهور بالدال أو يشار أحيانا إلى اختلاف الدلالة كأن يقال: والعدوف: العلف فى لغة مضر بالدال ·

وربما كان للتصحيف أثر فى بعض هذه الكلمات المتبادلة ، قال أبو حسان: سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول: ما ذقت عدوفة قال: وكنت عند يزيد ابن مزيد الشيبانى فأنشد بيت قيس بن زهير:

ومجنبات ما يذقــن عدوفــة يقذفن بالمهــرات والأمهـــار

بالدال فقال لى يزيد: صحفت أبا عمرو وإنما هى عذوفة بالذال فقلت له: لم أصحف أنا ولا أنت · تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال (١) ·

وينقل الأزهري عن الليث عن أبى الدقيش(القشذة) - بالذال المعجمة -: الزبدة الرقيقة ثم يقول الأزهري: وأرجو أن يكون ما روى عن أبى الدقيش صحيحاوالمحفوظ عن الثقات(القشدة)بالدال ولعل الذال فيها لغة لم تبلغنا(٢) ·

وقد نسبت الدال لكثير من القبائل البدوية والذال للمتحضرين كربيعة ومن تأثر بالحضر من البدو كإياد والنمر(٣) وبعض بنى أسد فقد روى الفراء أن بعض بنى أسد يقولون(مذكر) فيقلبون الدال ذالا مشددة·

الدال والطـــاء:

من ذلك: قرمد الكاتب فى الكتابة ، جعلها دقيقة متقاربة الحروف والسطور ، وقرمط لغة فيه ·

الوخد: سرعة السير والوخط لغة فيه·

الدحو :البسط والطحو لغة فيه·

سدح الناقة: أناخها ويقال: سطحها لغة فيه أو بدل·

---

(١) اللسان (عدف) ·

(٢) التهذيب ٨/ ٣١١ ·

(٣) فى اللهجات العربية د· أنيس ص ١٠١ ·

وبين الطاء والدال علاقة فكلاهما من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وتتفقان فى بعض الصفات كالشدة مما يسوغ التبادل بينهما ، والطاء للبدو لاستعلائهاوالدال للحضر لاستفالها.

الـذال والظـاء:

أورد ابن جنى من أمثلة ذلك ، تركته وقيذا ووقيظا.

وحكم بإبدال الظاء من الذال وحكمه بالتبادل صحيح لاتفاقهما فى المخرج والصفات ما عدا الاستعلاء والإطباق فى الأول والاستفال والانفتاح فى الثانى إلا أنه جعل الذال أصلح لأنها أعم تصرفا لقوله عز اسمه «والموقوذة» بالذال.

ولقولهم: وقذة يقذه ولم يسمع: وقظه ولا موقوظة (١) .

وهذا معروف عنه من الحكم بالأصالة والفرعية تبعا للشيوع وعدمه ، ولكنه غير دقيق فقد ذكر الفيروز ابادى: وقظه كوعده: وقذه وعلى الأمر: دام ووقظ به رأسه بالضم كوقط بالطاء، والوقيظ المثبت الذى لا يقدر على النهوض(٢) .

فالمادة الثانية متصرفة أيضاً ، واللائق بالأمر أن تكون بالظاء فى بيئة بدوية تميل إلى التفخيم والأصوات المستعلية المطبقة وأن تكون الذال من خصائص بيئة حضرية تميل إلى الترقيق والأصوات المستفلة المنفتحة.

الـراء والـزاى :

البـزخ: الجرف وبلغة عمان هو البرخ بالراء.

الفزغـز: الشدق فى بعضَ اللغات والراء لغة.

رغل الصبى يرغـل: إذا أخذ ثدى أمه فرضعه مسرعا ويروى بالـزاى لغة فيـه.

(١) سر الصناعة ١/ ٢٣٣ .

(٢) القاوس ٢/ ٤٠٠ .

أزمتهم السنة أزمــا: استأصلتهم وقال شمر: إنما هو أرملتهم بالراء وأزمت الحبل والعنان والخيط وغيره آزمه أزما: أحكمت فتله وضفره بالراء والزاى جميعا والراء أعرف.

وكلا الصوتين من طرف اللسان إلا أن أحدهما ـ وهو الراء ـ مع اللثة العليا ، والثانى ـ وهو الزاى ـ مع أصول الثنايا السفلى ويختلفان فى الصفات، فالراء تمتاز بالتكرير ،والزاى بالصفير ، ومع اتفاقهماا فى بعض الصفات يبدو أن كلامنهما فى بيئة خاصة.

وجائز أن يكون للتصحيف أثر فى نشأة إحدى الصيغتين عن الأخرى ، ولعل الراء هى الأصل كما يتبين من الروايات السابقة المرجحة لكون الكلمة بالراء على أنها الأعرف والأشهر.

الـراء والـلام :

من الكلمات التى جاءت بالراء واللام: جِرَف الخبز أو جِلَفُه اى كِسَره ، وفى الحديث: ليس لابن آدم إلا بيت يكنه وثوب يواريه وجرف الخبز أى كسره والواحدة جرفة ويروى باللام بدل الراء (١) .

ومن ذلك: يُزرِّف ويُزلِّف يعنى يَزيد .

وفى حديث قرة بن خالد (كان الكلبى يُزرِّف فى الحديث أى يزيد فيه مثل يُزلِّف) (٢) وتعطّر النساء وتعطّلهن ٠

(وكان ﷺ يكره تعطّر النساء وتشبّههن بالرجال) أراد العطر الذى يظهر ريحه كما يظهر عطر الرجال وقيل أراد تعطّل النساء باللام وهى التى لا حلى عليها ولا خضاب واللام والراء يتعاقبان (٣) ٠

والعاذر: العِرْقُ الذى يسيل منه دم الاستحاضة ويروى العاذل باللام ٠

وفى حديث ابن عباس : وسئل عن الاستحاضة فقال : ذلك العاذل

---

(١) النهاية ١/ ٢٦٢ (جرف) ٠ (١) المصدر السابق ٢/ ٢٠١ (ررف) ٠

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٥٦ (عطل) ٠

يغزر أى يسيل وذكر بعضهم العاذر بالراء ، وقال: العاذرة: المرأة المستحاضة فاعلة بمعنى مفعولة من إقامة العذر ولو قال العاذر العرق نفسه لكان وجها إلا أن المحفوظ العاذل باللام (١) .

ويقال: سهم أمرط وأملط.

وفى حديث أبى سفيان (فأمرط قُذَذُ السهم) أى سقط ريشه(٢).

ويقال: اعتكار الأمور واعتكالها: أى اختلاطها والتباسها (٣) .

ويقال: عيهر وعيهل للناقة (٤)، وفرق وفلق والوجر والوجل وهو الفزع (٥) وانخرعت كتفه وانخلعت (٦) .

وقد قال ابن جني إن الراء لا تكون بدلا (٧) ولكنه أتى بأمثلة يشتبه فى تصور الإبدال فيها بين الراء واللام وخرجها بحسب ما رأى - وأتى ببعض الأمثلة الأخرى يوضح بها مبدأ الاشتقاق الأكبر ومبناه على الإبدال كما نعلم بين الراء واللام أيضا وها هى ذى:

١ - جربانة وجلبانة وقال: قرأت على أبى على لحميد بن ثور:

جلبانة ورهاء تخصى حمارها بفى من بغى خيرا اليها الجامد(٨)

٢ - نثرة ونثلة: للدرع عامة أو الواسعة منها (٩).

٣ - قرمة . قلمت أظفارى (١٠) . بيضة عرماء وقطيع أعرم - العلم والعلامة - جبر وجبل (١١) .

قال ابن جنى إنه لا إبدال فى المثال الأول بل كل من الكلمتين أصل ، « فأما قولهم امرأة جربانة وجلبانة إذا كانت صخابة فليس أحد الحرفين فيه بدلا من صاحبه ، ويدل على أن جلبانة وجريانة أصلان غير مبدل أحدهما من صاحبه وجودك لكل واحد منهما أصلا متصرفا واشتقاقا صحيحا فأما جلبانة

---

(١) االنهاية ٣/ ٢٠٠ (عذل) .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٢٠ (ملط) .

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٨٤ (عكل) .

(٤) المزهر ١/٥٥٨ .

(٥) المصدر السابق ١/٥٥٩ .

(٦) الصحاح ٢/ ١٤٤ ، والمزهر ١/ ٥٥٩ .

(٧) سر الصناعة ١/ ٢٠٥.

(٨) المصدر السابق ١/ ٢٠٥ .

(٩) المصدر السابق ١/ ٢٠٦ .

(١٠) الخصائص ١/ ١٤٧ .

(١١) المصدر السابق ٢/ ١٤٩ .

فمن الجلبة والصياح لأنها الصخابة وأما جربانة فمن جرّب الأمور وتصرفّ فيها .. والتجريب والدربة وفق الصخب لأنه ضد الحياء والخفر» (١) ولكن هذا الكلام من ابن جنى غير دقيق فالباحث يرى أن االكلمة الأولى (جربانة) أبدلت فيها الراء من اللام فى الكلمة الثانية (جلبانة)وذلك لوضوح الاشتقاق والمعنى الحقيقى فيها فجلبانة من مادة (جلب) التى تدور حول معنى إحداث ما يزعج مثل «جلبه يجلبه جلبا واجتلبه: ساقه من موضع إلى آخر فجلب هو وانجلب والجلب ـ محركة ـ ما جلب من خيل أو غيرها ، واختلاط الصوت كالجلبة وجلب لأهله: طلب واحتال كأجلب ، وعلى الفرس زجره ورعد مجلب : مصوتّ وجلب الدم: يبـ [illegible] ـد بشر ، ومن معانى الجلبة شدة الزمان والجوع والجلب الجناية. [illegible] كله يتناسب حقيقة مع معنى الصخب الذى يدل عليه [illegible]

وأما مادة «جرب» فلها معان كثير[illegible] ليس بينها معنى الصخب المشار إليه ومنها: الجرب معروف والجربة [illegible] المزرعة والقراح من الأرض والجربياء: ريح الشمال أو [illegible] الضعيف وجربان القميص بالكسر والضم جيبه وجربان السيف : حدّه أو شىء يجعل فيه وجربه تجربةً: اختبره (٣) إلخ.

فمن هذا يبدو أن اللام هى الأصل [illegible] لوضوح المعنى الحقيقى للفظين وأن المادة الأولى هى أصل الاشتقاق والدربة والمران التى ادعى ابن جنى موافقتها للصخب غير مناسبة لسوء الخلق والصياح والجلبة (٤) وأما عن المثال الثانى فقد قال «يتبغى أن يكون الراء بدلا من اللام لقولهم نثل عليه درعه ولم يقولوا نثرها فاللام أعم تصرفا ، فهى الأصل» (٥).

ولكن مقياسه الذى بنى عليه رأيه وهو كثرة التصرف غير دقيق لم يعتمده

---

(١) سر الصناعة ١/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) القاموس المحيط ١/ ٥٥ . (٣) المصدر السابق ١/ ٥٣ .

(٤) ووصف صاحب اللسان (جلبانة) بقوله : مصوتة صخابة كثيرة الكلام سيئة الخلق صاحبة جلبة ومكالبة ١/ ٤٦٠ ، ٤٦١ ، كما ينقل ابن جنى نفسه عن ابن الأعرابى أنه قال: جاءك خاصى العير إذا وصف بقلة الحياء .. سر الصناعة ١/ ٢٠٥ .

(٥) سر الصناعة ١/ ٢٠٦ .

العلماء لجواز أن تكون الكلمة التى تصور فقدانها موجودة ولكن الرواة لم يصلوا إليها.

والذى يرجع إلى مادتى (نثر - ونثل) يرى أن المعانى متقاربة فى كليهما فهى تدور حول التفريق ونقل الشىء من مكان إلى غيره فمادة (نثر) معروفة فى التفريق ، ومادة نثل أيضا يقال : نثل الركية ينثلها نثلا: أخرج ترابها واسم التراب النثيلة والنثالة ونثل كنانته نثلا: استخرج ما فيها من النثل وكذلك إذا نفضت ما فى الجراب من الزاد ، ونثل الفرس: راث ، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيه مقطعا إلخ . . ويقال: قد نثل درعه ينثلها: صبها ونثلها: ألقاها عنه ولم يقولوا: نثرها وهذا ليس المقياس لتحديد الأصل من الفرع ولكن ربما يكون للمعنى دخل فى تحديده ، فاللام هى الأصل لأن الدرع تتصل بمعنى النثل أكثر من اتصالها بالنثر إذ النثل فيه صفة تجمع الشىء واتصاله بعضه ببعض ، وأما النثر فهو فصل لأجزاء الشىء بعضه عن بعض فالمعنى فى النثل حقيقى وقد اتصل بالثانى من طريق المجاز ولا مانع أن تكون الراء هى الأصل وقد نشأت الكلمة باللام للثغة فى اللسان أونقول: إن كل كلمة أصل برأسها لأنها مشتقة من مادة تؤدى معنى الدرع ولبسها وخلعها عن بدن الإنسان فتكون من اختلاف اللهجات.

وأما الأمثلة الأخيرة ففيها مناسبة بين الحروف والمعانى فالقرمة هى الفقرة تحزّ على أنف البعير وقريب منه: قلّمت أظفارى لأن هذا انتقاص للظفر وذلك انتقاص للجلد والراء تعاقب اللام.

وقالوا بيضة عرماء وقطيع أعرم إذا كان فيهما سواد وبياض وإذا وقع ذلك بان أحد اللونين من صاحبه فكان كل واحد منهما أصلا لصاحبه واستعملوا تركيب جبر وجبل لتقاربهما فى موضع واحد وهو الالتئام والتماسك منه الجبل لشدته وقوته ، ومنه جبرت العظم ونحوه أى قويته ، وعلى كل فالتبادل صحيح بين اللام والراء لاتحادهما مخرجا وصفة.

ومع ذلك يمكن أن تكون لهجات: يقول أبو عمرو بن العلاء: قيس« تقول

للمريض: مبلسم وتميم تقول مبرسم (١) والكلمة معربة أصلها بر: الصدر وسام الموت (٢) أو ورم أو مرض ويقول أبو عمرو أيضا: سمعت بعض قيس تقول: سدل الرجل فى البلاد وسدر: إذا ذهب فيها فلم يثنه شيء(٣).

ويقال: الرثغ لغةفى اللثغ (٤) وفى لغة لهم: رعملك يريدون لعمرك(٥) .

الـــراء والنـــون:

من ذلك: كوّر ، العمامة وكوّرها [illegible] عنه صلى الله عليه وسلم (أنه كان يتعوذ من الحور بعد الك[illegible]يادة وكأنه من تكوير العمامة وهو لفها [illegible] الفرس يكير: إذا جري رافعا ذنبه ويروي: يكير [illegible] هذه مرة وفى هذه مرة) أي: يجري والزور والزون: كل شيء يعبد ويتخذ إليها (٨). ونري أنّ قبيلة واحدة لا تنطق بذلك بل هو بينها وبين غيرها أو بين بعضها وبعض.

وقال ابن الفرج: سمعت بعض بنى سليم يقول: قد رجع كلامى فى الرجل ونجع فيه بمعنى: ، ورجع فى الدابة العلف ونجع: إذا تبين أمره (٩). والراء والنون - كالراء - واللام - من حيز واحد بعضها أرفع من بعض وهى ذلقية (١٠). وهى أوضح الأصوات كما يقول المحدثون فى السمع ومجري الهواء متسع معها وتشيع فى الكلام وهى لذلك تشبه أصوات اللين (١١) ولذا يمكن التبادل بينها ولا بأس أن ينسب ذلك إلى القبائل العربية على أنه من اختلاف اللهجات وقد ينسب بعضهم الاختلاف إلى قبيلة واحدة.

---

(١) التهذيب ١٣/١٥٨ .
(٢) التهذيب ٢٥٧ (برسم) ولغة تميم ١٣٠.
(٣) المرجع السابق ١٢/٣٥٥ .
(٤) المرجع السابق ٨/٩١ (رثغ) .
(٥) المرجع السابق ٢/٣٨٢ (عمر).
(٦) النهاية ٤/٣٠٨ (كور) .
(٧) المصدر السابق ٤/٢١٧ (كير) .
(٨) الإبدال لأبى الطيب ١٤٦ والقلب والإبدال لابن السكيت ص ٦٥ .
(٩) التهذيب ١/٣٦٨ (رجع) .
(١٠) شرح المفصل ١٠/١٢٨ - ١٣٠ .
(١١) الأصوات اللغوية ص ٦٤ .

الـــزاى والسيـــن:

من أمثلة ذلك: الزفت لغة الأزد فى السفت ويقولون: الزقـــف أي السقف (١) وشزب وشسف وشسب بمعنى ضمر، ولا مانع من التبادل بين الصوتين لاتحاد المخارج فهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى .

وقد أوضح ابن جنى بناء على اتحاد معنى الكلمات الثلاث الأخيرة وأنها بمعنى ضمر أنه يوافق على أن الزاى فيها بدل من السين ولكننا نري أنه حكى أيضا أن الأصمعى فصل فقال: الشازب الذي فيه ضمور وإن لم يكن مهزولاً والشاسب والشاسف الذي فيه يبس ، وقد حكم بأن إحداهما ليست بدلامن الأخري ليس على اعتبار الخلاف فى المعنى ولكن على اعتبار تصرف الفعلين جميعا (٢) .

ونحن نري أن خلاف المعنى - إن صح - هو الذي يحسم النزاع ويجعل كلا من الكلمتين ذاتى الزاى والسين أصلا برأسه ، إلا أن أصحاب المعاجم يخلطون بين المعنيين كقول صاحب اللسان فى شزب: الشازب الضامر اليابس من الناس وغيرهم(٣) وقول الفيروزابادي: الشازب الخشن والضامر اليابس(٤) وفرق بين ما هو يابس من أصله فى الوجود وبين ما كان غضا سمينا ثم هزل وضمر .

الـــزاي والصـــاد:

من ذلك قولهم فى فُصد: فُصْد أو فى يصدر: يصدر بإشمام الصاد صوت الزاي - ومن العرب من يخلصها زايا فيقول: فُزْد ويَزدر ومَزْدَر والتّزْدير وازْدُقى فى اصدقى، وعليه قول العرب فى المثل: لم يُحْرَمْ من فُزْد له: فُصِد له ثم

---

(١) العين ٥/ ٨١ .

(٢) سر الصناعة ١/ ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) اللسان ١/ ٤٩٤ ، ٦/ ٣٧ ، ١١٧ ، ١٠/ ٧٠ .

(٤) القاموس ١/ ١٠٣ .

أسكنت العين على حد قولهم فى ضُرِب ضُرْب وقوله :

وَنُفْخُوا فى مَدائِنِهْم فطارِوا (١)

وكذلك كل صاد ساكنة بعد الدال ، ومن ذلك أيضا: زقر فى صقر وزقعاء فى صقعاء وصمصمة وزمزمة(٢)٠

ونقول: لا مانع من التبادل بين الزاى والصاد لأنهما من مخرج واحد وهو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى وتشتركان فيما بينهما فى الرخاوة والصفير والإصمات ، ومع ذلك يجوز أن يكون ذلك من قبيل اللهجات٠

ونحن نعرف أن الصاد من المهموسات وما بعدها دال مجهورة فهذا التجاور بينهما يقتضى تقريب الصاد المهموسة من الدال المجهورة وذلك بإشمام الصاد صوت الزاي المجهورة لتناسب الدال فى الجهر ولذلك جعل ابن جنى هذه الصاد بمنزلة الزاي حين قال: (وأما الصاد التى كالزاي فهى التى يقل همسها قليلا ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاى)(٣)٠

إذ إنه «لما جاورت الصاد وهى مهموسة الدال وهى مجهورة قُرِّبت منها بأن أُشِمّتْ شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر(٤)٠

وقد قلبها العرب زايا مخلصة لأنه لما سكنت الصاد ضارعوا بها الدال التى بعدها بأن قلبوها إلى أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد وهى الزاي لأنها مجهورة كما أن الدال مجهورة (١)٠

ويشترط لهذا القلب أن تكون الصاد ساكنة وبعدها دال(فإن تحركت

---

(١) سر الصناعة ١/ ٥٧ ٠ والخصائص ٢/ ١٤٤ ٠

يقول ابن جنى: ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم فى مصدر: مزدر وفى التصدير : التزدير وعليه قول العرب فى المثل: لم يُحْرم من فُزْد له ثم سكنت العين فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد وهى مهموسة الدال وهى مجهورة قُرِّبتْ منها بأن أُشِمّتْ شيئاً من لفظ الزاى المقاربة للدال فى الجهر ٠

(٢) سر الصناعة ١/ ٢١٩ ، والمزهر ١/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ٠

(٣) سر الصناعة ١/ ٥٦ ٠ (٤) الخصائص ٢/ ١٤٤ ٠

الصاد لم يجز فيها البدل وذلك نحو صَدَر وصَدَف لا تقول: زدرولازدف وذلك أن الحركة قوت الحرف وحصّنته فأبعدته من الانقلاب بل قد يجوز فيها إذا تحركت إشمامها رائحة الزاي ، فأما أن تخلص وهى متحركة زايا تَمًا تخلص وهى ساكنة فلا ، وإنما تنقلب الصاد زايا أو تشم رائحتها إذا وقعت قبل الدال فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها (٢) .

وفى الزقر وزقعاء السين مهموسة والقاف مجهورة فأبدل السين زايامجهورة والزاي أخت السين كما أن الصاد أختها (٣) ، ويقول ابن جنى: وروينا عن الأصمعى: اختلف رجلان من العرب فى الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين فتراضيا بأول من يقدم عليهما فإذا راكب فأخبراه ورجعا إليه فقال: ليست كما قلت ولا كما قلت إنما هو الزقر). الخ

وقد اعتبر ابن جنى كلا من صمصمة وزمزمة أصلا قائما برأسه فقال: «ليس أحد الحرفين بدلا من صاحبه لأن الأصمعى قد أثبتهما معا ولم يجعل لأحدهما مزية على صاحبه (٤). ويؤيد رأي ابن جنى ما ورد فى معاجم اللغة فكل من اللفظين من مادة مستقلة لها معانيها الخاصة ، فصمصمة مشتق من مادة(ص م م)التى تدور معانيها حول القوة والصلابة والمناعة ومن ذلك: حجر أصم وصخرة صماء: صلب مصمت والصماء: الناقة السمينة واللاقح والأرض الغليظة والداهية الشديدةوالأصم: الرجل لا يطمع فيه ولا يرد عن هواه والحية لا تقبل الرقى والصمة بالكسر: الشجاع والأسد وصم فى الأمر والسير: مضى كصمصم والسيف أصاب المفصل والصمصام: السيف لا ينثنى وكزبرج: الغليظ القصير والجرىء الماضى وبهاء: وسط القوم ويفتح والجماعة واشتمال الصماء ، وهى كساء (٥) وزمزمة مشتقة من مادة(زمم)التى تدور معانيها حول إصدار الأصوات واختلاطها ومن ذلك زم القربة: ملأها فزمت زموما امتلأت والبعير: خطمه وتقدم فى السير وتكلم والزمزمة: الصوت البعيد له دوي وتتابع صوت الرعد وهو أحسنه صوتا وأثبته مطرا

---

(١) سر الصناعة ١/ ٥٧ . (٢) المصدر السابق ١/ ٥٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ١٦٩ ، ٢٨٣ .

(٤) سر الصناعة ١/ ٢١٩ ، وانظر فى الأمثلة المزهر ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٥) القاموس ٤/ ١٦٣ .

وتراطن العلوج على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لسانا ولا شفة لكنه صوت تديره فى خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضها عن بعض و صوت الأسد وبالكسر: الجماعة أو خمسون من الإبل والناس وقطعة من الجن أو من السباع وجماعة الإبل ما فيها صغار.. الخ(١).

ولا شك ان المعنيين قد التقيا على سبيل المجاز فضلا عن أن كلا من اللفظين قد انفرد عن الآخر ببعض المعانى الواضحة فى النص السابق كاستعمال الصمصمةفى اشتمال الصماء وهى كساء وفى وسط القوم واستعمالها فى الأكمة الغليظة التى كادت حجارتها أن تكون منتصبة (٢) ، واختصاص الزمزمة بالقطعة من الجن وبتحديد العدد بخمسين على أنه عند فتح الحرفين المكسورين تبقى الصمصمة بمعناهاوتنصرف الزمزمة الى الصوت البعيد الذى له دوي وبهذا تري أن اللفظين لم يتفقا من جميع الوجوه سواء المعنى أو الضبط والمطلوب تحققه فى الإبدال.

وهذا التأثر لون من ألوان الادغام الأصغر الذى هو : تقريب الصوت من الصوت وقد نبه ابن جنى على ذلك كثيرا إذ يقول :

ومنه تقريب الحرف من الحرف (٣) ، ومنه (٤) ، وهذا التقريب بين الحروف مشروح الحديث فى باب الادغام (٥) ، وهذا التقريب للحرف من الحرف باب طويل منقاد وهو فى فصل الادغام وما أصنعه وما ألطفه وأظرفه (٦) .

وقد ظهر لعلماء اللغة المحدثين أن الصوت المجهور أوضح فى السمع من الصوت المهموس بل إن المجهور يسمع من مسافة قد يخفى عندها المهموس فصوت السين يخفى عند مسافة معينة ربما استمر ظهور القاف - مثلا - بعدها بوقت والدال كذلك بالنسبة للصاد وعلى هذا فالمجهور يتناسب مع حياة البدو لأن الصحراء الشاسعة تتطلب ارتفاع الأصوات على حين يتناسب المهموس مع

---

(١) القاموس ٤/ ١٤٧ .
(٢) لسان العرب ١٥/ ٢٤١ .
(٣) الخصائص ٢/ ١٤٤ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٥) المحستب ٢/ ١٦٨ .
(٦) المصدر السابق ٢/ ٢٨٣ .

حياة الحضر لأنه يكتفى هناك بأقل الأصوات ارتفاعا فتبدّل الصوت المهموس بآخر مجهور يكون إذاً من خصائص القبائل الحضرية على حين يبقى المجهور من خصائص القبائل البدوية .

وقد نسب أبو حيان ظاهرة إشمام السين صوت الزاى إلى قبائل قيس وقلبها زايا خالصة إلى قبائل عذرة وكعب وبنى القين (١) ونسبت فى العين للأزد (٢) ، والأزد قبائل وبطون كثيرة ولعل تلك الظاهرة تنسب إلى البدويين منهم كأزد عمان المجاورين للشحر، وقيس معروفة ببداوتها ، وعذرة قبيلة اشتهرت بالعشق وهى بطن من قضاعة (٣) وهم بدو وكعب بطن عامر بن صعصعة (٤) من هوازن (٥) ، كانت تسكن العروض (٦) مجاورة لبنى تميم ، وبنو العنبر بطن من أسد (٧) وهى بدوية على ما نعرف.

السين والشين :

من أمثلة ذلك: جعشوش ، وجعسوس ـ تنسمت منه علما وتنشمت (٨) والسده والشده ورجل مسدوه فى معنى مشدوه (٩) قال :

فلو كنت وردا لونه لعسقننى ولكن ربى سانني بسواديا (١٠)

وفى جعشوش وجعسوس جعل ابن جنى الشين بدلا من السين ألا ترى أن السين أعم تصرفا من الشين لوجودك إياها فى الواحد والجمع جميعا ،قال فى خصائصه « قال الأصمعى :

---

(١) البحر ١/ ٢٥ .

(٢) والزقف لغة الأزد فى السقف .

(٣) نهاية (القلقشندى) ٣٥٩ .

(٤) المصدر السابق ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٥) المصدر السابق ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .

(٦) صفة جزيرة العرب ١٥٩ .

(٧) نهاية (القلقشندى) ٧١.

(٨) سر الصناعة ١/ ٢١٥ .

(٩) المصدر السابق ١/ ٢١٠ .

(١٠) المصدر السابق ١/ ٢١٤، وانظر ديوان سحيم ص ٥٦ .

يقال: جعشوش ، وجعسوس وكل ذلك إلى قمأة وقلة ، وصغر (١) ، ويقال هم من جعاسيس الناس ولا يقال بالشين فى هذا فضيق الشين مع سعة السين يؤذن بأن الشين بدل من السين نعم ، والاشتقاق يعضّد كون السين غير معجمة هى الأصل وكأنه اشتق من الجعس صيغة على فعلول وذلك أنه شبه الساقط المهين من الرجال بالخرء لذله ونتنه (٢) ، ولكن مقياس كثرة التصرف لا يعتمد عليه لجواز أن تكون مادة (جعش) موجودة إلا أن الرواة لم يصلوا إليها ومن الجائز أن تكون الشين هى الأصل وقد نشأت السين عنها بطريق التصحيف أو أنهما لغتان لقبيلتين مختلفتين ، والذى دعانا إلى القول بذلك أن السين والشين وإن اتفقا فى كثير من الصفات كالهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات فهما متباعدان مخرجا فالأول من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى والثانى من وسطه مع مايحاذيه من الحنك الأعلى وبينهما فى ترتيب المخارج حروف كثيرة هى - على ما رأى سيبويه وابن جنى(٣) - ى - ض - ل - ر - ن - ط - د - ت - ص - ز وقد صرح ابن جنى نفسه بأن اشتقاق جعسوس (من الجعس) إنما هو على التشبيه لا على سبيل الحقيقة وذلك مطلوب فى الحكم بالإبدال .

وأما تنسمت ، وتنشمت فقد كان ابن جنى الحكم الفيصل فيهما برأى سديدفقد قال :

فأما قولهم تنسمت منه علما وتنشمت فليس واحد من الحرفين بدلا من صاحبه لأن لكل واحد منهما وجها قائما أما تنسمت فكأنه من النسيم كقولك استروحت منه خبيرا فمعناه أنه تلطف فى التماس العلم منه شيئا فشيئا كهبوب النسيم وأما قولهم : تنشمت فمن قولهم : تنشمت فى الأمر أى ابتدأته ولم أوغل فيه وكذلك تنشمت منه أى ابتدأت بطرف من العلم من عنده ولم أتمكن فيه (٤).

---

(١) فى سر الصناعة إلى قماء وصغر وقلة ١/ ٢١٥ .

(٢) الخصائص ٢/ ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) على خلاف بينهما فى تقدم الضاد وتأخرها من الشين .

(٤) سر الصناعة ١/ ٢١٥ و٢١٦.

وبهذا أوضح اختلاف الاشتقاق فلا إبدال بينهما.

وأما السده والشده فقد قال ابن جنى :(ينبغى أن يكون السين فيه بدلا من الشين لأن الشين أعم تصرفا) .

ولسنا معه فى مقياسه ولا فى وقوع الإبدال على هذا النحو لتباعد المخارج .

ويمكن أن يفسر ذلك بأنه ليس لغة بل لثغة تلحق النطق العربى عندما يتكلم بتلك الألفاظ ـ بالشين ـ شخص أجنبى ، وهذا ما صرح به ابن جنى ـ بعد إنشاده البيت ـ قال : إنما قلب (١) الشين سينا لسواده وضعفه من مقاربة الشين وليس ذلك باللغة وانما هو كاللثغ ، ويؤكد ذلك عدم وجود (سده) ولا (عسق) ولا (سان) فى قواميس اللغة (٢) وهو مما يظن ـ كذلك ـ أن يكون للتصحيف أثر فيه .

ومما ورد فى معجمات اللغة ـ بالسين والشين ـ على أنه من اختلاف اللهجات فى تشميت العاطس: يقال: شمّت وسمّت لغتان والشين أعلى فى كلامهم وأكثر (٣).

والجرنفش للعظيم الجنبين والأنثى جرنفشة ـ بالسين والشين: لغتان .

وصرح بعض اللغويين بنقل ذلك الإختلاف عن بعض العرب كالباهليين فى: شطأ الرجل المرأة ـ بالسين والشين قال ابن الفرج: سمعت الباهلين يقولون: سطأ الرجل المرأة أى: وطئها قال أبو منصور: وشطأها بهذا المعنى لغة (٤) وفي البقلة التى يـــقال لها: الشبث معربة (٥) يقول الأزهري: رأيت البحرانيين يسمونها سبث بالسين والثاء قلبوا الشين سينا والذال ثاء وهى بالفارسية يقال لها: شوذيله بالذال المعجمة (٦) ، والتبادل بين السين والشين وقع فى كلمات مشتركة بين العربية واللغــات السامية الأخري(٧).

---

(١) يعنى الشاعر وهو سحيم عبد بنى الحساس.

(٢) انظر أبواب القاف والنون والهاء فى القاموس ولسان العرب.

(٣) غريب الحديث لأبى عبيد ٢/ ١٨٤.

(٤)شفاء الغليل ١٥٩ .   (٥) اللسان ١/ ٨٨ وانظر أيضا ٩٤ .

(٦) التهذيب ١/ ٣٣٧ (شبت) .

(٧) التطور النحوى لبرجستراسر ص ٢٤ ، ٢٥ .

السين والصاد:

من أمثلة ذلك: اهدنا السراط والصراط - كأنما يساقون ويصاقون - مس سقر وصقر (١) - سخر صخر - وأسبغ عليكم نعمه وأصبغ (٢) - سقت وصقت - سويق وصويق - والنخل باسقات وباصقات (٣) السماخ والصماخ وسمخنى بصوته وصمخنى والأسقح والأصقح - سلهب وصلهب (٤) .

ولا مانع من التبادل بين السين والصاد لأنهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى بجانب اشتراكهما فى الهمس ومع ذلك فاحتمال اللهجات أمر قائم.

والواضح أن السين قد وقع بعدها أحد الحروف الآتية: الصاد - القاف - الغين - الخاء ، والطاء من أصوات الإطباق ولذلك تأثرت السين بها فقلبت صادا لأنها من مخرج السين وتناسب الطاء فى الإطباق ، وفى الأمثلة الأخرى يلاحظ أن السين من حروف الاستفال والقاف والغين والخاء من أصوات الاستعلاء فاقتضى هذا التجاور إن تقلب السين إلى صوت مشابه لأصوات لاستعلاء وهذا ما لاحظه فيلسوف العربية ابن جنى يقول: الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف فأبدلت السين صادا لتقرب من القاف لما فى الصاد من الاستعلاء (٥) ، ويقول - عند تعقيبه على قراءة (وأصبغ) بالصاد -: أصله السين إلا أنها أبدلت للغين بعدهاصادا كما قالوا فى سايغ صايغ وفى سالخ صالخ وفى سقر صقر وفى السقر الصقر ذلك أن حروف الاستعلاء(٦) تجتذب السين عن سفالتها إلى تعاليهن والصاد مستعلية وهى أخت السين فى المخرج وأخرى حروف الاستعلاء وقد نقل أبو حيان - عن أبى جعفر الرؤاسى - نسبة التأثر بالإطباق إلى قريش ويقول: إنه اللغة الجيدة (٧) وكذلك ورد فى اللسان (وهى بالصاد لغة قريش الأولين التى جاءت فى الكتاب) وقد يكون ذلك صحيحا فى الألفاظ التى يوجد فيها إطباق نحو يبسط وبمسيطر أما أن

---

(١) سر الصناعة ١/ ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٢ ، والمحتسب ٢/ ١٦٨ .

(٣) المحتسب ٢/ ٢٨٣ .

(٤) سر الصناعة ١/ ٢١٨ .

(٥) المحتسب ٢/ ٢٨٣ .

(٦) المحتسب ٢/ ١٦٨ .

(٧) البحر ١/ ٢٥ .

قريشا كانت تذهب إلى الإطباق فى باسقات وأسبغ وسقر فذلك ما لا نظنه لأن البيئة الحضرية تميل إلى الأناة فى الأداء بحيث تعطى كل صوت حقه فتنطقه بصفاته ولعل هذه الظاهرة أن تنسب إلى البادية أجدر حيث عرفنا أن صوت الإطباق فيه من الوضوح ما يناسب البيئة الصحراوية (١) ، وقد نسب ذلك إلى قوم من تميم يقال لهم: بلعنبر يقلبون السين صادا عند أربعة أحرف: الطاء والقاف والغين والخاء إذا كُنّ بعد السين وقال الفراء: ونفر من بلعنبر يصيرون السين إذا كانت مقدمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صادا فمن ذلك قولهم: الصراط والسراط.. إلخ (٢) والصاق فى الساق عنبرية قال ابن سيدة: (وأراه ضربا من المضارعة لمكان القاف) (والصويق لغة فى السويق المعروف لمكان المضارعة) (٣). ويقال : سمخنى بحدة صوته وكثرة كلامه ولغة تميم الصمخ (٤) ، والصماخ من الأذن: الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس: تميمية والسين لغة فيه (٥). وذكر ابن دريد: الأسقح والأصقح بالسين والصاد يمنية - الأصلع - والسقحة: الصلع يمانية (٦).

وأما سلهب وصلهب فقد تردد ابن جنى فى رأيه فيهما قال: (يجوز أن تكون الصاد فيه لغة ويجوز أن تكون بدلا من سين سلهب لأنه أكثر تصرفا من صلهب (٧) وعلى الرغم من عدم دقة مقياسه وهو الاعتماد على كثرة التصرف وشيوع الاستعمال فإننا لحظنا اتجاه المعاجم اللغوية إلى التسوية بينهما فى الاستعمال فصاحب اللسان يقول: الصلهب من الرجال الطويل وكذلك السلهب (٨) وصاحب القاموس يروي تصرفا للمادتين فيقول: الصلهب الرجل الطويل كالمصلهب والبيت الكبير والشديد من الإبل واصلهبّت الأشياء امتدت على جهتها (٩) والسلهب الطويل أو من الرجال ج سلاهبة ومن الخيل ما عظم وطال عظامه كالسلهبة وهى الجسيمة والسلهابة الجريئة كالسلهاب

---

(١) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ١٥٠ .

(٢) اللسان : سرط ، وصرط .

(٣) المرجع السابق : سوق وصوق -

(٤) المرجع السابق : سمخ .

(٥) المرجع السابق: سمخ وصمخ ٣/ ٥٠٤ ، ٤/ ٤

(٦) الجمهرة ٢/ ١٥٤ ، ١٦٣ .

(٧) سر الصناعة ١/ ٢١٨.

(٨) اللسان ١/ ٥٣١ .

(٩) القاموس ١/ ١١٠ ، ١١١ .

بكسرهما(١) .

والذي يبدو أن الكلمة بالسين لهجة وبالصاد لهجةأخرى وربما كانت الصاد متطورة عن السين فى لغة البدو لتلائم التنفخيم الذى يلجأ إليه سكان الصحراءفقد ذكر سيبويه (هذا باب ما تقلب فيه السين صادا فى بعض اللغات تقلبهاالقاف إذا كانت بعدها فى كلمة) (٢)٠

وصرح ابن جنى بأن الصاد تبدل من السين فقال: إذا كان بعد السين غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادا (٣) وهذا ينطبق على الأمثلة المذكورة٠

وقد أجري ابن جنى لونا من إمساس الألفاظ أشباه المعانى على الفاظ وردت بالزاى والصاد مثل علوز وعلوص وبالسين والصاد مثل سعد وصعد وسد وصد وقسم وقصم والوسيلة والوصيلة فالكلمة بالزاي أو السين تناسب معنى وبالصاد تناسب معنى آخر ، وهذا مما يدخل فى نطاق ما يسميه اللغويون (الاشتقاق الأكبر)٠

الصاد والضاد:

من أمثلة ذلك: نصنص لسانه ونضنضه: حركه - تصوك فى خرئه وتضوك (٤)٠

نرى أن بين الصاد والضاد بعدا فى المخرج فالصاد من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى والضاد من جانب اللسان أو من كلا الجانبين وبينهما من الحروف: ل ـ ب ـ ن ـ ط ـ د ـ ت ـ إلا أنهما يشتركان فى بعض الصفات كالإطباق والإصمات وذلك لا يصح به التبادل٠

وقد ناقش ابن جنى هذين المثالين على أن كلا منهما لا إبدال فيه بل كل من اللفظين أصل إذ ليست الصاد أخت الضاد فتبدل منها (٥)٠

والباحث فى المعاجم يرى أن مادتى: نصنص ونضنض متقاربتان معنى فالأولى تدور حول الحركة والانتقال والحث والثانية تدور حول الحركة والانتقال

---

(١) القاموس ١/٩٩ .

(٢) الكتاب ٤/٤٧٩ .

(٣) سر الصناعة ١/٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق ١/٢٢١ .

(٥) القاموس ٢/٣١٩ ، ٣٢٠ .

والحث والقلة ومن الأول: نص ناقته: استخرج أقصى ما عندها من السير والحركة ونصنص غريمه: استقصى عليه ونص المتاع جعل بعضه فوق بعض(١).

ومن الثانية: نض الماء سال قليلا أو خرج رشحا ونضاضة الماء وغيره بالضم بقيته، وأنض الحاجة: أنجزها، ونضنض فلانا: أقلقه أو استحثه (٢) فكل منهما على هذا مشتق من مادة مستقلة فهما لغتان.

ولا يستبعد أن يكون التصحيف قد تطرق إلى اللفظين وأصل المادة بالضاد أو بالصاد وكذلك: تصوك فى خرئه وتضوك رواهما صاحب اللسان بمعنى واحد: تصوك فى عذرته تصوكا وبالضاد كذلك تلطخ رواهما اللحيانى عن زياد بالضاد المعجمة وعن الأصمعى بالصاد المهملة (٣).

ولعل ذلك من باب اختلاف اللهجات.

ومما ورد بالصاد والضاد منسوبا إلى بعض العرب أو على أنه لغات: الضئبل: الداهية ولغة بنى ضبة الصئبل والضاد أعرف كما يقول الكسائى (٤).

وقد صرح الأزهرى بأنه لم يسمعه من غير أبى تراب مع أنه كان يسكن بين أبناء ضبة، وجاص لغة فى جاض، وحفص الشىء: ألقاه، قال ابن سيدة: والضاد أعلى، وفلان ما ينُوض بحاجة وما يقدر أن ينوص أى يتحرك بشىء والصاد لغة، والمناض: الملجأ عن كراع والصاد أعلى، وضاف السهم يضيف: إذا عدل عن الهدف ويقال فيه صاف بالصاد وهو لغة(٥)، وقال تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) (٦) - بالضاد - وقرأ أبىّ، وابن الزبير والحسن وغيرهم بالصاد فيهما (٧).

---

(١) القاموس ٢/٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) اللسان ١٢/٣٤٥، ٣٤٩.

(٣) التهذيب ١٢/١٠٢، ١٢/١٩٤، وبنو ضبة هم بنو ضبة بن الحارث بن فهر من ساكنى الحجاز. جمهرة أنساب العرب ١٧٦، ١٧٧.

(٤) التهذيب ٢/٧٣.

(٥) التهذيب ٢/٧٣ (ضاف).

(٦) طـه ٩٦.

(٧) البحر ٦/٢٧٣.

الصـــاد والطـــاء:

من أمثلة ذلك: الحصب: الحطب ، أو ما يسجر به منه ، أو ما يرمى به فى النار ، فى لغة أهل اليمن (١) ، وقال تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (٢) هى بالصاد فى قراءة الجمهور ، وقرأ أبى وعلى وعائشة وابن الزبير وزيد بن على: (حطب) بالطاء ، وجاءت فى آية أخرى ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ (٣) .

وقرئت (حضب) بالضاد ، ونقلت هذه القراءة عن ابن عباس وقد فسرت الكلمة بمعان مختلفة بحسب الصوت المنطوق به ، فالحصب - بالصاد - هو ما رميت به فى النار ، ولا يقال له حصب الا وهو فى النار . وقال عكرمة: هو حطب جهنم بالحبشية (٤) والحطب معروف أما الحضب - بالضاد - فهو كل ما هيّجت به النار أو أوقدتها به.

ويذكر بعض الباحثين أن الكلمة بالطاء هى الأصل ، لورودها فى القرآن الكريم مرتين وورودها - كذلك - فى العبرية والحبشية ، على حين وردت الكلمة بالصاد مرة واحدة فى القرآن (٥) .

وليست كثرة العدد دليلا على الأصالة ، كما أن قلته ليست دليلا على الفرعية ، فهذا المقياس غير منضبط ، وقد وقعت الكلمة بالصاد فى الحبشية كما وقعت بالطاء فيها أيضا .

ولعل نطق الطاء فى(حطب) صادا أو ضادا (حصب) لم تكونا خالصتين بل كانت بين الطاء والصاد أو بينها وبين الضاد وهى ما يطلق عليه الضاد الضعيفة (٦) وهى من الحروف غير المستحسنة.

---

(١) القاموس ١/ ٥٥ (حصب) وانظر معانى القرآن للفراء حيث نسب الكلمة بالصاد إلى أهل نجد ، وتاج العروس ١/ ٢١٦ ، واللسان ١/ ٣١١ (حصب) ، وانظر بحثنا فى القراءات ، وصلتها باللهجات العربية بمجلة منبر الإسلام العدد ٧ السنة ٣٧ ص ٢٦.

(٢) من الآية ٩٨ من سورة الأنبياء . (٣) سورة الجن الآية ١٥ .

(٤) تاج العروس واللسان (٥) لغة تميم ص ١١١ .

(٦) الكتاب ٤/ ٤٣٢ ، وسر الصناعة ١/ ٤٦ .

ويقال للناقة إذا ألقت ولدها ولم يشعر (١) ملصت وملطت ، وألقته ومليصاً و مليطا ، وهى ناقة مملص ومملط ، وإبل ممااليص ومماليط ، فإذا كان ذلك من عادتها قيل: مملاص ومملاط.

ويقال: اعتاطت رحمها ، واعتاصت وهما سواء إذا لم تحمل أعواما ، وهى ناقة عائط والجمع عيط.

ولا يجوز التبادل بين الطاءوالصاد أو الضاد لبعد المخارج واختلاف الصفات واختلاف المعنى ، فلا يمكن نسبة الصور المتعددة للنطق هنا - إلى العرب جميعا ، ولو كان ذلك على سبيل التطور الصوتى ، فمن شروط االإبدال - كما عرفنا - تقارب المخارج أو الصفات بين الأصوات مع اتفاق المعنى بين ما وقع فيه البدل والمبدل منه ، وذلك غير متحقق هنا ، فالأولى أن يكون ذلك لهجات كما ذكر بعض اللغويين.

الضاد والظاء:

من أمثلة ذلك: رجل ظالع: مائل وقيل: إن المائل بالضاد ، وفى الحديث: (أعطى قوماخاف ظلعهم) بفتح اللام أى ميلهم عن الحق وضعف إيمانهم وأصل الظلع داء فى قوائم الدابة تغمز منه (٢). وورد فى اللغة: ضحى - من الأضحية - بالضاد والظاء.

وروى ان رجلا سأل عمر: أيظحى بضبى؟ فقال عمر: وما عليك لو قلت أيضحى بظبى ؟ قال الرجل: إنها لغة - بكسر اللام - فقال عمر: انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش (٣).

وذكر الجاحظ أن جارية تسمى ظمياء كان يناديها صاحبها يا ضمياء بالضاد (٤). ومن ذلك: الفيض وهو الموت ويقال: فاضت نفسه أى لعابه الذى يجمع على شفتيه عند خروج روحه ، ويقال: فاض الميت بالضاد وروى بالظاء أيضا.

وقد كثر ورود الكلمات بالتناوب بين الضاد والظاء وشاع إلى حد أن

---

(١) أى لم ينبت شعره.

(٢) النهاية ٣/ ١٥٩.

(٣) المزهر ٢/ ٥٦٣.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢١١.

ألف بعض العلماء كتبا فى الألفاظ التى جاءت بالضاد والظاء ويخشى اللبس بينهماوقال فى ذلك القاسم بن على الحريرى :

أيهـا السائلى عن الظاء والضاد لكيلا تضله الألفاظ

إن حفظ الظاءات تعييك فاسمعها استماع امرىء له استيقاظ

هى ظمياء والمظالم والإظلام والظلم والظبى واللحاظ (١)

وبين الضاد والظاء بعد فى المخارج فالضاد العربية من جانب اللسان أو من كلا الجانبين والظاء من طرف اللسان مع أطراف الثنايا وبينهما فى المخرج حروف كثيرة: ل - د - ن - ط - د - ت - ص - ز - س ، ويزيد على ذلك عند سيبويه: ج - ش - ى .

ولكن بينهما - مع هذا التباعد فى المخرج - تقارب فى بعض الصفات كالجهر والاستعلاء والإطباق والإصمات.

ولكن يبدو أن المعول عليه فى القول بالإبدال هو المخرج ولذا فهذا اللون من التناوب بين الضاد والظاء يرجع - فى الراجح - إلى اختلاف اللهجات والقول بذلك أولى من التفسير على أنه من الإبدال.

وقد نسبت الضاد والظاء إلى بعض القبائل العربية ، فنسبت الضاد إلى بنى تميم وقضاعة - فى بعض الكلمات - ونسبت الظاء إلى أهل الحجاز وطيء. قال ابن سيدة: فاضت نفسه : خرجت ، تميمية ، وفى حديثه عن (اضرورى).

حكى عن أبى عمرو : (اطرورى) بالطاء ورواية أبى زيد (اظرورى) وأبو عمرو ثقة وأبو زيد أوثق منه وقد سألت عنه بعض فصحاء الحجاز فوافقوا أبا زيد (٢) ، ويذكر ابن منظور: أهل الحجاز وطيء يقولون : فاظت نفسه، وقضاعة وتميم وقيس يقولون : فاضت نفسه مثل فاظت دمعته .

ومما جاء من الشعر فى ذلك ما نسب لرؤبة بن العجاج من تميم :

والأزد أمسى شكوهـم لفاظا لا يدفنون منهم من فاظا (٣)

---

(١) المزهر ٢/ ٢٨٦ . (٢) المخصص ٥/ ٨٠

(٣) التهذيب ١٢/ ١٨٠ (فاظ)

وقال قطرى بن الفجاءة من تميم :

فلم أر يوما كان أكثر معقصا يبيح دما من فائظ وكليم(١)

والضاد الشديدة يفضلها التميميون والظاء الرخوة يفضلها الحجازيون.

وبعض العلماء يرى أن العرب ينطقون: فاضت بالضاد إلا بعضهم كبنى ضبة: يقول السيوطى: كل العرب تقول: فاضت نفسه بالضاد إلا بنى ضبة فإنهم يقولون: فاظت بالظاء.

وورد عكس ذلك من نسبة الظاء الى العرب إلا بعضهم كبنى ضبة أو ناس من تميم ينطقونها بالضاد وقع ذلك فى رواية عن المازنى نقلا عن أبى زيد قال: إن العرب تقول: فاظت نفسه إلا بنى ضبة يقولونه بالضاد (٢).

وفى الغريب المصنف: فاظت نفسه تفيظ: مات و ناس من بنى تميم يقولون: فاضت نفسه تفيض (٣).

وورد اضطراب النسبة إلى قيس فعلى حين نقل عن الفراء نسبة الضاد إاالى قيس والظاء إلى طىء فى فاضت نفسه (٤) روى عن أبى زيد وأبى عبيدة نسبة الكلمة بالظاء إلى قيس وبالضاد إلى تميم.

وقد حاول بعض الكاتبين فى الفرق بين الضاد والظاء أن يوضحوا الفروق المعنوية بين الكلمات التى تقاربت فيها الضاد والظاء ، ومن ذلك ما ورد فى حديث وفد تميم ، وهو كلمة (أخفضهم) بمعنى : وضع منهم فى قوله (فلما دخلوا المدينة بهش إليهم النساء والصبيان يبكون وجوههم فأخفضهم ذلك) قال أبو موسى: أظن الصواب بالحاء المهملة والظاء المعجمة أى أغضبهم (٥).

ومن ذلك عظّت الحرب بنى تميم فالعض أخذ الشىء بالأسنان والشد بها عليه وبالظاء اشتداد الزمان والحرب.

---

(١) اللسان (فيظ) .

(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٥٠١ فيض .

(٣) المزهر ٢/ ٢٨٦ .

(٤) النهاية ٣/ ٤٨٥ .

(٥) المصدر السابق ٢/ ٥٤ (خفض) .

ويبدو ذلك فى بعض القراءات كقوله تعالى: (وما هو على الغيب بظنين(١).

قرأ زيد بن ثابت وعاصم وأهل الحجاز (بضنين) (٢) وهو حسن ، وقرأ(بظنين) ابن كثير وأبو عمرو والكسائى (٣) .

والمعنى مختلف على القراءتين فالضاد على معنى أنه ليس بخيلا، والظاء على أنه ليس متهما على الوحى أو ليس ضعيفا (٤).

وأورد ابن جنى فى سر الصناعة:

إلى الله أشكو من خليل أودّه   ثلاث خصال كلها لى غائض

أراد: غائظ.

وخرج ابن جنى المثال على وجهين: إبدال الضاد من الظاء أو «يكون غائظ غير بدل ولكنه من غاضه أى: نقصه فيكون معناه: أنه ينقضنى ويتَهضمنى (٥). .

ومعنى البيت يحتمل التخريج الأول والثانى فربما يكون الشاعر من قوم يفضلون الضاد على الظاء وهم التميميون وأضرابهم ، وعلى التخريج الثانى يمكن تفسير البيت بأن خصال الصديق تضر بالشاعر وتقضى على بعض حقوقه وتكون الكلمة من غاضه أى نقصه وتهضمه حقه (٦) وحينئذ فلاإبدال ، وبعضَ العلماء كان يخرج هذا التناوب على أنه من التصحيف ففى:

أنضج السنبل: إذا رؤى الدقيق فى حبه يقول الأزهرى:

(الذى حفظناه وسمعناه من الثقات نضج السنبل وأنضج والظاء بهذا

---

(١) التكوير ٢٤ .

(٢) لتهذيب ١١/ ٤٦٧ ، ٤٦٨ (ضنن) .   (٣) السبعة لابن مجاهد ٦٧٣ .

(٤) حجة القراءات لأبى زرعة ٧٥٢ ، ومعانى القرآن للفراء ٣/ ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٥) سر الصناعة ٣/ ٢٢٢ .

(٦) اللسان٩/ ٦٥ ، وقد نسب ابن منظور رأى ابن جنى إلى ابن سيدة وليس صحيحا =

المعنى تصحيف إلا أن يكون محفوظا عن العرب فتكون لغة من لغاتهم (١).

الطاء والظاء :

من ذلك: مشِطت يدُه تمشط مشطا وهو أن يمسّ الرجل الشوك والجذع فيدخل فيه يده ، ويقال: مشظت يده بالظاء .

قال جرير: مشاظ قناة دروها لم يقوَّمِ (٢).

وقال سحيم بن وثيل الرياحى:

وان قناتنا مشِظٌ شظاها شديد قدّها عتق القرين(٣)

وذكر الأزهرى فى الموضع الأول أنهما لغتان.

ومن ذلك: ما أورده ابن جنى: البرطلة (ابن الظل) - ناطور ونواطير ومستنطر قال ابن جنى: إن الظاء لا توجد فى كلام النبط وإذا وقعت فيه قلبوها طاء (٤).

وقد ذكرت المعاجم اللغوية أن تلك الكلمات التى استشهد بها ابن جنى غير عربية حقيقة فلا توجد مادة (ن ط ر) فى اللغة العربية وإنما هى ما يقابل مادة (ن ظ ر) وقد فسر ابن جنى البرطلة بقوله (ابن الظل) وذلك لأن الأصمعى يقول: (بر) ابن والنبط يجعلون الظاء طاء فكأنهم أرادوا ابن الظل والبرطلة: المظلة الصيفية نبطية ، وقد استعملت فى لفظ العربية (٥) والناطر والناطور من كلام أهل السواد: حافظ الزرع والتمر والكرم قال بعضهم: وليست

= لأن ابن جنى هو صاحب الرأى إذ هو المتقدم ولعل ابن منظور نقل ذلك من المحكم دون تأكد من صاحب الرأى .

(١) التهذيب ٤/٤٥٨ (نظج) . (٢) التهذيب ١١/ ٣١٩ (مشط) .

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٣٣ (مشظ) . وإصلاح المنطق ٤٢٠ . المشظة : قناة صلبة تمشظ بها يد من يتناولها والقناة : الرمح الأجوف وكل عصا مستوية أو معوجة والقدّ: الشق والقِدّ السوط والعتق: النجابة.

(٤) سر الصناعة ١/ ٢٣٢ . (٥) اللسان١٣/ ٥٤ .

بعربية محضة (١) وقال الفيروز ابادى: والناطور حافظ الكرم والنخل أعجمى(٢)

والإبدال لا يتأتى بين الطاء والظاء لاختلاف مخرجيهما إذ بينهما من الحروف: د - ت - ص - ز - س ، وبينهما اختلاف فى بعض الصفات فالكلمتان إذاً مستعملتان فى لغتين مختلفتين: عربية ونبطية ، ولا إبدال بينهما كما ذكر ابن جنى ولذلك أتى اللفظ على أصله بالظاء المعجمة فى قول الشاعر (أنشده ابن الأعرابى):

وشف فؤادى أن للعذب ناظرا حمـاه وأنى لا أعيج بمـالح (٣)

وفي المقارنة بين العربية وأخوتها الساميات نرى أن الطاء حلت محل الظاء فى بعض الكلمات مثل طليل أى ظليل ونطار بمعنى ناطر(٤)

وقد سمع من ذلك: بهطنى الأمر وبهظنى ووقيط ووقيظ.

وطلف على الخمسين زاد والظاء لغة فى كل ذلك.

العـين والغيـن :

ذكر ابن جنى أن الغين لا تكون بدلا (٥) وقد ناقش أمثلة وردت فى اللغة بالعين والغين ولم يجزم بالإبدال فى شىء منها وها هى ذى: لعنى ولغنى ورغنى - ارمعل وارمغل - علث الطعام وغثله - النشوع والنشوغ

قبحت من سالفة ومن صـــدغ كأنها كُشْيةُ ضَبٍّ فى صقـغ

حتى إذا ما هوت كفّ العلام لها

طارت وفى كفه من ريشها بتك (٦)

وقد تردد ابن جنى فى إ ثبات الإبدال فى بعض هذه الأمثلة وعبارته تنم عن هذا التردد فتارة يأتى بلفظ (كأن) وتارة أخرى بكلمة (ينبغى) وثالثة ينسب القول بالإبدال إلى غيره فيأتى بكلمة (أراد) أى فلان غيره وهكذا.

---

(١) اللسان ٧/ ٧١ .

(٢) القاموس ٢/ ١٤٤ .

(٣) سر الصناعة ١/ ٢٣٣.

(٤) الكنز اللغوى ٢٣٦ ، ٢٤٩.

(٥)سر الصناعة ١/ ٢٤٧.

(٦) المصدر السابق ١/ ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ولسان العرب ١٥ / ٣١٥.

قال : ينبغى أن يكون الغين فيه بدلا من العين لسعة العين فى الكلام وكثرتها فى هذا المعنى وقلة الغين (١) وفى (ارمعل وارمغل وعلث الطعام وغلثه والنشوع والنشوغ قال: إنها لغات كلها لا ستوائها فى الاطراد والاستعمال ، وفى صقغ حكى القول بالإبدال عن أبى محمد بن الحسن بن مقسم ـ أحد شيوخه ـ فقال: أراد صقع بالعين فأبدلها غينا ، وفى المثال الأخير أوضح ابن جنى أن الغلام بالغين معروف والعلام بالعين الصقر وعلى هذا فلا إبدال لاختلاف المعنى على كل (٢).

ونحن نلمح عدم جزمه بالإبدال فى المثالين الأولين وإخلاله بمقياسه ـ كثرة الشيوع والاستعمال ـ فى المثال الأول لحكمه بأن كلا من اللفظين لغةعلى الرغم من أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه ، وظاهر أن العلاقة الصوتية بين العين والغين تسوغ التبادل ، فكلها حروف حلقية وتتفق العين والغين فى الجهر والانفتاح والإصمات.

ويبدو أن لعنى ورغنى لهجات لقبائل عربية فالغين للبدو لميلهم إلى الحروف المجهورة والمستعلية والعين للحضر وهو المشهور فى كتب اللغة، وارمعل وارمغل قد وردا فى القواميس العربية متساويى الاستعمال بألفاظهما ومعانيهما يقال: ارمعل الثوب : ابتل وقيل : كل ما ابتل فقد ارمعل وارمعل الدمع وارمعن: سال فهو مرمعل ومرمعن ، وارمعل الشىء: تتابع وقيل : سال فتتابع وارمغل مثله تماما فى التصرف السابق (٣).

وكذلك علث وغلث ـ يقال: علث الشىء يعلثه علثا وأعلثه: خلطه وطعام عليث وغليث ، ومادة (غلث) على نحو من هذا (٤) ، ولعل إحداهما ناشئةعن الأخرى بطريق التصحيف ، والمثالان بعد ذلك عرفت مادة كل منهما بالعين فى القواميس دون الغين ، فالنشع انتزاعك الشىء بعنف إلخ.

وورد النشوع والنشوغ بمعنى السعوط والوجور الذى يوجره المريض أو

---

(١) سر الصناعة ٧ / ٢٤٧ . (٢) المصدر السابق ٢٤٨/١ .

(٣) لسان العرب ٣١٧/١٣ والقاموس المحيط ٤٤٦/٣ .

(٤) اللسان ٤٧٤/٢ ، ٤٧٨ .

الصبى والسعوط فى الأنف والوجور فى الفم ويقال نشع الطيب شمَّه(١) ولم يعرف نشغ ومادة صقع معروفة ، صقعه كمنعه: ضربه وصقع الديك : صاح وبه الارض: صرعه والصاقعة: الصاعقة (٢) والصقع: ناحة الأرض والبيت (٣) ولم تعرف صقغ بالغين.

فالظاهر أن المادتين بالعين ، والغين فيهما ناشئة بطريق التصحيف ولذلك تردد ابن سيدة فى المثال الثانى (صقغ) فقال: فلا أدرى أهو هربٌ من الإكفاء أم الغين فى (صقغ) وضع (اى وضع لغوى مسموع) وقد رواها - كذلك - أبو عمرو وقال ابن جنى:

فإذا كان الأمر على ما رواها أبو عمرو فالحال ناطقة بأن فى (صقع) لغتين العين والغين جميعا [illegible] للحرف.

وهذا تردد من ابن جنى فى قبول صقغ ، بالغين إلا أنه أذعن للقبول لأن راويه أبو عمرو وهو من الثقات.

والحقيقة أنه من التصحيف ولا يجرح ذلك ثقة [illegible] أمثال أبى عمرو لأن التصحيف نشأ بعد تدوين اللغة وربما [illegible] إلا بوجه واحد عرض له التصحيف فيما بعد ، ومن الجائز - أيضا - أن تكون رواية الغين صحيحة وقد حول الشاعر العين غينا لإصلاح الشعر.

وأما النشوغ فالتصحيف ظاهر فيه ، ويدل على عجيب أمر التصحيف وقربه فى مثل ذلك ما رواه ابن جنى فى كلمة (العلام) فى بيت الشعر السابق إذ إن الكلمة بالعين لا غير لأن البيت فى وصف قطاة يطاردها صقر وما قبله وما بعده من الأبيات فى وصف الصقر الذى يطارد القطاة ، وإذاً فلا معنى لأن تكون الكلمة هنا بالغين إلا أن التصحيف تطرق إليها.

ومن هنا تعجب ابن جنى كيف ترد مثل هذه الكلمة بالغين فى هذا البيت من الشعر وقال :وهذا من طريف الرواية وغريب اللغة (٤) و ليس بين

---

(١) اللسان ١٠/ ٢٣٢ .

(٢) القاموس المحيط ٣/ ٥٠ .

(٣) اللسان ١٠/ ٧٠ .

(٤) سر الصناعة ١/ ٢٤٨ .

مادتى (علم) و (غلم) أية مناسبة أو قرب (١).

ومن ذلك الغوهق: الغراب بالعين والغين (٢) وذكر مرة أخرى الغيهق بالغين محفوظ صحيح والغيهقة قال الأزهرى (٣): لاأحفظهما لغير الليث ولا أدرى أهى لغة حفظت عن العرب أم العين تصحيف.

والسرغ - بالغين - لغة فى السرع بمعنى الغضب ويقال سروغ الكرم قضبانُه الرطبة الواحد سرغ وقال الليث: هى السروع - بالعين، والغين لغة معروفة (٤).

جرح نعار: يسيل منه الدم ويقال نغّار بالعين والغين، وقد صحتا معا (٥).

وفى بطنه معص ومغص قاله بعض الأعراب (٦) والغين أصل.

ومنه ممعط وممغط: طويل ولا يبعد أن يكونا لغتين (٧).

اللغوس : الذئب واللعوس هو الذئب الحريص على الشىء وأنشد لذى الرمة:

وماء هتكت الليل عنه ولم يرد   روايا الفراخ والذئاب اللغـاوس

ويروى اللعاوس، ولا ينكر أن تكون العين لغة (٨) ، وذو الرمة له صلة بتميم لأنهم من قبيلة ذات صلة قرابة بالتميميين (٩).

والعلاقة الصوتية بين العين والغين - كما ذكرنا - تسوغ التبادل بينهما ولكن السماع هو الذى يجعلنا نحكم بورود الوجهين أو ورود أحدهما ونسبة ذلك إلى بعض القبائل

---

(١) القاموس ٤/١٣٨ ، ١٨٢ .

(٢) التهذيب ٥/٣٨٦ ، ٣٨٧ (رباعى الغين) .

(٣) المصدر السابق ١/ ١٢٤ (عهق) .

(٤) المصدر السابق ٨/ ٣٤ (سرع) .

(٥) التهذيب٢/ ٢٦٩ ، ٨/ ٨١ .

(٦) المصدر السابق ٨/ ٣٢ . مغص) .

(٧) المصدر السابق ٢/ ١٩٣ (معط) .

(٨) المصدر السابق ٢/ ٩٨ (لعس) .

(٩) جمهرة أنساب العرب ٢٠ .

العين والقاف :

قال الخليل: البالوقة والبالوعة ، طوقت له نفسه: لغة فى طوعت بمعنى رخصت وسهلت ، وليس بين الصوتين تقارب فى المخرج أو الصفات فالعين حلقية من وسط الحلق والقاف من أقصى اللسان ، والعين متوسطة على حين أن القاف شديدة وهذا من قبيل اللهجات

الغين والقاف :

قسّ الليل وغسّ : أظلم ، ويقال: قسّ أيضاً.

ولعل ذلك من باب ال[illegible] وذكر صاحب اللسان أن ذلك لغة تميم.

الفاء والقاف :

الزحلوفة آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل وهى لغة أهل العالية وتميم تقوله بالقاف (١) ونسب ابن السكيت القاف إلى هوازن ايضا ، وابن دريد عكس فنسب القاف للحجاز والفاء لتميم (٢) .

والقرزوم - بالقاف - الخشبة التى يحذو عليها الحذاء وجمعها قرازيم وقال ابن السكيت: هو الفرزوم بالفاء وفى شعر الطرماح يصف النساء:

إلى الأبطال من سبأ تكمت مناسب منه غير مقرزمات

أى غير لئيمات وهما لغتان (٣).

وينقل بعض الباحثين رأى بعض الغربيين وهو: دى كورتنال الذى عرضه سنة ١٨٩٣ وملخصه أن الأصوات التى فى الحنك تتقدم فى اتجاه مقدم الفم إلى الأسنان والشفتين.

وقرر أن القاف التميمية هى كاف قافية تميمية تطورت إلى الفاء عند أهل العالية.

---

(١) التهذيب ٥/٣٠٤ .

(٢) القلب والإبدال ٦٤ ، والمزهر ١/٥٥٤ .

(٣) التهذيب ٩/٣٩٩ ، ٤٠٠ .

كما ذكر هذا الباحث أنه يمكن تفسير زحلوفة بالفاء والقاف وفق قانون المغايرة الذى يلجأ إلى تغيير أحد المتماثلين إلى حرف آخر بغية التخفيف فأصل (زحلوفة) وزحلف من(زحف) ـ بتضعيف الحاء ـ فنقلت إلى زحلف ـ بإبدال إحدى الحاءين لاما للتخفيف ـ كما أن الكلمة بالقاف أصلها (زلّق) فأبدل مكان إحدى اللامين قافا.

وكلا الرأيين فى نظرنا لا دليل عليه بل إننا نرى أن الادغام ربما يكون ناشئاً عن تحويل الحروف المختلفة إلى حروف متماثلة وادغامها طلبا للإسراع فى النطق وعدم تكلف المجهود العضلى (١).

وقانون الأصوات الحنكية مقيد كما يقول (يسبرسن) بأن يلى الصوت المحول صوت اللين الأمامى وهو الكسرة القصيرة أو الطويلة إلى جانب أن القاف والفاء متباعدتان فى الصفات كالجهر والهمس والاستعلاء والاستفال والشدة والرخاوة بخلاف ما حول فى المعاجم.

وعرض هذا الباحث تفسيرا لنشأة القاف والفاء عن طريق النحت بناء على مذهب ابن فارس فى نحت ما زاد على ثلاثة أحرف من الألفاظ الرباعية والخماسية المجردة فقال: إن زحلف منحوتة من (زحف) و (زلف) أو (زحل) و(زلق) أو إن الكلمة بالفاء والقاف ترجع إلى مادة واحدة هى (زحل) زيدت عليها الفاء عند أهل العالية والقاف عند تميم ، ومما يقوى ذلك عنده ورود زحاليل بمعنى زحاليق فظهرت اللام ولكن أصلها (زحل) ، وهذا الرأى الذى قال به ابن فارس لم يسلم من النقد عند علماء اللغة فقوله بنظرية النحت قول غير مطرد فمعرفة الأصلين للكلمة المنحوتة لم يكن أمرا واضحا على الدوام بل خفى الأصل الثانى فى معظم الأحيان.

وعند معرفة أصل واحد دون الآخر رأى أن الحرف الذى لم يعرف أصله زيد للمبالغة دون دليل واضح وأحيانا خفى على ابن فارس معرفة الأصلين معا

---

(١) انظر كتابنا : أصوات اللغة العربية ص ٢٤٢ وما بعدها .

وكتابنا : أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى ص ١٩٠ ومابعدها عن رأى مشابه لهذا فى بعض الصيغ ومناقشته .

فقال - حينئذ - إن ذلك مما وضع وضعا وليس منحوتا كالزخرف والخندريس وغير ذلك مما يؤيد ضعف نظريته وضعف ما بنى عليها (١) ، ويكفى أن نقول: إنها لهجات دون معرفة أصلها التطورى أو إن ذلك نشأ بطريق التصحيف وقد وضع السيوطى: الزحلوفة والزحلوقة فى باب (معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف) (٢).

القاف والكاف

من أمثلة ذلك: كشطت وقطشت ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ فى قراءة عبد الله (قشطت) بالقاف (٣) والمعنى واحد - امتك الفصيل ما فى ضرع أمه وامتق.

وقد عد ابن جنى المثال الأول من اختلاف اللهجات ورجح الإبدال فى الثانى يقول عن الأول : أخبرنى أبو على قراءة عليه عن أبى بكر عن بعض أصحاب يعقوب عنه قال: قال الفراء: قريش تقول كشطت وقيس وتميم تقول قشطت بالقاف وليست القاف فى هذا بدلا من الكاف لأنهما لغتان لأقوام مختلفين (٤) ، ويقول عن الثانى: الأظهر فيه أن تكون القاف بدلا من الكاف لما ذهب إليه أبو على لأنه قال: من هذا أخذ اسم مكة لأنها كالمجرى للماء فهو ينجذب اليها ... فقول الجميع مكة ولم يقولوا مقة يقوى أن الكاف هى الأصل (٥) ، والناظر فى العلاقة الصوتية بين الحرفين يراها قوية فكلاهما من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ويتفقان فى الانفتاح والإصمات والهمس - على رأى المحدثين فى القاف بأنها مهموسة - فلا مانع من التبادل بينهما وقد فضلت تميم القاف لاختيارها للأصوات المستعلية القوية وفضلت الحجاز الكاف لاستفالها ورقتها.

---

(١) انظر كتابنا : العربية خصائصها وسماتها ط٤ ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٢)لبمزهر ٥٣٧/١ .

(٣) سورة التكوير الآية ١١ ، وانظر التهذيب ٦/١٠ ، والمعنى : نزعت فطويت .

(٤)سر الصناعة ٢٧٨/١ ، واللسان ٢٥٥/٩ .

(٥) سر الصناعة ٢٧٨/٨، ٢٧٩

أما تقدير ابن جنى بأن الكاف أصل فى امتك اعتمادا على كثرة تصرفها واشتقاق مكة منها بالمعنى الذى نقله عن أستاذه وبذلك تكون مادتها أكثر تصرفا من مادة (مق) فغير مسلم له من نواح:

١ ـ أن ما نقله عن أستاذه ليس» إلا وجها واحدا من وجوه كثيرة قيلت فى التعليل لتسمية مدينة البيت الحرام بهذا الاسم (مكة) فقد قيل: سميت بذلك لقلة مائها وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أى يستخرجونه وقيل: سميت مكة لأنها كانت تمك من ظلم فيها وألحد أى ـ تهلكه (١) ولا صلة للتسمية الثانية المعلل بها بمعنى امتك الفصيل ضرع أمه فلا تفضل بذلك (مق) لأن (مق) لها معان أخرى غير المعنى المشترك بينهما وهو الامتصاص.

٢ ـ وكما أن (مك) تستخدم فى غير معنى الامتصاص كالإهلاك والازدحام كذلك استعملت (مق) فى معان أخرى مثل: مققت الشىء أمقه فتحته ، ومقق الرجل على عياله: إذا ضيق عليهم فقراً أو بخلا (٢) وبهذا لا نجد فرقا فى الاستعمال بين المادتين فلا مانع إذاً أن تكون الكاف مبدلة من القاف أو العكس.

على أننا لو قدرنا القاف هى الأصل لكان أقرب إلى تسهيل النطق إذ من العادة أن الإبدال يكون للتخفيف والسهولة والكاف أسهل نطقا من القاف بل إن القاف عندما تنحدر إلى مقدم الفم فى مخرجها تنقلب كافا .

وأيًّا كان الأمر فإن التبادل بينهما ظاهرة لهجية.

---

(١) اللسان ١٢/ ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٢٢٣ . واذا كانت هذه المعانى لا تتصل بالمعنى الأول (الامتصاص) فإن معنى الإهلاك وتفسير مكة عليه(وربما كان هو المعقول) لا صلة له أيضا بالمعنى الأول واذا كانت له صلة مجازية فإن صلة المعنى الذى رويناه من تضييق الرجل على عياله مجاازية مثل تلك الصلة فى (مك) فلا فرق إذاً بين المادتين. انظر سر الصناعة ٢٧٩/١،ولسان العرب فى الموضعين السابقين .

اللام والنون :

من ذلك: الدمان والدمال ـ بالفتح وتخفيف الميم ـ فساد التمر قبل إدراكه حتى يسود.

وفي الحديث: كانوا يتايعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها فإذا جاء التقاضى قالوا: أصاب التمر الدمان) ، وإذا طلعت النخلة عن عفن وسواد قيل: أصابها الدمان ، النون واللام بمعنى (١).

ومن ذلك: الضميلة أو الضمينة: الزمنة ليبس وجسوّ فى ساقيها ويروى بالصاد مكان الضاد.

وفى حديث معاوية (أنه خطب إليه رجل بنتا له عرجاء فقال: إنها ضميلة فقال: إنى أريد أن أتشرف بمصاهرتك ولا أريدها للسباق فى الحلبة).

ويقول الزمخشرى: إن صحت الرواية بالضاد فاللام بدل النون من الضمانة وإلا فهى بالصاد المهملة (٢).

ومن ذلك: العلاك والعلك: شجر ينبت بناحية الحجاز ويروى بالنون وسئل جرير عن منزله ببيشة فقال: سهلٌ دكداك وحمض وعلاك (٣).

ويقال: كلاز وكناز لمجتمع الخلق الشديد واكلأزّ: إذا انقبض وتجمع ، قال حميد بن ثور :

نَحْمل الهمَّ كِلازاً جلعدا (٤).

ويقال: هتلت السماء وهتنت ، وسحائب هتّل وهتّن وعُلوان الكتاب وعنوانه ولهزته ونهزتُه: دفعته وضربته وأسود حالك وحانك (٥).

وذكر ابن جنى بعض الأمثلة التى تبدل فيها اللام من النون كقول النابغة الذبيانى :

وقفت فيها أصيلالا أسائلها أعيت جوابا وما فى الربع من أحد (٦)

---

(١) النهاية ٢/ ١٣٥ (دمن) . (٢) المصدر السابق ٣/ ١٠١ (ضمل) .

(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٩٠ (علك) (٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٦ .

(٥) المزهر ١/ ١٦٥ . (٦) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ٦١ .

والنون من مخرج اللام وهو طرف اللسان مع اللثة العليا وبينهما الراء فى ترتيب الحروف إلا أنها من مخرجهما (١).

واللام والنون يتفقان فى جميع الصفات وهذا يسوغ التبادل بينهما ، ولكن الصرفيين جعلوا إبدالهما فى المثال السابق شاذا أو نادرا ولا وجه للشذوذ فيه إذ إنه متفق مع قوانين الإبدال الصوتية وربما كان للمخالفة التى تدعو إلى تغيير أحد المثلين أثر فى ذلك التبادل وبخاصة أن الحاجز بينهما غير حصين وهو الألف.

ومن الأمثلة التى أوردها ابن جنى مما يصح فيه التبادل: رعن ورعل (أنف الجبل) خامن وخامل - لعن ولعل - بن وبل - هتنت السماء وهتلت.

والعلاقة بين النون واللام قوية تسوغ التبادل فهما متحدان مخرجا وصفة، ولكن ابن جنى جعل لكل من رعل ورعن - وهو(أنف الجبل) - اشتقاقا ، فرعن بالنون مشتق من الرعن وهو الاضطراب قال الشاعر:

ورحلوها رحلة فيها رعن

أما رعل باللام فمن الرعاة والرعيل وهو قطعة من الخيل ، والخيل توصف بالحركة والسرعة (٢) وبذلك يلتقى المعنيان على سبيل المجاز فهما أصلان ، ورأى ابن جنى فى هذا سديد على أنه لا مانع من التبادل ، وقد حكم بأن هتلت السماء وهتنت وسكر طبرزل وطبرزن أصلان لأنهما متساويان فى التصرف والاستعمال (٣) ، ولا مانع من التبادل - كما ترى - لأن مقياس التصرف غير دقيق ، وفى خامل الذكر وخامن قال: النون فيه بدل من اللام إلا ترى أنه أكثر وأن الفعل عليه تصرف وكذلك قولهم : خمل خمولا (٤) ولكن الباحث يرى أنه يمكن اشتقاق خامن من مادة (خمن) ولذا يقال: خمّان للرمح

---

(١) ينظر سر الصناعة ١/ ٥٠ ، ٥٢ وأصلال تصغير أصيل على غير قياس وقيل جمع أصيل على أصلان مثل بعير وبعران ثم صغّروا الجمع فقالوا: أصيلان ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا: أصيلال والأول أولى . التصريح ٢/ ٣٦٧ والأشمونى ٣/ ٢٨.

(٢) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨٤ .

(٣) الخصائص ٢/ ٨٢ . (٤) المصدر السابق ٢/ ٨٤ .

الضعيف ومن الناس رديئهم والخمن محركة النتن (١) ولهذا صلة بمعنى خامن الذكر فيمكن اشتقاقه منه فلا إبدال بينهما إذاً ، ولكن العلاقة الصوتية تسوغ التبادل (٢) كما حكم ابن جنى بإبدال النون من لام لعل،وفى بل عمرو وبن عمـرو قال ابن جنى:النون بدل من اللام ألا ترى إلى كثرة استعمال بل وقلة استعمال بن والحكم على الأكثر لا على الأقل ، هذا هو الظاهر من أمره ، ولست مع هذا أدفع أن يكون (بن) لغة قائمة برأسها (٣).

وهنا نرى ابن جنى يتشكك فى مقياس كثرة التصرف والاستعمال ويعتبره أمرا ثانويا وفى كل هذه الأمثلة نقول:إن إحداهما أبدلت من الأخرى فى لغة فريق ويبدو أن اللام من خصائص الحضر والنون من خصائص البدو لميلهم إلى غموض الأصوات على حين يميل الحضريون إلى الأناة وفصل الأصوات والإبانة عنها واضحة جلية.

وقد نسبت النون فى بعض الكلمات لبنى سعد وكلب وباهلة ، قال الفراء:والعرب تقول:لابن بمعنى لابل(٤) ، وبنو سعد هم بنو سعد بن قيس عيلان بن مضر ، والباهليون هم بعض بنى سعد لأنهم أبناء مالك بن أعصر ابن سعد بن قيس عيلان (٥).

وبعض الأعلام الأعجمية جاءت باللام والنون مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وجاءت بالنون كذلك وهى الأصل فى هذه الأعلام ، وقد نسبت اللام لكثير من اللهجات كأهل الحجاز وتميم وقيس وكثير من أهل نجد والنون نسبت إلى ينى أسد (٦).

---

(١) القاموس ٣/ ٤٧٧ ، ٤/ ٢٥٥ . (٢) لسان العرب ١٣ / ٢٣٤ .

(٣) الخصائص ٢/ ٨٤ .

(٤) التهذيب ١٥/ ٣٩٤ قال الفراء وهى لغة بنى سعد ولغة كلب قال : وسمعت الباهليين يقولون : لابن بمعنى لابل . لسان العرب ١٣/ ٧٣ . ويذكر جواد على أن (بن) كانت تستخدم عند أهل اليمن حرف جر بمعنى (من) و (عن) بلغة الشمال وأنها وردت كذلك فى كتابات المسند ، المفصل ١/ ١٠٢ ، ٧/ ١٣٠ .

(٥) جمهرة أنساب العرب ٢٤٤ ، ٤٨١ . (٦) البحر ١/ ٢١٨ .

ويقال: العلوان لغة فى العنوان (١) ويقول ابن السكيت: حكى عن بعض كلب عنيان الكتاب (٢).

الميم والنون :

يقال : طانه الله على طيته أى خلقه الله على جبلته وطينة الرجل خلقه وأصله مصدر من طان، ويروى طين عليه وطيم بمعنى أى جبل عليه (٣).

ويقال: قمح البعير يقمح إذا رفع رأسه من الماء بعد الرى ويروى بالنون.

وفى حديث أم زرع: (أشرب فأنقمح) أى حتى تروى وترفع رأسها (٤).

ومثّ ونثّ ، ففى حديث عمر (أن رجلا أتاه يسأله قال: هلكت قال: أهلكت وأنت تمثُّ مثَّ الحميت ؟) أى ترشح من السمن ثم يقول: ويروى بالنون (٥).

ويتعذر نسبة هذه الكلمات إلى أصحابها.

ويقال للريح الشمالية مسع ونسع والغيم والغين للسحاب وامتقع لونه وانتقع والحزن والحزم : ما غلظ من الأرض ، وأسود قاتم وقاتن (٦).

ومما أورده ابن جنى للتبادل بين الميم والنون : دهنج البعير ودهمج : إذا قارب الخطو وأسرع ، وبعير دهانج ودهامج وقاتم اللون وقاتن ، ففى المثال الأول حكم بأن كلا من الكلمتين أصل بناء على التساوى فى التصرف والاستعمال (٧).

وقال : ذهب أبو عمرو الشيبانى فى قول الطرماح :

---

(١) فى التهذيب لغة غير جيدة ١/١١٣.
(٢) القلب والإبدال ٨.
(٣) النهاية ٣/١٥٣.
(٤) المصدر السابق ٤/١٦ (قمح).
(٥) المصدر السابق ٤/٢٩٤ (مقت).
(٦) وسرصناعة الإعراب ١/٢١٩ ، ٢٢٠ ، المزهر ١/٤٦٨ .
(٧) الخصائص ٢/٨٣.

كطوف متلى حجة بين عبقب   وقرة مسود من النسك قاتن

الى أنه أراد قاتم أى أسود فأبدل الميم نونا قال:وقد يمكن غير ما قال وذلك أنه يجوز أن يكون أراد بقوله : قاتن فاعلا من قول الشماخ :

وقد غرقت مغانيها وجادت   بدرتها قرى حجن قتين

والقتين : الحقير الضئيل ، فإذا كان كذلك لم يكن بدلا (١) ٠

والناظر فى العلاقة بين الميم والنون يرى أن المخارج متباعدة ، فالميم حرف شفوى والنون من طرف اللسان مع اللثة العليا وبينهما حروف :ط ـ د ـ ت ـ ص ـ ز ـ س ـ ظ ـ ذ ـ ث ـ ف ـ ق وليس هنامايدعو إلى انتقال المخرج فلا يسوغ التبادل اللهم إلا إذا اعتبرنا اتحاد الصفات أمرا يدعو إليه ويسوغه بالإضافة إلى وجوه التقارب والشبه الأخرى التى ذكرناها سابقا.

والواقع أن تخريج كل مثال مما سبق على أنه لهجة يستعملها فريق من العرب أمر معقول ، وذلك واضح فى المثال الأول وفى المثال الثانى كذلك إلا أنه يجوز فيه أن تكون كل كلمة مشتقة من مادة تختلف عن الأخرى فقاتم من قتم بمعنى أسود على ما نعرف وقاتن من القتن وهو الحقير الضئيل ويكون معنى بيت الطرماح أن المشبه به رجل يطوف بين هذين الصنمين (عبقب وقرة) وأن هذا الرجل مسود من النسك حقير للضرر والجهد الذى يبذله (٢) ٠

وهذا ما عناه ابن جنى وهو سديد وعلى هذا فلا إبدال بينهما لاختلاف الاشتقاق ٠

وأورد ابن جنى أمثلة للتبادل بين النون والميم منها :قنبر ـ عنبر ـ قنبلة (قمبر ـ عمبر ـ قمبلة) ، وقول الشاعر :

ياهال ذات المنطق التمتام   وكفك المخضب البنام

---

(١) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨٤٠

(٢) اللسان ٢٠٨/١٧ ، والقتين فى البيت اسم للقراد ويسمى بذلك لقلة دمه أو لقلة طعمه لأنه يقيم المدة الطويلة من الزمان لا يطعم شيئا وقد جعل الشاعر عرق هذه الناقة قوتا للقراد ٠

فتبدل الميم من النون إذا وقعت بعدها : باء وهى ساكنة مثل : قنبر - عنبر - قنبلة وإنما قلبت لما وقعت ساكنة قبل الباء من قبل أن الباء أخت الميم وقد أدغمت النون مع الميم نحو : من معك ومن محمد ، فلما كانت تدغم النون مع الميم التى هى أخت الباء أرادوا إعلالها أيضا مع الباء إذ قد أدغموها فى أختها الميم (١) .

فوجود الباء فى هذا النوع من الأمثلة استلزم انتقال النون من مخرجها إلى مخرج الباء ، وترتب على هذا الانتقال أن استبدل بالنون صوتا نظيراً لها فى المخرج الجديد ، وأقرب أصوات هذا المخرج الجديد إلى النون هو الميم لأن كلا منهما من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين فضلا عن أن النون والميم صوتان أنفيان (٢) .

وفى هذا يقول ابن جنى : ولما كانت الميم التى هى أقرب إلى الباء من النون لم تدغم فى الباء مثل أقم بكرا لا تقول : أقبكرا ولا فى قم بالله: قبالله كانت النون التى هى من الباء أبعد منها من الميم أجدر بألا يجوز فيهاالادغام فى الباء ، فلما لم يصلوا إلى ادغام النون فى الباء أعلوها دون إعلال الادغام فقربوها إلى الباء وهو الميم(٣) . وكلمة (البنام) أبدلت فيها الميم من النون لروى الأبيات ولما فيها من الغنة والهوى ،وقد عد هذا الإبدال شاذا (٤) لأن المخارج متباعدة وليس هناك داع لانتقال مخرج الصوت فالميم حرف شفوى والنون من طرف اللسان مع اللثة العليا بيد أنهما متحدان فى جميع الصفات وقد يكون ذلك - مع وجوه الشبه السابقة - مسوغا لهذا التبادل وقد تكون تلك لهجة بدوية .

قال أبو عمرو : الدمدم :أصول الصليان المحيل فى لغة بنى أسد وفى

---

(١)سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨١ .

(٢) الأصوات اللغوية ١٣٣ .

(٣) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨١ .

(٤) لعدم وجود الباء بعد النون وهى متحركة لا ساكنة ، الأشمونى ٣١٩/٤ .

لغة بنى تميم: الدندن (١) .

تعقيب :

عرضنا ـ بالبحث والتحليل ـ ظاهرة الإبدال اللغوى فى الحروف الصامتة، وشرحنا آراء اللغويين القدامى والمحدثين فى أسباب هذه الظاهرة وسبل علاجها ، ورأينا اشتجار الآراء فى إدخال اللفظ فى نطاقها ، أو إخراجه منها وفق ما ارتأى أصحاب هذه الآراء من أدلة ، ووجهات نظر مختلفة .

ومن خلال دراستى لها على أسس ومعايير دقيقة استطعت ـ بتوفيق الله وعونه ـ أن أبين وجه الحقيقة فى انتما اللفظ إلى الإبدال أو خروجه من دائرته، بالتحليل الواعى المستند إلى الأدلة ، والبراهين العلمية واللغوية الصحيحة ، واتضح ـ من خلال البحث ـ أن معظم كلمات هذا النوع ليست من الإبدال ، وأنها تنتمى إلى بيئات لغوية متعددة ، وأن بعضها نشأ نتيجة الحاجة إلى التنوع فى الأصوات لتجدّد المعانى ، أو لتطورها التاريخى تطورا صوتيا ودلاليا .

وبذلك يمكن الحكم الصحح على هذا العدد الكبير من الكلمات ، التى تتنوع صورها اللفظية باختلاف بعض الحروف فيها وكيفية ردّها إلى أصلها ، وبذلك لا تمثل عبئا على المعجم العربى ويتبين أن العربية ليس فيها فضول ، بل هى لغة اللفظ والمعنى على سواء ، ويتجلى بذلك أن لغة العرب فيها من الدقة مالا يتوافر لغيرها من اللغات .

والله ولى التوفيـــق ..

**

---

(١) التهذيب ٨٢/١٤ . والقلب والإبدال لابن السكيت ٢٢ ، والصليان : نبت والمحيل الذى أتى عليه حول .

الجيم للشيباني

(دراسة إحصائية وتحليلية)

بقلم الدكتور

عبد المنعم عبد الله محمد

الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة

إضاءة :

الحمد لله بارئ النسم ، والصلاة والسلام على مَنْ حَثَّ على العلم ، وأجَلَّ القلم، وعلى آله وصحبه واتباعه إلى يوم الدين . . . . وبعد

فإن المعجم العربى قد نبت فى ظلال النص القرآنى ، واشتد عوده فى رحاب اللفظ الحديثى، ومن ثمّ انبثق إسلامى النشأة ، يهدف إلى كشف الخفاء عن مكنونات الألفاظ القرآنية والحديثية ، حفاظا علي سَمْت العربية ، ولغة القرآن تصديقا لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحنُ نزّلنا الذكْرَ وإنا له لحافظُون**﴾[(١)] .

وقد تنوعت مسالك المعجم العربى ، وتعددت طرائقه ترتيبا ومعالجة ، ولعل من بواكير النظم المعجمية المنهج التقليبى الصوتى الكمّى عند الخليل بن أحمد ، والنظام الألفبائى عند أبى عمرو الشيبانى، بيْدَ أن الخليل ومعجم العين لَقيَا من الذيوع والانتشار حظا لم يكتب للشيبانى ومعجمه الجيم ، بل إن هناك مِنَ المحدثين مَنْ شكك فى وثاقة الشيبانى ، وكذلك فى نسبة ترتيب كتاب الجيم إليه ، وأيضاً مجموع المادة المستصفاة بين دفتيه ، كما اعتبره بعضهم

---

(١) الحجر : ٩ .

معجما بطريق التجوز، مما دفعنى إلى هذه الدراسة فى محاولة جادة لاستجلاء حقيقة تلك المغامز ، وبيان مدى الدقة فيها إحقاقا للحق ، ووضعا للأمور فى نصابها ، لا سيما أن الشيبانى من الرواد الأوائل الذين شاركوا فى بناء تراثنا اللغوى بصفة عامة ، والمعجمى منه بصفة خاصة ، كما أن كتاب الجيم له من المدِّ اللغوى ما ظهر أثره واضحا فى مصنفاتنا اللغوية ، على اختلاف أنماطها ، وتنوع مقاصدها .

ولست أول طارق لهذا الباب، غير أن تلك الدراسة اعتمدت فى المقام الأول على الجانب الإحصائى التحليلى فى تحقيق أهدافها بغية الموضوعية فى الأحكام ، والدقة فى توضيح الشخصية العلمية للشيبانى ، ومدى وثاقته من ناحية ، وإبراز الخصائص الدقيقة للمحتوى اللغوى للجيم من ناحية أخرى فى ضوء مناقشة القضايا التالية .

١ - الشيبانى فكرًا وأثرًا .

٢ - الجيم ماهيةً وهدفا .

٣ - المحتوى اللغوى لكتاب الجيم (إحصاء وتحليل) .

أولا ـ المواد اللغوية .

ثانيا ـ الشواهد القرآنية .

ثالثا ـ الشواهد الشعرية .

رابعا ـ الأرجاز .

خامسا ـ الأمثال .

٤ - تعقيب (حول قيمة الكتاب وملامحه اللغوية فى ضوء النتائج الإحصائية)

﴿ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير﴾

١ - الشيبانى فكراً وأثراً :

تضافرت للشيبانى[١] فى مجال الفكر اللغوى عوامل عدة هيأت له نبوغا علميا ، وتنوعا ثقافيا ، جعله من العلماء المعدودين ، منها روح العصر الذى عاش فيه ، وما اتسمت به من ازدهار علمى وأدبى واكب نضجه الفكرى ، فقد كان النحو والحديث وكذلك الرواية من شغل هذا العصر . كما كان لأساتذته ومعاصريه الأثر الذى لا يُنكر فى تكوين شخصيته العلمية ، إذ أكسبه أبو عمرو بن العلاء مهارة فى ميدان الرواية ، وساحة النحو .

أما الضّبى فقد لفت منه الأنظار إلى ما ينبغى من العناية بالشعر القديم ، ولا يخفى أثر ابن الربيع فى علم الحديث ، وكذلك مَنْ عاصرهم من الذين اشتغلوا به ، مثل سفيان الثورى فى البصرة ، وزياد البكائى فى الكوفة ، والواقدى فى بغداد [٢].

ومن ثم كان الشيبانى قمينا بما وصفه به علماء التراجم من أنه راوية نحوى محدث ، ولا عجب فى ذلك ، فهو راوية ، حيث توجه إلى البادية جامعًا لأشعار القبائل ، إذ جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفا بخطه .

وهو نحوى ، إذ أثبتت كتب التراجم أن ابن السكيت أخذ النحو عنه ، وهو محدِّث ، أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، كما أن له كتابا فى غريب الحديث .

والشيبانى لغوى معجمى فى المقام الأول ، فهو يمثل رأس مدرسة معجمية ، وضع لبناتها الأولى ، ثم تعهدها المعجميون على امتداد العصور صقلا وتنسيقا ، فهو أول من أخرج معجما لغويا يخضع فى ترتيبه للنظام

---

(١) ينظر : مراتب النحويين ١٤٥ : ١٤٦ ، معجم الأدباء ٦/ ٧٧ ، وفيات الأعيان ١/ ٢٠١ـــ ٢٠٢ ، إنباه الرواة ١/ ٢٢١ بغية الوعاة ١/ ٤٣٩ والشيبانى هو : أبو عمرو إسحق بن مرار الشيبانى ، ولد بالكوفة قبل الخليل غالبا (٩٤ هـ) ، وتوفى ما بين (٢٠٥ ـ٢٢٢ هـ) وأرجح الآراء أن وفاته لم تتجاوز ٢١٢هـ ، ينظر : مجلة المجمع ٣٢/ ٣٦ .

(٢) مناهج البحث في اللغة والمعجم د/ عبد الغفار هلال ٢٨٢ .

الألفبائى فى فن المعجمة ، وقد كان ترتيب الخليل بن أحمد وقتئذ سمع الدنيا وبصرها » وإن كان الشيبانى قد رتب مداخل كتابه وفق الحرف الأول الأصلى دون اعتداد بما يليه ، فيكفيه توظيف الترتيب الألفبائى فى تيسير التصنيف المعجمى مَعْلَمًا لريادة هذه المدرسة .

فى ضوء تلك الثقافة المتنوعة عُرف الشيبانى عند الخاصة من أهل العلم باللغة والنحو والحديث والرواية ، وقد ظهر ذلك جليا فى تنوع مصنفاته العلمية التى منها : كتاب الجيم ، النحلة ، خلق الإنسان ، الفصيح ، أشعار القبائل، غريب الحديث ، النوادر ، إلى غير ذلك من جملة ما قدمه بين دفتى الفكر اللغوى ، وقد حظى كتاب الجيم بعناية المجمع اللغوى القاهرى فقام بتحقيقه وطبعه لما له من أهمية فى تراثنا المعجمى .

ومن الوضوح بمكان أن ثقافة الشيبانى لم تكن مقصورة على الجانب المعجمى ، بل امتدت إلى دراسة المستويات اللغوية من فصيح ولهجى ، ومعالجة الجانب الأدبى ممثلا فى أشعار القبائل ، والنوادر والغريب ، وقد امتد هذا الثراء الفكرى إلى تلامذة الشيبانى الذين ارتشفوا من رفده ، وكان لهم فى الثقافة الإسلامية واللغوية باع طريل ، منهم أحمد بن حنبل ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وابن حاتم الباهلى ، وأبو الحسن الطوسى ، وأبو الحسن اللحيانى، وابن السكيت وغيرهم من رواد الحركة الفكرية والعلمية ، رلعل هذه الكوكبة من تلامذته أمارة عمق فى ثقافته ، ودليل صدق على علو مكانته .

وعلى هدى ذلك قال فيه أبو العباس : « كان مع أبى عمرو الشيبانى من العلم والسماع عشرة أضعاف ما كان مع أبى عبيدة ، ولم يكن من أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم » (١).

ومن ثمّ فلا وجه لما وسمه به بعض الباحثين المحدثين من الكذب والنحل معتمدا فى ذلك على الظّنّ دون دليل ، إذ يقول : «وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها » (٢).

والحق أن تلك الأحكام القائمة على الظن والتخمين لا ينبغى أن يُعول

(١) طبقات النحويين واللغويين : ١٩٤ .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ٣٧ .

عليها ، إذ إن هناك من الإشارات ما يؤكد عدالة الشيبانى ، ويثبت وثاقته ومصداقيته ، وليس أدل على ذلك من تأثر معاصريه ولاحقية بفكره بين ثنايا المعاجم العربية ، والمصنفات اللغوية ، فقد اعتمد تراثنا المعجمى على مروياته فى غير موطن ، ومن ذلك ما ورد فى مادة (خ . د . ب)[1] من الحكاية عنه، والرواية له ، أن : الخيدب هو الطريق الواضح ، واستدلالهم بما أورده من شاهد شعرى :

يعد والجواد بها فى خل خيدبة ... كما يُشَق إلى هُدّابه السَّرَق

ومن هذا القبيل استدراكات العلماء على المعاجم العربية فى ضوء ما أورده الشيبانى ، أو تفرد به ، فالزبيدى ـ مثلا ـ فى مستدركه على العين ، يروى عنه : الزُّعلول : الخفيف من الرجال ، وإنما هو الزُّغلول ـ بالغين المعجمة ـ عن أبى عمرو الشيبانى ، ومن ذلك : الاختزال : الاحتزام بالثوب، وهو باللام غلط ، إنما هو الاحتزاك عن أبى عمرو الشيبانى [2].

ومن ذلك ما ذكره صاحب إضاءة الراموس مَرْويا عن أئمة اللغة عن الشيبانى ، أنه قال : الحرد : الثوب ، وأنشد لتأبط شرا ، قوله :

أتركت سعدا للرماح دريئة ... هبلتك أمك أى حرد ترقع[3]

أما المصنفات اللغوية فقد شاع فيها كثير من مرويات الشيبانى ، ومنها فى ميدان التنقية اللغوية ما رواه أبو أحمد العسكرى عما دار بين الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى ، حينما أنشد الأول بيت الحطيئة :

وغررتنى وزعمــت أنـك ... لاتنى بالضــيف تــامِرْ[4]

فقال له الشيبانى : ما معنى قولك : لاتنى بالضيف تامِرْ ؟ فأجاب الأصمعى: من الونى ، أى لا تقصر ، تأمر بإنزال الضيف وإكرامه ، مثل قوله جل ذكره : ﴿ولاتَنِيا فى ذِكْرى﴾[5] فردّ عليه أبو عمرو : تفسيرك للتصحيف

---

(١) ينظر : المجمل ، الصحاح ، اللسان ، التاج / مادة (خ.د.ب) .

(٢) المزهر : ٢/ ٣٨٢ .

(٣) إضاءة الراموس : الفاسى ٤/ ٧٩ ـ ٨٠ تحقيق : د/ الدابولى (نسخة استنسل مهداة)

(٤) الخصائص : ٣/ ٢٨٢ .

(٥) طه : ٤٢ .

أغلظ من تصحيفك ، إنما هو :

وغررتنى وزعمـــت أنـك لابن بالصـــيف تامر

ومن ذلك فى مصنفات الأضداد ما رواه ابن السكيت [١]: قال : أبو عمرو : يُقال : خجِل الرجل : إذا مَرِح ، وخجل ، إذا كسل ، وأنشد :

إذا دعا الصارخ غير متصل مرا أمرت كل منشور خجل

وليس بخاف مدى اعتماد علماء الغريب والشوارد على مصداقيته[٢] والرواية عنه ، حتى قال السيوطى [٣]:

"حيث أطلق أبو عبيد فى الغريب المصنف أبا عمرو فهو الشيبانى" ، وليس أدلّ على مصداقيته أيضا من تعلق مصنفات غريب القرآن بشرحه وتفسيره ، فقد نقل عنه السجستانى فى تفسير قول الله تعالى : ﴿**إلى ظلٍّ ذى ثَلاث شُعَب**﴾[٤] ما نصه : قال أبوعمرو الزاهد : حدثنى الشيبانى ، قالَ : إن قيل : لم قيل ثلاث شعب ؟ قيل : « لأن الفأر إذا خرج من محبسه أخذ يمنة أو يسرة أو فوق ، ولا رابع له » [٥].

ومما تجدر الإشارة إليه أن المدّ اللغوى للشيبانى لم يكن محصورا فى ميدان التنقية اللغوية ، والغريب ، ومصنفات الأمالى والمجالس ، بل امتد إلى ساحة فقه اللغة ، ومن ذلك ـ مثلا ـ ما ورد فى المزهر ـ على تنوع أبوابه وقضاياه ـ وقد أحصيتُ المواطن التى اعتمد فيها السيوطى على الشيبانى نقلا وحكاية فألفيتُها قد جاوزت أربعين موطنا[٦] ، منها ما ورد فى قضية مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث» إذ يرصد السيوطى من الأمثلة ما ورد فى الغريب المصنف عن أبى عمرو[٧] :النضح ـ بالضاد المعجمة ـ الشرب دون

---

(١) الأضداد : ١٧١ .

(٢) كتاب الشوارد للصغانى، تحقيق: مصطفى حجازى/ القسم الربع من ص٥٣ :ص٢١٤

(٣) المزهر : ٢/٤٥٥ .

(٤) المرسلات : ٣٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن : ١٣٩ .

(٦) ١/ ٥١، ٩٢، ٩٦، ١١٧، ١٣٤، ٣٥٣، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٦٤، ٥٤٩، ٥٦٢... إلخ

(٧) المزهر : ١/٥١.

الرى ، والنصح - بالصاد المهملة - الشرب حتى يروى ، كما يذكر كثيرا من الأمثلة على لسان أبى عمرو الشيبانى فى جل أبوابه .

وهكذا يتجلى للعيان فكر الشيبانى ووثاقته وأثره فى تراثنا اللغوى ، على تنوع ضروبه من النوادر والغريب والأمالى والمجالس ، والأضداد والمعاجم ، والحواشى والمستدركات ، ومصنفات التنقية وفقه اللغة ، مما يؤكد مصداقيته وعدالته ، وينفى عنه ما نيل به من قدامى ومحدثين ، ولعل من الثوابت ما قرره السيوطى فى معرفة الطبقات والحفاظ والثقات من أنه : أعلمهم باللغة ، وأحفظهم وأكثرهم أخذا عن ثقات الأعراب[1] .

وسيبدو ذلك بين ثنايا كتاب الجيم ، فماذا عن الجيم ؟

٢ - الجيم ماهيةً وهدفا :

يُعد كتاب الجيم من البواكير الأولى فى تراثنا المعجمى ، يقع منه موقع القمة فى النظام الألفبائى منهجا ، كما يتمتع بجوانب متنوعة للفكر فى إشاراته المتعددة لشرح مواده ، وتشقيقاته اللغوية ، وإلماحه الموجز إلى بعض القضايا اللغوية والنحوية واللهجية .

وقد ظن بعض الباحثين أن الشيبانى أطلق على معجمه (الجيم)[2] لأنه بدأ بهذا الباب قياسا على نهج الخليل ، ولكن تداول الكتاب وانتشاره بدّد هذا الظن ، حيث بدأ الشيبانى بباب الألف[3] . على حين ارتأى (هيوود) أن هذه التسمية من واقع الترتيب : (ألف باء جيم) ، ثم اختصر العنوان إلى (جيم) ، بيْد أن هذا التعليل يتسم بالغرابة ، فالاختصار المشار إليه غير مألوف عند

---

(١) السابق : ٤١١/٢ .

(٢) الجيم : حرف هجاء، وهو من الحروف التى تؤنث ، ويجوز تذكيرها ، وبه سمى الحرف الخامس من حروف المبانى، وقد لقبها علماء الأصوات بالشجرية، وهى من الأصوات الشديدة ، ومن الحروف التى وقع فيها الإبدال فى الفصحى واللهجات ، ومن معانيها : الجمل القوى ، والديباج ، ينظر : الحروف : الرازى ١٤١/١٤٢ ، العين ٥٨/١ ، لسان العرب (باب ألقاب الحروف) ، أصوات اللغة العربية : د/ هلال ١٨٥ : ١٨٧ ، علم الصوتيات : ٢٣٨ : ٢٣٩ .

(٣) المزهر : ٩١/١ .

العرب [1].

ومن الاحتمالات التى ذهب إليها بعض المحدثين[2] أن يكون المؤلف قد بدأ معجمه بالجيم فعلا ، وجاء بعده مَن أعاد ترتيب الكتاب وفق الترتيب الألفبائى المعروف ، ولا يخفى أن هذا الاحتمال ليس له سند تاريخى يؤيده ، أو واقعى يؤكده .

وقد يقول قائل : إن الشيبانى فضل الجيم على غيرها قياسا على ما صنعه الخليل فى تفضيله العين على ماعداها ، بيد أن القياس هنا مع الفارق ، إذ إن ترتيب الخليل ترتيب صوتى تقليبى كمِّى يتواءم مع غرضه وهدفه ، أما ترتيب الشيبانى فهو ترتيب ألفبائى .

أما ما ذهب إليه محقق الكتاب[3] من افضلية حرف الجيم على غيره ففيه نظر ، لأنه أقام حجته على أمرين : أحدهما ـ أن اختيار غير الجيم مدعاة إلى اللبس ، ولإزالة هذا اللبس لابد من النص على الإعجام ، فنقول ـ مثلا ـ الباء بموحدة تحتية ، ومع التاء بمثناة فوقية ، والآخر ـ أن الجيم مع حروف خمسة هى وحدها التى تجمع بين الجهر والشدة .

ومَنْ يتأمل تلك التعليلات يقف على ضعفها لأمرين : أحدهما هناك من الحروف غير الجيم ما جمع بين الجهر والشدة ، ويُؤمن معه اللبس ـ أيضا ـ كالدال ، والآخر ـ أن الصفات الصوتية لم يكن لها أثر فى ترتيب الكتاب[4] ومن هنا يظل السؤال قائما : لماذا آثر الشيبانى الجيم؟

ويبدو لى أن ما قرره الشيبانى نفسه فى معنى الجيم هو الأولى بالقبول ، فالجيم فى لغة العرب : الديباج ، وقد عقّب الفيروزبادى على هذا المدلول قائلا : «وله كتاب فى اللغة سماه به ، كأنه شبهه بالديباج لحسنه»[5] ، ولعل ذلك مسوغ لإيثاره حرف الجيم على غيره معبرا عن الكل بالجزء مقتديا في ذلك

---

(1) مجلة المجمع : ٣٣/٧٢ .

(2) البحث اللغوى :د/عمر ١٨٨ .

(3) الجيم : المقدمة : ١/٣٨ـ٤١ .

(4) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٢٨٦ .

(5) بصائر ذوى التمييز : ٢/٣٥١ .

بما عرف من تسميات بعض المعاجم[1] محققا كل هذا ، ومشيرا إلى أهمية الكتاب ومنزلته من ناحية أخرى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك خلافا آخر حول تعدد المسميات لهذا المعجم ، أهى من قبيل المترادفات ؟ أم أنها مصنفات متنوعة للشيبانى ؟ فقد نسب علماء التراجم له : كتاب الجيم ، كتاب الحروف ، كتاب اللغات ، فرأى بعض الباحثين أن هذه الأسماء مسميات لكتب أخرى مغايرة للجيم ، وقد أكد هذا المضمون محقق الجيم[2] مستدلا بما أورده الصغانى فى آخر كتاب التكملة فى أثناء سرد مراجعه ، إذ عدّ منها (كتاب الحروف لأبى عمرو الشيبانى ، وكتاب الجيم له).

وعلى النقيض من ذلك ذهب ابن خلكان ، فارتأى أن هذه المسميات لكتاب واحد ، إذ سرد مصنفات الشيبانى قائلا : « وله من التصانيف كتاب الخيل ، وكتاب اللغات ، وهو المعروف بالجيم ، ويُعْرف أيضاً بكتاب الحروف »[3]، والأوْلى بالقبول - فيما أرى - ما نصَّ عليه كثير منْ علماء التراجم من أنها مصنفات متنوعة ، أما ما ذهب إليه بعض المحدثين من أنه تتبع كلاما فى التكملة (١/ ١٤) نسبه الصغانى إلى كتاب الحروف للشيبانى فوجده بنصه فى كتاب الجيم (١٣٦/١) ومِيله إلى وجود سقط فى عبارة الصغانى ، رأى أن تصويبه «وكتاب الحروف لأبى عمرو الشيبانى ، و (هو) كتاب الجيم له »[4] ، ففيه نظر ، إذ إن تطابق النصّين فى مصدرين لا يعنى بالضرورة أنهما مصدر واحد ، فكثيرا ما يذكر المؤلف فى مصنفاته المتنوعة فكرة واحدة بنصها على سبيل الشرح أو التوضيح أو الاستطراد ، ولا تخلو المصنفات فى عصر الشيبانى من هذه السِّمة ، ومن ثم فلا داعى للتأول وتحميل النص ما لا يحتمل دون سند أو دليل .

ولعل منْ نافلة القول الإشارة إلى أن لكل معجم هدفا يتوخاه ، ويُقاسُ نجاح المعجم بمدى الاتساق بين محتواه وهدفه وطبيعة عصره والمستوى اللغوى

---

(١) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٢٨٦ .

(٢) الجيم / المقدمة ١/ ٢٩:٣٣ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٢٠١ : ٢٠٢ .

(٤) فصول فى فقه العربية ٢٧١ ، هامش ٩٠ .

لطلابه، ويمكننا من خلا منهج الجيم وطبيعة مادته ومحتواه أن نحصر هدفه فى أمرين : **أولهما** ـ تيسير التصنيف المعجمى ، وتذليله ، إذ تخلى الشيبانى عن النظام التقليبى الصوتى الكمى الذى ابتكره الخليل متوخيا التيسير ومستهدفا النظام الأبجدى العادى ، ومؤصلا لتوظيف هذا الترتيب فى النظم المعجمية ، **وثانيهما** ـ الحرص على تدوين الألفاظ الغريبة من لغات العرب ، مما جعل بعض الباحثين يرى أن الشّيبانى ما ألف كتاب الجيم إلا ليكون معجما للألفاظ التى وردت فى دواوينه[1] ، ولا عجب فى ذلك ، فقد كان الشيبانى من أبرز الرواة ، ولكن ذلك لا يعنى أن الجيم من المعاجم الخاصة[2] ، أو أن يسميه بعض الباحثين معجما على سبيل التجوز[3]، لاهتمامه بالألفاظ الغريبة، فالكتاب عمل معجمى ، وتصنيف لغوى ، وإن طغت على مواده نوعية الغريب ، فكثير من المعاجم اللغوية العامة مال إلى نمط معين من المواد ، كالجمهرة[4] ، والصحاح[5] ، ومن ثم فالجيم من المعاجم اللغوية العامة التى استنبتت منهجا جديدا ، وابتكرت ترتيبا ميسرا ، ولم تدر فى فلك الغريب وحده[6] ، وإن شاع بين ثناياه ، وليس أدل على ما أقول من المحتوى اللغوى للجيم ، جذوره اللغوية ، فروعه ، شواهده إلى غير ذلك فى ضوء المنهج الإحصائى التحليلى فيما يلى على بساط البحث .

٣ - المحتوى اللغوى لكتاب الجيم (إحصاء وتحليل)

أولا : المواد اللغوية :

لم يكن الشيبانى يستهدف فى وضع معجمه الحصر الكامل لمواد اللغة ، أو الاستقصاء الشامل لفروعها ومشتقاتها ، إذ غلب على مواده طابع الغرابة ،

---

(١) مجلة المجمع :٣/٧٦ .

(٢) الاكتمال اللغوى ١٩١ .

(٣) البحث اللغوى : د/ عمر ١٨٨ .

(٤) ينظر : المعاجم : د/ العزازى ٤٣ دراسات فى المعاجم العربية : د/ فاخر ٤١ ، مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٢٣٧ .

(٥) المعاجم العربية : د/ عبد السميع محمد أحمد ٨٢ ، المعاجم العربية :د/عبد الحميد أبو سكين ٩١ .

(٦) ينظر على سبيل المثال : باب العين ٢/ ٢٢٥ ــ ٣٤٨ .

أو البَدَاوة ، فقد استلَّها من أشعار القبائل التى جمعها ، وما راقه من ألفاظ غامضة توخى توضيحها وكشف إبهامها فى ضوء السياقات المتنوعة التى أوردها نثرا وشعرا .

ومن يتتبع ترتيب المواد فى معجم الجيم يلحظ اعتماد الشيبانى على الحرف الأول الأصلى غالبا دون اعتداد بما يليه ، وهذه الطريقة فتحت الباب أمام الباحثين وأصحاب المعاجم من بعده ليسيروا على هذا النظام مطبقين له فى ملاحظة أواخر الكلمات وأوائلها مما سمى بمدرسة القافية ، أو ملاحظة الحروف الأولى وما يليها مما عرف بمدرسة الهجائية العادية أو الألفبائية.

والمواد اللغوية فى معجم الجيم تراوحت قلة وكثرة حسب أبوابها ، وإليك بيانا إحصائيا بها موزعة على أبوابها ، وفق الجدول الآتى رقم (١)

ورموزه : ب = الباب ج ص = الجزء والصفحة

ع م = عدد المواد ج = الجملة

الجدول رقم (١)

ب	ج ص	ع م	ب	ج ص	ع م	ج
أ	١/٥٣-٧٧	١٢٣	ض	٢/١٩٣-٢٠٤	٦٥	١٨٨
ب	٧٧-٩٦	١٤٤	ط	٢٠٥-٢١٩	٧٣	٢١٧
ت	٩٧-١٠٣	٤٧-	ظ	٢٢٠-٢٢٤	١٨-	٦٥-
ث	١٠٤-١١١	٥٦-	ع	٢٢٥-٣٤٨	٣١٦	٣٧٢
ج	١١١-١٣٨	١٧٨	غ	٣/١-٢٣	١١١	٢٨٩
ح	١٤٠-٢١٨	٢٧٠	ف	٢٤-٦٧	١٧٢	٤٤٢
خ	٢١٩-٢٤١	١٤٢	ق	٦٨-١٣٦	٢٨٨	٤٣٠
د	٢٤٢-٢٧٧	٢٢١	ك	١٣٩-١٨٤	١٩٠	٤١١
.	٢٧٨-٢٨٤	٤٤-	ل	١٨٥-٢٢٧	١٨٠	٢٢٤
ر	٢٨٧-٢/٤٢	٢٣٨	م	٢٣١-٢٥٥	١٧٩	٤١٧
ز	٢/٤٤-٨٥	١٣٨	ن	٢٥٦-٢٨٩	٢١٥	٣٥٣
س	٨٦-١٢٤	١٨٢	و	٢٩٠-٣١٥	٨١-	٢٦٣
ش	١٢٥-١٦٣	١٥٢	هـ	٣١٦-٣٢٥	١٦٣	٣١٥
ص	١٦٦-١٩٢	١٠١	ي	٣٢٦-٣٢٩	٢١-	١٢٢
ج		٢٠٣٦			٢٠٧٢	٤١٠٨

التحليل الإحصائى

فى ضوء الجدول الإحصائى رقم (١) بلغت مواد الجيم (٤١٠٨) مادة، تنوعت مشتقاتها، وتعددت فروعها وألفاظها ، كما سيتبين فى الجدول رقم (٢) مما أفسح لمعجم الجيم موضع قدم بين المعاجم اللغوية .

تراوحت جملة المواد بين الأبواب زيادة ونقصا ، وهذا أمر طبعى يصور الواقع اللغوى للمعين الذى استقى منه الشيبانى مواده ، وما استهدفه من نوعية للمادة ، وقد مثَّلت أبواب العين والقاف والراء والنون أعلى نسبة فى جملة المواد المجموعة ، إذ بلغت مواد العين (٣١٦) ، ومواد القاف (٢٨٨) ، ومواد الراء (٢٣٨) ، ومواد النون (٢١٥) مادة ، على حين مثَّلت أبواب الظاء ، والياء ، والذال ، والتاء ، والثاء ، والهاء أقل نسبة فى المواد بين ثنايا الجيم ، إذ بلغت مواد الظاء (١٨)، والياء (٢١) والذال (٤٤)، والتاء (٤٧)، والثاء(٥٦)، والهاء (٨١) .

وإليك صورة واقعية لحشد نموذج من هذه المواد داخل باب الظاء لنقف على بعض الملامح المنهجية لكتاب الجيم فى ترتيب مواده .

يُعد باب الظاء من أصغر الأبواب ، فلم تتجاوز مداخله ثمانى عشرة مادة[١]، بدأه الشيبانى بمادة (ظلف) فقال : ارتحل القوم بظليفتهم : أجمعون ، وأخذ الجزور بظليفتها ، أى : كلها ، ثم ثنَّى بمادة (ظرف) ، فقال : يُقال : فلان عفيف الظرْف ، أى : الجسد ، ثم عاد لمادة (ظلف) : ويُقال : إنه لظلف من أن يصيبه كذا وكذا ، أى قمن ، ثم انتقل إلى مادة (ظبظب) ، وعرَّج بعدها على مادة (ظهر) ثم (ظفر) ، وقد كان عدم مرعاة الحرف الثانى الأصلى فى التنسيق الداخلى للمادة داخل كل باب وراء ذلك ، كما ترتب عليه - أيضا - التكرار ، إذ ساق الشيبانى المادة فى غير موضع من الباب ، فمادة (ظلم) - مثلا - يذكرها فى أربعة مواطن متنوعة فى باب الظاء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيبانى كان - أحيانا - ينظر إلى الحرف المزيد نظرته إلى الحرف الأصلى[٢] مما أدى إلى الخَلْط ممثلا فى إقحام بعض المواد فى

---

(١) الجيم : ٢/ ٢٢٠-٢٢٤ .

(٢) مناهج البحث فى اللغة والمعجم ٢٨٨

غير أبوابها ، مما سنعرض له فى حصر الفروع اللغوية وتتبعها بين ثنايا الجيم ، وإليك هذه المرآة الإحصائية رقم (٢) لباب الظاء أمارة لأثر منهجية الشيبانى فى ترتيب المواد وتنسيقها فى معجمه ، ورموز الإحصائية :

ف = الفروع ، م = المكرر ، خ = الخلط ، ن م = النسبة المئوية .

ب	ع م	ع ف	م	ن م	خ	ن م
الظاء	١٨	٥٢	٦ـ	١٢,٠٪	٦ـ	١٢,٠٪

وبالتأمل فى المرآة الإحصائية لباب الظاء نجد مواده قد بلغت (١٨) مادة ، وتشقيقاته اللغوية (٥٢) فرعا ، ووقع الخلط فيها والتكرار فى (١٢) موضعا ، تصل نسبتها المئوية إلى ٢٣,٠٪ تقريبا وستتجلى هذه الملامح فى معالجتنا للفروع اللغوية .

ثانيا : الفروع اللغوية للمادة :

تعددت الفروع اللغوية للمادة الواحدة ، وتنوعت مشتقاتها داخل معجم الجيم ، مما يدل على قيمة الكتاب من الناحيتين التراثية واللغوية ، ولبيان ذلك فى ضوء الأرقام نضع بين يدى البحث الجدول الإحصائى رقم (٢) دالاً على حجم التشقيق اللغوى ، والتفريع لمواد كل باب ، ومن الرموز الجديدة فى الجدول :

ع ف = عدد الفروع ، ج ف = جملة الفروع

الجدول رقم (٢)

ب	ع م	ع ف	ب	ع م	ع ف	ج ف
أ	١٢٣	٤٧٣	ض	ـ٦٥	١٥٠	٦٢٣
ب	١٤٤	٤١٨	ط	ـ٧٣	٢٣٤	٦٥٢
ت	ـ٤٧	١٠٦	ظ	ـ١٨	ـ٥٢	١٥٨
ث	ـ٥٦	١٤٩	ع	٣١٦	١٥٣١	١٦٨٠
ج	١٧٨	٥٤٥	غ	١١١	٣٢٧	٨٧٢
ح	٢٧٠	١٤٨٥	ف	١٧٢	٦٠٩	٢٠٩٤
خ	١٤٢	٤٨٢	ق	٢٨٨	١٠٢٨	١٥١٠
د	٢٢١	٦٤٢	ك	١٩٠	٦٣٢	١٢٧٤
ذ	ـ٤٤	١٥٣	ل	١٨٠	٦٧٩	٨٣٢
ر	٢٣٨	١١١٩	م	١٧٩	٤٢٣	١٥٤٢
ز	١٣٨	٤٥٨	ن	٢١٥	٦٤٣	١١٠١
س	١٨٢	٥٢٦	و	ـ٨١	١٧٢	٦٩٨
ش	١٥٢	٤٨٦	هـ	١٦٣	٤٦٠	٩٤٦
ص	١٠١	٣٢٣	ي	ـ٢١	ـ٤٧	٣٧٠
ج ف		٧٣٦٥			٦٩٨٧	١٤٣٥٢

التحليل الإحصائى

فى ضوء الجدول الإحصائى رقم (٢) تتبين لنا غزارة التفريعات الاشتقاقية لمواد معجم الجيم ، إذ وصلت التفريعات لمواد باب العين مثلا (١٥٣١) تفريعا، وباب الحاء (١٤٨٥) ، وباب الراء (١١١٩) .

ولا ريب أن ذلك ناجم عن حجم المواد داخل هذه الأبواب غالبا ، وإليك هذه المرآة الإحصائية لتفسير نسبة الارتفاع والانخفاض فى حجم التفريعات على ضوء ما أشرت إليه .

ب	ع م	ع ف	ب	ع م	ع ف
ع	٣١٦	١٥٣١	ظ	١٨	٥٢
ح	٢٧٠	١٤٨٥	ذ	٤٤	١٥٣
ر	٢٣٨	١١١٩	ت	٤٧	١٤٩

وفى ضوء هذه المقابلة بين النّسب المرتفعة والمنخفضة قرين كل باب يتبين لنا أن حجم المواد قرين كل باب وراء ذلك غالبا كما ألمحنا ، بالإضافة إلى الواقع اللغوى ـ أيضا ـ الذى ينهل منه الشيبانى .

وقد بلغ حجم المحتوى اللغوى للفروع بين ثنايا المعجم كما يشير الجدول رقم (٢) (١٤٣٥٢) فرعا ، وفى ضوء ذلك يمكننا الوقوف على النسبة المئوية للتفريع والتشقيق فى معجم الجيم إذا استحضرنا حجم المواد (٤١٠٨) كما يشير الجدول رقم (١) ، ومن ثمَّ تكون النسبة المئوية للتشقيق [1] ٣٪ تقريبا .

ولا يخفى أن نسبة التكرار الذى ألمحنا إليه سابقا ، وكذلك الخلط وراء هذا التضخم فى حجم التفريع اللغوى ، ومن ثم سيتتبَّع البحث هاتين الظاهرتين ، التكرار والخلط إحصاءًا ورصدًا للوقوف على مدى نسبة كل منهما فى المعجم من ناحية ، والتعرف على الكم الحقيقى للمشتقات والتفريعات اللغوية للمعجم من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى تقدير حجم ظاهرة الاستطراد بين ثنايا الجيم من ناحية ثالثة .

(أ) ظاهرة التكرار :

أوضحنا أن ظاهرة التكرار نجمت من منهجية الشيبانى فى الترتيب ، وإغفاله للحرف الثانى الأصلى من حروف المادة ، بيد أن هذه السمة بدت واضحة بين دفتى المعجم ، ومن ثم كان تتبعها وإحصاؤها من الضرورة للأسباب التى ألمحنا إليها ، وإليك الجدول الاحصائى رقم (٣) لبيان حجم هذه الظاهرة قرين الفروع اللغوية لكل باب ، والنسبة المئوية لها ، ومن رموزه:

م = مكرر ص= الصافى ن م = النسبة المئوية .

(١) مصدر شقق: وشقَّقَ الحطب وغيره تشقق ، ينظر: مختار الصحاح، مادة: ش ق ق.

جدول رقم (٣)

ب	ع ف	م	ن م	ب	ع ف	م	ن م	ب	ع ف	م	ن م	ج م
أ	٤٧٣	٢٤	٠,٠٥	ر	١١١٩	٢٥٠	٠,٢٢	غ	٣٢٧	٦٩	٠,٢١	
ب	٤١٨	٢٧	٠,٠٦	ز	٤٥٨	٨٨-	٠,١٩	ف	٦٠٩	١٢٤	٠,٢٠	
ت	١٠٦	٢-	٠,٠٢	س	٥٢٦	٥٢-	٠,١٠	ق	١٠٢٨	١٨٤	٠,١٨	
ث	١٤٩	١٣	٠,٠٩	ش	٤٨٦	٩١-	٠,١٩	ك	٦٣٢	١٢٩	٠,٢٠	
ج	٥٤٥	٥٤	٠,١٠	ص	٣٢٣	٤٨-	٠,١٥	ل	٦٧٩	١٣٣	٠,٢٠	
ح	١٤٨٥	٣٠١	٠,٢٠	ض	١٥٠	١٥-	٠,١	م	٤٢٣	٤٠-	٠,٠٩	
خ	٤٨٢	٦٦	٠,١٤	ط	٢٣٤	٣٢-	٠,١٤	ن	٦٤٣	٧٤-	٠,١٢	
د	٦٤٢	٧٤	٠,١٢	ظ	٥٢-	٦-	٠,١٢	و	١٧٢	٨-	٠,٠٥	
ذ	١٥٣	١٢	٠,٠٨	ع	١٥٣١	٣٧٣	٠,٢٤	هـ	٤٦٠	٤٠-	٠,٠٩	
-	-	-	-	-	-	-	-	ي	٤٧-	٢-	٠,٠٤	
ج م	=	٥٧٣				٩٥٥				٨٠٣	=	٢٣٣١
ص	١٤٣٥٢ - ٢٣٣١ = ١٢٠٢١											

التحليل الاحصائى

فى ضوء الجدول الإحصائى رقم (٣) بلغ إجمالى الفروع اللغوية المكررة (٢٣٣١) فرعا ، وعلى ذلك يمكن تقدير نسبة التكرار بحوالى ٠,١٦٪ تقريبا[١].

ومن ثم يصبح العدد الحقيقى للتفريعات اللغوية (١٢٠٢١) ، وعلى ذلك تكون نسبة التفريع اللغوى والتشقيق حوالى ٣٪ تقريبا [٢].

تراوحت نسبة المكرر ارتفاعا وانخفاضا ما بين ٠,٠٢٪ فى باب التاء ، ٠,٢٤٪ فى باب العين ، وقد جاءت النسبة المئوية وفق المكررات متفاوته من حيث الحجم، وعدد الأبواب التى شاعت فيها، والجدول رقم (٤) يؤكد ذلك، وقد راعيتُ فى عرض الإحصائية الترتيب التنازلى وفق عدد الأبواب التى شاعت فيها النسبة على النحو التالى (٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١) ، ومن الرموز الجديدة فى الجدول :

ع ب = عدد الأبواب ، ن ك = نسبة التكرار ، ج ب = جملة الأبواب

الجدول رقم (٤)

ع ب	ب	ن ك	ع ب	ب	ن ك	ج ب	
٤	ح ـ ف ـ ك ـ ل	٠,٢٠	١	غ	٠,٢١	٥	
٣	د ـ ظ ـ ن	٠,١٢	١	ق	٠,١٨	٤	
٣	ث ـ م ـ و	٠,٠٩	١	ص	٠,١٥	٤	
٢	ر ـ ش	٠,١٩	١	ض	٠,١	٣	
٢	خ ـ ط	٠,١٤	١	ذ	٠,٠٨	٣	
٢	ج ـ س	٠,١٠	١	ب	٠,٠٦	٣	
٢	أ ـ هـ	٠,٠٥	١	ي	٠,٠٤	٣	
١	ع	٠,٢٤	١	ت	٠,٠٢	٢	
١	ر	٠,٢٢	-	-	-	١	
٢٠			٨			٢٨	

---

(١) ٢٣٣١/١٤٣٥٢×١٠٠/١٠٠ = ٠,١٦٪ تقريبا .

(٢) ١٢٠٢١/٤١٠٨ × ١٠٠/١٠٠ = ٢,٩٢ ٪ ، أى ٣ ٪ تقريبا .

وعلى هدى الإحصائية السابقة فى الجدول رقم (٤) يتبين لنا أن النسبة المئوية (٠,٢٠٪) تمثل الشيوع بالنسبة لعدد الأبواب، إذ تصل نسبتها (٠,١٤٪) على حين تمثل النسبة (٠,١٢) مقدارا أقل باعتبار عدد الأبواب التى تشيع فيها، إذ تصل إلى (٠,١١٪) .

ويلاحظ أن أعلى نسبة للتكرار فى الجدول السابق لا تتجاوز بابا واحدا ، وهو باب العين (٠,٢٤) يليها باب الراء (٠,٢٢) ثم (٠,٢١) فى باب الغين ، وتمثل النسبة المئوية لكل هذه الأنماط فى ضوء عدد الأبواب فى المعجم (٠,٠٤).

وفى الجدول الآتى رقم (٥) سأتتبع بعض الأبواب التى ارتفعت فيها نسبة التكرار علنًا نتمكن من التعليل لها فى ضوء عدد المواد والفروع قرين كل باب، ومن هذه الأبواب، باب العين، الراء، الغين، القاف، الصاد . . . .إلخ

جدول رقم (٥)

ب	ع م	ع ف	ن ك	ب	ع م	ع ف	ن ك	ج م
ع	٣١٦	١٥٣١	٠,٢٤	ق	٢٨٨	١٠٢٨	٠,١٨	
ر	٢٣٨	١١١٩	٠,٢٢	ص	١٠١	٣٢٣	٠,١٥	
غ	١١١	٣٢٧	٠,٢١					

فى ضوء الجدول السابق يتبين لنا أن حجم الأبواب مادة وتفريعا وراء ارتفاع نسبة المكرر ، ولا عجب فى ذلك ، فالشيبانى لم يرتب مداخل معجمه وفق الثانى الأصلى والثالث حتى يقضى على ظاهرة التكرار ، وتشتيت التنوعات المختلفة للمشتقات فى غير موطن من الباب على امتداده .

وبالتأمل فى الجدول رقم (٣) يتضح لنا هذا الأمر إذ نلاحظ أعلى نسبة لعدد المكرر (٣٧٣) فى باب العين الذى بلغت فروعه (١٥٣١) فرعا ، وتمثل نسبة التكرار حوالى (٠,٢٤٪) تقريبا[1]،كما تصل النسبة المئوية لهذا التكرار فى ضوء مواده التى بلغت (٣١٦) إلى (١,١٨٪) تقريبا[2] .

---

(١) ٣٧٣/ ١٥٣١ × ١٠٠/١٠٠ = ٠,٢٤ تقريبا .

(٢) ٣٧٣/ ٣١٦ × ١٠٠/١٠٠ = ١,١٨ تقريبا .

وكذلك باب الحاء إذ وصلت مكرراته فى الجدول رقم (٣) المشار إليه (٣٠١) وجملة فروعه (١٤٨٥) ، وعلى هذا فالنسبة المئوية للتكرار (٢٠,٠٪)، كما تصل هذه النسبة فى ضوء مواده التى بلغت (٢٧٠) إلى (١١,١٪) تقريباً .

وهكذا يُعد التكرار ظاهرة واضحة بين دفتى الجيم مما سوغ لبعض الباحثين القول بأن "كتاب الجيم ما هو إلا تطور طبيعى لكتب النوادر التى لم تتبع ترتيبا دقيقا"[1] ، وليس لنا أن نجارى هذا القول إذ إن المبالغة فيه واضحة، والقياس مع الفارق ، فكتب النوادر لم ترتب معجميا ، وإنما سيقت هكذا ، أما الجيم فقد أرسى صاحبه فكرة الترتيب الألفبائى فى رصد مواده ، غير أنه لم يعن إلا بالحرف الأول ، وذاك منهجه الذى اعتد به على امتداد الكتاب ، فكان التكرار فى ضوء ذلك أمر طبيعيا ، بيْد أن هناك ظاهرة أخرى لاتقل وضوحا عن التكرار بين ثنايا المعجم وهى ظاهرة الإقحام والخلط ، وستتولى هذه الدراسة الإحصائية التحليلية بيان حجم هذه الظاهرة ، ومدى شيوعها فيما يلى : -

ب - ظاهرة الخلط :

ظاهرة الخلط فى معجم الجيم بدت واضحة فى ترتيب مواده ، إذ كان إقحام بعض المواد فى غير بابها أمراً ملحوظا ، وقد تتبعتُ ذلك على امتداد المعجم للوقوف على حجم هذه الظاهرة وعللها ، وتبين لى أن هناك أسبابا متنوعة وراء تلك الظاهرة ، منها ـ فى المقام الأول ـ الاستطراد ، وكذلك المعالجة لبعض المواد شرحا وتفسيرا إذ تأتى المادة فى مقام الشرح ، فيعرِّج الشيبانى عليها تفسيرا ، ومنها ورود المادة فى سياق نثرى أو شعرى ، بالإضافة إلى عدم تفرقته أحيانا بين الأصلى والمزيد من الحروف .

وإليك هذا الجدول رقم (٦) لباب الياء (٣/٢٢٦ ـ ٣٢٩) دليلا على ما أشرت إليه ، إذ تمثل نسبة الخلط فى هذا الباب من كتاب الجيم حوالى ١٩,٠٪ لأن عدد التفريعات اللغوية التى تنتمى إليه (٤٧) تفريعا ، منها (٩) تفريعات مقحمة على سبيل الخلط فى أبواب أخرى ، ومن رموز الجدول :

س = السبب

---

(١) مجلة المجمع : ٧٨/٣٣ .

الجدول رقم (٦)

م	ب	ج ص	س	م	ب	ج ص	س
تيدع	باب التاء	١/١٠٢	الأصلى والزائد	يامن	باب الجيم	١/١٣٢	الاستطراد
بيهماء	باب الباء	١/٧٧	الأصلى والزائد	يفن	باب الواو	٣/٣١١	سياق شعرى
اليمام	باب الميم	٣/٢٤٩	الاستطراد	يافع	باب اللام	٣/٢٢٦	سياق نثرى
يمن	باب الدال	١/٢٧٧	الاستطراد	استيهر	باب الميم	٣/٢٥٢	التفسير
الميسر	باب الراء	١/٣٠٤	الاستطراد		-		

وبالتأمل فى هذا الجدول الذى يمثل بابا من أبواب الجيم ندرك أن الاستطراد له أثر بالغ فى شيوع ظاهرة الخلط فى هذا المعجم ، بالإضافة إلى ما تحويه السياقات النثرية أو الشعرية من مواد لغوية ، يقوم الشيبانى - أحيانا - بتفسيرها ، فى الموضع الذى وردت فيه غير مكترث ببابها أو ترتيبها بين دفتى المعجم ، بالإضافة إلى خلطه بين الأصلى والمزيد من الحروف [1].

ومن النماذج بين ثنايا الكتاب نعرض لبعض مواد الجدول نحو (تيدْع) ١/١٠٢ "وقال : ما تيدَع منه على شئ تيدْعا ، أى : ما قدر منه على شئ .

ومن الاستطراد الإتيان بمادة (يامن) في باب الجيم حالة تفسيره لجَيْلان ، إذ يقول " وقال البحرانى : جَيْلانُ ، ويامِنُ : قَومٌ من اليهود بهجر . . . إلخ ومن الخلط بسبب السياق ما ورد فى باب الجيم فى تفسير (الألبج : الضخم) إذ ورد فى السياق الذى أورده على لسان الطائى وهو يطلب المهر من الأسدى مادة (يافع) وإن كان الشيباني لم يفسّرها .

وقد تتبعتُ ظاهرة الخلط على امتداد المعجم لبيان حجمها ونسبة شيوعها فى ضوء الجدول الآتى رقم (٧) مع مراعاة بيان مقدار الخلط قرين كل باب فى ضوء مجموع الفروع اللغوية لمواده على النحو التالى : ومن الرموز الجديدة فى الجدول :

خ = الخلط　　　ج خ = جملة الخلط　　　ص = الصافى

---

(١) ينظر : مناهج البحث فى اللغة والمعجم ٢٨٨ بتصرف .

جدول رقم (٧)

ب	ف	خ	ن م	ب	ف	خ	ن م	ج خ
أ	٤٧٣	١٠٩	٠,٢٣	ض	١٥٠	-٩	٠,٠٦	١١٨
ب	٤١٨	٥٨	٠,١٤	ط	٢٣٤	٣٠	٠,١٣	٨٨
ت	١٠٦	١٣	٠,١٢	ظ	-٥٢	-٦	٠,١٢	١٩
ث	١٤٩	١٣	٠,٠٩	ع	١٥٣١	٦٦	٠,٠٤	٧٩
ج	٥٤٥	٦٩	٠,١٣	غ	٣٢٧	٢٨	٠,٠٩	٩٧
ح	١٤٨٥	٦٧	٠,٠٥	ف	٦٠٩	٣٨	٠,٠٦	١٠٥
خ	٤٨٢	٥٢	٠,١١	ق	١٠٢٨	٦٨	٠,٠٧	١٢٠
د	٦٤٢	٤٢	٠,٠٧	ك	٦٣٢	٣٧	٠,٠٦	٧٩
ذ	١٥٣	٢٣	٠,١٥	ل	٦٧٩	٢٧	٠,٠٤	٥٠
ر	١١١٩	٦٣	٠,٠٦	م	٤٢٣	٨٣	٠,٢٠	١٤٦
ز	٤٥٨	١٢	٠,٠٣	ن	٦٤٣	٨٧	٠,١٤	٩٩
س	٥٢٦	٦٧	٠,١٣	و	١٧٢	٣٨	٠,٢٢	١٠٥
ش	٣٨٦	٤١	٠,١١	هـ	٤٦٠	٦٧	٠,١٥	١٠٨
ص	٣٢٣	٣٤	٠,١١	ي	-٤٧	-٩	٠,١٩	-٤٣
١٤								
ج ف	٧٣٦٥ ٦٩٨٧	٦٦٣ ٥٩٣	-	١٤ ١٤ ٢٨	٦٩٨٧	٥٩٣		١٢٥٦
م -	١٤٣٥٢ ٢٣٣١	١٢٥٦						
ص	١٢٠٢١	النسبة المئوية للخط = $\frac{١٢٥٦}{١٢٠٢١} \times \frac{١٠٠}{١٠٠}$ = ١٠,٠ ٪ تقريبا						

التحليل الإحصائى

فى ضوء الإحصائى السابقة بالجدول رقم (٧) يتبين :

تمثل النسبة العامة للخلط أو الإقحام فى أبواب المعجم حوالى ١٠,٠ ٪ تقريبا، إذ بلغ مجمل هذه الظاهرة (١٢٥٦) على حين أشار الجدول رقم (٢)

إلى جملة الفروع فبلغت (١٤٣٥٢)، إذا استبعدنا منها ما أشار إليه الجدول رقم (٣) أى جملة المكرر ويقدر بحوالى (٢٣٣١) يكون الصافى من الفروع دون تكرار (١٢٠٢١) ، ومن ثمّ وصلت النسبة لظاهرة الخلط فى ضوء الجدول رقم (٧) حوالى ١٠, ٠٪ تقريبا.

وقد تراوحت نسب الخلط والإقحام فى الأبواب ما بين (٠٣, ٠) فى باب الزاى ، (٢٣, ٠) فى باب الألف .

لوحظ أن النسبة الغالبة فى ضوء الإحصائية وفق عدد الأبواب التى شاع فيها الإقحام (٠٦, ٠) ، إذ اطردت فى أربعة أبواب ، وإليك هذا الجدول رقم (٨) مشيرا إلى ذلك مع مرعاة الترتيب التنازلى للخلط وفق عدد الأبواب بين ثناياه (٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١)

الجدول رقم (٨)

ع ب	ب	ن خ	ع ب	ب	ن خ
٤	ر ـ ض ف ـ ك	٠,٠٦	١	أ	٠,٢٣
٣	خ ـ ش ـ ص	٠,١١	١	هـ	٠,٢٢
٣	ج ـ س ـ ط	٠,١٣	١	م	٠,٢٠
٢	ذ ـ و	٠,١٥	١	ي	٠,١٩
٢	ب ـ ن	٠,١٤	١	ح	٠,٠٥
٢	ت ـ ظ	٠,١٢	١	ز	٠,٠٣
٢	ث ـ غ	٠,٠٩			
٢	د ـ ق	٠,٠٧	٦ ـ		
٢	ع ـ ل	٠,٠٤	٢٢		
ج/٢٢			٢٨	جملة الأبواب	

وفى ضوء الموازنة بين إحصائية المكرر فى الجدول رقم (٣) ، واحصائية الخلط فى الجدول رقم (٧) يتبين لنا أن بينهما تناسبا عكسيا ، فالأبواب التى ارتفعت فيها النسبة المئوية للمكرر انخفضت فيها النسبة المئوية للخلط والعكس صحيح ، وإليك هذا الجدول رقم (٩) مستخلصًا من الجدولين المشار إليهما لإثبات ما توصلنا إليه.

الجدول رقم (٩)

ب	ع ف	النسبة م	النسبة خ	ب	ع ف	النسبة م	النسبة خ
أ	٤٧٣	٠,٠٥	٠,٢٣	ض	١٥٠	٠,١	٠,٠٦
ب	٤١٨	٠,٠٦	٠,١٤	ط	٥٣٤	٠,١٤	٠,١٣
ت	١٠٦	٠,٠٢	٠,١٢	ظ	٥٢	٠,١٢	٠,١٢
ث	١٤٩	٠,٠٩	٠,٠٩	ع	١٥٣١	٠,٢٤	٠,٠٤
ج	٥٤٥	٠,١٠	٠,١٣	غ	٣٢٧	٠,٢١	٠,٠٩
ح	١٤٨٥	٠,٢٠	٠,٠٥	ف	٦٠٩	٠,٢٠	٠,٠٦
خ	٤٨٢	٠,١٤	٠,١١	ق	١٠٢٨	٠,١٨	٠,٠٧
د	٦٤٢	٠,١٢	٠,٠٧	ك	٦٣٢	٠,٢٠	٠,٠٦
ذ	١٥٣	٠,٠٨	٠,١٥	ل	٦٧٩	٠,٢٠	٠,٠٤
ر	١١١٩	٠,٢٢	٠,٠٦	م	٤٢٣	٠,٠٩	٠,٢٠
ز	٤٥٨	٠,١٩	٠,٠٣	ن	٦٤٣	٠,١٢	٠,١٤
س	٥٢٦	٠,١٠	٠,١٣	و	١٧٢	٠,٠٥	٠,٢٢
ش	٣٨٦	٠,١٩	٠,١١	هـ	٤٦٠	٠,٠٩	٠,١٥
ص	٣٢٣	٠,١٥	٠,١١	ي	٤٧	٠,٠٤	٠,١٩

وبالتأمل فى المقابلة بين ظاهرتى التكرار والخلط بين ثنايا الجدول السابق رقم (٩) يتبين لنا مدى اطراد ما ذهبتُ إليه من التناسب العكسى بين الظاهرتين على امتداد المعجم عدا بابين هما : باب الثاء ، وباب الظاء ، إذ توحدت نسبة التكرار والخلط فيهما ، وهو أمر لا يمثل شيئا إذا قيس ببقية الأبواب إذ إن نسبته لا تتجاوز ٠,٠٧ ٪ ، أما اطراد الظاهرة فيمثل ٠,٩٣ ٪[1] لشيوعها فى (٢٦) بابا من أبواب المعجم .

ويلاحظ ضآلة نسبة التكرار فى الأبواب الأولى والأخيرة ، إذ تراوحت ما بين (٠,٠٢ ـ ٠,٠٥) ، (٠,٠٤ ـ ٠,٠٩) ، ولعل السرّ فى ذلك ما يكون عليه المؤلف من جدة فى بداية العمل بالإضافة إلى أن البداية لم تسبق بمادة يمكن فى ضوئها التعرف على المكرر ، أما الأبواب الأخيرة فتحظى أيضا بعناية المؤلف ، بالإضافة إلى ملاحظة شيوع التكرار فيما سبق ، ومن ثم قد يكون الحرص على الدقة وراء هذا الأمر .

وتشير البيانات السابقة بالجدول إلى ارتفاع نسبة الخلط والإقحام فى

(١) ٢٦/٢٨ × ١٠٠/١٠٠ = ٠,٩٣ تقريبا .

الأبواب الأولى والأخيرة من المعجم إذ تراوحت النسبة ما بين (١٢, ٠ـ ٢٣, ٠) (١٥, ٠ـ٢٢, ٠) ولعل السّر فى ذلك هو رغبة الشيبانى فى الجمع الشامل فى الأبواب الأولى ، وحرصه على عدم فواته شيئا من مروياته وما سمعه فى الأبواب الأخيرة .

فى ضوء الجدول رقم (٧) يتبين لنا أن نسبة الخلط لا تتجاوز ١٠, ٠ ٪، وعلى ذلك فنسبة الدقة تمثل ٩٠, ٠ ٪ ، وهى نسبة ليست بالقليلة فى منهج معجمى يعد مبتكرا ، ونظام ترتيبى جديد .

وعلى هذا فما ذهب إليه محقق الجيم من أن ترتيب الكتاب لغير الشيبانى مستندا إلى عدم الدقة المتمثلة فى التكرار والإقحام لا وجه له لأمور :

أولها ـ أن الباحث أقام رأيه ـأساساـ على الظن قائلاً : "وأبو عمرو لاشك أنه انتهى عند هذا الاستصفاء الذى نظن أنه لم يكمله لما فى الكتاب من نقص ، وما نظن أنه عنّى نفسه بترتيب ما استصفى . . . وهذا الترتيب الذى عليه الكتاب والذى هو بين أيدينا لاشك من صنع صانع غير أبى عمرو الشيبانى . . . ثم يختم كلامه بقوله : "هذا كله وغيره يفيد أن هذا العمل بعيد أن يقع على يد رجل معجمى ناضج كأبى عمرو "[1] .

وثانيها ـ اعتمد الباحث فيما ذهب إليه على نفى الخلط عن الشيبانى المعجمى الناضج ، ويبدو لى أنه لايمكن بحال أن تكون بعض المثالب مجلبة لنفى نسبة كتاب إلى صاحبه ، وقد اتُّخذ هذا الأمر ذريعة للتشكيك فى نسبة كتاب العين للخليل ـ أيضاً ـ[2] ، أضف إلى ذلك أن الخلط والإقحام الذى اعترى الكتاب لايوحى بالعشوائية المطلقة فى الترتيب ، إذا إن نسبته كما دلت الإحصائيات لا تتجاوز ١٠, ٠ ٪[3] ، وقد يكون هذا طبيعيا إذا لوحظ أن منهج الكتاب يعد الباكورة الأولى فى ميدان التصنيف المعجمى وفق النظام الألفبائى.

---

(١) ينظر : الجيم / المقدمة ٣٧/١ : ٣٨ .

(٢) ينظر : المعاجم العربية : د/عبد الحميد أبو سكين ٤٠: ٤١ المعجم العربى : دراسة ونقدا : د/شعبان عبد العظيم : ٤٨ ـ ٤٩ ، مناهج البحث فى اللغة والمعجم ١٣٦: ١٤٣ .

(٣) ينظر : الجدول رقم (٧) السابق .

وثالثها - لم يحدد الباحث صاحب استكمال المادة التى نقصت من الجيم، وكذلك صاحب الفكرة المعجمية فى الترتيب ، وأيضا مَنْ قام به ، أهو مؤلف واحد ؟ أم أن لكل جانب صاحبه ؟ ومن ثم رأى بعض علمائنا المنصفين: " أن هذا الرأى الذى ينطوى على أن فى ترتيب الكتاب ليس من عمل أبى عمرو شيئا كثيرا من التخمين والحدس الذى لا يستند إلى دليل[1] ، والحق فيما ذهب إليه ، فقد يكون وراء الخلط أو الاضطراب النساخون والوراقون ، والإطاحة بنسبة الكتاب إلى صاحبه اعتمادًا على ما ذكره محقق الكتاب من الغمط للكتاب ومؤلفه .

وقد تولد عن ظاهرتى التكرار والخلط ملمح ثالث من ملامح الجيم ، وهو الاستطراد ؛ وهو يمثل ظاهرة واضحة بين ثنايا الكتاب ، ومن ثم سيتتبع البحث مواقعها وحصرها على امتداد المعجم فى ضوء هذه الدراسة الإحصائية للتعرف على حجمها ، ومدى شيوعها ، ونسبتها ، ودواعيها فى ضوء التحليل لنتائج الإحصائيات بين يدى هذه الظاهرة .

جـ : ظاهرة الاستطراد :

يمثل هذه الظاهرة فى معجم الجيم ملامح متنوعه ، منها ما أشرنا إليه فى ضوء الإحصاءات السابقة من المكرر تارة[2] ، ومن المقحم تارة أخرى[3] ، بالإضافة إلى ما سيجليه البحث فى ضوء الإحصاءات التالية لمواد ساقها الشيبانى فى غير أبوابها على سبيل التكرار والإقحام ، فكانت أمارة بارزة على الاستطراد ، إذ بدت نوعا مخالفا لشقيقتيها المكررة والمقحمة ، فقد جمعت بين الخاصتين فى آن واحد ، التكرار ، لأنها ذكرت فى غير موطن ، والإقحام ، لأنها سيقت فى غير بابها ، فالمادة الواحدة جمعت بين الظاهرتين ، التكرار والخلط ، ومن ثم كانت مَعْلَمًا رئيسا على الاستطراد ، ولعل السّر فى ذلك طبيعة العصر الذى عاش فيه الشيبانى ، وما كان يتسم به من السرد الاستطرادي تأصيلا للفكرة وتوضيحا لها ، وقد يكون وراء ذلك ما تمتع به الشيبانى من موسوعية الفكر والثقافة ، بالإضافة إلى أنه راوية ومشهور بالسماع ، ويمكن

---

(١) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٢٨٥ .

(٢) ينظر الجدول الاحصائى رقم (٣) .

(٣) ينظر الجدول الاحصائى رقم (٧) .

تفسير ذلك فى ضوء طبيعة التصنيف حالتئذ واعتماده على الأمالى والمجالس وكذلك اهتمام الشيبانى بجمع المادة اللغوية[1] . إلى غير ذلك من العلل التى يمكن اكتشافها فى ضوء الجدول رقم (١٠) الذى سيعرض لبعض نماذج هذه الظاهرة فى ضوء باب الخاء (١/٢١٩ـ٢٤١) وتمثل نسبة الاستطراد فيه حوالى (٠,٠٢ ٪) إذ إن فروعه اللغوية (٤٨٢) فرعا ، وعدد المواقع الاستطرادية فيه تكراراً وخلطا (٩) مواقع .

جدول رقم (١٠)

م	ب	ج ص	س	م	ب	ج ص	س
خدى	باب الخاء	١/ ١٥٤	استطراد	خوق	باب الراء	١/ ٣٠٢	تفسير وشرح
خدى	باب الخاء	١/ ١٨٢	استطراد	الخليقة	باب الفاء	٣/ ٣٥	تفسير وشرح
خدى	باب النون	٣/ ٢٦١	استطراد	أخضم	باب العين	٣/ ١٩	تفسير وشرح
الخم	باب اللام	٣/ ٢٢٢	استطراد	أخضم	باب الزاى	٢/ ٧٩	تفسير وشرح
أخواق	باب الراء	١/ ٣٠٢	استطراد			-	-

وبالتأمل فيما عرضه الجدول يتبين لنا أن المادة الواحدة نحو (خدى) كررت وأقحمت في الجزء الأول والثالث من المعجم ، وفى غير باب الخاء ، إذ وقعت فى باب الخاء فى موطنين ، وفى باب النون ، كما وقعت (خم) فى باب اللام ، و(أخضم) فى باب الزاى وهكذا وبتتبع السياقات التى وردت فيها تلك المواد المكررة والمقحمة لوحظ أن أغلب ورودها على سبيل السَّرد الاستطرادى ، وقد ورد بعضها على سبيل الشرح لمواد أخرى فى الباب الذى أقحمت فيه .

وإليك نموذجين من باب الخاء يؤكدان ذلك على هدى ما ورد بين دفتى الجيم :

" فى الجزء الأول / ١٥٤ باب الحاء :مادة (حفل) : وقال الهمدانى : الحفيل : ما يبقى فى الكرم بعد القطاف من العنب " .

وقال : الخداء : القطاف، يقولون تخدى ، فقد ساق الشيبانى مادة (الخداء) هنا على سبيل الاستطراد .

---

(١) مناهج البحث فى معجم اللغة والمعجم :٣٠١ .

ومن ذلك فى ميدان التفسير والشرح فى الجزء الثانى / ٧٩ باب الزاى ، مادة (زعم) "والإزعامُ : يقال للبن إذا أخذ يطيب قد أزعم ، وهو مزعم ، وأخضم مثله" .

فقد ساق الشيبانى على سبيل الشرح مادة (خضم) ، وكررها مرة ثانية فى الجزء الثالث / ١٩ باب الغين ، مادة (غذم) : "وقال : قد أغذمهم الرائد إذا حمد لهم الأرض ، وأخضم لهم مثلها" .

وعلى ذلك يمكن أن يضاف إلى علل الاستطراد السابقة كيفية المعالجة شرحا وتفسيرا ، ولا يخفى أن ظاهرة الاستطراد واضحة بين ثنايا المعجم ، وسيتولى الجدول الاحصائى رقم (١١) بيان أبعادها ومواطنها علي النحو التالى: ومن الرموز الجديدة فى الجدول : ط = استطراد .

جدول رقم (١١)

ب	ف	ط	ن م	ب	ف	ط	ن م	ج
أ	٤٧٣	٣٢	٠,٠٦	ض	١٥٠	٣٠	٠,٠٢	٣٥
ب	٤١٨	١٢	٠,٠٣	ط	٢٣٤	ـ٢	٠,٠١	١٣
ت	١٠٦	ـ٥	٠,٠٥	ظ	ـ٥٢	-	-	ـ٥
ث	١٤٩	ـ٢	٠,٠١	ع	١٥٣١	١٧	٠,١١	١٩
ج	٥٤٥	١٤	٠,٠٣	غ	٣٢٧	ـ٤	٠,٠١	١٨
ح	١٤٨٥	٢٥	٠,٠٢	ف	٦٠٩	ـ٣	-	٢٨
خ	٤٨٢	ـ٩	٠,٠٢	ق	١٠٢٨	٢٠	٠,٠٢	٢٩
د	٦٤٢	ـ٨	٠,٠١	ك	٦٣٢	ـ٨	٠,٠١	١٦
ذ	١٥٣	ـ٢	٠,٠١	ل	٦٧٩	ـ٢	-	ـ٤
ر	١١١٩	١٥	٠,٠١	م	٤٢٣	ـ١	-	١٦
ز	٤٥٨	ـ٧	٠,٠٢	ن	٦٤٣	ـ٤	٠,٢٢	١١
س	٥٢٦	١٢	٠,٠٢	و	١٧٢	ـ٢	٠,٠١	١٤
ش	٣٨٦	ـ٧	٠,٠٢	هـ	٤٦٠	ـ٨	٠,٠١	١٥
ص	٣٢٣	ـ٥	٠,٠٢	ي	ـ٤٧	-	-	ـ٥
ج	٧٣٦٥ ٦٩٨٧	١٥٥ ٧٣			٦٩٨٧	٧٣		٢٢٨
م	١٤٣٥٢ ٢٣٣١	٢٢٨						
ص	١٢٠٢١	النسبة المئوية للاستطراد = ٢٢٨ / ١٢٠٢١ × ١٠٠ / ١٠٠ = ٠,٠٢ ٪ تقريبا						

التحليل الاحصائى

فى ضوء الجدول رقم (١١) الممثل للاستطراد الناجم عن التكرار والخلط تبين أن نسبته لاتتجاوز (٠,٠٢) بصفة عامة، إذ إن مجموع المحتوى اللغوى لهذه الظاهرة (٢٢٨) ، ومجمل التفريعات اللغوية (١٢٠٢١) ، وعلى هذا فالنسبة ضئيلة ، ولا عجب فى ذلك فهناك أبواب لم يتطرق إلى فروعها هذا الضرب من الإقحام والتكرير ، مثل بابى الظاء والياء ، وهناك أبواب أخرى لم تتجاوز مواقع الإقحام لفروعها موقعين على الرغم من وفرة فروعها اللغوية ، مثل باب الثاء ، الذال ، الطاء ، اللام ، الهاء ، ومنها ما وقع فيه الإقحام مرة واحدة ، نحو باب الميم .

لوحظ فى المرآة الإحصائية للجدول السابق ارتفاع نسبة الاستطراد فى أبواب ثلاثة هى النون (٠,٢٢) ، والعين (٠,١١) ، والألف (٠,٠٦) ، ويمكننا أن نقف على السرّ وراء ذلك فى ضوء الموازنة بين الظواهر الثلاثة، التكرار والخلط ، والاستطراد فى هذه الأبواب فى الجدول رقم (١٢) على النحو التالى :

جدول رقم (١٢)

ب	ف	ن : م	ن : خ	ط	
ن	٦٤٣	٠,١٢	٠,١٤	٠,٢٢	
ع	١٥٣١	٠,٢٤	٠,٠٤	٠,١١	
أ	٤٧٣	٠,٠٥	٠,٢٣	٠,٠٦	

وعلى هدى الموازنة بين الأرقام فى الجدول رقم (١٢) يمكننا الوقوف على السرّ فى ارتفاع نسبة الاستطراد فى الأبواب المشار إليها ، إذ وصلت إلى (٠,٢٢) فى النون لضآلة نسبة المكرر فى هذا الباب ، أى أن ما فات الشيبانى تكريره بين دفتى الباب ساقه مستطرداً فى أبواب أخرى فى سياق الشرح أو الرغبة فى الجمع للمادة ، ويمكن تأكيد هذا الملحظ على هدى ما توحى به بيانات (باب العين) فى الجدول السابق ، إذ ارتفعت نسبة المكرر (٠,٢٤) فانخفضت نسبة الاستطراد (٠,١١) ، وليس أدل على ذلك من إحصائيات (باب الألف) فى الجدول نفسه ، إذ انخفضت نسبة المكرر (٠,٠٥) فارتفعت نسبة الاستطراد (٠,٠٦) .

وعلى الرغم من ضآلة هذه الظاهرة كما دلت الإحصائيات فإنها تمثل مع شقيقتيها ظاهرتى المكرر والمقحم ملمحا رئيسيا من ملامح الجيم للشيبانى يضاف إلى بعض الملامح الأخرى التى سيعرض لها البحث مع التمثيل لها وكذلك الإحالة إلى المعجم .

من خصائص المادة اللغوية :

للمادة اللغوية فى كتاب الجيم بعض الخصائص التى تتلاءم مع هدفه ، والمستوى اللغوى لعصره ، والبيئة الزمانية وكذلك المكانية لتصنيفه ، ومن أهم تلك الخصائص البارزة فى مادة الكتاب طابع الغرابة والبداوة ، ولا عجب فى ذلك ، فمصدرها هو شعر القبائل ، وراويها هو أبوعمرو الشيبانى ، وهذه التنوعات اللغوية التى صبغت بهذه الخاصة لا يمكن حصرها لكثرتها ، إذ لا تخلو صفحة من المعجم - على امتداده - من عدد كبير منها ، ومن ثم كان تقديم البحث لبعض النماذج على سبيل التمثيل ، نحو "التقطيط ٣/ ١١١ : السَّبُّ الشديد ، القواعد ٣/ ٧٦ : جبال صغار ، اللبيج ٣/ ٢٢٥ : النازل ، المِيْكعة ٣/ ٣٠٧ عود يدق به جلد البعير يمرن به ، وهى الميجنة ، القعفزة ٣/ ٩٧ جلسة يضم فيها الرجل ركبتيه ، القرثعة ٣/ ١١١ : الكبير المال ، ومن ذلك فى ٣/ ١٨٠ الكدكدة ، الكمبثة ، الكرسفة ، ومنه(١) : الشنخوب ، الشبرمة العظير ، العنفص ، العنقفيز .... إلخ من المواد والتنوعات التى ساقها الشيبانى ، وكشف غموضها شرحاً وتفسيراً .

ومن خصائص المادة اللغوية فى كتاب الجيم - أيضاً - التنوع ، وقد أشار بعض علمائنا إلى ما يتمتع به هذا المعجم من "إشارات يستعملها فى شرح النبات أو الحيوان أو الأماكن والبقاع" (٢). وقد لاحظتُ فى تتبعى للمادة أن الغالب فى سرد هذه التنوعات ذكرها ضمن السياقات المتنوعة والشواهد الشعرية والنثرية التى يسوقها الشيبانى ، ويمكن أن يضاف إلى ذلك نوعية أخرى من المواد ، وإن بدت قليلة ، وهى المصطلحات العلمية ، ومنها تعريف المزابنة ٢/ ٥٢ ، وكذلك الإسناد فى الشعر ٢/ ٩٨ ، وأيضا الإصراف ٢/ ١٧٦ ، والإبطاء ٢/ ٩٨ ، والتعول ٢/ ٣٤٨ .

ومن سمات بعض المواد اللغوية فى معجم الجيم - أيضاً - التَّفرد ، وعلى

---

(١) ينظر : ٢/ ١٥٣ - ١٢٥ - ٢٨٧ - ٣٢٤ - ٢٨٧ .

(٢) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٢٩٨.

الرغم من أن الحكم على التنوع اللغوى بأنه من مفاريد الشيبانى من الصعوبة بمكان ، فقد أشار المحققون إلى عدد غير قليل من مواد الجيم مقررين تفرده ، وعدم الوقوف على هذا التنوع فى معاجم اللغة ، وقد تتبعتُ هذه الشريحة من الألفاظ على امتداد الجزء الأول وكذلك الثانى فى ضوء إشارات المحققين ، فبلغ مقدارها ما يزيد على (٦٠) تفريعا[١] ، ومنها ما لم يذكر فى معاجم اللغة نحو : "الرشَنُ : تقبيل[٢] ،ومنها ما أورده بمعنى يختلف عما تدوالته كتب اللغة ، نحو المألوق : الكذاب[٣] : وهو المحدود ، ومنها ما يتفق مع اللغويين فى بعض الدلالة.

ومن المفاريد التى ذكرها الشيبانى ما ساقه بمعنى جديد ، نحو الحبار : البشر (١/ ١٨٥) ، وفى كتب اللغة : الأمر ، وقد يكون المعنى عاما فى المصنفات اللغوية ، وقد خصصه الشيبانى فى مفاريده ، نحو : الركحة فى الإناء من الماء واللبن على الثلُث ، والغُرفة أقل منها (٢/ ١٥) على حين لم ينص اللسان ، وكذلك التاج على ذلك ، ولا يخفى أن هذه الخاصة التى اتسمت بها بعض مواد الجيم تضفى على الكتاب سمة من الثراء والقيمة اللغوية التى تتجلى بوضوح فى "العثور على صيغ ودلالات للألفاظ لا نعهدها فى غيره من المعاجم مما اختصت به بعض القبائل من الغريب والنادر"[٤].

ولعل هذه السمات التى صبغت بها بعض مواد الجيم من الغرابة والبداوة والتفرد تجرنا إلى التعرف على خاصة الضبط فى هذا المعجم ، إذ إن هذه الشرائح من التنوعات اللغوية تحتاج إلى ضبط دقيق حتى يمكن نطقها والإفادة منها بطريقة سوية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن السمة الغالبة ، بل المسيطرة على ظاهرة الضبط بين دفتى الجيم هى طريقة الضبط بالشكل ، أى بالحركات التى اختطها الخليل

---

(١) ينظر : ١/ ٥٥ _ ٥٩ _ ٦٤ _ ٦٦ _ ٦٧ _ ١٨٥ ، ٢/ ١١ _ ١٥ _ ٤٦ _ ٥٩ _ ٦٤ _ ٦٦ _ ٦٧ _ ٦٨ _ ٨٣ _ ١٠٠ _ ١٠٣ _ ١٠٨ _ ١١٠ _ ١١٥ _ ١١٦ _ ١١٩ _ ١٢٣ _ ١٢٦ _ ١٢٧ _ ١٢٨ _ ١٣١ _ ١٣٤ _ ١٣٨ _ ١٤٦ _ ١٤٧ _ ١٤٩ _ ١٥٠ _ ١٥١ _ ١٥٥ _ ١٥٧ _ ١٦٠ _ ١٦١ _ ١٧٤ _ ١٨٥ _ ١٩٦ _ ١٩٧ _ ٢٠٢ _ ٢٠٣ _ ٢٣٦ _ ٢٤٩ _ ٢٧٠ _ ٢٧١ _ ٢٧٢ _ ٢٧٦ _ ٣٢٣ _ ٣٢٤ _ ٣٣٠ .

(٢) الجيم : ٢/ ١١ .

(٣) السابق :١/ ٥٩ .

(٤) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٣٠٠ .

بن أحمد ، وهذه السمة مطردة على امتداد المعجم ، وقد قمتُ بتتبع دقيق لطرائق الضبط الأخرى بين ثنايا الكتاب ، فلم أعثر منها إلا على عدد ضئيل لا يمثل ملمحا لوسيلة من وسائل الضبط المتنوعة ، وسيعرض البحث فى الجدول الآتى رقم (١٣) إحصائية لبعض وسائل الضبط فى ضوء الأبواب الخمسة الأولى من (باب الألف إلى نهاية باب الجيم) لنقف على ملامح الندرة فى توظيف وسائل الضبط ، ومن رموز الجدول :   ض.ل = الضبط بلسان القلم

ض.ع = الضبط الإعجامى   م = بالمثال   ف = بالفعل

جدول رقم (١٣)

ب	ع.م	ض.ل	ض.ع	ض.م	ض.ف	ج.ض	
ا	١٢٣	٢	٣	١	١١	١٧	
ب	١٤٤	٢	-	-	٩	١١	
ت	٤٧-	١	-	-	-	١-	
ث	٥٦-	-	-	-	-	-	
ج	١٧٨	٢	-	-	-	٢-	
ج.م	٥٤٨					٣١	ن.م=٠,٠٥٪

ومن الوضوح بمكان ضآلة الوسائل الضبطية المستخدمة ، إذا راعينا حجم المواد اللغوية لهذه الأبواب ، إذ لا تمثل النسبة حوالى ٠,٠٥ ٪ ، مع ملاحظة شيوع الضبط بالشكل فى المعجم ، فقلما تخلو كلمة من الضبط بالحركات ، ولعل ذلك من حرص المحققين على الضبط .

ومن نماذج الضبط الإعجامى فى باب الألف ١/ ٦٩ "وقال أبو الجراح : قد استأودن، إذا نفرن وعدون ، الهمزة قبل الواو " ومنه ١/ ٦٧ "وقال أبو حزام : أثوتُ به عند الأمير إثاوة ، وإثاءً ، ممدود .

ومن الضبط بلسان القلم فى باب الباء ١/ ٩٢ ، وقال : أقول إذا هدر الفحل فاشتد هدره ، ولا يكون فوقه : بِذِخْ بِذِخْ ، الباء مكسورة ، والذال مكسورة ، والخاء مجزومة .

ومن الضبط بالمثال الشهير فى باب الألف ١/ ٦٧ ، وقال : أسَّ فلانٌ علىَّ فلانا حتى أغضبة ، يؤُسُّ ، مثل : أَزَّه يؤزُّه .

وهكذا يستخدم الشيبانى بعض طرائق الضبط بصورة نادرة ، ولذا تضخمت استدراكات المحققين على كتاب الجيم فى ميدان الضَّبط ، لإهمال بعض التنوعات اللغوية ، أو الاقتصار على الضبط بالشكل دون النص على ذلك بلسان القلم . وقد تتبعتُ بعض ما فات الشيبانى من تقييد للضبط أو نصٍّ عليه فى ضوء إشارات المحققين ، وسيتولى الجدول رقم (١٤) بيان حجم المستدركات على هذه الخاصة فى الأبواب (من أ : ر) على النحو التالى :

ومن رموز الجدول مس = مستدرك ، ج:س = جملة المستدرك

ج م = جملة المواد ، ن م = نسبة المستدرك

جدول رقم (١٤)

ب	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ج س	ج م	ن م
مس	٣١	١٨	٣٢	٢٥	٥٣	٨٥	٤٥	٦٥	١١	٧٣	٤٣٨	١٤٦٣	٣٠,٠٪

وبالتأمل فى بيانات الجدول السابق يتبين لنا أنَّ حجم المستدركات ليس قليلا ، إذا قيس بمقدار المواد التى وردت فى هذه الأبواب ، ومن ثمّ كانت النسبة المئوية للاستدراكات عاليه بلغت ٣٠,٠٪ ، ولو أردنا التأكد من هذه الثابتة لعقدنا موازنة بين مجموع ما ضبطه الشيبانى وما فاته من تقييدات ضبطية فى ضوء الجدول رقم (١٥) على النحو التالى ، ورموزه :

ب = الباب ، م.ض= مجموع الضبط ، م.مس = مجموع المستدركات

جدول رقم (١٥)

ب	أ	ب	ت	ث	ج	م.ض
م.ض	١٧	١١	-١	-	-٢	٣١
م.مس	٣١	١٨	٣٢	٢٥	٥٣	١٥٩
ن.م	٪٠,٥٥	٪٠,٦١	٪٠,٠٣	٪٠	٪٠,٠٤	٪٠,١٩

وعلى هدى ماورد فى هذا الجدول يتضح جليا ضآلة الوسائل الضبطية التى استخدمها الشيبانى عدا وسيلة الضبط بالشكل ، أى بالحركات ، إذ إن نسبة ماضبطه بالقياس إلى ما فاته لا تتجاوز ١٩,٠ ٪ ، ومن ثم يمكن القول بأن الشيبانى لم يعتد بالضَّبط فى معجمه ، ولعل من ملامح ذلك إهماله لشريحة المثلثات فى كتابه ، إذ لم يعرها عناية ما فى جانب الضبط ، بل أغفل ضبطها إغفالا كاملا ، والجدول التالى رقم (١٦) سيقوم بحصرها وبيان مواقعها فى كتاب الجيم . ورموزه :

مث = المثلث ، جـ.ص= الجزء والصفحة لتتبعها بين دفتى الجيم

جدول رقم (١٦)

مث	ج.ص	مث	ج.ص
مأربة	١/ ٦٥	الحثوة	١/ ١٢٧
البرحين	١/ ٨٤	خِطبًا	١/ ٢١٩
الرغوة	١/ ١٠٧، ٣٠١		

ولا يخفى أن المثلثات من التنوعات اللغوية التى يُعنى بها المعجميون ، بيد أن الشيبانى لم يشر إلى هذه الخاصة فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه بعد عرض إحصاءات المادة وفروعها، وبيان المكرر منها، والمقحم، وكيفية الضبط أن نُعرِّج على خاصية الشرح والتفسير فى معجم الجيم علنا نقف على ملامح هذه الظاهرة فى معالجة المادة بين ثنايا الجيم.

وقد تتبعتُ بعض الأبواب للتعرف على ملامح هذا الجانب ، فلاحظتُ أن السمة الغالبة على الشيبانى فى شرح المادة وتفسيرها هو الطابع السياقى ولعل هذا أمر طبعى، إذ إن مواد الكتاب يغلب عليها طابع الغرابة والبداوة، ومن ثمّ كان السياق هو المعين الأول على توضيح مدلول المواد، غير أنه لم يقتصر على هذا الجانب فحسب، إذ إن هناك وسائل أخرى منها: التعريف

بالمرادف أو بالكلمتين أو الجملة والسياق، وقد يستطرد تمثيلا وسردا متوخيا الغاية والوضوح، ومن نماذج وسائله فى الشرح بالمرادف ١/ ٥٣ : (الأوق: الجور)، ١/ ٨٥ (الأزوح: الحرون) ومن التعبير بكلمتين : (الأزمة : سلاسل الحلق) ١/ ٥٩ ومن الشرح بالعبارة الطويلة : الأميم : (الذى يدنو دماغه فلا يسمع ولا يستطيع الكلام) ١/ ٦٠ ومن السياق: الأرْثة: (أن يعطى الرجل الثوب أو الدابة يبيعها فيسمى له شيئا يأمره أن يبيعه به، فتلك الأرثة) ١/ ٥٥ .

كما يلجأ الشيبانى - أحيانا - إلى عرض المعنى أولا ثم الإتيان بالكلمة المراد تفسيرها ، ومن هذا القبيل : ١/ ١٣٢ (وإذا كانت السفينة خالية ، قالوا: هى جراب ، وإذا كانت شاحنة ، قيل هى آمد . . . وقال : الخشبة المعترضة فيها تشدُّها سكَّة ، وهى جنبها إلى جنبها "والأمثلة على ذلك موفورة لا تُحصى بين ثَنَايا المعجم ، وقد تتبعتُ طرائق الشرح والتفسير على امتداد المعجم ، فلاحظتُ اطراد ما أشرت إليه وغلبة الجانب السياقى على خصيصة التفسير وإليك هذا الجدول الإحصائى (١٧) لرصد طرائق التعريف والتفسير فى الأبواب من (أ : ج) للتثبت مما أشرت إليه ، ورموز الجدول :

ت م = التعريف بالمرادف ، ت ك = بكلمتين ، ب = الباب

ت = التفسير ، ج.م = جملة المواد . ج.س = بالجملة السياقية

جدول رقم (١٧)

ب	م	ت:م	ت:ك	ج.س	ن-م٪	ن-ك٪	ن-ج س٪
أ	١٢٣	٥٨	٢٩	٨٧	٪٠,٤٦	٪٠,٢٢	٪٠,٧٨
ب	١٤٤	٥٨	٢٨	٩٠			
ت	-٤٧	١٩	-٨	٣٥			
ث	-٥٦	٣٠	١٤	٤٥			
ج	١٧٨	٨٩	٤٤	١٧١			
ج.م	٥٤٨	٢٥٤	١٢٣	٤٢٦			

وبالتأمل فى بيانات الجدول السابق نلحظ شيوع التفسير بالجملة والسياق بين ثنايا الأبواب إليها ، وعلى هذا الدرب كان نظام الشرح والتفسير على امتداد أبواب المعجم ، إذ مثَّلت نسبة التعريف بالجملة والسياق ٧٨,٠٪ فى الأبواب الخمسة جدول (١٧).

ومن طرائقه النادرة فى التفسير التعريف بعرض الأجزاء ١/ ٨٧ "وقال أبداء الجزَوُر ، الواحد : بدء ، والأبداء عشرة : وركاها ، وفخذاها ، وساقاها ، وكتفاها ، وعضداها" ومن ذلك ١/ ٩٩ : "قال : قصب القوائم : الساق ، والفخذ ، والوظيف ، والعضد والذراع" .

وهناك مواد أهمل الشيبانى تفسيرها وشرحها ، وهى من صلب الباب ، ومن ذلك فى (باب العين ٢/ ٢٩٢) : العُسُوم ، المعصرات ، عكاه ، العِثكال) إلى غير ذلك ، وقد قام المحقق بتفسيرها فى ضوء المعاجم الأخرى ، وأثبت ذلك فى الهوامش (١) ، (٣) ، (٥) ، (٨) ٢/ ٢٩٢ .

ومن المواد ما شرحها شرحا غامضًا مبهما نحو التَّزغْلُم : التَّزغُّم ٢/ ٥٩ .

وقد قام المحققون بتوضيحها ، إذ إن الزغلمة فى معاجم العربية تعنى : الشك والوهم كما - أحيانا - يشرح المادة شرحاً مبتورا ، نحو : العُقَاف : داء ٢/ ٢٩٤ ، أو يكتفى - أحيانا - بعرض المادة فى السياق دون تعقيب ، ومن ذلك : " العقْبة : تقول : إن عليه لعقبةً من جمال ، وعقبة المجد ، وقال عمرو بن شأس :

وقوم عليهم عِقبة المجد مقتَفى بند مائهم لا يخضعون لهم نعلا

ولم يعقب على المادة شرحا أو تفسيرا ، واكتفى بايرادها فى السياقين النثرى والشعرى .

وهكذا بدت للعيان خصائص المادة اللغوية فى الجيم حصرا وتفريعا وتكراراً وخلطا ، وضبطا وتفسيرا فى ضوء البيانات الإحصائية فى الجداول الموضحة ، فماذا عن الشواهد اللغوية ؟

ثانيا ـ الشواهد القرآنية :

احتفى معجم الجيم بالشواهد اللغوية المتنوعة بين ثناياه ، ولعل السبب الرئيسى فى ذلك قيمة الشاهد فى بناء المعجم اللغوى ، إذ عليه مدار مصداقيته، وأمارة موثوقيته ، لاسيما إذا كانت مواده تتسم بالغرابة أو البداوة، مثل معجم الجيم .

وعلى الرغم من وفرة الشواهد فى هذا المعجم ، فإن الشواهد القرآنية بين دفتيه ضئيلة بل نادرة إلى حد كبير ، إذ دلت الإحصائية الدقيقة بعد التتبع لأبواب الكتاب على كمٍّ الشواهد القرآنية فى المعجم ، إذ لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدًا ، فقد بلغت ثلاثة شواهد ، وإليك مواطنها فى الجدول الإحصائى رقم (١٨) التالى ، ورموزه الجديدة : ي= الآية،

س.ر= السورة والرقم ، ج.ص = الجزء والصفحة ، د= المادة .

جدول رقم (١٨)

ب	ي	س.ر	ج.ص	د
أ	فَأَجَاءَها المخاضُ إلى جِذْعِ النَّخلة	مريم ٢٢	١/ ٧٠	أجا
غ	إِنَّما الخمْرُ والمَيْسِرُ	المائدة ٩٠	٣/ ١٥	غدو
ق	وكان بين ذلك قوامًا	الفرقان ٦٧	٣/ ٧٥	قوم

وقد تتبعتُ تلك الشواهد فى مظانها المشار إليها ، فجاء الشاهد الأول للدلالة على أن الإجاءة تأتى فى لغة أهل الحجاز بمعنى الاضطرار ، يُقال : ما أجاءك إلى كذا وكذا ، أى ما اضطرك إليه ، أما الشاهد الثانى فقد ساقه الشيبانى للدلالة على حكم فقهى[1] ، كما أورد الشاهد الثالث فى سياق لتوضيح الدلالة المقصودة من صيغة (القوام)[2] .

(١) ينظر ٣/ ١٥ عرض الشيبانى لوناً من ألوان البيع والشراء فى الجاهلية يُسَمى بالغدوى ، نهى الله عنه فيما حرَّم من الربا ، كما كانوا يتبايعون بالملقوح . . . إلخ ثم يسوق الآية فى معرض التحريم لهذه المعاملات .

(٢) ينظر ٣/ ٧٥ "والقوام : رأى القوم وسيدهم . . والقَوَام : مايُعيشُهم ، ويسوق الآية تعضيدا لذلك المعنى .

ولعل السّر فى ندرة الشاهد القرآنى بين دفتى المعجم راجع إلى الطابع النوعى لمادة الجيم ، إذ يميل إلى الغرابة والبداوة ، واللفظ القرآنى يتسم بغير ذلك ، أضف إلى ذلك أن شواهد هذا المعجم مستقاة - غالبا - من أشعار القبائل التى عكف الشيبانى على جمعها ، ومن ثمّ كان معنيا بالسياقات اللغوية للمادة فى مرويات تلك القبائل وأشعارها ، إذ إن الحقول الدلالية لتلك المواد الغريبة لا تتضح فى ضوء سياقاتها غالبا ، ومن هنا كان الشاهد القرآنى قليلا فى معجم الجيم .

ثالثا - الشواهد الشعرية :

يمثل الشعر العربى أساسا مهما فى ميدان المعجم العربى ، إذ يُعد دليلا قاطعا على المعنى المقصود للفظ فى ضوء السياق ، إذ يسوق المعجميون اللفظ مقرونا بمعناه ، ومستدلا على ذلك بالشواهد المتنوعة للتثبت والاستئناس ، ومن ثم كان للشاهد الشعرى أهميته البالغة فى ميدان المعجمية العربية .

ومن ثم يُعد إغفال هذا الجانب فى التصنيف المعجمى عيبا ، وقد أخذ على القاموس المحيط للفيروز بادى ضآلة الشواهد الشعرية بين جنباته .

وللشواهد الشعرية فى معجم أهمية أخرى تضاف إلى ما سبق ، فهى تزاحم مواده غالبا فى تكوين البناء الأساسى للمعجم ، وحالتئذ تُعد من لُحمة المعجم وسُداه ، أى : تشكل جزءا من مواده اللغوية ، وتشقيقاته المتنوعة ، وسنعرض للمادة الشعرية فى المعجم على النحو التالى :

(أ) الأبيات :

يسوق الشيبانى البيت الشعرى - أحيانا - لاشتماله على مادة لغوية معينة أو تنوع اشتقاقى لها ، ثم يعرض لها بالمعالجة ، ومن ذلك - مثلا - إيراد مادة (قعو)[1] فقد ساقها فى بيت شعرى ، ولم يعقب على البيت أو المادة من قبيل أو دبير ، كما يورد البيت - أحيانا - شاهداً لغويا ، نحو قوله : والمقامة : مجتمع الناس ، قال :

إذا حَلّ تعْى المقـــامة بيته　　　ولكن هو الأدنى بحيث تئوب[2]

---

(١) الجيم ٣/ ٨١ .

(٢) السابق : ٣/ ٨١ - ٨٢ .

ومنه : القذع : الشتم ، قال :

ولا أتحرى مطعما أن أذوقه على قذع تأبى الحفيظة والصبر[1]

ومن الأبيات ما ساقه شاهدا نحويا (٣/ ٧٩) :

وقال :يا زيدُ الظريفَ ، فنصب النعت ، وأنشد هذا البيت نصبا :

ألا يا هاشُ الأخيارَ صبرا فكل بلائكم حسن جميل

فنصب النعت ورفع الاسم .

ومن الشواهد ما أورده على سبيل الاستطراد ، دون حاجة لإيراده ١٤٦/١.

وقال : أيهم ما يكونوه ، فقد علموا أن أخانا لفى عز ومولانا

ومن ذلك (٣/ ١٩) وقال :

وتولّى الثلج أثباجا ثقالا يزل الثلج عنها ما يليق

ومن الأبيات ما ساقه فى غير موطن مع اختلاف الرواية إذ أورد بيت الأخطل ١٤٩/١ .

ليالى لا يجذى القطا لفراخه بذى أبهر ماءً ولا بِجِفان

وفى ١/ ١٧٧ :

ليالا يجدرى القطا لفراخه بذى أبهر ماءً ولا بِحِقان

وفى ضوء هذه الوظائف المتعددة للبيت الشعرى فى معجم الجيم ، واعتماد الشيبانى على شعر القبائل واقترافه منه جمعا وشرحا واستطراداً استوعب المعجم من الشعر قدرا موفوراً ، تمكنت الدراسة الإحصائية من الوقوف على حجمه فى ضوء الجدول الآتى رقم (١٩) ، ورموزه :

ق = القافية ، ع.ت= عدد الأبيات م= منسوب

غ.م = غير منسوب د.ن= دون نسبة م.ج= المجموع

ن.م= النسبة المئوية.

---

(١) السابق : ٣/ ٨٧ .

جدول رقم (١٩)

ق	ع.ت	م	غ.م	ق	ع.ت	م	غ.م
ء	٢٧	١٨	ـ٩	ض	١٣	ـ٩	ـ٤
ب	٢٥٥	١٦٢	٩٣	ط	ـ٨	ـ٦	ـ٢
ت	٢٠	ـ٩	١١	ظ	-	-	-
ث	ـ٣	ـ٣	-	ع	١٣٦	٩٥	ـ٤١
ج	٤١	٣٢	ـ٩	غ	-	-	-
ح	٦٥	٣٦	٢٩	ف	٦٢	٤٥	١٧
خ	ـ٢	ـ٢	-	ق	١٠٦	٧٢	٣٤
د	١٧٩	١٢٤	٥٥	ك	١٨	١٤	ـ٤
ذ	-	-	-	ل	٣٤٣	٢٤٧	٩٦
ر	٣٤٩	٢٣٧	١١٢	م	٢٩٩	٢٠٨	٩١
ز	ـ٥	ـ٣	ـ٢	ن	١٤٥	١٠٥	٤٠
س	٦٦	٣٩	٢٧	هـ	١١	ـ٦	ـ٥
ش	ـ١	-	ـ١	ي	٢٩	١٦	١٣
ص	ـ٨	ـ٦	ـ٢	أ	ـ٧	ـ٤	ـ٣
				مجهول القافية	ـ١	-	ـ١
ج م.ج	١٠٢١ ١١٧٨	٦٧١ ٨٢٧	٣٥٠ ٣٥١	ج	١١٧٨	٨٢٧	٣٥١
	٢١٩٩	١٤٩٨	٧٠١				
ن.م	٠,٥٤٪	٠,٦٨٪	٠,٣٢٪				

التحليل الإحصائى

فى ضوء الجدول الإحصائى السابق تشير بياناته إلى كثافة أبيات الجيم. فقد وصل مقدارها (٢١٩٩) بيتا ، ولو أردنا الوقوف على نسبة هذه الكثافة فى ضوء مجموع المواد الذى أشار إليه الجدول رقم (١) لتبين لنا أن النسبة المئوية لهذا الكم من الأبيات هى ٠,٥٤٪[1] تقريبا ، لأن مجمل المواد المشار إليها (٤١٠٨) مادة .

(١) ٢١٩٩/٤١٠٨×١٠٠/١٠٠ = ٠,٥٤٪ تقريبا .

أبرزت الإحصائية فى الجدول رقم (١٩) مدى وثاقة الشيبانى ومصداقيته، إذ يصل حجم المعزو من جملة الأبيات الواردة (١٤٩٨) بيتا ، على حين يصل حجم غير المنسوب (٧٠١)، ومن ثم كانت النسبة المئوية للمعزو (٦٨, ٠ ٪) وغيره (٣٢, ٠ ٪) وتلك أمارة على وثاقة الشيبانى .

وفى ضوء التتبع للشواهد فى الكتاب أمكن التثبت من مصداقية العزو. ففى الجزء الثانى - مثلا - (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١) يعزو الشيبانى اثنى عشر بيتا إلى قائليها ، وقد أحالها المحققون إلى مواطنها فى دواوين أصحابها ، مؤكدين بذلك صحة النسبة من جانب ، وثبوتية الشيبانى ومصداقيته فى الرواية من جانب آخر.

وفى الجزء الأول (١/ ٢٠٢ - ٢٠٣) يسوق الشيبانى ثمانية عشر بيتا منسوبة إلى زهير ، لبيد ، كثير ، معَن ... إلخ ، وقد أمكن تتبع الشواهد فى دواوينها ، وفى إشارات المحققين ما يؤكد ذلك ، ومنها فى باب الحاء :

وقال زهير فى الحُوب ، وهو الإثم :

ويقيك ما وقَّى الأكارم من

حُوبٍ تُسَبُّ به ومن غَدْرِ[1]

ومنها : الحزيم : القلب ، قال لبيد :

وكم لاقيتُ بعدك من أمور

وأهوال أشد لها حزيمى[2]

ومنها : الحسافة : بقية الماء ، وقال كثيرٌ :

إذا النَّبْل فى نحر الكميت كأنها

شوارع دبْر فى حسافةِ مُدْهُنِ[3]

ومنها : وقال مِعْنٌ فى الحجم :

---

(١) الديوان ٩٢ ، وراجع الجيم ١/ ٢٠٢ .

(٢) الديوان ٢٤٣ ، وينظر الجيم ١/ ٢٠٢ .

(٣) الديوان ٢٥١ ، وراجع الجيم ١/ ٢٠٢ .

لها كفلٌ رابٍ وســـاقٌ عميـــمةٌ

وكعبٌ علاها اللَّحمُ ليس لها حجمُ(١)

وهكذا كان للشاهد الشعرى ممثلا فى الأبيات دورٌ بالغ فى بناء المعجم ودلالة واضحة على أهمية الكتاب ورثاقة الشيبانى .

ب - أنصاف الأبيات :

ورد ـ أيضا ـ بين ثنايا معجم الجيم مجموعة من أنصاف الأبيات تناثرت على امتداد أبوابه ، وشاركت فى تكوين مادته الأساسية . ولم تخرج فى توظيفها واستخدامها عن أغراض وظيفة الأبيات التى أشرنا إليها ، فقد ساقها الشيبانى للاستشهاد بها ، أو لاشتمالها على مادة لغوية أراد وضعها فى مواد معجمه.

وقد تتبعتْ تلك الدراسة الإحصائية مواطن هذه الشريحة من الشواهد فى كتاب الجيم للوقوف على حجمها وملامحها ، وإليك الجدول رقم (٢٠) مشيرا إلى مقدارها ، ونسبة المعزو منها .... إلخ ، ومن رموزه : ج= الجزء

جدول رقم (٢٠)

ج	ع	م	ن.م	غ.م	ن.م	
١	٣٢	ـ٧	٠,٢٢	٢٥	٠,٧٨	
٢	٣١	١٦	٠,٥٢	١٥	٠,٤٨	
٣	٣٠	ـ٨	٠,٢٧	٢٢	٠,٧٣	
الجملة	٩٣	٣١	٪٠,٣٣	٦٢	٪٠,٦٧	

التحليل الإحصائى :

يشير الجدول السابق إلى ضآلة هذه الشريحة بالقياس إلى الأبيات ، وتصل نسبتها على هدى مجموعة المواد لكتاب الجيم حوالى (٠,٠٢٪) ، بيد

(١) الديوان ٤ ، وينظر الجيم ١/٢٠٢ .

أنها تمثل حرص الشيبانى على نوعية المادة فى معجمه من جانب ، وواقع معينه اللغوى المتنوع من جانب آخر .

وقد بدت ظاهرة العزو فى تلك الشواهد ضئيلة ، إذ تمثل ٣٣,٠ ٪ على حين بلغت نسبة غير المعزو منها ٦٧,٠ ٪ ، ولعل السّر فى ذلك أن الشيبانى كان يهدف فى المقام الأول رصد المادة اللغوية فى سياقات تلك الأنصاف دون اعتداد بقائليها .

وفى ضوء التتبع لتلك الشواهد لاحظنا أن المعزو منها كان أحيانا للفرزدق ، وكثير ، وطرفة ، والشماخ ، وعنترة ، والحطيئة ، إلى غير ذلك من الشعراء (١).

رابعا : الأرجاز :

من الشواهد ما ساقه الشيبانى على هيئة أرجاز توضيحا للمعنى ، أو إضافة لتنوع لغوى ، أو إقحاما واستطراداً ، بيد أن هذه الأرجاز لم تبلغ فى عددها نسبة الأبيات الكاملة ، وإن استخدمت استخدامها ، وعدت لبنة أساسية فى بناء المعجم ، فقد كان الشيبانى - أحيانا - يستجلب منها مقطوعات كاملة ، وصل مقدارها خمسة عشر سطراً ، بالإضافة إلى المواقع المتعددة فى الكتاب التى شُغلت بالنماذج المتنوعة ذات الشطر الواحد وغيره ، ويضم الجدول الآتى رقم (٢١) صورة واقعية لنماذج بعض الأرجاز التى وردت ومواطنها فى الكتاب دليلا على ما أشرت إليه ، ومن رموزه :

ع.ش = عدد الأشطار، ج.ص = الجزء والصفحة

جدول رقم (٢١)

ع - ش	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	١٤	١٥
ج - ص	١/ ٣١٠	٣/ ١١٣	٢/ ١٠٩	٢/ ٩٨	٣/ ٢٤٧	٣/ ٢١٢	٢/ ٢٧٣	١/ ١٥٦	١/ ١٩٤	١/ ٢٧٨

(١) ينظر : الجيم : ٢/ ١٨٥ ، ٢٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣/ ٢٦٦-٢٨٩ .

وبالتأمل فى أحجام النماذج التى وردت بين ثنايا المعجم لوحظ وفرة المقطوعات ذات السطرين وشيوعها بالنسبة للنماذج الأخرى ، وللتعرف على أهمية الأرجاز ودورها فى تكوين المادة اللغوية للجيم نسوق بعض النماذج الوظيفية لها . إذ جاء بعضها شاهدا على مدلول المادة ، نحو (٢/ ٩٥) "وقال السّعدى: السبيج : أن تأخذ بردة فتتخذها درعا ، وهو قول العجاج : كالحبشى التف أو تسبجا ، ومن ذلك (٢/٣١٦)" والعثج : الجماعة ، قال : فجئنه من كل فج عثجا .

ومن هذه الأرجاز ما أورده الشيبانى مادةً أساسية من مواد معجمه ، نحو (٢/ ٣٢٢) وأنشد فى العمارس[1] :

سُبيتُ إن تركت عبدى جالسا

حتى يرى لا يبعث العمــارسا

ومن ذلك ـ أيضا ـ (٣/ ١٦٩) ، وقال فى الكِلاح :

وعصمــة فى زمن الكـــلاح[2]

حتى تهــب شــمال الرِّيــاح

ولم يعقب الشيبانى على التنوعين (العمارس ، والكلاح) بشرح أو تفسير .

ومن النماذج ما أورده فى غير موطن نحو (٢/ ٣) ، (٢/ ٨) إذ كرر مادة (روغ) وكررّ معها الرجز المستشهد به : والروغ : كرٌّ ، وأنشد :

واستعجِــلا وملّــئا سَلْمـيكما والروغَ إنى عــاتب عليــكما

ومن النماذج ما أورده مقحما فى غير بابه خلطا واستطرادًا ، نحو ما ورد فى باب الباء[3] إذ ساق مقطوعة ليس فيها شئ من مواد الباب :

قال :

---

(١) العمارس : جمع عمروس وهو الخروف أو الجدى إذا بلغا العدو ، وهو من الإبل ما قد سمن وشبع وهو راضع بعد . ينظر هامش المحقق (١١) نقلا عن اللسان .

(٢) الكُلاح : كغراب : السنة المجدبة : ينظر هامش المحقق(٢) نقلا عن القاموس .

(٣) ينظر : الجيم ١/ ٩٠.

لما رَأى أشــجع أمـرا أعــوجَا

وقربــت حمارهـــا ليُســرَجَا

موثق الأرساغ لاَ يشكو الوجا

قالت بنى أيـما أبغــى النجـــا

خبراء استصـلح منها هوبجـــا

إلا أجد سِدْرا أصداف هوسجا

وقد تتبعت تلك الدراسة مواقع الأرجاز فى ضوء الجدول الآتى رقم (٢٢) مع بيان المعزو منها وغيره ، وتوضيح النسبة المئوية العامة لكليهما ، ومن رموزه : ق= القافية ، ع.م = عدد الموقع ، ع.ف = العدد الفعلى

م= منسوب، غ.م= غير منسوب،

جدول رقم (٢٢)

ق	ع - م	م	غ - م	ع - ف	ق	ع - م	م	غ - م	ع - ف
ء	-٣	-٢	-١	-٧	ض	١٨	-٤	١٤	٣٨
ب	٨٢	١٩	٦٣	١٧٩	ط	١٩	-٦	١٣	٢١
ت	١٤	-٦	-٨	٢٨	ظ	-١	-١	-	-١
ث	-٨	-٣	-٥	١٧	ع	٥٢	٢٢	٣٠	٨٨
ج	٤٥	١٧	٢٨	٩٩	غ	-	-	-	-
ح	٢٩	١٥	١٤	٦٠	ف	٤١	١٣	٢٨	٧١
خ	-٧	-٢	-٥	١٨	ق	٤٤	١٠	٣٤	٩٣
د	٧٠	١٩	٥١	١٦٤	ك	١٦	-٢	١٤	٤١
ذ	-٤	-٣	-١	-٧	ل	٩٨	٣٣	٦٥	١٨٨
ر	١٢١	٣٢	٨٩	٢٥٧	م	١١٢	١٦	٩٦	٢٣٥
ز	١٤	-٢	١٢	٢٦	ن	٥٦	١٦	٤٠	١٢٣
س	٥٤	٢١	٣٣	١٠٨	هـ	١٣	-٤	-٩	٣٨
ش	-٨	-	-٨	١٧	ي	٢٥	-٦	١٩	٦١
ص	١١	-٣	-٨	٢١	أ	-٥	-١	-٤	١١
ج	٤٧٠ ٩٧٠	١٤٤ ٢٧٨	٣٢٦ ٦٥٢	١٠٠٨ ٢٠١٧		٥٠٠	١٣٤	٣٦٦	١٠٠٩
ن.م	-	٪٠,٢٩	٪٠,٧١						

التحليل الإحصائى

فى ضوء الجدول الإحصائى السابق رقم (٢٢) يتبين لنا مدى شيوع الأرجاز وكثرتها بين ثنايا الجيم ، إذ بلغ عدد المواقع التى تناثرت فيها (٩٧٠) موقعا ، تفاوتت فيها عدد الأشطار قلة وكثرة ، وبلغ مقدارها الفعلى (٢٠١٧) شطرا ، تنوعت حسب القوافى الواردة فى الإحصائية .

كما تراوحت عدد المواقع وفق القافية ما بين موقع واحد لقافية الظاء ، إلى (١٢١) موقعا لقافية الراء ، ولوحظ عدم اعتداد الشيبانى بعزو الأرجاز إلى أصحابها ، إذ وصلت النسبة المئوية لغير المعزو (٠,٧١ ٪) ، إذ كان الهدف الرئيسى للشيبانى ـ كما يبدو ـ هو إضافة ما فى هذه الأرجاز من مواد إلى كتابه فى المقام الأول .

تصل نسبة مواقع الأرجاز فى الكتاب على ضوء مجموع المواد الذى أشار إليه الجدول رقم (١) حوالى (٠,٢٤ ٪)[1] تقريبا ، على حين تصل هذه النسبة فى ضوء الفروع اللغوية لهذه المواد على هدى الجدول رقم (٢) ، واستبعاد المكرر الذى ورد فى الجدول رقم (٣) إلى (٠,٠٨ ٪)[2] تقريبا .

بلغت النسبة المئوية لمجموع الأشطار المكونه لهذه الشريحة فى ضوء مجموع المواد اللغوية للكتاب حوالى (٠,٠٤٩ ٪)[3] تقريبا ، على حين تصل هذه النسبة فى ضوء الفروع اللغوية لهذه المواد حوالى (٠,١٧ ٪)[4] تقريبا .

ولا يخفى أن نسبة المواقع وتعددها بأرجازها بين دفتى الكتاب عالية ، وكذلك عدد الأشطار فى ضوء المجموع العام للمواد أيضا عالية ، وكلا الأمرين يوضحان قيمة الرجز وأهميته فى المد اللغوى لكتاب الجيم .

وقد روى الشيبانى عن كثير من الرجازين ، أمثال : العجاج ، رؤبة ، منظور ، أم الكميت ، ذى الإصبع . أبى النجم ، كما روى عن كثير من الشعراء كلبيد ، والحطيئة ، والأعشى ، وكثيِّر ، وقد استخدم كثيرا من أرجازه

---

(١) ٩٧٠/٤١٠٨ × ١٠٠/١٠٠ = ٠,٢٤ ٪ تقريبا .

(٢) ٩٧٠/١٢٠٢١ × ١٠٠/١٠٠ = ٠,٠٨ ٪ تقريبا .

(٣) ٢٠١٧/٤١٠٨ × ١٠٠/١٠٠ =٠,٤٩ ٪ تقريبا .

(٤) ٢٠١٧/١٢٠٢١ × ١٠٠/١٠٠ = ٠,١٧ ٪ تقريبا .

فى التفسير الدلالى .

ومن نماذج ذلك ١/ ١٩١ " والتَّحمير ، دَبغ ردىء ، وأنشد :

إنك لو حمـــرتّه بفـلفـل

ثمت قَلتَ يافلُ بنَ نهشـل

غَفِّل فهذا بعض ما تُغَفَّـل

فقد أورد الشيبانى المادة ، ثم ساق لها شاهدا من الرجز ، وهذا لون من ألوان توظيفه للأرجاز بين ثنايا معجمه ، بالإضافة إلى الاستخدامات الأخرى المتنوعة التى أضفتْ على الكتاب مسحة من الثراء لاسيما فى ميدان الغريب.

خامسا : الأمثال :

أورد الشيبانى بعض الأمثال العربية بين دفتى معجم الجيم ، بيد أنها قليلة ، إذا قيست بالشواهد الشعرية ، إذ لا تتجاوز (٥١) مثلا ، وتصل نسبتها المئوية فى ضوء المواد اللغوية للكتاب حوالى (٠,٠١٪)[١] تقريبا.

وقد تنوعت مواقعها بين ثنايا المعجم على النحو الذى يشير إليه الجدول الآتى رقم (٢٣) ، ورموزه :

ج = الجزء — ع.م= عدد الأمثال

ص = الصفحة — م= المجموع

جدول رقم (٢٣)

ج	ع.م	ص
١	١٦	٧، ٧٣، ١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٦٦، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٨، ٢٤٨، ٢٦٠.
٢	٣٣	٤٦ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ١٢٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
٣	ـ٢	١٠٦ ، ٢٤٣ .
م	٥١	
ن.م	٠,٠١٪	

(١) ينظر : ١/ ١٩٢ ، ٣/ ١٧٠ .

التحليل الإحصائى

فى ضوء الجدول السابق تعددت المواقع التى شغلت بالأمثال على امتداد الكتاب بيد أننى لاحظتُ حالة التنبه لهذه الشريحة فى نظامها تكدس بعض الأمثال منها فى موقع واحد ، أو موقعين ، ففى الجزء الأول حوت الصفحة (٧٣) خمسة أمثال ، كما حشد الشيبانى منها (٢٧) مثلا فى صفحتين من باب العين (٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، أى حوالى (٠,٥٣٪) من مجموع الأمثال فى هذا الموطن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المواقع التى تضخمت بالأمثال فى إشاراتنا السابقة (١/ ٧٣) ، (٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) لم يكن للمجموعة التى أوردها الشيبانى فيها علاقة بمواد الباب من قبيل أودبير، إذ ساقها على سبيل الاستطراد.

وهناك من الأمثال فى مواقعٍ أخرى ما أورده مضيفا به مادة إلى مواد الباب نحو : (قد بلغ الماء الزنى فتجبّر) ٢/ ٤٦ باب الزاى ، ومن ذلك فى باب الجيم ١/ ١٢٢ : " وقال العذرى : جاهدى تصيدى" .

ومن الأمثال ما ساقه شاهداً على دلالة معينة ، نحو : "قد أُشئتَ عَقِيلُ إلى عقلك" ١/ ٧٠ ، أى : قد اضطررت إلى عقلك ، كما لاحظَتُ بعض الأمثال وقد أوردها فى سياق شعرى[1] ، نحو : "ويُقال فى المثل : حياءُ مازحة ، أنشد :

كحياء مازحة وقد نبثتها　　　　تركت قِراها ثم باتت تسرق

ولا يخفى أن الشيبانى قد أضاف بهذه الأمثال إلى معجمه ضربًا جديدا من الشواهد له قيمته الأدبية والتاريخية التى تضفى علي الكتاب مسحة من الثراء اللغوى .

---

(١) ينظر : ١/ ١٩٢ ، ٣/ ١٧٠.

٤ – تعقيب : (حول قيمة الكتاب وملامحه اللغوية فى ضوء النتائج الإحصائية) :

فى ضوء هذه الدراسة الإحصائية التحليلية بدت واضحة للعيان قيمة كتاب الجيم وأهميته فى تراثنا اللغوى ، وقد أثبتت الجداول الإحصائية التى اعتمدت عليها الدراسة وبلغ مجموعها (٢٣) جدولا ثبوتية ما أشرت إليه .

ففى الجدول رقم (١) ما يدل على غزارة المادة اللغوية بين ثنايا الكتاب، إذ بلغ مجموعها (٤١٠٨) مادة ، وفى الجدول رقم (٢) ظهر جليا ثراء المعجم فى ضوء الفروع اللغوية التى أحصاها لتلك المواد ومقدارها (١٤٣٥٢) تنوعا ، وقد أحصت الدراسة المكرر منها فوصل إلى (٢٣٣١) فرعا ليصل المقدار الأصلى للتنوعات اللغوية والفروع فى كتاب الجيم إلى (١٢٠٢١) تنوعا ، ومن ثم تكون نسبة التوليد والتشقيق فى مواد المعجم حوالى (٣٪) على ضوء الجدول رقم (٣) .

ومن الخصائص العامة لمعالجة المواد ظاهرة التكرار ، وكذلك الخلط والاستطراد ، وقد تتبعت الدراسة فى ضوء المنهج الإحصائى هذه الظواهر متوخية الوقوف على مدى شيوعها والنسبة المئوية لكل منها ، فتبين التفاوت لكل ظاهرة منها بين أبواب المعجم ، ووصلت نسبة التكرار حوالى (١٦ , ٠ ٪) كما أشارت الجداول (٤، ٥، ٦) ، وبلغت نسبة الخلط والإقحام (١٠ , ٠ ٪) على هدى الجداول رقم (٧، ٨، ٩) وقد وصلت الدراسة فى ضوء الموازنة بين ظاهرتى التكرار والخلط إحصائيا أن بينهما تناسبا عكسيا ، فارتفاع النسبة المئوية للخلط فى باب يقابله انخفاض النسبة المئوية للمكرر فى الباب نفسه ، وقد أكد الجدول رقم (٩) هذه الثابتة .

أما ظاهرة الاستطراد فقد تم حصرها فى بيانات الجدول رقم (١٠) بين ثنايا المعجم فى ضوء تتبع المواقع التى جمعت بين التكرار للتنوع والخلط فى آن واحد ، كما أبرز الجدول رقم (١١) أبعاد هذه الظاهرة وعللها مشيرا إلى أن نسبتها المئوية لا تتجاوز (٠٢ , ٠ ٪)، ولا عجب فى ذلك ، فهناك أبواب خلت منها ، وأخرى بدت فيها على استحياء ، غير أن الاستطراد مع شقيقيه التكرار والخلط يمثل أمارة واضحة فى منهجية كتاب الجيم .

وقد أثبتت الإحصائية التى ضمها الجدول رقم (١٢) أن ارتفاع نسبة الاستطراد فى بعض الأبواب مثل (العين) يرجع إلى ضآلة نسبة المكرر فيها، وقد عللت الدراسة لذلك .

وعلى هدى ما جادت به تلك الإحصائيات فى الظواهر الثلاثة ، التكرار والخلط ، والاستطراد أمكن الرد على من ادّعى أن ترتيب الكتاب ليس من عمل الشيبانى معتمدا على الظن ، ومؤسسا حكمه على نفى الخلط والاضطراب عن رجل معجمى ناضج كأبى عمرو الشيبانى ، إذ أثبتت الإحصاءات ضآلة النسب المئوية لتلك الظواهر ، مع مراعاة أن منهج الشيبانى لم يتوخ فى الترتيب الحرف الثانى الأصلى ، يُضَافُ إلى ذلك أنه يُعد من البواكير الأولى الرائدة فى التصنيف المعجمى وفق النظام الألفبائى .

وقد أشارت الجداول الإحصائية رقم (١٣ ، ١٤ ، ١٥) إلى الوسائل المتنوعة للضبط فى ضوء الأبواب الخمسة الأولى (من باب الألف حتى نهاية باب الجيم) لتقف على ملامح تلك الوسيلة وطرائقها علي هدى الإحصاءات أن الشيبانى لم يعتد إلا بالضبط بالشكل (الحركات) إذ إن النسبة المئوية لتوظيف الطرائق الأخرى نحو الضبط بلسان القلم ، أو بالمثال الشهير ، أو الوزن الصرفى لا تتجاوز (٥ , ٠ ٪) ، وقد تأكد ذلك فى ضوء المستدركات على الكتاب فى ميدان الضبط ، وكذلك إهماله للضبط فى معالجة المثلثات كما يشير الجدول رقم (١٦) .

وعالجت الدراسة طرائق التعريف والشرح على ضوء الجدول الإحصائى رقم (١٧) للأبواب الخمسة الأولى - أيضا - إذ أشارت بياناته إلى شيوع التعريف والتفسير بالجملة والسياق ، يليها التعريف والشرح بالمرادف ، حيث كانت نسبة الطريقة الأولى حوالى (٧٨, ٠ ٪) ، والثانية (٤٦ , ٠ ٪) بين ثنايا الأبواب الخمسة .

وفى ساحة الشواهد لوحظ ثراء معجم الجيم فى هذا الجانب ، لاسيما الشواهد الشعرية ، وقد أحصى الجدول رقم (١٨) النوع الأول من الشواهد وهو الشاهد القرآنى ، الذى يعد ضئيلا للغاية فى كتاب الجيم ، فلم يتجاوز ثلاثة شواهد ، ولعل ذلك راجع إلى الطابع النوعى لمادة الكتاب ، وما تتسم به من بداوة وغرابة هى أبعد ما تكون عن سمات اللفظ القرآنى .

أما الشواهد الشعرية فهى من الكثرة بمكان ، فقد وصل مقدارها فى ضوء الجدول رقم (١٩) حوالى (٢١٩٩) شاهداً ، وتمثل نسبتها المئوية على هدى مجموع المواد اللغوية فى الكتاب (٥٤, ٠ ٪) ، وعلى هدى مجموع الفروع والتنوعات (١٨, ٠ ٪) مما يضفى على المعجم قيمة أدبية ولغوية ، وقد دلت إحصاءات الجدول (١٩) أيضا على ارتفاع نسبة المعزو منها ، إذ بلغت (٦٨, ٠ ٪) مما أثبت جليا وثاقة الشيبانى وثبوتية روايته .

أما أنصاف الأبيات فقد أحصاها الجدول رقم (٢٠) وبلغت (٩٣) وتصل نسبتها المئوية فى ضوء مواد المعجم حوالى (٠٢, ٠ ٪) ، كما انخفضت نسبة المعزو منها إلى (٣٣, ٠ ٪) ، إذ لم يعتد الشيبانى بنسبتها إلى أصحابها قدر اعتداده بما ورد فيها من مواد أرادها بنياناً رئيسيا فى كيان معجمه ، وقد كانت تلك ـ فيما يبدو ـ نظرته إلى الأرجاز ، إذ احتفى بها احتفاءًا بالغا ، فقد كان يسوق منها مقطوعات متنوعة وصل عدد سطورها ـ أحيانا ـ (١٥) سطرا ، وقد أبرز الجدول رقم (٢١) صور تلك الأرجاز مع الإشارة إلى بعض مواطنها ، بيد أن الجدول رقم (٢٢) تتبع مواقع هذه الأرجاز بين دفتى الكتاب حصراً ، فبلغ مقدارها (٩٧٠) موقعا تقدر نسبتها فى ضوء مواد الكتاب بحوالى (٢٤, ٠ ٪) تنخفض إلى (٠٨, ٠ ٪) إذا روعى عدد الفروع اللغوية بالمعجم.

أما العدد الفعلى لتلك الأرجاز فى ضوء عدد سطورها الواردة بين ثنايا الكتاب فنسبتها (٤٩, ٠ ٪) بالقياس إلى المواد اللغوية ، تنخفض إلى (١٧, ٠ ٪) بالنسبة لعدد الفروع اللغوية لتلك المواد ، كما أبرزت الإحصائية ضآلة النسبة المئوية للمعزو منها ، إذ بلغت (٢٩, ٠ ٪) .

وقد أشار الجدول رقم (٢٣) إلى مواقع الأمثال فى معجم الجيم وعددها، إذ بلغ مقدارها (٥١) مثلا ، تقدر نسبتها فى ضوء مواد الكتاب (٠١, ٠ ٪) ولاحظت الدراسة شيوع الاستطراد فى شريحة الأمثال .

وبعـــــد

فإن هذه الجداول الإحصائية التى بلغ مجموعها (٢٣) جدولاً تشير إلى كثير من النتائج فى ضوء معطياتها التى تمخض عنها توصية لى فى هذا المقام على النحو التالى :

أولا - النتائج :

١ - كتاب الجيم يمثل مرحلة لها ملامحها المميزة على درب التصنيف المعجمى منهجا ومادة وملامح لغوية تكرارًا وإقحاما واستطرادًا وضبطاً واستشهادًا .

٢ - لكتاب الجيم قيمته فى دراسة التطور الدلالى لبعض الألفاظ ، إذ يؤصل للدلالة فى كثير من إشارته ، كما فى مادة (ميع) ، (أزم) ، (ق ن ع)، (ن و ح) . . . . . إلخ

٣ - لكتاب الجيم ثراؤه فى ميدان المفاريد ، وقد ألمح إلى ذلك بعض علمائنا المنصفين مقررا : "أن المعجم مفيد فى العثور على صيغ ودلالات لا نعهدها فى غيره من المعاجم"(١) ، وقد أبرزت الدراسة هذا الجانب فى ضوء النماذج والأمثلة .

٤ - للشيبانى وثاقته ومصداقيته ، وقد تكفلت التحليلات الإحصائية بتوضيح ذلك لاسيما فى ميدان الشعر (جدول رقم ١٩) كما أبرزت ذلك فى ضوء تأثيره فى المعاجم العربية والمصنفات اللغوية .

ثانيا - التوصية :

فى نهاية المطاف يأبى القلم إلا أن يسطّر هذه التوصية : "ينبغى الاهتمام بكتب الغريب ، لما تحويه من إشارات تاريخية فى دلالات الألفاظ من ناحية ، ولربط مادتها باستخداماتنا اللغوية من ناحية أخرى ، إذ إن الغرابة أمر نسبى ، وتوظيف الكلمة فى الاستخدام اللغوى كفيل بتخليصها من ربقة الغرابة ، وعلى المعْنيين بالعربية وآدابها توجيه الطلاب والدارسين إلى هذا الجانب التراثى للوقوف على ملامحه ومدلولاته فى محاولة جادة لتحطيم الحاجز النفسى بين شبابنا المثقف وتراثه اللغوى" .

والله من وراء القصد ،،،

---

(١) مناهج البحث فى اللغة والمعجم : ٣٠٠ .

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود: ١).

٢ - أصوات اللغة العربية : د/ عبد الغفار حامد هلال . مطبعة الجبلاوى.

٣ - إضاءة الراموس (رسالة دكتوراه) : محمد بن الطيب الفاسى / تحقيق : د/ الدَّابولى ، مكتبة كلية اللغة العربية ـ القاهرة .

٤ - الأضداد : ابن السكيت ، تحقيق : هفنر ، طبعة بيروت ١٩١٣ م .

٥ - إنباه الرواة : القفطى ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٥٠م.

٦ - البحث اللغوى: د/ أحمد مختار عمر، الطبعة الرابعة، عالم الكتب ١٩٨٢م .

٧ - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : الفيروزبادى ـ القاهرة ١٩٧٣م .

٨ - بغية الوعاء : السيوطى ، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، البابى ١٩٦٤م .

٩ - تاج العروس من جواهر القاموس : الزبيدى ـ القاهرة ١٣٠٦هـ .

١٠ - تاج اللغة وصحاح العربية : الجوهرى ، تحقيق : عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربى ١٩٥٦م.

١١ - الحروف : الرازى ، تحقيق: د/ رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

١٢ - الخصائص : ابن جنى ، تحقيق الأستاذ / محمد على النجار ، دار الهدى للطباعة ، الطبعة الثانية ـ بيروت .

١٣ - دراسات فى المعاجم العربية : د/ أمين فاخر ، الطبعة الأولى ، مطبعة حسان ١٩٨٤م .

١٤ - طبقات النحويين واللغويين : الزبيدى ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم .

١٥ - علم الصوتيات : د/ عبد الله ربيع ، د/ عبد العزيز علام ، التوفيقية ١٩٧٩م .

١٦ - العين : الخليل بن أحمد ، مؤسسة دار الهجرة ، الطبعة الثانية ، إيران ١٤٠٩هـ .
١٧ - غريب القرآن : السجستانى ، مطبعة صبيح ١٩٦٣م .
١٨ - فصول فى فقه العربية: د/ رمضان عبد التواب، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
١٩ - فهارس كتاب الجيم : الشيبانى / إعداد الزميتى وآخرين ، مراجعة مصطفى حجازى - الهيئة العامة ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .
٢٠ - فى الأدب الجاهلى : د/ طـه حسين - القاهرة ١٩٤٧م .
٢١ - القاموس المحيط : الفيروزبادى ، الحلبى - القاهرة .
٢٢ - كتاب الجيم : الشيبانى ، تحقيق : الأبيارى وآخرين ، الهيئة العامة ٧٤-١٩٧٥م.
٢٣ - كتاب الشوارد : الصغانى، تحقيق : مصطفى حجازى ، الطبعة الأولى، الهيئة العامة ١٩٨٣م.
٢٤ - لسان العرب : ابن منظور ، طبعة دار المعارف .
٢٥ - مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة ، الأعداد (٣٢ - ٣٣) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .
٢٦ - مجمل اللغة : ابن فارس ، تحقيق : محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٧م .
٢٧ - مختار الصحاح: الرازى ، ترتيب / محمود خاطر ، دار مصر للطباعة.
٢٨ - مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوى ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار نهضة مصر .
٢٩ - المزهر : السيوطى ، طبعة الحلبى .
٣٠ - المعاجم : د/ العزازى ، الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية .
٣١ - المعاجم العربية (مدارسها ومناهجها) : د/ عبد الحميد أبو سكين ، مطبعة الأمانة ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م .
٣٢ - المعجم العربى دراسة ونقداً : د/ شعبان عبد العظيم ، الطبعة الثانية ، مطبعة الأمانة ١٩٨٢م .

٣٣ - مناهج البحث فى اللغة والمعجم: د/ عبد الغفار هلال ، الطبعة الأولى، مطبعة الجبلاوى ١٩٩١م.

٣٤ - نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب : د/ أحمد طاهر حسنين ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

٣٥ - وفيات الأعيان : ابن خلكان ، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان .

علم التجويد

أهميّته ومنزلته بين علوم العربية

بقلم الدكتور
رشـــاد محمـد ســـالم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وبعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، والصلاة والسلام على المبعوث للعالمين إلى يوم الدين هداية ورحمة ، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فانقشعت بهم الظلمة ، وانكشف الغمّة ، وأذاقهم الله حلاوة الإيمان ، ولذّة التعبد بالقرآن ، فبلغوا القمة ، وضربوا أروع الأمثال فى الإخلاص والبطولة والتضحية والهمّة، فأصبحوا بفضل الله فى تاريخ البشرية خير أمّة .

وبعـــد :

فقد خلق الله الإنسان ، وميّزه بالبيان ، وجعل له اللسان أداة للنطق ، والأذن أداة للسمع ، والعقل أداة للفهم ، والروح أداة للتأثير والتأثر .

والقرآن المجيد أعلى الكلام وأحلاه ، وما ظنك بكلام رب العالمين ، وقد منّ به على أمة أحب أحبابه ، وأصفى أصفيائه ، سيدنا محمد ﷺ ، فكانت أمته أمة القرآن، وكانت خير أمة أخرجت للناس .

وإن خير وأفضل ما يشغل به الإنسان ليتقرب إلى ربه ، ويصل إلى

درجات المتقين أن يقرأ القرآن مجوّدا كما أَمَر بذلك رب العالمين ، حيث قال تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ .

ولما كان علم التجويد من أشرف العلوم لتعلقه بأشرف الكتب وهو القرآن الكريم ، وكان التعريف به متناثرا فى مقدمات بعض كتب الفن وغيره ، فإنى قد استخرت الله ـ تعالى ـ فشرح صدرى، فاستعنت به سبحانه فى أن يُلْقِى بحثى هذا الضوء على بعض هذه المبادئ ، يَجْمَعُ شتاتها ويبسط عرضها ويجلّيها لمحبّى العلم، وطالبى المعرفة ، وشُداة التلاوة الصحيحة ، لاسيّما وقد تعبّدنا الله عز وجل بتلاوة قرآنه ، ووعدنا على ذلك الثواب الجزيل .

مبرزًا من خلال ذلك مكانة علم التجويد بين علوم العربية، موضحا ما بينه وبين علم الصوتيات من صلة وثيقة ، مرجئا صلته بعلوم العربية الأخرى ، على أمل استكمالها مع بقية النقاط المتصلة بهذا الموضوع فى بحوث تالية بمشيئة الله وعونه .

وفى ضوء ذلك فقد تضمن هذا البحث النقاط التالية :

مفهوم علم التجويد ـ موضوعه ـ حكمه وقيمته ـ صلته بعلم الصوتيات

والله ـ تعالى ـ أسأل أن يوفقنى لما يحبه ويرضاه ، وأن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعنى به ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ ❊ إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وأن يرزقنى محبته ورضاه ، لعلّى أحظى بشرف أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأحشر فى زمرتهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والله من وراء القصد . . . هو حسبى

نعم المولى ونعم النصير،،

تمهيـــــد

إنّ علم التجويد يعدّ من أفضل العلوم المتعلقة مباشرة بالقرآن الكريم الذى ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(١)

ولقد تعبد الله - عز وجل - خلقه بتلاوة هذا القرآن العظيم ، ووعدهم عليها الثواب الجزيل ، وأثابهم على كل حرف منه عشر حسنات ، وأمرهم أن يتفكروا فيه ، ويتدبروا معانيه ، حتى يصلوا إلى المقصود والمراد ، وهو تحقيق مبادئه وتطبيق أحكامه ، وشرع للقراءة صفة معينة ، وأمر نبيّه بها فقال : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(٢) وقال : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾(٣).

وصفة القراءة هذه التى اصطلحوا على تسميتها بعد ذلك «بالتجويد» تحتوى على لهجات العرب الفصحى ، وطريقتهم فى النطق ، وهذا من مقتضى كون القرآن عربيا ، فهو عربى فى لفظه ومعناه ، وأسلوبه وتركيبه ، ولهجته وطريقة النطق به .

ولذلك تجد كثيرا من مباحث التجويد والقراءة فى علم اللغة والنحو ، فهى مباحث مشتركة بين الطرفين (٤).

يقول الدكتور عبد الله ربيع(٥) : إن أداء القرآن فى صورته العامة هو من أمر الله وتعليمه ، لأن هذا الأداء فى تصورّى جزء من القرآن ، ومحال أن ينزل شئ بدون جزئه ، وبخاصة أنه يسمى قرآنا من القراءة ، وأن أول لفظ سمعه الكون منه كان هو لفظ إقرأ . . . ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٦) ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٧).

---

(١) سورة هود : الآية ١ (٢) سورة المزمل : الآية ٤

(٣) سورة الاسراء : الآية ١٠٦

(٤) قواعد التجويد لأبى عاصم عبد العزيز القارئ ص١ ، ٢

(٥) من قضايا علم التجويد ص ٩ ، ١٠

(٦) سورة العلق : من الآية ١ ــ ٥

(٧) سورة الرحمن : من الآية ١ ــ ٤

يضاف إلى هذا أن العرب الذين سمعوه لأول مرة دهشوا فى تكييفه وتصنيفه ، ولو كان لهم بأدائه عهد لما اضطربت أقوالهم وتساءلوا : هل هو شعر أو نثر ؟ وهم أعلم الناس بما يسمى شعرا وما يسمى نثرا فى لغتهم .

يقول شيخنا : لكننا مع ذلك لا نذهب إلى حدّ المبالغة فنزعم أن كل لحن أدائى قد أنزل ، فإن رسول الله ﷺ يقول : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، ولا تقرءوه بلحون الأعاجم . . » الحديث .

ومن ثَمّ فقد أباح للقارئ أن يستعمل بعض صور الأداء مادامت عربية محققة لعربية القرآن ، محكومة بقوانين الأحرف ، وأوجه القراءات، ونظم الأداء .

والذى لاشك فيه أن تلك الصورة الأدائية المثلى التى قرأ بها النبى ﷺ قد أخذها أصحابه عنه ، وتعلموها منه بالقول والفعل ، والتلقى والرواية، وأنهم نقلوها بأمانة ودقة إلى من بعدهم على صورتها التى تحققت لهم من سيدهم ومعلمهم ﷺ (١) .

لقد قرأ الأوّلون القرآن فأدّوا القراءة أحسن أداء ، وكان حسن الأداء سبيلهم لحسن الاستماع ، وكان حسن الاستماع سبيلا لحسن التدبر ، وحسن التدبر سبيلا لحسن الانتفاع ، وكيف لا يفعلون والكلام عزيز من عزيز ، وعلّى من علّى ، وحكيم من حكيم ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول .

فلزم أن يقرأه القارئ على روّية وإحكام ـ كما كان يفعل رسول الله ﷺـ فقد أعطى الحروف فى قراءته الشريفة حقها على الأصول الصحيحة ، فلم تكن قراءته هذّا ولا عجلة ، بل كانت مفسرة حرفا حرفا .

كما كان ﷺ يقطع قراءته ، ويقف عند كل آية فيقول مثلا : ﴿الحَمْدُ للَّه رَبّ العَالَمينَ﴾ ويقف ، ثم يقول : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ويقف ، ثم يَقوَل: ﴿مَالكِ يَوْمِ الدّينِ﴾ وهكذا(٢) .

من هنا وجب على المؤمن أن يتلو القرآن الكريم حق تلاوته كما كان

---

(١) من قضايا علم التجويد ص ١٠

(٢) كيف يتلى القرآن للشيخ عامر عثمان ص٦،٧

يفعل رسول الله ﷺ وأصحابه . وتلاوة القرآن حق تلاوته - كما يقول الإمام الغزالى (رحمه الله) -[1] : هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ، فاللسان يرتل ، والعقل يترجم ، والقلب يتعظ .

وصدق الله العظيم : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[2] .

مفهوم علم التجويد

التجويد فى اللغة : مصدر جوّد يجوّد تجويدا ، بمعنى حسّن وزيّن ، ومن ثمّ فإنه يطلق على التحسين والتزيين .

أما فى الاصطلاح فإنه : علم يبحث فى الكلمات القرآنية من حيث إخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه .

وحقّ الحرف : صفاته الذاتية اللازمة له ، والتى لا تفارقه كالهمس ، والجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والاستفال ، والغنة ، فإنها لازمة لذات الحرف لا تنفك عنه ، فإن انفكت عنه ولو بعضها كان لحنا[3] .

ومستحقه : هو الصفات التى يتصف بها الحرف أحيانا ، وتفارقه أحيانا أخرى كالتفخيم والترقيق بالنسبة للراء . ولا يخفى أن هذه الصفات العارضة تنشأ عن الصفات اللازمة، فالترقيق - هنا - ناشئ عن الاستفال ، والتفخيم -هنا- ناشئ عن الاستعلاء .

وتفصيل ذلك أن للحرف حالتين :

حالة الانفراد ، وحالة التركيب ، وله فى كل منهما أحكام :

فأول أحكامه منفردا تحديد مخرجه ، ثم تحقيق الصفات اللازمة له كالاستفال أو الاستعلاء ، والهمس أو الجهر ، والشدة أو الرخاوة .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/١٣١

(٢) سورة ص : الآية ٢٩

(٣) العميد ص٨ ، ومن قضايا علم التجويد ص١٣

وعندما يتركب مع غيره من الحروف تنشأ أحكام الترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام ، والمدود ، ونحو ذلك . . .

ثم عندما تتركب الكلمات مع بعضها مكونة جُملا تنشأ أحكام الوقوف[1].

يقول صاحب النشر[2] :

أوّل ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحا يمتاز به عن مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به توفية تخرجه عن مجانسه ، يعمل لسانه وفمه بالرياضة فى ذلك إعمالا بحيث يصير ذلك له طبعا وسليقة .

ثم قال : فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته موفيًا حقه ، فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب ، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد ، وذلك ظاهر .

فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب ، وقويّ وضعيف ، ومفخّم ومرقّق ، فيجذب القوى الضعيف ، ويغلب المفخّم المرقّق ، فيصعب علي اللسان النطق بذلك على حقه إلا بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصّل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب[3] .

من هنا يمكن القول بأن التجويد هو الفن الذى نتعلم به صحة النطق وعدم الخطأ فى تلاوة القرآن العظيم، ومعرفة أحوال الوقوف على آياته .

ومما يساعد على إتقان قراءة القرآن ـ بعد دراسة قواعد القراءة ومعرفتها ـ الممارسة والتمرين الدائم ، إذ به تحصل الملكة ويتحقق الإتقان[4] .

فإذا لم يعط القارئ الحروف حقّها ومستَحقها ربّما تغيّر مدلول الكلمة وفهم منها معنى آخر ، نحو قوله : «عصى» و «محظورا» فإنه إذا لم يعط كلا

---

(١) قواعد التجويد لأبى عاصم القارى ص ٢٤

(٢) النشر ١/ ٢١٤

(٣) النشر ١/ ٢١٥ ، وانظر : نهاية القول المفيد ص١٢

(٤) التجويد الميسر لأبى عاصم القارى ص٩١ بتصرف

من الصاد المهملة والظاء المشالة حقّه من الاستعلاء والإطباق صارت الصاد سينا، والظاء المشالة ذالا معجمة ، ويصير اللفظ : «عسى» و «محذورا»(١) .

وفى ضوء ماسبق كان التجويد فى اصطلاح علماء القراءة قسمين:

القسم الأول : التجويد العلمى : وهو معرفة القواعد والضوابط التى وضعها علماء التجويد ، ودوّنها أئمة القراءة، من مخارج الحروف وصفاتها ، وبيان المثلين والمتقاربين والمتجانسين ، وأحكام النون الساكنة والتنوين ، وأحكام الميم الساكنة ، والمدّ وأقسامه وأحكامه ، وأقسام الوقف والابتداء ، وشرح الكلمات المقطوعة والموصولة فى القرآن ، وذكر التاء المربوطة والمفتوحة إلى غير ذلك مما سطره العلماء .

القسم الثانى : التجويد العملى : وهو إحكام النطق بحروف القرآن وإتقان كلماته ، وبلوغ الغاية فى تحسين ألفاظه والإتيان بها فى أفصح منطق وأعذب تعبير ، ولا يتحقق ذلك إلا بإخراج كل حرف من مخرجه ، وإعطائه حقّه من الصفات اللازمة له من همس أو جهر، أو شدة أو رخاوة، أو استعلاء أو استفال، إلى غير ذلك .

وإعطائه مستَحَقه ـ بفتح الحاء ـ من الصفات العارضة الناشئة عن الصفات الذاتية، من تفخيم المستعلى وترقيق المستفل، ومن الإظهار ، والإدغام، والقلب ، والإخفاء ، إلى غير ذلك.

لا يتحقق ذلك ـ أيضا ـ إلا بقصر ما يجب قصره ، ومدّ ما يلزم مدّه ، وإظهار يجب إظهاره ، وإدغام ما يتعين إدغامه ، وإخفاء ما يجب إخفاؤه ، وما إلى ذلك من الأحكام(٢).

ولا يتأتى هذا إلا بأخذ القارئ نفسه بهذه الأحكام ، وتمرين لسانه

---

(١) نهاية القول المفيد ص١١ ، وانظر : ملخص أحكام التجويد ص١٥، ١٦ ، وأحكام قراءة القرآن الكريم للحصرى ص ٨، ٩

(٢) ملخص أحكام التجويد ص ١٥، ١٦ ، وأحكام قراء القرآن للحصرى ص٨، ٩

عليها، وتعمقه فى تحريرها وإجادتها ، حتى يصير النطق بها طبيعة من طبائعه، وسجيّة من سجاياه [1].

ولا يعتبر القارئ مجودا إلا إذا علم القسمين معا ، فعرف القواعد والضوابط، وأتقن النطق بكلمات القرآن وحروفه[2] .

ذلك أن تجويد القرآن يتوقف على أربعة أمور :

أحدها : معرفة مخارج الحروف . وثانيها : معرفة صفاتها . وثالثها : معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب . ورابعها : رياضة اللسان وكثرة التكرار[3] .

قال الإمام أبو عمرو الدانى (رحمه الله تعالى) :

ينبغى للقارئ أن يعوّد نفسه على تفقد الحروف التى لا يصل إلى حقيقة اللفظ بها إلا بالرياضة الشديدة والتلاوة الكثيرة مع العلم بحقائقها ، والمعرفة بمنازلها، فيعطى كل حرف منها حقه من المدّ إن كان ممدودا ، ومن التمكن إن كان متمكنا، ومن الهمز إن كان مهموزا ، ومن الإدغام إن كان مدغما ، ومن الإظهار إن كان مظهرا ، ومن الإخفاء إن كان مخفيا ، ومن الحركة إن كان محركا ، ومن السكون إن كان مسكنا .

ويكون ذلك بحسب ما يتلقاه من أفواه المشايخ العارفين بكيفية أداء القراءة حسبما وصل إليهم من مشايخهم من الحضرة النبوية العربية الأفصحية ، لامجرد الاقتصار على النقل من الكتب المدونة، أو الاكتفاء بالعقل المختلف الأفكار[4] .

ويقول صاحب النشر :

التجويد :مصدر من جوّد تجويدا ، والاسم منه : الجودة ضد الرداءة ، يقال جوّد فلان فى كذا ، إذا فعل ذلك جيدا ، فهو عندهم عبارة عن الإتيان

---

(١) أحكام قراء القرآن للحصرى ص١٠

(٢) المرجع السابق ص١٤

(٣) نهاية القول المفيد ص١٣

(٤) المرجع السابق ص١٢

بالقراءة مجوّدة الألفاظ ، بريئة من الرداءة فى النطق ، ومعناه : انتهاء الغاية فى التصحيح ، وبلوغ النهاية فى التحسين .

ولاشك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاه من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التى لاتجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها إلى غيرها ، والناس فى ذلك بين محسن مأجور ، ومسئ آثم أو معذور، فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللفظ الصحيح العربى الفصيح ، وعدَل إلى اللفظ الفاسد العجمى أو النبطى القبيح استغناء بنفسه ، واستبداداً برأيه وحدسه، واتكالاً على ما أَلِف من حفظه ، واستكبارا عن الرجوع إلى عالِم يوقفه على صحيح لفظه ، فإنه مقصّر بلا شك ، وآثم بلا ريب ، وغاشّ بلا مرية ، فقد قال رسول الله ﷺ : «الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم» .

أما من كان لا يطاوعه لسانه ، أو لا يجد من يهديه إلى الصواب بيانه ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . ولهذا أجمع من نعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارئ خلف أمّى ، وهو من لا يحسن القراءة ، وعدّ العلماء القراءة بغير تجويد لحنا ، وعدوا القارئ بها لحّانا[1] .

فما المراد باللحن هنا ؟

اللحن فى اللغة العربية له معان متعددة ، والمقصود به ـ هنا ـ : هو الميل عن الجادّة فى القراءة ، والانحراف عن الصواب فيها ، وهو نوعان : جلىّ ، وخفىّ[2] .

اللحن الجلىّ : وهو خطأ يطرأ على الألفاظ فيخلّ بموازين القراءة ومقاييس التلاوة وقوانين اللغة والإعراب ، سواء ترتب عليه إخلال بالمعنى أم لا .

وهذا النوع من اللحن قد يكون فى بنية الكلمة وحروفها التى تتركب

---

(١) النشر ١/ ٢١٠

(٢) أحكام قراءة القرآن للحصرى ص٢٢ ، وانظر ملخص أحكام التجويد ص٢٣

منها، بأن يبدل القارئ منها حرفا بآخر فيبدل الطاء ضاداً ، والذال زايا ، والثاء سينا، ونحو ذلك .

وقد يكون فى حركات الكلمة سواء كان ذلك فى أوّلها ، أم فى وسطها، أم فى آخرها ، فيجعل الفتحة كسرة ، أو الضمة فتحة ، أو إحدى هذه الحركات سكونا، أو نحو ذلك ، سواء ترتب على هذا الخطأ تغيّر فى المعنى كفتح التاء الثانية فى «تركت» فى قوله تعالى : ﴿لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] ، أم لم يرتب عليه تغيّر في المعنى كضم الهاء فى قوله تعالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

وهذا النوع من اللحن حرام شرعا باتفاق المسلمين ، معاقب عليه فاعله إن تعمده، فإن فعله ناسيا أو جاهلا فلا حرمة .

وسُمِّى هذا النوع جليًّا لجلائه وظهوره وعدم خفائه على أحد ، سواء كان من القراء أم من غيرهم .

اللحن الخفىّ : وهو خطأ يعرض للألفاظ فيخلّ بقواعد التجويد ، ولكن لا يخلّ باللغة ولا بالإعراب ولا بالمعنى ، وذلك كإظهار ما يجب إدغامه أو إخفاؤه، وترقيق ما يجب تفخيمه وبالعكس، ومد ما يتعين قصره وبالعكس، وكالوقف على الكلمة المتحرك آخرها بالحركة الكاملة من غير روم، إلى غير ذلك من الأخطاء التى تتنافى والقواعد التى دوّنها علماء القراءة ، وضبطها أئمة الأداء .

وسمّى هذا النوع خفيًّا ، لأنه لا يدركه إلا القراء فقط .

واختلف العلماء فى حكم هذا النوع من اللحن[3] :

فالمتقدمون يَرَوْن أن حكمه حكم النوع الأول «حرام» لأنه يخل بالأداء الصحيح للفظ القرآن .

والمتأخرون يَرَوْن أن المحافظة على هذه القواعد واجب صناعى وليس واجبا شرعيًّا، وأنّ الأوْلى المحافظة على النطق بالحروف مجوّدة مرتلة - كما

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ (٢) سورة البقرة :الآية ٢٠

(٣) انظر : العقد الفريد فى فن التجويد هامش المحقق ص ٢٠

تقدم- فهو عندهم مكروه .

وإلى هذا مال الشيخ ملاّ على القارى ، يقول فى شرحه على الجزرية:

ولاشك أن هذا النوع مما ليس بفرض عين يترتب عليه العقاب الشديد ، وإنما فيه خوف العتاب والتهديد .

والذى نرجحه : هو مذهب المتقدّمين ، لأن تطبيق قواعد التجويد ، والكيفيات التى يقرأ بها كتاب الله تعالى قد نقلت إلينا نقلا متواترا عن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا جيلا عن جيل ، فأخذت حكم الإجماع الذى لا تجوز مخالفته ، على أن يكون معلوما أن المراد بذلك هو التجويد العملى ، وليس حفظ أحكامه وقواعده .

جاء فى نهاية القول المفيد(١) :

وقال البركوى فى شرحه على الدّر اليتيم : تحرم هذه التغييرات جميعها، لأنها وإن كانت لا تخلّ بالمعنى ، لكنها تخلّ باللفظ ، وتؤدى إلى فساد رونقه، وذهاب حسنه وطلاوته .

ويقول الشيخ عامر عثمان :

وقد عدّ الأئمة القراءة بغير تجويد لحنا ، وهو كالخطأ الظاهر فى الإعراب وكلاهما محرم شرعا ، وقد أجمعوا على أن النقص فى كيفية القرآن وهيئته كالنقص فى ذاته ومادته، فترك المدّ ، والغنّة ، والتفخيم ، والترقيق، كترك حروفه وكلماته (٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن اللحن الجلىّ إذا وقع فى الصلاة أفسدها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : لا ينبغى لطلبة العلم الصلاة خلف من لا يقيم الفاتحة ، ويقع فى اللحن الجلىّ بحيث يغيّر حرفا أو حركة ، أما من يخطئ فيما يعتبر من اللحن الخفى ، ويمكن أن تتضمنه القراءات الأخرى ، ويكون له وجه فيها، فإنه لا تبطل صلاته ، ولا صلاة المؤتم به، كمن قرأ «الصراط» بالسين ، فإنها قراءة متواترة(٣) .

---

(١) نهاية القول المفيد ص ٢٤

(٢) كيف يتلى القرآن ص ١٩

(٣) قواعد التجويد لأبى عاصم القارى ص ٢٨

ونخلص إلى أن التجويد ـ كما يقول ابن الجزرى[1] :

هو حلية التلاوة وزينة القراءة ، وهو إعطاء الحروف حقوقها ، وترتيبها مراتبها، وردّ الحرف إلى مخرجه وأصله ، وإلحاقه بنظيره ، وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته، وكمال هيئته، من غير إسراف ولاتعسف، ولا إفراط ولا تكلف.

ويعقب الدكتور عبد الفتاح البركاوى على ذلك بقوله :

وهذا التعريف أقرب إلى الدقة فى نظرنا ـ لأنه يتضمن إشارة صريحة إلى ما يعرض للصوت فى سياق الكلام ، إذ إن تلطيف النطق بالصوت على حال صيغته ـ أى الصيغة الكلامية التى ورد فيها ـ يعنى مراعاة الإنسجام النطقى بين هذا الصوت وما يكتنفه من أصوات أخرى[2] .

ويجدر أن نشير فى هذا المقام إلى ما يحمله لفظ «التجويد» أيضا من الإشارة والدلالة على الجانب الجمالى فى أداء كتاب الله وقراءته ، فالذى لايشك أحد فيه أن هناك مستوى من الأداء القرآنى يفوق المستوى الصوابى الضرورى .

نلمح ذلك فى قول رسول الله ﷺ : «زيّنوا القرآن بأصواتكم»[3]، وفى قول صاحبه رضى الله عنه : «لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيراً»[4].

يقول الدكتور عبد الله ربيع :

ولعلنا نتذكر أننا ما زلنا إلى اليوم نطلق لفظ التجويد على ذلك المستوى الجمالى الأعلى المتضمن بالطبع المستوى الصوابى الضرورى ، وهذا إحساس قديم ، واستعمال موروث ، فقد وصف ابن الجزرى أحدهم فقال عنه : «وهو أحد الذين انتهت إليهم رياسة القراءة علما وعملا ، والتجويد عِلْمًا ، وعَمَلاً

---

(١) النشر : ١/ ٢١٢

(٢) مقدمة فى أصوات اللغة العربية طبعة ١٩٩٢م ص ١٥٧

(٣) أخرجه ابن حبان والحاكم وروى «زينوا أصواتكم بالقرآن»

(٤) من قضايا علم التجويد ص٥

وَطَرِبا» ، ثم يذكر بعد ذلك أنه كان يحضر عنده الناس لاستماع قراءته[1] .

ولا يخفى أن التجويد فن يعتمد بدرجة كبيرة على الذوق ، وكل قواعده وتقسيماته هى راجعة إلى مقصدين من مقاصد اللغة : التسهيل والتزيين .

إذ كان من طبيعة العرب الفصحاء أن يلجأوا دائما فى لغتهم إلى مايسهل الثقيل منها ويلطف المستوحش والمتنافر، سواء كان فى النطق أو فى المعانى.

وقد صحّ عن النبى ﷺ أنه قال : ليس منّا من لم يتغن بالقرآن[2] وذلك هو ما أشار إليه ابن الجزرى فى قوله :

وهو ـ أيضا ـ حلية التـــلاوة　　　وزينـــة الأداء والقـــراءة [3]

ولكى نتقن التجويد لابدّ من التلَقى والمشافهة :

يقول ابن الجزرى رحمه الله :

ولا أعلم سببا لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد ، ووصول غاية التصحيح والتسديد، مثل رياضة الألسن والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن . ترى تجويد حروف الكتابة كيف يبلغها الكتاب بالرياضة وتوقيف الأستاذ ، ولله در الحافظ أبى عمرو الدانى (رحمه الله) حيث يقول :

ولس بين التجويد وتركه　　　إلا رياضة من تدبّره بفكّه

فلقد صدق وبصر ، وأوجز فى القول وما قصر ، فليس التجويد بتمضيغ اللسان ، ولا بتقعير الفم ، ولا بتعويج الفك ، ولا بترعيد الصوت ، ولا بتمطيط الشد ، ولا بتقطيع المد ولا بتطنين الغنات ، ولا بحصرمة الراءات، قراءة تنفر عنها الطباع ، وتمجّها القلوب والأسماع ، بل القراءة السهلة العذبة، الحلوة اللطيفة ، التى لا مضغ فيها ولا لَوْك ولا تعسّف ولا تكلفّ ، ولا تصنّع ولا تنطّع ، ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء[4] .

---

(1) المرجع السابق ص٦ ، انظر : غاية النهاية : ١/ ٤٣٤

(2) أخرجه البخارى

(3) انظر التجويد الميسر لأبى عاصم القارى ص ٩

(4) النشر : ٢١٢/١ ، وانظر : نهاية القول المفيد ص ١٢

لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقرأ القرآن ، وعلّمه كيفية القراءة ، وبيّن له أن للقرآن أداءً خاصا يتميز به ، وأمره أن يعلّم أصحابه وأتباعه هذا الأداء الذى هو عربى، لكنه مع ذلك إلهى ، وكان من مظاهر التعليم القولى قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (١)، وقوله سبحانه : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(٢).

وقوله عز وجل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٣) ، وقوله سبحانه ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٤).

وكان من مظاهر التعليم الفعلى أو العملى : عرض جبريل القرآن على رسول الله ﷺ الذى كان يتم فى كل عام مرة ، وتمّ فى عام الوداع مرتين ، كما يروى فى كتب السنّة والسيرة(٥) .

فالقرآن الكريم له صفة مخصوصة يتلى بها ، ولها قواعدها وأحكامها التى يجب مراعاتها والوقوف عندها ، وإلا وقع القارئ فى اللحن بقسميه الجلىّ والخفىّ ، ولا يعقل شرعا أن يتكفل الله بحفظ كتابه لفظا ونصا دون التلاوة والأداء .

يقول الشيخ أبو عبد الله نصر الشيرازى ما نصه(٦) : إنّ حسن الأداء فرض فى القراءة، ويجب على القارئ أن يتلو القرآن حق تلاوته ، صيانة للقرآن عن أن يجد اللحن والتغيير إليه سبيلا ، لأنه لا رخصة في تغيير لفظ القرآن وتعويجه واتخاذ اللحن سبيلا إليه ، قال الله تعالى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ .

التجويد العملى ـ إذن ـ لا يمكن أن يؤخذ من المصحف مهما بلغ من الضبط والإتقان ، ولا يمكن أن يتعلم من الكتب مهما بلغت من البيان والإيضاح ، وإنما طريقه التلقى والمشافهة ، والتلقين والسماع ، والأخذ سن

---

(١) سورة المزمل : الآية ٤

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٠٦

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٢

(٤) سورة القيامة : من الآية ١٦ـ١٩

(٥) من قضايا علم التجويد ص٨

(٦) القول السديد فى بيان حكم التجويد ص٤١ ، النشر ١/ ٢١١

أفواه الشيوخ المهرة المتقنين لألفاظ القرآن ، المحْكمين لأدائه ، الضابطين لحروفه وكلماته ، الآخذين ذلك عن أمثالهم ، المتصل سندهم برسول الله ﷺ .
لأن هناك من الأحكام القرآنية ما لا يحكمه إلا المشافهة والتوقيف ، ولا يضبطه إلا السماع والتلقين ، ولا يجيده إلا الأخذ من أفواه العارفين ، وذلك مثل : الروم ، والاختلاس ، والإشمام ، والإخفاء والإدغام وتسهيل الهمز ، ومقادير المد ، والغنّ ، والإمالة بقسميها ، والتفخيم والترقيق ، وما إلى ذلك من الأحكام الدقيقة التى يتوقف ضبطها على المشافهة والسماع[1] .

ولو كان الأخذ من المصاحف كافيا لكان مقتضى الرسم العثمانى صحيحا في القراءة فى كل موضع ، وليس كذلك ،بل قد يخلّ بها فى مواضع خالف فيها خط المصحف أصول الرسم العربى إخلالا بيّنا كما فى قوله تعالى : ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[2] إذ رسم بعد واو «يعفو» ألف ، ومقتضاه أنه بصيغة التثنية .

وكقوله : ﴿وَيَدْعُ الإنسان﴾[3] إذ رسم بلا واو ، فربما قرئ بتحريك الدال ، وقوله تعالى : ﴿سَنَدْعُ الزبانية﴾[4] كذلك .

وقوله : ﴿وَلَاْ اوْضَعُوا خلاَلَكُمْ﴾[5]. فقد كتب بألف بين «لا» و«أوضعوا» هكذا « لَا اوْضَعُوا » وربما قرئ بصيغة النفى فينقلب المعنى انقلابا فاحشا من الإثبات المؤكد إلى النفى المحض، إلى غير ذلك مما ضبطه أهل الرسم العثمانى ، وهو توقيفى كاللفظ ، لا يجوز الإخلال به ، وإن خالف مشهور الرسم[6] .

ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[7] ، وقوله : ﴿أَوْلَاْ اذْبَحَنَّهُ﴾[8] وقوله : ﴿بِأَييِكُمُ المَفْتُون﴾[9] .

---

(١) أحكام قراءة القرآن للحصرى ص ٢٠

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣٧

(٣) سورة الإسراء : الآية ١١

(٤) سورة العلق : الآية ١٨

(٥) سورة التوبة : الآية ٤٧ ، كتبت فى المصحف الذى بأيدينا «وَلَأَوْضَعُوا» ولعل الألف زيدت فى طبعة أخرى اطلع عليها الشيخ الحداد رحمه الله

(٦) القول السديد ص ٤٥

(٧) سورة المائدة : الآية ٣٣

(٨) سورة النمل : الآية ٢١

(٩) سورة القلم : الآية ٦

ومنها ما يختلف القراء فى أدائه ، مع اتحاد حروفه لفظا ورسما ، تبعا لتفاوتهم فى فهم معانى هذه الكلمات وأصولها ، وما يتوافر لهم من حسن الذوق وحساسية الأذن ، ومراعاة ذلك عند إلقائها ، لدرجة أن بعضهم يخطئ فى أدائها ، بما يكاد يخرجها عن معانيها المرادة منها ، لتساهله وعدم تحرّيه النطق السليم بها ، والذى لو وفق إليه وعوّد نفسه عليه لدل على حساسية أذنه وحسن ذوقه وفهمه لمعانيها ، وذلك نحو : ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ، ﴿وَيَعِظُكُم﴾[2] ، ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾[3] ، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[4] ، ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[5] [6].

يقول الشيخ الحداد :

فالحاصل أنه لابدّ من التلقى من أفواه المشايخ الضابطين المتقنين على ما تقدم، ولا يعتد بالأخذ من المصاحف بدون معلم أصلا ، ولا قائل بذلك ، ومرتكبه لاحظّ له فى الدين، لتركه الواجب وارتكابه المحرم ، ثم قال : هذا محصل ما كتبه فى هذا الموضوع من فطاحل الأئمة من يوثق بقولهم ، ومن جهابذة الأمة من يؤخذ برأيهم، فى المعقول يرجع إليهم ، وفى المنقول يعتمد عليهم . . . ثم ذكر أسماءهم غفر الله له ولهم[7] .

وبهذا يكون القارئ سليم النطق ، حسن الأداء ، بعيدا عن اللحن ، بخلاف من أخذ من الكتب ، وترك الرجوع إلى الشيوخ ، فإنه يعجز لا محالة عن الأداء الصحيح، ويقع فى التحريف الذى لا تصلح به القراءة ، ولا توصف به التلاوة ، ولله در القائل :

من يأخذ العلم عن شيخ مشافهة   يكن من الزيغ والتصحيف فى حرم
ومن يكن آخذا للعلم من صحف   فعلمه عند أهل العلـــم كالعـدم

إضافة إلى ذلك، فإن الأخذ عن الشيوخ هو أحد أركان القراءة الثلاثة

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣١
(٣) سورة القصص : الآية ٢٤
(٤) سورة ص : الآية ٧٢
(٥) سورة الجمعة : الآية ٩
(٦) العميد فى علم التجويد ص ١٠
(٧) القول السديد ص ٤٦ ، ٤٧

التى يجب على قارئ القرآن معرفتها والالتزام بها وهى [1]:

١ - موفقة العربية ولو بوجه .

٢ - موافقة الرسم العثمانى ولو احتمالا .

٣ - صحة السَّند . . . وهذا الركن شرط لصحة الركنين السابقين ، وهو أن يأخذ القارئ القراءة عن شيخ متقن فطن ، لم يتطرق إليه اللحن ، واتصل سنده برسول الله ﷺ فإن اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة كانت القراءة شاذة ، ولو كانت من قراءات الأئمة السبعة المجمع على صحتها وتواترها ، أو القراءات العشر ، وهذا ما أشار إليه المحقق ابن الجزرى فى طيّبة النشر بقوله رحمه الله :

فكل ما وافق وجـــه النحو	وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إســـنادا هو القرآن	فهـذه الثـــلاثة الأركـــان
وحيثما يختــل ركــن أثبت	شــذوذه لوانه فى الســبعة

بقى أن نعرف أن الأخذ عن الشيوخ يتمثل فى مسلكين :

أحدهما : أن يستمع التلميذ من لسان الشيخ ، بأن يقرأ الشيخ أمام التلميذ وهو يسمع ، وهذا مسلك المتقدمين .

وثانيهما : أن يقرأ التلميذ بين يدى الشيخ وهو يسمع ، وهذا مسلك المتأخرين .

واختلف أيهما أولى ؟ والأظهر أن الطريقة الثانية التى سلكها المتأخرون بالنسبة إلى أهل زماننا أقرب إلى الحفظ ، والأفضل الجمع بين الطريقين ، فإن لم يتسع الوقت لهما ، أو كان هناك مانع من الجمع بينهما فليقتصر على الثانية، لأنها أعظم أثرا ، وأجلّ فائدة فى تقويم لسان الطالب، وتمرينه على القراءة السليمة .

يقول صاحب نهاية القول المفيد :

نعم . . . الجمع بينهما أعلى، لما ذكر فى المصابيح :

---

(١) انظر ذلك مفصلا فى كتابى « القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية » ص١٢٣

أنه جرت السنّة بين القراء أن يقرأ الأستاذ ليسمع التلميذ ، ثم يقرأ التلميذ ، لأن رسول الله ﷺ قال لأبىّ بن كعب (رضى الله عنه) :

إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن عليك . والمراد من قراءته عليه السلام على أبىّ تعليمه وإرشاده، وهو أول قراء الصحابة وأشدهم استعدادا لتلقف القرآن منه ﷺ كتلقفه عليه السلام من أمين الوحى ، فلذلك خص بذلك[1] .

موضوع علم التجويد

لما كان علم التجويد يرتبط فى الذهن بالقرآن الكريم بصورة مباشرة ، فإن سؤالا يرِد هنا :

أتطبق قواعده على القرآن الكريم فحسب ، أم على أداء العربية بوجه عام ؟

والإجابة على ذلك تتطلب إلقاء الضوء على موقف علماء العربية والأداء من هذه المسألة لنخلص إلى ما نطمئن إليه . وتتلخص آراء العلماء فيما يلى :

أولا : قواعد التجويد خاصة بالكلمات القرآنية فقط ـ وهو ما يراه جمهور المجودين ـ وهو الشائع المتعارف ، لذا جاء تعريفهم لعلم التجويد وموضوعه وغايته وثمرته على الشكل التالى[2] :

التجويد : علم يعرف به كيفيه النطق بالكلمات القرآنية .

وموضوعه : الكلمات القرآنية من حيث أحوال النطق بها ، وكيفية أدائها، أو بتعبير آخر: علم التجويد يبحث فى الصورة الصوتية للحرف الهجائى القرآنى .

وثمرته : صون اللسان عن الخطأ فى اللحن فى كتاب الله تعالى، ونيل الأجر والثواب، وهو بلوغ الإتقان فى تلاوة القرآن .

---

(١) محمد مكى نصر ص ١٣ ، ١٤

(٢) انظر : الشيخ عبد الفتاح القاضى فى البدور الزاهرة ص٧ ، والدكتور الفضلى فى القراءات القرآنية ص ١٢٧ ، والشيخ جلال الحنفى فى قواعد التجويد ص ١٢ ، وإدريس الكلاك فى نظرات فى علم التجويد ص ٣٠

ثانيا : توسّع بعضهم[1] : فأضاف الحديث النبوى الشريف إلى القرآن الكريم باعتباره نوعا من الوحى ، قال الإمام البديرى فى آخر شرحه لمنظومة البيقونية :

«أما قراءة الحديث مجوّدة كتجويد القرآن فهى مندوبة ، وذلك لأن التجويد من محاسن الكلام ، ومن لغة العرب ، ومن فصاحة المتكلم ، وهذه المعانى مجموعة فيه ﷺ فمن تكلم بحديثه ﷺ فعليه بمراعاة ما نطق به[2] ﷺ .

يقول الشيخ محمود على بسه فى كتابه «العميد» :

ويرى بعض العلماء ضرورة تطبيق قواعد هذا العلم فى قراءة الحديث ، والحق أن ذلك يستحسن ولا يجب[3] .

ثالثا : تعميم قواعد التجويد على أداء اللغة العربية بوجه عام ، واقتصارها على القرآن الكريم ـ فقط ـ ليس له ما يسوغه، لأن القرآن نزل باللغة العربية ، ولكن يجب التساهل مع المتكلمين والخطباء فى بعض هذه القواعد ، مما هو واجب على قراء القرآن كالمدود والغنن، لأنه يصعب على المتكلمين التقيد بها[4] .

وهو ما يراه علماء النحو وبعض المجودين

يعرّف أحد الباحثين التجويد لغة ثم يقول[5] : إذن فدلالة التجويد تتصف بالعمومية، ولم يخصه أحد من اللغويين بالقرآن الكريم وإتقان أدائه وإحكام تلاوته .

---

(١) انظر العقد الفريد فى فن التجويد للشيخ صبره هامش المحقق ص ١٩ ، ومن قضايا علم التجويد للدكتور عبد الله ربيع ص ١٤ ، نقلا عن نهاية القول المفيد ص ١٣

(٢) انظر قواعد التحديث للقاسمى ص ٢٣٧

(٣) العميد ص ٩

(٤) نظرات فى علم التجويد للكلاك ص ٣٠

(٥) د/ أبو السعود الفخرانى فى رسالته لنيل درجة العالمية الدكتوراه « التجويد القرآنى فى ضوء علم الأصوات الحديث» مخطوطة فى كلية اللغة العربية رقم ٣٣٩ ورقة/ ١١

ويقول المرعشى[1] : قيل موضوعه الكلمات القرآنية يعنى حروفها ، وفيه نظر، لأنه يبحث فيه عن أحوال الحروف أينما وقعت ، فلعله من العلوم العربية وداخل فى التصريف ، ولذا جعل جزءا من بعض كتبه كالشافية ، ثم قال : وأما علم التجويد فالغرض منه معرفة ما هيّات صفات الحروف .

وعقب بعض الباحثين[2] على ذلك بقوله :

ولذلك فإن المرعشى أخرج علم التجويد من العلوم الشرعية الباحثة عن أحوال الأمور الشرعية خاصة، وعدّه من العلوم العربية الباحثة عن أحوال اللفظ العربى، سواء وقع فى القرآن أو فى غيره، وأدخله فى علم التصريف معللا لذلك بقوله :

« لأنه علم يبحث فيه عن هيئات الكلمات التى ليست بإعراب ، ومخارج الحروف وصفاتها المذكورة فى هذا العلم - أى علم التجويد - من هيئات الكلمات ، لأن الكلمات مركبة من الحروف .

وسوّغ المرعشى تخصيص علم التجويد لمعرفة أصوات القرآن الكريم - فقط - بأن ذلك مجرد اصطلاح "ولِمَا أفرزه العلماء عن كتب التصريف لمعرفة أحوال حروف القرآن لا يبعد أن يصطلحوا على أنها موضوعُه " ، وقد زاد هذا وضوحا حين قال :

ونظيره ما قاله التفتازانى فى «المطوّل» عند تعريف علم المعانى «بأنه علم يعرف به أحوال اللفظ العربى» : تخصيص اللفظ العربى مجرد اصطلاح ، لأن هذه الصناعة إنما وضعت لمعرفة أحوال اللفظ العربى لا غير .

يعنى أن علم المعانى يعرف به أحوال اللفظ غير العربى - أيضا - كالفارسى ، لكن غرض واضعه معرفة أحوال اللفظ العربى فقط، ولذا اصطلح أن اللفظ العربى موضوعه ، مع أن موضوعه فى الحقيقة مطلق اللفظ عربيا كان أو غير عربى .

وهذه الوجهة للمرعشى - كما يقول الباحث[2] - تتلاقى مع الذين نَادَوْا

---

(١) انظر : قواعد التجويد للحنفى ص ١٢

(٢) د/ أبو السعود الفخرانى فى أصوات القرآن الكريم ، منهج دراستها عند المرعشى ص٢٠٤

بأن يتسع موضوع علم التجويد ليشمل الحديث - أيضا - بل تتلاقى مع الذين تَمَنَّوْا أن يتسع التجويد ليشمل كل ألوان العربية الفصحى حتى يحدّ مما سمى بالفوضى الأدائية التى تظهر على ألسنة الناطقين بالعربية فى عصرنا ذلك، على النحو الذى يظن أن بعض العلماء من أمثال ابن كمال باشا ٦٤٠ هـ تناوله فى كتاب سماه «تجويد الكلام»[١] .

ومما يؤيد وجهة نظر المرعشى أن علم التجويد كان كغيره من علوم الصرف والبلاغة وغيرهما، يدخل تحت ما يسمى بالعربية أو النحو بمعناه الواسع فى القرون الأولى للهجرة، قبل انفصال تلك العلوم عن علوم اللغة واستقلال كلّ بمنهج منفرد .

إذ الدراسات الصوتية عند من جمعوا بين الثقافتين التجويدية والعربية من أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وغيرهما كانت واحدة فى اللغة والقرآن ، فكانت الظاهرة الصوتية تعالج معالجة واحدة فى النصوص اللغوية والنصوص القرآنية ، متنبهين إلى ما لأصوات القرآن الكريم من خصوصية، وما لأدائه من تميز ، ومشيرين بكثرة إلى ما يجوز فى الكلام وما لا يجوز فى القرآن ، وإلى بعض المظاهر التى تكثر فى قراءة القرآن الكريم ، واضعين بذلك أساسا للتمييز بين النظام الصوتى العربى العام والنظام الصوتى الأدائى الخاص بالقرآن الكريم ، ممهدين لتنوع الدرس الصوتى إلى ما عرف بعد «بعلم الأصوات» من ناحية «وعلم التجويد» من ناحية أخرى[٢] .

ويسوق أستاذنا الدكتور عبد الله ربيع من كتاب الرعاية ما يؤكد ذلك فيقول[٣] :

كان «مكى» على وعى كامل بمستويات الأداء ، وبما يمكن أن ينشأ من فروق بين المستوى القرآنى والمستوى الكلامى العام، فكان ينبّه إلى هذه الفروق كقوله عن الحرف السادس بعد التسعة والعشرين :

---

(١) د/ أبو السعود الفخرانى فى المرجع السابق ص ٢٠٦

(٢) السابق نفسه نقلا عن د/ عبد الله ربيع محمود فى مقالة من مشكلاتنا الصوتية فى نطق العربية الفصحى وتعليمها ، مجلة كلية اللغة العربية بالرياض عدد /٨

(٣) انظر : من قضايا علم التجويد للدكتور عبد الله ربيع ص ٤٣ ، «أصوات العربية والقرآن الكريم منهج دراستها عند مكى »

«وأما الحرف السادس فهو حرف لم يستعمل فى القرآن، وهو حرف بين الشين والجيم، وهى لغة لبعض العرب».

وقوله عن الأحرف الزائدة عن الخمسة والثلاثين : وبعض العرب يزيد عند الاضطرار إلى هذه الخمسة والثلاثين حرفا سبعة أحرف ، وهى قليلة الاستعمال فى الكلام ، ولا تستعمل فى القرآن ، وهى شاذة .

يقول بعض الباحثين(١) فى الكلام على موضوع التجويد :

موضوعه الحروف، لأنه يبحث عن كيفية التلفظ بها ومخارجها وصفاتها كالترقيق والتفخيم والإظهار والإخفاء والإقلاب ونحو ذلك .

قال : ومن فوائده ـ أيضا ـ أننا نصبح قادرين على إتقان وإجادة نطقنا وألفاظنا فى غير القرآن الكريم، لأن الآيات القرآنية لا تكون وحدها موضوع هذا العلم، وإن كانت الدافع لتأليف هذا العلم ككثير من علوم العربية باعتبار وجوب النطق بها على الصورة التى نطق بها الرسول ﷺ ومن بعده جيلا بعد جيل ، بل موضوعه سائر الكلمات العربية من نثر وشعر ـ وهذه الكلمات تتكون من الحروف العربية ، ولذلك أطلق عليها المحدثون اسم «علم الأصوات»(٢). وإن كانت هذه التسمية قد عرفت منذ وقت مبكر وما هى من تسميات المحدثين ، فقد صرح بهذا ابن جنى فى سر الصناعة (٣).

ومثل ما يقال من أن فائدته صون اللسان عن اللحن فى لفظ القرآن كذلك يقال : إن فائدته صون اللسان عن الخطأ فى الكلمات العربية، والنطق بها على الصورة الصحيحة التى نطق بها الفصحاء من العرب وفى مقدمتهم صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم(٤) .

وقد يكون للمجوّدين العذر فى جعل قواعد التجويد مقتصرة على كلمات القرآن وحروفه، ذلك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن

---

(١) على ظريف الأعظمى فى كتابه «دروس التجويد» ، وانظر قواعد التجويد للحنفى ص١٢

(٢) قواعد التلاوة وعلم التجويد للأستاذ فرج توفيق الوليد ص١٢

(٣) قواعد التجويد للحنفى ص ١٣

(٤) قواعد التلاوة للأستاذ الوليد ص ١٥

وإقامة حدوده، هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها ، وقد عدّ العلماء القراءة بغير تجويد لحنا[1] .

إضافة إلى ذلك فإن أداء القرآن متميز ، وأنه أمر لا قِبل للعرب به ، وكان أبْين فى عجزهم، ولم لا وهو وجه من وجوه الإعجاز ؟ يقول الرافعى :

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة فى القرآن، مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء ، فإنك لابد ظاهر بنفسك على النقص فى كلام البلغاء وانحطاطه فى ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرّت الكلام وغيّرته فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأت رواءه، وأنضبت ماءه، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها فى كل جهاته ، فلا تعدو أن تظهر من عيبه ما لم يكن يعيبه إذا أنت أرسلته فى نهجه وأخذته على جملته.

وحسبك بهذا اعتبارا فى إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن، وأنه مما لايتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشى والتكرير ، وغير ذلك مما أوضحنا فى صفات الحروف[2] .

وعن أثر الأداء فى الفواصل القرآنية يقول :

وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى «بالنون والميم» وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها، أو «بالمد» وهو كذلك طبيعى فى القرآن .

فإن لم تنته بواحدة من هذه. كأن انتهت بسكون حرف من الحروف

---

(١) الإتقان للسيوطى ١/١٠٢ ، وانظر، النشر ١/ ٢١٠ ، ٢١١ ، ونظرات فى علم التجويد للكلاك ص ٣١

(٢) إعجاز القرآن ٢١٥

الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه .

وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما، مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى(١) .

ثم يعلّل لتأثير القرآن فى النفوس بقوله :

ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيرا إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وإيجازا، وابتداء وردًّا ، وإفرادا وتكريرا(٢) .

وكما يقول صاحب النبأ العظيم(٣) :

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا، فطرقَت سمعك جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الشحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى فى نظام تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها بينها، هذا ينقر، وذلك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا .

فترى الجمال اللغوى ماثلا أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة ،ولا تناكر ولا تنافر . . . .

ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدا فى أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ﴾(٤).

وعلى هذا وجب أن تكون قراءة القرآن قراءة نموذجية ، لأنها تتصل

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ٢١٦

(٢) السابق ٢١٨

(٣) الدكتور/ محمد عبد الله دراز ص ٩٧

(٤) سورة الحجر : الآية ٩

بكلام الله والتعبد بتلاوته ... ولهذا نرى أئمة القراءة يتوخّون الدقة فى التمييز، وفى تصنيف الكلمات القرآنية ، ويبلغ من تركيزهم على الكلمات القرآنية أنهم لا يأتون بمثل من خارج القرآن يستشهدون به ...

ولعل دافعهم إلى ذلك منع تسرب قواعد النحويين العامة إلي قواعد التجويد الخاصة بالقرآن، لأن لغة القرآن التى سميت «لغة التنزيل» هى أفصح أساليب العربية على الإطلاق ـ كما يقول الفراء ـ فى حين وضعت قواعد اللغة العربية عن لغات قد يكون فيها الضعيف وفيها الشاذ ، وفيها المصنوع والموضوع[1].

ومع أن الشائع أن قواعد التجويد وقْف على الأداء القرآنى وأن هذا هو رأى الجمهور ـ كما سبق بيانه ـ .

فإنى ـ ومن خلال ما سبق ـ أجدنى فى زمرة الذين تمنَّوا أن تتسع قواعد التجويد لتشمل أداء العربية بوجه عام، لا لتقتصر على القرآن الكريم فقط، أو القرآن والحديث معا ، وإن كنت على يقين من أن للقرآن الكريم أداءً متميزا بلغ حدّ الإعجاز .

ويعجبنى ـ فى هذا ـ قول جمال الدين القاسمى[2] رحمه الله :

"ولا يخفى أن التجويد من مقتضيات اللغة العربية، لأنه من صفاتها الذاتية، لأن العرب لم تنطق بكلمها إلا مجوّدة ، فمن نطق بها غير مجودة فكأنه لم ينطق بها، فما هو فى الحقيقة من محاسن الكلام بل من الذاتيات له، فهو ـ إذن ـ من طبيعة اللغة ، لذلك من تركه فقد وقع فى اللحن الجلىّ ، لأن العرب لا تعرف الكلام إلا مجوّدا .

وعلى هذا فإن اللحن فى اللغة لا يقتصر على مخالفة قواعد النحو من الرفع والنصب والجر ، بل يشمل ـ أيضا ـ كل مخالفة لقواعد التجويد من إدغام أو إقلاب أو إظهار ، فالذى يظهر اللام الشمسية، أو يدغم اللام القمرية، أو يظهر النون الساكنة مع الباء .... إلخ ، يكون قد لحن فى اللغة أيضا .

---

(١) نظرات فى علم التجويد للكلاك ص ٣٢، بتصرف

(٢) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث للقاسمى ص ٢٣٧ .

فالخطيب والشاعر والممثل والمذيع ... واجب عليهم إتقان قواعد التجويد ومراعاتها أثناء الكلام، ليكون لفظهم لحروف العربية ومقاطعها لفظا صحيحا، هذا مع التساهل فى المدود والغنن مما لا يلزم به المتكلم لصعوبة الإتيان به فى الكلام(1) ولا يخفى أن القلقلة ـ مثلا ـ تضيف روعة وجمالا وتأثيرا للمستمع .

هذه العلاقة الوثقى بين علم التجويد واللغة العربية هى التى أعطت للغة العربية هذا الثبات وهذا الاستقرار دون أن يصيبها التغيير والتحريف ، ونستطيع ونحن نبتعد عن زمن نزول القرآن وكتابة الأحاديث والآداب والعلوم أربعة عشر قرنا أن نفهم ما هو مكتوب فى الكتب القديمة دون صعوبة . فكلماتها ومعانيها وألفاظها ظلّت كما هى لم يتطرق إليها التبديل كما حصل للّغات الأخرى(2) .

بل نستطيع أن نجزم أننا نتلفظ الحروف كما كان يلفظها رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم « حتى لو أن عربيا جاهليا بعث الآن وسمعنا ننطق بلفظ فصيح لفهمه ، لأن أصوات لغتنا الفصحى لم يطرأ عليها تغيير ، فطريقة النطق بها اليوم لا تختلف فى شئ عن طريقة النطق بها بالأمس البعيد»(3).

ولاشك فى أن هذا الجزم وهذه الثقة يعود سببها إلى قواعد التجويد التى هى جزء من علم القراءات وعلم فقه اللغة وعلم النحو والصرف ، التى أعطت بمجموعها هذه الميزة للغة العربية وجعلتها اللغة الوحيدة بين لغات العالم فى وصولها جيلنا الحاضر دون أن تصاب بما أصيبت به اللغات الأخرى(4) .

الأمر الذى يجعلنا نؤكد ما قاله شيخنا(5) :

بأن درس العربية وتعليمها محال أن يتم دون معرفة واسعة بأصوات هذه اللغة ، وتدريب متواصل مستمر على نطقها وأدائها ، وأن قراءة القرآن الكريم

---

(1) نظرت فى علم التجويد للكلاك ص ٣٣

(2) السابق نفسه

(3) دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح ص ٢٨٥

(4) نظرات فى تجويد القرآن للكلاك ص ٣٧

(5) الأستاذ الدكتور عبد الله ربيع محمود في مقاله «أصوات العربية والقرآن الكريم منهج دراستها وتعليمها عند مكى»

وتلاوته والوصول إلى كثير من دقائقه وأسراره وحكمه وإعجازه وأحرفه ورواياته لايمكن أن يتم دون التعمق فى دراسة أصوات لغته والتعرف الكامل على تلك الحروف « عظيمة القدر ، جليلة الخطر، لأن بها أفهمنا الله كتبه كلها، وبها يعرف التوحيد ويفهم ، وبها افتتح الله عامة السور ، وبها أقسم ، وبها نزلت أسماؤه وصفاته، وبها قامت حجة الله على خلقه ، وبها تعقل الأشياء، وتفهم الفرائض والأحكام، وغير ذلك من شرفها كثير لا يحصى»(١).

وجملة القول : أن تجويد القرآن ضرورة وشرط لقراءته ، فإذا كان الله تعالى لم يفرض علينا جزءا معينا نقرؤه فى اليوم والليلة بقوله ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾(٢) ، فإن هذا الذى يتيسر مهما قلّ أو كثر يجب أن يقرأ مجوّدا بأحكام التجويد لقوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(٣) ، ولذلك قال ابن الجزرى (رحمه الله)(٤) :

والأخذ بالتجويد حتم لازم	من لم يجود القرآن آثم
لأنه به الإله أنزلا	وهكذا عنه إلينا وصلا

❊ ❊ ❊

(١) السابق نفسه وانظر : الرعاية لمكى بن أبى طالب ص٧٣

(٢) سورة المزمل : الآية ٤

(٣) سورة المزمل : الآية ٢٠

(٤) طيبة النشر ص ٨

حكم التجويد وقيمته

قال ابن الجزرى فى نشره :

التجويد فرض على كل مكلف ، ثم قال رحمه الله تعالى : وإنما قلت : التجويد فرض لأنه متفق عليه بين الأئمة بخلاف الواجب فإنه مختلف فيه[1]ـ وسيأتى بيان ذلك .

وقال ابن غازى فى شرحه على الجزرى :

ولم ينفرد ابن الجزرى فى ذكر فرضية التجويد ، فقد ذكر عن أبى عبدالله نصر الشيرازى ، وعن الفخر الرازى، وعن جماعة من شيوخه ـ أيضا ـ ووافقه على ذلك الحافظ جلال الدين السيوطى فى الإتقان ، والحافظ القسطلانى فى لطائف الإشارات ، وذكره النويرى فى شرحه على الطيبة ، وذكره قبله مكى بن أبى طالب ، وأبو عمرو الدانى ، وغيرهم من المشايخ العارفين بتحقيق القراءات وتدقيقها حسبما وصل إليهم من الحضرة النبوية الأفصحية[2] .

يقول ابن غازى[3] :

اعلم أن علم التجويد لا خلاف فى أنه فرض كفاية ، والعمل به فرض عين على كل مسلم ومسلمة من المكلفين ، وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة :

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[4] قال البيضاوى : أى جوّده تجويدا ، وقال غيره : أى ائت به على تؤدة ،وطمأنينة ، وتأمل ، ورياضة اللسان ، أى التكرار والمداومة على القراءة بترقيق المرقق، وتفخيم المفخم ، وقصر المقصور ، ومد الممدود وغير ذلك .

وقد جاء عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أنه قال : الترتيل : هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف. . .

---

(١) نهاية القول المفيد ص ١٠

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) المصدر السابق ص ٧

(٤) سورة المزمل : الآية ٤

وإذا تأملنا الآية الكريمة نجد أن الله تبارك وتعالى لم يقتصر على الأمر بالفعل «رَتِّلْ» حتى أكده بالمصدر «تَرْتِيلاً» اهتماما به ، وتعظيما لشأنه ،وترغيبا في ثوابه والعمل به ، ليكون ذلك عونا على تدبر القرآن وتفهمه[1] .

والأمر فى هذه الآية للوجوب ، لأن الأصل فى الأمر أن يكون للوجوب إلا إذا وجدت قرينة تصرفه عن الوجوب إلى غيره من الندب ، أو الإباحة ، أو الإرشاد ، أو التهديد ، إلى غير ذلك . فيحمل على ذلك لدلالة القرينة عليه ، ولم توجد قرينة هنا تصرفه عن الوجوب إلى غيره ، فيبقى على الأصل وهو الوجوب[2] .

وما أمر بالترتيل - هنا - إلا لأن الترتيل صفة تكلم الله بالقرآن ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وناهيك بهذا شرفا وجلالا[3] .

وأما السّنة فكثيرة[4] : منها قوله - ﷺ - : «رُبَّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» ، أى إذا أخل بمبانيه أو معانيه أو بالعمل بما فيه، ومن جملة العمل بما فيه ترتيله ، وتلاوته حق تلاوته ، لأن الله سبحانه وتعالى أنزله مجوّدا مرتلا، وقد وصل إلينا كذلك من المشايخ العارفين بتحقيقه وتدقيقه المتصل سندهم بالنبى ﷺ عن جبريل، عن اللوح المحفوظ ، عن الله عز وجل، لأنه من العلوم التى ترجع إلى السماع والنقل ، ولا مجال فيه للقياس.

ومنها ما وراه الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه وسعيد بن منصور من حديث موسى بن يزيد الكندى - رضى الله عنه - قال : كان ابن مسعود - رضى الله عنه - يقرئ رجلا ، فقرأ الرجل : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[5] مرسلة بدون مد - أى يقصر المد فيها فى لفظ الفقراء - فقال ابن مسعود - رضى الله عنه - : ما هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقال الرجل: وكيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : أقرأنيها :﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ بالمد ، ومدّها . فابن مسعود هو أشبه الناس سمتا ودلاًّ

---

(١) النشر ٢٠٨/١ ، والتحديد للدانى ص ٧١

(٢) أحكام قراءة القرآن للحصرى ص ١٧

(٣) التجويد للمسلمى ص ٢١

(٤) نهاية القول المفيد ص ٧

(٥) سورة التوبة : الآية ٦٠

برسول الله ﷺ أنكر على الرجل أن يقرأ كلمة «الفقراء» من غير مد ، ولم يرخص له تركه ، مع أن فعله وتركه سواء فى عدم التأثير على دلالة الكلمة ومعناها ، ولكن لأن القراءة سنّة متبعة يأخذها الآخر عن الأوّل أنكر ابن مسعود -رضى الله عنه- على الرجل أن يقرأ بغير قراءة النبى ﷺ التى أقرأبها أصحابه - رضى الله عنهم أجمعين .فدلّ ذلك على وجوب تعلم التجويد ، واتباع أحكامه عند التلاوة، لدلالة مثل هذا النص بالجزء على الكل[1].

ومنها - أيضا - ما رواه مالك في موطئه ، والنسائى فى سننه ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر » - وفى رواية : أهل الفسق وأهل الكبائر - فإنه سيجئ أقوام من بعدى يرجعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم ».

والمراد بالقراءة بلحون العرب : قراءة الإنسان بحسب جبلّته وطبيعته على طريقة العرب العرباء الذين نزل القرآن بلغتهم من غير زيادة ولا نقص ،ولا تصنع ولا تكلف ، ولا قصد إلى الأنغام المستحدثة ، والألحان التى تذهب بروعة القرآن وجلاله[2] .

والمراد بلحون أهل الفسق والكبائر : القراءة التى تراعى فيها النغمات الموسيقية والتطريب والتلحين فقط . وإنما حذر النبى ﷺ من هذه القراءة ، لأن الشأن فيها أنها تكون ذريعة إلى التلاعب بكتاب الله تعالى ، بالزيادة فيه أو النقص منه، إما بتطويل المقدار المقدر له ، أو تقصيره عن المقدار المذكور ، أو بالمبالغة فى الغنّ أو النقص فيه ، أو بتوليد ألف من الفتحة وياء من الكسرة، وواو من الضمة ، إلى غير ذلك مما يترتب على القراءة بالأنغام والألحان الموسيقية من انحراف عن الجادة فى القراءة ، وبُعد عن الصواب فى التلاوة ، ومن أجل ذلك كانت القراءة بهذه الألحان مذمومة ومحرمة شرعا .

---

(١) التجويد للمسلمى ص ٢١

(٢) نهاية القول المفيد ص ٨

فإن قرأ القارئ بهذه الأنغام الموسيقية، ولكن تحرّى الدقة فى إتقان الحروف، وتجويد الكلمات، وتحسين الأداء، ومراعاة حسن الوقف والابتداء، ولم ينحرف يمنة أو يسرة عن القواعد التى وصفها علماء القراءة فلا بأس بها(١).

والمراد «بالذين لا يجاور حناجرهم» الذين لا يتدبرون القرآن ولا يعملون به، ومن العمل به: تجويد قراءته على الصفة المتلقاة من الحضرة النبوية الأفصحية .

وقوله ﷺ : «مفتونة قلوبهم» أى مصروفة عن طريق الحق، بعيدة عن رحمة الله تعالى ، والمعنى : أن قلوب هؤلاء ومن يعجبهم شأنهم وطريقتهم مصروفة عن رحمة الله تعالى، وعن الطريق الموصل إليه تعالى(٢) .

قال فى شرح القول المفيد :

الأمر فى الخبر محمول على الندب ، والنهى على الكراهة ، إن حصلت المحافظة على صحة ألفاظ الحروف من غير إفراط ولا تفريط ، وإلا فالأمر محمول على الوجوب ، والنهى على التحريم .

وقال الشيخ برهان الدين القلقيلى فى شرحه على متن الجزرية ، بعد أن ذكر الحديث المارّ مع ما تيسر له من شرحه : وقد صحّ أن النبى ﷺ سمّى قارئ القرآن بغير تجويد فاسقا ، وهو مذهب إمامنا الشافعى -رضى الله عنه-، لأنه قال : «إن صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحائط»(٣).

وفى زاد المعاد لابن القيم(٤) أن فريقا من السلف منع التطريب بالقرآن منهم : أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والقاسم بن محمد ، والحسن بن سيرين ، والنخعى ، وأحمد ، ومالك .

وأن فريقا آخر أجازه ، منهم : عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبو موسى ، وعطاء ، وابن المبارك ، والنضر بن شميل ، وأبو حنيفة وأصحابه ، واختاره الطبرى .

---

(١) أحكام قراءة القرآن للحصرى ص١٨

(٢) نهاية القول المفيد ص ٩

(٣) المصدر السابق

(٤) زاد المعاد لابن القيم ١٩٦/١

ثم قال ابن القيم بعد ذكر أدلة الفريقين :

وفصل النزاع أن يقال : التطريب والتغنّى على وجهين :

أحدهما : ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين وتعليم، إذا خلّى وطبعه ، واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز، وإن أعان طبيعته فضل تزيين وتحسين ، كما قال أبو موسى للنبى ﷺ: «لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا» أى حسنته وزينته بصوتى تزيينا . والحزين ومَن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب فى القراءة ، والنفوس تقبله وتستحليه لموافقة الطبع وعدم التكلف والتصنع ، فهو مطبوع لا متطبع ، وكلف لا متكلف ، فهذا هو الذى كان السلف يفعلونه ويستمعونه ، وهو التغنى المحمود الذى يتأثر به السامع والتالى، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها .

ثانيهما : ما كان من ذلك صناعة من الصنائع ، وليس فى الطبع السماحة به ، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع، وتمرين وتعلم ، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة ، على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة ، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف .

فهذه هى التى كرهها السلف وعابوها وذمّوها ، ومنعوا القراءة بها ، وأنكروا على من قرأ بها ،وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه[1] .

وأما إجماع الأمة : فقد قال العلامة الشيخ محمد مكى نصر فى نهاية القول المفيد مانصه[2] :

فقد اجتمعت الأمة المعصومة من الخطأ على وجوب التجويد من زمن النبى ﷺ إلى زماننا ، ولم يختلف فيه عن أحد منهم ، وهذا من أقوى الحجج.

وقد ذكر الشيخ أبو العز القلانسى فى ذلك شعرا فقال :

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٦٩ ، وانظر : كيف يتلى القرآن ص ٢٦ ، ٢٧ . والعقد الفريد هامش المحقق ص ٢٢

(٢) نهاية القول المفيد ص ٩

يَا سَائِلاً تَجْوِيدَ ذَا الْقُرآنِ … فَخُذْ هُدِيتَ عَنْ أُولِى الإِتْقَانِ
تَجْوِيدُهُ فَرْضٌ كَمَا الصَّلاَةُ … جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ وَالآيَاتُ
وَجَاحِدُ التَّجْوِيدِ فَهْوَ كَافِرُ … فَدَعْ هَوَاهُ إِنَّهُ لَخَاسِرُ
وَغَيْرُ جَاحِدِ الْوُجُوبِ حُكْمُهُ … مُعَذَّبٌ وبَعْدَ ذَاكَ إِنَّهُ
يُؤْتَى بِهِ لِرَوْضَةِ الْجَنَّاتِ … كَغَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْعُصَاةِ
إِذِ الصَّلاَةُ مِنْهُمْ لاَ تُقْبَلُ … وَلَعْنَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ تَنْزِلُ
لأَنَّهُمْ كِتَابَ رَبِّى حَرَّفُوا … وَعَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ زَاغُوا فَانْتَفُوا

وقد أفتى الإمام أبو الخير محمد بن الجزرى بأن من استأجر شخصا ليقرئه القرآن، أو ليقرأ له ختمة، فأقرأه القرآن ، أو قرأ الختمة بغير تجويد لا يستحق الأجرة .

ومن حلف أنّ القرآن بغير تجويد ليس قرآنا لم يحنث[1] .

كما أفتى الشيخ محمد بن خلف الحسينى الشهير بالحداد شيخ القراء والمقارئ المصرية سابقا، حيث قد وجه إليه سؤال حول التجويد، وهذا نصه[2] :

ماحكم قراءة القرآن بدون تجويد ؟ وما حكم الاكتفاء بأخذه من المصاحف بدون معلّم ؟

فأجاب ـ رحمه الله ـ : أقول وبالله التوفيق :

اعلم أن تجويد القرآن الكريم واجب وجوبا شرعيا ، يثاب القارئ على فعله ، ويعاقب على تركه ، فرض عين على من يريد قراءة القرآن ، لأنه نزل على نبينا ﷺ مجوّدا ، ووصل إلينا بالتواتر ، فأخْذ القراءة من المصحف بدون تلق من أفواه المشايخ المتقنين لا يجوز .

وأفتى ـ أيضا ـ الشيخ عامر عثمان ـ رحمه الله ـ شيخ المقارئ المصرية بالأزهر الشريف ما نصه[3] :

---

(١) نهاية القول المفيد ص ١٠ ، ١١

(٢) القول السديد فى بيان حكم التجويد ص ٤٠

(٣) التجويد للمسلمى ص ٢٠

تجويد القرآن حتم واجب إن لم تجـود فانت مذنب
لأن ربنا كلف الإنســـان به فقال «ورتل القرآن . . »

ولعله من المناسب هنا أن أشير إلى أن «الواجب» فى علم التجويد ينقسم إلى[1] :

واجب شرعى : وهو ما يثاب على فعله ، ويعاقب على تركه .

واجب صناعى : وهو ما يحسن فعله ويقبح تركه ، ويعزر على تركه التعزير اللائق به عند أهل تلك الصناعة .

فالشرعى : ما يحفظ الحروف من تغيير المبنى وإفساد المعنى ، فيأثم تاركه .

والصناعى : فيما ذكره العلماء فى كتب التجويد كالإدغام والإخفاء والإقلاب والترقيق والتفخيم ، فلا يأثم تاركه على اختيار المتأخرين .

وأما المتقدمون فاختاروا وجوب الجميع شرعا ، وهذا هو الموافق لما قاله العلامة ناصر الدين الطبلاوى ، حيث سئل : هل يجب إدغام النون الساكنة والتنوين عند حروف الإدغام ، وإظهارهما عند حروف الإظهار ، وإخفاؤهما عند حروف الإخفاء ، وقلبهما عند حروف الإقلاب أم لا ؟ . وإذا كان واجبا فهل يجب على مؤدب الأطفال تعليمهم ذلك ؟ وهل المد اللازم والمتصل كذلك؟

وإذا قلتم بالوجوب فى جميع ذلك، فهل هو شرعى يثاب فاعله ، ويأثم تاركه، ويكون تركه لحنا ؟ أو صناعى فلا ثواب لفاعله ، ولا إثم على تاركه ، ولا يكون تركه لحنا ؟ وماذا يترتب على ذلك ؟ وإذا أنكر شخص وجوبه ، فهل هو مصيب أو مخطئ ؟ وماذا يترتب عليه فى إنكار ذلك ؟ أفتونا أثابكم الله .

فأجاب بقوله : الحمد لله الهادى للصواب ، نقول بالوجوب فى جميع ذلك من أحكام النون والتنوين ، والمد اللازم والمتصل ، ولم يرِد عن أحد من الأئمة أنه خالف فيه .

وإنما تفاوتت مراتبهم فى المد المتصل مع اتفاقهم على أنه لا يجوز قصره

---

(١) نهاية القول المفيد ص ٢٤

كقصر المنفصل فى وجه من الوجوه . وقد أجمعت الفقهاء والأصوليون على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ مع وروده فى الجملة ، فما بالك بقراءة ما لم يرد أصلا !!.

وقد نصّت الفقهاء على أنه إذا ترك شدّة من الفاتحة كشدّة «الرّحمن» منها، بأن جزم اللام وأتى بها ظاهرة ، فلا تصحّ صلاته ، ويلزم عن عدم الصحة التحريم ، لأن كل ما أبطل الصلاة حرم تعاطيه ولا عكس ، وقد قال ابن الجزرى فى التمهيد :

ما قرئ به وكان متواترا فجائز وإن اختلف لفظه. وما كان شاذا فحرم تعاطيه ، وما خالف ذلك فكذلك ويكفر متعمده ، فإذا تقرر ذلك فترك ما ذكر ممتنع بالشرع ، وليس للقياس فيه مدخل بل محض اتباع ، وقد قال العلامة ابن الجزرى :

والأخـــذ بالتجـــويد حتم لازم   مـن لم يجـــود القـــرآن آثم[1]

أى معاقب على ترك التجويد ، كذاب على الله ورسوله ، داخل فى حيز قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[2]، وقوله ﷺ : «مَن كذب علىّ عامداً أو متعمدا فلَيتبوأ مقعده من النار» [3].

فيجب على كل عاقل له ديانة أن يتلقاها بالقبول عن الأئمة المعتبرين ، ويرجع إليهم فى كيفية أدائه ، لأن كل فن إنما يؤخذ عن أهله فاعتن به ، ولا تأخذ بالظن، ولا تنقله عن غير أهله .

ويجب على المعلّم للقرآن من فقيه الأولاد وغيره أن يعلّم تلك الأحكام وغيرها ، مما اجتمعت القراء على تلقيه بالقبول ، لأن كل ما اجتمعت عليه القراء حرمت مخالفته ، ومن أنكر ذلك ـ أى مما تقدم كله ـ فهو مخطئ آثم يجب عليه الرجوع عن هذا الاعتقاد ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل[4].

---

(١) نهاية القول المفيد ص ٢٤ ، ٢٥

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٠

(٣) نهاية القول المفيد ص ١١

(٤) نهاية القول المفيد ص ٢٥

هذا بالنسبة إلى التجويد العملى .

أما التجويد العلمى (النظرى) وهو معرفة القواعد والضوابط التى وضعها علماء التجويد فحكمه بالنسبة لعامة المسلمين أنه مندوب إليه ، وليس بواجب، لأن صحة القراءة لا تتوقف على معرفة هذه الأحكام ، فهو كسائر العلوم الشرعية التى لا تتوقف صحة العبادة على معرفتها ، فيكفى القراءة الصحيحة، ولو لم يعرفوا قواعد التجويد .

وأما بالنسبة لأهل العلم فمعرفته واجبة على الكفاية، ليكون في الأمة طائفة من أهل العلم تقوم بتعلم وتعليم هذه الأحكام لمن يريد أن يتعلمها ، فإذا قامت طائفة منهم بهذه المهمة سقط الإثم والحرج عن باقيهم ، وإذا لم تقم طائفة منهم بما ذكر أثموا جميعا[١] .

وأما حكم تعلّمه فهو فرض كفاية بالنسبة إلى عامة المسلمين ، وفرض عين بالنسبة إلى رجال الدين من العلماء والقراء، ومهما يكن من شئ فإنه يأثم تاركه منهم ، ويتعرض لعقاب الله[٢] .

علم التجويد وعلاقته بعلوم العربية

التجويد علم من علوم العربية موضوعه الكلمات القرآنية ، وله علاقة وثيقة بعلوم اللغة بشكل عام ، فهناك قضايا مشتركة تلتقى فى الكشف عنها الدراسة التجويدية بالدراسات اللغوية ، ومن ذلك : «اللحن» الذى يعرف بعضه ـ كما يقول المرعشى ـ بالاطلاع على علم التجويد ، وهو الخطأ فى المبنى والصفات. وبعضه بالاطلاع على علم اللغة ، وهو الخطأ فى حركات الأوائل، وحركات الأواسط وسكناتها . وبعضه بالاطلاع على علم النحو ، وهو الخطأ فى حركات الأواخر وسكناتها . وبعضه بالاطلاع على علم الصرف ، وهو الخطأ فى الإعلال مثل : القلب ، والحذف، والنقل[٣] .

---

(١) أحكام قراء القرآن للحصرى ص ١٦ ، وانظر : ملخص أحكام التجويد ص ١٧

(٢) العميد ص ٨

(٣) أصوات القرآن الكريم : منهج دراستها عند المرعشي فى كتابيه : جهد المقل وبيانه د/ أبو السعود الفخرانى ص٢١١، ٢١٢

وعلى حدّ قول أستاذنا الدكتور عبد الله ربيع[1] :

إن أحدا لا يستطيع أن ينكر علاقة علم التجويد بعلوم اللغة الأخرى كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها، ذلك أن التجويد يستمد من هذه العلوم ، وبخاصة من النحو والصرف ، ويعتمد عليها فى كثير من قضاياه ، مما يجعل تلك القضايا تمثل أحيانا حقلا أو حقولا مشتركة يلتقى فيها البحث التجويدى بتلك البحوث النحوية أو الصرفية .

ولعل أوضح تلك القضايا المشتركة قضايا : ألف الوصل والقطع ، والوقف والابتداء وما يتصل بهما .

وقد عَرَفَ هذا علماء القراءات والتجويد ، ومن ثَمَّ فقد اشترطوا فى قارئ القرآن المعرفة بالنحو وغيره من علوم اللغة .

يقول أبو بكر بن مجاهد :

لا يقوم بالتمام فى الوقف إلا نحوىّ عالم بالقراءات ، عالم بالتفسير والقصص ، وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التى نزل بها القرآن .

ويقول مكى بن أبى طالب فى ذلك :

يجب على طالب القرآن أن يتخيّر لقراءته ونقله وضبطه أهل الديانة والصيانة والفهم فى علوم القرآن ، والنفاذ فى علم العربية والتجويد بحكاية ألفاظ القرآن وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم[2] .

وفى نهاية كتابه (التحديد فى الإتقان والتجويد) يقول أبو عمرو الدانى:

فهذا كله وسائر ما ذكرنا قبل لا تتمكن معرفته للقراء إلا بنصيب وافر من علم العربية، وذلك من آكد ما يلزمهم تعلمه ، والتفقه فيه ، إذ به يفهم الظاهر الجلىّ ويدرك الغامض الخفىّ ، وبه يعلم الخطأ من الصواب ، ويميّز السقيم من الصحيح[3] .

---

(١) من قضايا علم التجويد ص ٢٥

(٢) السابق نفسه ، وانظر الرعاية ص ٨٩

(٣) التحديد فى الإتقان والتجويد ص ١٧٨

وقال أبو العلاء الهمذانى العطار فى كتابه (التمهيد فى التجويد) :

ثم اعلم أن ما ذكرناه من الحذق بالأداء ، وما لم نذكره من مذاهب القراء، لا يوقف على حقيقته ، ولا يوصل إلى كيفيته إلا بإتقان العربية ومقاييسها ومعرفة وجوه القراءات ورواياتها[1] .

وقد ذكر القسطلانى فى «لطائف الإشارات» العلوم التى يحتاج إليها دارس القراءات ، وجعل علم العربية ثانى تلك المهمات بعد «الأسانيد»[2] .
وقد قال : وأما الجزء الثانى : وهو علم العربية ، فاعلم أنه لما كان إنزال القرآن العزيز إنما وقع بلسان العرب ، توقف الأمر فى أدائه على معرفة ما يجوز عندهم النطق به وما لا يجوز ، وهو قسمان :

الأول : معرفة الإعراب المميز للخطأ والصواب ، والثانى : معرفة كيفية نطقهم بكل حرف ذاتا وصفة ، وهو معرفة مخارج الحروف وصفاتها[3] .

وغنى عن البيان أن علم التجويد والعمل به من أهم العوامل التى صانت أصوات العربية من التشويه والتغيير ، وحالت بينها وبين ما أصاب كثيرا من أصوات اللغات الأخرى من لحن واختلاط . وقد أشرت إلى ذلك من قبل .

ونظرا لهذا الارتباط الوثيق بين علم التجويد وعلوم العربية وبخاصة علم الصوتيات، فإنى أكتفى بتجلية هذه الصلة بين علمى التجويد والأصوات ، وذلك فى إطار ما تسمح به طبيعة هذا البحث .

---

(١) انظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ص ٨٤

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١٧٢

(٣) السابق ١/ ١٨٢ ، وانظر : الدراسات الصوتية د/ غانم ص ٨٤

صلته بعلم الصوتيات

إن علم التجويد - كما هو معروف - يعنى بدراسة مخارج الحروف وصفاتها ، ويبين طريقة نطقها مركبة بحسب ما يجاورها ، ويوضح مقدار الحركة فى المقصور والممدود .... إلخ

وكل هذه المباحث تدرس تحت مصطلح «علم الأصوات» بنوعيه العام والوظيفى ، فعلم الأصوات العام يدرس الأصوات من حيث نطقها وانتقالها وإدراكها ، ومنه علم الأصوات النطقى الذى يعنى بدراسة مخارج الأصوات وصفاتها ، ووصف الجهاز النطقى .

أما علم الأصوات الوظيفى فإنه يقوم بدراسة الوحدات الصوتية وتحديدها تحديدا دقيقا ، وتوضيح ما تتعرض له من تأثير بحسب ما يجاورها[1] .

من هنا فإن العلاقة بين الصوتيات والتجويد - على حدّ قول أستاذنا الدكتور عبد الله ربيع[2] - لاتكاد تحتاج إلى بيان ، ذلك أن علم الصوتيات إذا كان يدرس الصوت اللغوى بصورة عامة فإن علم التجويد يعمل فى المجال نفسه غير أنه يختص بدراسة الصوت القرآنى .

فالمجال - إذن - واحد ، والمناهج لا تكاد تختلف ، والغاية ربّما تكون واحدة، والتعاون بين العلمين لا يمكن الاستغناء عنه ، وقد أدرك ذلك السابقون الأوائل فلم يظهر عندهم التفريق بين هذين العلمين إلا عندما فرضت الظروف تفريع العلوم وظهور فكرة التخصيص .

ونحن مع أستاذنا فى قوله :

ولعل هذا ما يجعلنا ننادى دائما بأن على علماء التجويد فى عصرنا أن يفعلوا كما فعل أسلافهم، وأن ينتفعوا بما أحرزه علم الصوتيات من تقدم فى المناهج العلمية والعملية والنظرية والتطبيقية، إذا أرادوا أن يحافظوا حقًّا على التجويد القرآنى علما وعملا وفنا وتطبيقا[3] .

---

(١) أحكام تجويد القرآن د/ سويد ص ٨ ، وانظر : بحثنا عن القلقلة (مجلة كلية اللغة العربية القاهرة عدد ١٣ سنة ١٩٩٥م)

(٢) من قضايا علم التجويد ص ١٥

(٣) السابق ص ١٦

ولاشك أن دراسة علم القراءات والتجويد تحت منظور علم الأصوات الحديث بوسائله الحديثة فى معرفة مخارج الأصوات وصفاتها ، ومعرفة لغات الأمم المختلفة، تؤدى إلى تعليل سليم وحكم دقيق(١) .

ولكى نتبيّن عمق هذه الصلة ومدى ما بذله علماء التجويد من جهد أثرَى الدراسات الصوتية بعامة ، بل كان مرتكزا لها ـ إليك إطلالة عن تناول كل من علماء التجويد وعلماء العربية لمخارج الحروف وصفاتها ، وما انتهى إليه كل منهم فى ضوء معطيات الدرس الصوتى الحديث .

* * *

المخارج والصفات

مخارج الحروف قضيّة شغلت علماء الأصوات قديما وحديثا ، واهتم بها علماء التجويد، لأنها دعامة من دعامات علم التجويد ، يقول صاحب نهاية القول المفيد(٢) :

اعلم أن هذا الباب (مخارج الحروف) من أهم أبواب التجويد، فيجب أن يعتنى بإتقانه كل من أراد أن يقرأ القرآن المجيد ، قال الشمس ابن الجزرى فى مقدمته :

إذ واجب عليهم محتّم ... قبل الشروع أوّلاً أن يعلموا

مخارج الحروف والصفات ... لينطقوا بأفصح اللغات

وترجع أهمية هذا المبحث إلى أن المبتدئ عندما يشرح له ـ مثلا ـ العلة فى إظهار الميم الساكنة عند ستة وعشرين حرفا من حروف الهجاء ، يكون محتاجا إلى معرفة المخارج ، وذلك لأن العلة فى إظهار الميم عند الواو والفاء هو أن بينها وبين الواو اتحادا فى المخرج ، وعند الفاء العلة التقارب فى المخرج ـ أيضا ـ .

ومثال آخر : فى الإظهار الحلقى نجد أن علة إظهار النون عند حروف

---

(١) أحكام تجويد القرآن د/ سويد ص ٨

(٢) الشيخ محمد مكى نصر ص٢٧ ، وانظر علم التجويد القرآنى د/ علام ص ٢٨

الحلق هو التباعد الشديد بين مخرجها ومخارج الحلق الثلاثة ، ومثال الإظهار: «من آمن» فنظهر النون الساكنة عند الهمزة والعلة فى ذلك - كما قلنا - هى بعد المخرج بين النون والهمزة ، إذ إن النون تخرج من طرف اللسان ، والهمزة تخرج من أقصى الحلق ، فتلاحظ تباعدا شديدا بين مخرجيهما[1] .

ولما كانت الحاجة ماسة إلى دراسة المخارج اقتضى المقام الحديث عن صفات الحروف - أيضا - لاسيما ومن فوائد دراستها :

معرفة قوىّ الحروف وضعيفها ، ليعلم ما يجوز فيه الإدغام وما لا يجوز، وتمييز الحروف المشتركة فى المخرج ، إذ لولاها لكانت تلك الحروف حرفا واحدا ، فمثلا الحاء والهاء المهملتان ، والثاء المثلثة لولا اختلافهن فى المخرج لكنّ حرفا واحدا لاتفاقهن فى الصفة، وكذلك الطاء المهملة لولا انفرادها بالاستعلاء والإطباق والجهر لكانت تاء لاتفاقهما فى المخرج، وغير ذلك من الفوائد .

ولإدراكهم هذه الأهمية فقد فهموا المخرج فهما دقيقا من أنه : اسم لموضع خروج الحرف والحيّز الذى يتكون فيه الصوت اللغوى .

يقول القسطلانى : المخارج جمع مخرج اسم للموضع الذى ينشأ منه الحرف ، وهو عبارة عن الحيّز المولد للحرف [2].

ويقول القارى : والأظهر أنه موضع ظهوره وتميّزه عن غيره[3] وعرّفه ابن يعيش فى شرح المفصل بأنه : المقطع الذى ينتهى الصوت عنده[4] .

فالمخرج - إذن - هو النقطة المعيّنة من آلة النطق التى ينشأ منها الحرف أو يظهر فيها ويتميّز نتيجة لتضييق مجرى الهواء أو غلقه ثم إطلاقه ،

يقول بعض الباحثين [5]: وهى تعريفات تتطابق مع وجهة نظر علماء

---

(١) الفجر الجديد فى علم التجويد / أحمد شربينى سعودى ص ٣٣

(٢) لطائف الإشارات ١/ ١٨٢

(٣) المنح الفكرية ص ٩

(٤) شرح المفصل ١٠/ ١٢٤ ، وانظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم هامش ١٢٢

(٥) د/ غانم ١٢٢ (الدراسات الصوتية)

الأصوات المحدثين . يقول برجستراسر[١] : والمَخْرَجَ أو المُخرَج هو الموضع من الفم ونواحيه الذى يَخرُج أو يُخرَج منه الحرف .

ويقول ماريوباى [٢]: وإن التميّز بين أصوات اللغة سواء منها الأنفى أو الفموى يعتمد على استمرار الصوت ودرجة سماعه وقوة إنتاجه وفوق كل هذا على المخرج ، وكلمة المخرج تشير إلى النقطة المحددة فى الجهاز النطقى التى يتم عندها تعديل وضعه .

أما الصفة فقد عرّفها طاش كبرى زاده بقوله[٣] : وصفة الحرف كيفية عارضة للحرف عند حصوله فى المخرج، وتتميز بذلك الحروف المتحدة بعضها عن بعض.

وهذا التعريف ينسجم مع وجهة الدرس الصوتى الحديث ـ أيضا ـ فالصوت ينتج عن عملية حركية فى الغالب من تدخل بعض أعضاء آلة النطق فى تيار النفَس فى نقطة معينة هى التى تسمى (المخرج) وهذه هى العملية الأساسية فى إنتاج الصوت .

وهناك عمليات أخرى مصاحبة تحدث فى بعض أعضاء النطق كعملية اهتزاز الوترين الصوتيين التى تسمى (بالجهر) ، فهذه العمليات المصاحبة لما يحدث للصوت فى المخرج هى التى تسمى «بالصفات» .

فصفات الحروف ـ إذن ـ هى كيفيات مصاحبة لتكوّن الحرف فى المخرج سواء كانت تبين كيفية مرور الهواء فى نقطة المخرج، أم توضح عملية نطقية ثانوية تشكل جزءا مهما فى تكوين الصوت وتميزه عن غيره .

من هنا كان الوقوف على مخرج الصوت اللغوى فى عرف الدراسات الصوتية الحديثة أمرًا له أهمية كبري ، فالصوت يقوم على دعامتين : الأولى : المخرج ، والثانية : الصفة . وبهما يتميز عن غيره من الأصوات ، وقد يتميز عن غيره بإحدى هاتين الدعامتين[٤] .

(١) السابق ص ١٢٤ ، وانظر : التطور النحوى ٥ ـ ٦

(٢) أسس علم اللغة ٧٨

(٣) انظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ١٢٤

(٤) علم التجويد القرآنى د/ علام ٣١ ، وانظر ـ أيضا ـ بحثنا عن القلقة (مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة) عدد ١٣/ ١٩٩٥م

يقول صاحب الرعاية [1]:

فالحروف تكون من مخرج واحد وتختلف صفاتها ، فيختلف لذلك ما يقع فى السمع من كل حرف ، وهذا تقارب بين الحروف من جهة المخرج وتباين من جهة الصفات ، وتكون الحروف من مخرجين وهى مختلفة الصفات فهذا غاية التباين إذ قد اختلفت فى المخارج والصفات، وتكون من مخرجين متفقة الصفات فهذا ـ أيضا ـ تقارب بين الحروف من جهة الصفات وتباين من جهة المخرج . فافهم هذا فعليه مدار الحروف كلها .

ولا تجد أحرفا من مخرج واحد متفقة الصفات البتة ، لأن ذلك يوجب اتفاقها فى السمع فلا يفيد فائدة، فتصير كأصوات البهائم التى لا اختلاف فى مخارجها ولا فى صفاتها ، فلابد أن تختلف الحروف إما فى المخارج وإما فى الصفات .

ويقول عبد الوهاب القرطبى ت ٤٦٢ هـ :

فالحروف هى مقاطع للصوت الخارج عن النفس ممتدا مستطيلا فتمنعه من اتصاله بغايته ، فحيث ما عرض ذلك المخرج سمّى حرفا، وسمّى ما يسامته ويحاذيه من الحلق والفم واللسان والشفتين مخرجا .

ولذلك اختلف الصوت باختلاف المخارج واختلاف صفاتها ، أعنى به الجهر والهمس والشدة والرخاوة والانطباق والانفتاح وغير ذلك .

وهذا الاختلاف هو خاصية حكمة الله تعالى المودعة فى هذا الشخص، إذ بها يحصل التفاهم ، ولولا ذلك لكان الصوت واحدا بمنزلة أصوات البهائم التى هى من مخرج واحد وعلى صفة واحدة ، فلم يتميز الكلام ولا علم المراد، فبالاختلاف يعلم، وبالاتفاق يعدم[2] .

ويعرّفنا الخليل كيف نقف على مخرج الحرف، فيقول محدثا عن نفسه[3]:

---

(١) مكى بن ابى طالب ١٥٦

(٢) انظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ص ١١٧

(٣) العين ص ٥٥

وإنما كان ذوقه إياها (أى تحديد مخارج الأصوات) أنه كان يفتح فاه بالألف (يقصد الهمزة) ثم يظهر الحرف نحو : أب ، أت ، أح ، أع ، أغ.

ويقول ابن جنى :

وسبيلك إذا أردت اعتبار الحرف فى الصوت أن تأتى به ساكنا لا متحركا، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجتذبه إلى جهة الحرف الذى هى بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به فتقول : إك ، إق ، إج ، وكذلك سائر الحروف .

إلا أن بعض الحروف أشد حصرا للصوت من بعضها ، ألاَ تَرَاك تقول فى الدال والطاء واللام : إد ، إط ، إل ، فلا تجد للصوت منفذا هناك ، ثم تقول : إس ، إص ، إز ، إذ ، إث ، إف ، فتجد الصوت يتبع الحرف[1] .

أما علماء التجويد فإنهم يتبعون فى تعيين مخرج الحرف طريقة النحاة فى ذوق الحروف ، يقولون :

إذا أردت أن تعرف مخرج حرف فسكّنه أو شدّده وهو الأظهر، ملاحظا فيه صفات ذلك الحرف ، وأدخل عليه همزة الوصل محركة بأى حركة كانت، وأصغ إليه السمع فحيث انقطع الصوت كان مخرجه المحقق .

فلو أردنا أن نعرف مخرج حرف الباء قلنا: أب، وعندها سنجد أن الهواء ينقطع عند انطباق الشفتين، فنعرف أن الشفتين هما مخرج الباء .

ثم اعلم أن معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار ، ومعرفة الصفة بمنزلة المحك والمعيار[2] .

يقول صاحب نهاية القول المفيد :

اعلم أن المخارج للحروف بمثابة الموازين تعرف بها مقاديرها ، والصفات بمثابة الناقد الذى يميّز الجيد من الردئ ، فببيان مخرج الحرف تعرف كميته أى مقداره، فلا يزاد فيه ولا ينقص ، وإلا كان لحنا، وببيان الصفة تعرف كيفيته -

(١) سر الصناعة ١/ ٧

(٢) انظر : النشر ١/ ٢٨٦ ، والمنح الفكرية ص ٩ ونهاية القول المفيد ص ٣٣ ونظرات فى علم التجويد ص ٥٧ ، والبرهان لقمحاوى ص ٢٣ ، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ص ١٢٣

أى عند النطق به من سليم الطبع كجرى الصوت وعدمه[1] .

ولا يغض هذا من جهود علماء التجويد والقراءات، ويكفى أنهم قد اهتموا بهذه القضية (مخارج الأصوات) وبيّنوها بشكل واضح يلتقى فى غايته مع ما وصلت إليه الدراسات الحديثة التى ترى : أنه لكى نقف على مخرج الصوت فلابد من نطق هذا الصوت مجردا من أى صوت آخر لا قبله ولا بعده، سواء أكان هذا الصوت الآخر من الصوامت الأخرى أم من الحركات .

فإذا أردت أن تحدد مخرج السين - مثلا - فعليك بنطقها مجردة عن أصوات سابقة أو لاحقة ، وذلك بوضع اللسان فى الموضع الصحيح، حيث يتم صنع ممر ضيق عريض بين مقدم اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى ، ثم نخرج هواء التنفس من الرئتين شريطة أن لا يهتز معه الوتران الصوتيان، وحينئذ تسمع السين خالصة، وتتذوق مخرجها، وتميز بينها وبين غيرها من الأصوات .

وقد قامت الدراسات الصوتية الحديثة بتحديد مخارج الأصوات بالوسائل العلمية الحديثة، فكان ما يسمى «بسقف الحنك الصناعى» الذى هو من نتاج التعاون العلمى المثمر بين أطباء الأسنان وعلماء الصوتيات ، كما كانت المحاولات البناءة بواسطة الأشعة التى تصور لنا جهاز النطق بجميع تحركاته فى أثناء النطق ، وترى بعينك التحركات التقطيعية التى تتم مع كل صوت لغوى والنقطة التى تم فيها التقاء الأعضاء سواء بالغلق أو التضييق، وهذا هو المخرج[2] .

وغاية ما ننتهى إليه أن معرفة مخارج الحروف وصفاتها أمر ضرورى، بل هو يقف على رأس علم التجويد .

وقد اندفع علماء المسلمين إلى دراسة الجهاز الصوتى وتحديده وتقسيمه لمعرفة مخارج الحروف، ونسبة كل حرف إلى مخرجه من الجهاز الصوتى مع تحديد صفات الحروف .

---

(١) الشيخ محمد مكى نصر ص ٤١

(٢) علم التجويد القرآنى د/ علام ص ٣٣

ومع افتقارهم إلى الأجهزة الدقيقة فى آلات التسجيل، فقد استطاعوا أن يصلوا فى هذا المضمار شأوا بعيدا، فى حين لم يصل علماء الصوتيات فى العصر الحاضر إلى مخارج الحروف والأصوات إلا بأدق الأجهزة ، وهذا مكرُمة وسابقة تضاف إلى جهود علماء المسلمين فى ابتكار الصوتيات منذ أقدم العصور(١) .

يقول الدكتور كمال بشر مثنيا على جهود ابن جنى فى دراسة مخارج الحروف :

والحق أن النتائج التي وصل إليها هذا العالم فى هذا الوقت الذى كان يعيش فيه لتعد مفخرة له ولمفكرى العرب فى هذا الموضوع، ومما يؤكد براعتهم ونبوغهم فى هذا العلم أنهم قد توصلوا إلى ما توصلوا إليه من حقائق مدهشة دون الاستعانة بأى أجهزة أو آلات تعينهم على البحث والدراسة كما نفعل نحن اليوم(٢) .

وفى حديثه عن الأصوات الصامته، يقول الدكتور عبد الغفار هلال :

وهذه الأصوات قد عنى القدماء بدراستها ووصف مخارجها وصفاتها، بما يتفق كثيرا مع نظرات علم الأصوات المعتمدة على التجارب وآلات التسجيل الصوتى في عصرنا الحاضر .

وعلماؤنا القدامى على الرغم من عدم توافر تلك الأشياء لديهم استطاعوا بإرهاف حسهم وخبرتهم ومنطقهم المستقيم أن يكشفوا عن قوانين تلك الأصوات ويبرهنوا عليها بما بهر العلماء العصريين وأثبت نبوغ المتقدمين(٣) .

وقد قال أحد الباحثين المحدثين(٤) : إن دراسة علمائنا للأصوات العربية لا يضاهيها فى العمق والدقة والاستقصاء جميع الدراسات التى يقوم بها اللغويون الآن فيما يسمونه «علم الأصوات اللغوية» .

---

(١) نظرات فى علم التجويد للكلاك ص ٥٦

(٢) علم اللغة (الأصوات) ١٢٠

(٣) أصوات اللغة العربية ص ١٤٥

(٤) دراسات فى فقه اللغة د/ صبحى الصالح ٣١٨

ولذلك كانوا أول الرواد لعلم « الأصوات اللغوية » وعلى كثير من ملاحظاتهم بنيت المباحث الحديثة فى مخارج الحروف وصفاتها .

وتقسيم القدامى من علمائنا لمخارج الحروف وصفاتها مستمد من طبيعة العربية ومنهجها الأصيل ، وعلى أساسه يمكن إدراك الأسرار اللغوية فى أخص مميزاتها (١).

وكان هذا التقسيم نبراسا للمتأخرين من العلماء، ولا سيما المحدثين الذين لم يكادوا يزيدون عليه شيئا ذا بال، فقد استمدوا منه تقسيمهم للأصوات إلى مجموعات متشابهة تكاد لا تخرج عما ذكره ابن جنى وسيبويه(٢) .

بقى أن نعرف أن تحديد مخرج الصوت ليس كافيا وحده فى توضيح حقيقته كذلك بيان صفاته ، فلابد من خطوة أخرى لتجميع العناصر التى تكوّن الصوت، وضم بعضها إلى بعض، حتى تتضح ملامحه المكونة له التى تميزه عن غيره ، وهذه الخطوة ضرورية فى الدرس الصوتى . فصوت الباء ـ مثلا ـ لا يكفى لتوضيح خصائصه أن نقول : إنه شفوى ، لأن هذا لا يوضح إلا النقطة التى يتكون فيها الصوت (المخرج) وهناك جوانب أخرى تشارك فى إعطاء الصوت جرسه المتميز مثل الوترين الصوتيين (جهر وهمس) وكيفية مرور الهواء فى النقطة التى يتكون فيها الصوت والتى تعرف بالمخرج (شدة ورخاوة).

لابد من توضيح هذه العناصر الثلاثة الأساسية عند الحديث عن خصائص وصفات أى صوت(٣) .

وقد حظى هذا الموضوع بعناية كبيرة من علماء التجويد، وكذلك من علماء الأصوات المحدثين .

ولقد أجاد العلماء فى تصنيف الأصوات باعتبار المخارج وفى تصنيفها باعتبار الصفات، مبينين المزدوج منها والمفرد ، والقوىّ منها والضعيف ، إلى آخر ماتزخر به مؤلفاتهم ـ ولا تسمح به طبيعة بحثنا ـ مما يجعلنا نحيل من أراد التوسع فى ذلك إلى مظانّه فى كتب التجويد والأصوات .

---

(١) أصوات اللغة العربية د/ عبد الغفار هلال ص١٤٦

(٢) السابق ص١٤٧

(٣) الدراسات الصوتية د/ غانم ص٣٣٣

ونكتفى بأن نلقى الضوء على صفتى الجهر والهمس - فقط - كنموذج يوقفنا على ما للصفات من أثر ، وكيف أولاها علماء التجويد عنايتهم .

الجهر والهمس

ظاهرة الجهر من الظواهر الصوتية التى لها شأن كبير فى تمييز الأصوات اللغوية ، وتقابلها ظاهرة الهمس ، وقد حظيت هاتان الظاهرتان بعناية علماء العربية وعلماء التجويد فى القديم ، كما حظيت بعناية علماء الأصوات المحدثين ، وكان لرأى سيبويه فى تفسير هاتين الظاهرتين سلطان قاهر على أجيال العلماء ، كما كان لآرائه الصوتية الأخرى تأثير مستمر واحترام كبير(١).

فالمجهور عند سيبويه : حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفَس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت ، فهذه حالة المجهورة فى الحلق والفم ، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما فى الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة .

والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما .

وأما المهموس : فحرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفَس معه ، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فردّدت الحرف مع جرى النفس ، ولو أردت ذلك فى المجهورة لم تقدر عليه، فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد أو بما فيها منها،وإن شئت أخفيت(٢) .

وكان سيبويه أول من قدم هذا التعريف للمجهور والمهموس من علماء العربية، وظلّ له تأثير كبير فى موقف الذين درسوا الموضوع من بعده، سواء أكانوا من علماء العربية أم علماء التجويد .

فالصوت المجهور عند علماء التجويد هو حرف قوى يمنع النفَس أن يجرى معه عند النطق به،لقوته وقوة الاعتماد عليه فى موضع خروجه .

---

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ١٢٥

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٤

والمهموس عكسه وهو : حرف جرى مع النفَس عند النطق به، لضعفه وضعف الاعتماد عليه عند خروجه[1] .

أما عند المحدثين فالمجهورة هى تلك الأصوات التى يهتز معها الوتران الصوتيات اهتزازا نجم عنه اهتزاز الهواء الخارج من الرئتين فيصبح هذا الهواء مهتزا ، أو بعبارة أخرى محملا باهتزازات أو ذبذبات ، وذلك بخلاف الأصوات المهموسة التى لا يهتز معها الوتران الصوتيان فى أثناء نطقها[2] .

ولما كان من الإنجازات المهمة لعلم الأصوات الحديث إدراك دور الحنجرة فى عملية التصويت ، وذلك بعد اطلاع علماء الأصوات على تشريح الحنجرة وتقدم وسائل دراسة الأصوات ـ فإن بعض دارسى أصوات العربية من المحدثين قد توقفوا أمام تعريف سيبويه، محاولين تفسيره بموجب الفهم المعاصر لظاهرة الجهر، وقرروا أنّ سيبويه حين قسّم الأصوات إلى مجهورة ومهموسة كان يريد بالمجهور : الصوت الذى يهتز معه الوتران الصوتيان ، ويريد بالمهموس : الصوت الذى لا يهتز معه الوتران .

على الرغم من اعترافهم بأن سيبويه لم يعرف الوترين الصوتيين، ولكنه أدرك أثرهما، مستدلين على ذلك بما ذكر أن أبا الحسن الأخفش (سعيد بن مسعدة ت ٢١٥ هـ) قال :

سألت سيبويه عن الفصل بين المهموس والمجهور فقال :

المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك ذلك فيه، ثم كرر سيبويه التاء بلسانه وأخفى فقال : ألا ترى كيف يمكن !

وكرر الطاء والدال وهما من مخرج التاء فلم يمكن ، وأحسبه ذكر ذلك عن الخليل .

قال سيبويه : وإنما فرّق بين المجهور والمهموس أنك لاتصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر ، فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجرى فى الحلق ، غير أن الميم والنون تخرج أصواتها من الصدر ويجرى فى الحلق والخيشوم، فيصير ما جرى فى الخيشوم

---

(١) الرعاية لمكى ص ١١٦ .

(٢) عن علم التجويد القرآنى د/ علام ص ١١٩ .

غنة تخالط ما جرى فى الحلق .

والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك، ثم تكلمت بهما، رأيت ذلك قد أخلّ بهما .

وأما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها ، وذلك مما يزجى الصوت ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم فى المجهورة، فأخرج الصوت من الفم ضعيفا، والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف، ولا تصل إلى ذلك فى المجهور[1] .

فصوت الصدر الوارد فى النص ، وهو ما جعله سيبويه جوهر الأصوات المجهورة فى مقابلة ما سماه (صوت الفم) الذى تتكون منه الأصوات المهموسة - لعل المقصود به هو تلك النغمة الصوتية الناتجة عن اهتزاز وذبذبة الوترين الصوتيين حال النطق بالأصوات المجهورة ، فأدرك سيبويه أثرها الصوتى ، ولم يدرك مصدرها فنسبها إلى الصدر، لأن صداها يتردد هناك . وهو ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس فى تفسير صوت الصدر حيث قال :

ولعل هذا الصوت هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة ، وهذا الصدى تحس به ولا شك فى الصدر كما نحس به حين نسد الأذنين بالأصابع ، أو حين نضع الكف على الجبهة، فهو الرنين الذى نشعر به مع المجهورات ، وسببه تلك الذبذبات التى فى الحنجرة [2].

يقول الدكتور غانم :

وهذا يعنى أن للأصوات المجهورة مصدرين للتصويت :

الأول: صوت الحنجرة الناتج عن ذبذبة الوترين .

الثانى: مخرج الصوت حيث يضيق مجرى النفس أو ينغلق .

أما الصوت المهموس فليس له إلا مصدر واحد للتصويت، وهو مخرج

---

(١) الدراسات الصوتية د/ غانم ص ١٣٠ ، وانظر : السيرافى شرح الكتاب ٦/ ٤٦١ ، والعربية الفصحى لهنرى فليش ص ١٩٩ ، والأصوات اللغوية د/ أنيس ١٢١ ، وأصوات اللغة العربية د/ عبد الغفار هلال ١٦٩

(٢) الأصوات اللغوية د/ أنيس ص ١٢٣

الصوت فقط ، وهو ما سماه سيبويه «بصوت الفم» ، أى الصوت الحاصل فى مخرج الحرف دون أن يصاحبه صوت آخر منبعث من الصدر أى الحنجرة[1] .

ومن هذا يتضح أن سيبويه ومعه ابن جنى وغيرهما من علماء الأصوات العرب كانوا يفهمون سيْر الصوت اللغوى بطريقة دقيقة، ويدركون هذا الجهد الذى ينشأ عنه اهتزاز الأوتار وعدم اهتزازها، ويؤكد أنه لا يفترق بذلك عن رأى المحدثين[2] .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن علماء التجويد - مع عنايتهم بالجانب الفسيولوجى أو المتصل بأعضاء النطق - تتركز ملاحظاتهم حول المجهور والمهموس على الأثر السمعى لا على توضيح مصدر الجهر، فهم يقررون أن المجهور أوضح فى السمع من المهموس ، وهذا ما يفهم من وصف مكى بن أبى طالب ت ٤٣٧ هـ ، للصوت المجهور بأنه أقوى من المهموس ، وأن المهموس أضعف من المجهور ، ثم هو يقول :

وإنما لقّب هذا المعنى بالجهر، لأن الجهر : الصوت الشديد القوى ، فلما كانت فى خروجها كذلك لقبت به، لأن الصوت يجهر به لقوّتها[3] .

وقد أشار المحدثون من علماء الأصوات إلي هذه الخاصية للصوت المجهور وللصوت المهموس ، وأن الأصوات المجهورة أشد بروزا ووضوحا فى السمع من الأصوات المهموسة[4] .

ومن الإضافات القيّمة لعلماء التجويد فى سبيل توضيح المجهور والمهموس ما ذكره محمد المرعشى فى كتابه جهد المقل ، «من أن نَفَس الحرف المجهور قليل ، ونَفَس الحرف المهموس كثير »[5]مشيرا بذلك إلى أن إنتاج الصوت المهموس، يحتاج إلى كمية من هواء النفس أكثر مما يحتاج إليه إنتاج

---

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ١٣١ .

(٢) أصوات اللغة العربية د/ هلال ص ١١٨ .

(٣) الرعاية ص ١١٧ .

(٤) الدراسات الصوتية د/ غانم ص ١٣٥ ، بتصرف، وانظر : الأصوات اللغوية د/ أنيس ص١٢٥ .

(٥) الدراسات الصوتية د/ غانم ص ١٣٧ ، وانظر : جهد المقل ١٢ ظ .

الصوت المجهور ، ويلاحظ ذلك فى نطق الذال والثاء ـ مثلا ـ فنقول : «إذ» ونمدّ الصوت ، ونقول «إث» فنشعر بوضوح إلى الحاجة إلى نَفَس قوى فى الثاء بينما نحتاج إلى أقلّ من ذلك فى الذال ، وهكذا فى كل مجهور ومهموس.

يقول الدكتور غانم :

وهذه ملاحظة يؤيدها علماء الأصوات المحدثون فقد قال الدكتور محمود السعران :

ومما هو جدير بالملاحظة أن الصوامت المهموسة يحتاج نطقها إلى قوة من إخراج النفَس (الزفير) أعظم من التى يتطلبها نطق الصوامت المجهورة ، ويمكن أن نلمس هذا الفارق فى قوة النفَس إذا بسطنا الكف أمام الفم ونحن ننطق صامتا مهموسا متلواً بنظيره المجهور من :

ث ، ذ / ت ، د / س ، ز ..... إلخ[1] .

ومجمل القول أن علماء التجويد قد أدركوا كل خصائص الصوت المجهور والصوت المهموس، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة الوترين الصوتيين وتحديد دورهما فى ظاهرتى الجهر والهمس .

ولا يخفى أن علماء التجويد قد أفادوا من الخليل وسيبويه وغيرهما من علماء العربية.

وليس كثيرا أن لا يتوصلوا إلى ما لم يتوصل إليه المحدثون إلا بالوسائل الآلية الدقيقة، فيكفيهم أنهم أدركوا بالملاحظة الذاتية جوانب كثيرة من خصائص الأصوات، دلّت على عمق النظرة والمواظبة على البحث من أجل اكتشاف أسرار الصوت الإنسانى[2] .

يقول الدكتور إبراهيم أنيس مثنيا على سيبويه :

فقد ذكر الحروف المجهورة والمهموسة وعيّنها ، واتفق فى هذا مع ماتبرهن عليه التجارب الحديثة، فيما عدا حرفين اثنين ذكرنا السر فيهما [3].

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربى ص ١٦٤ ، وانظر : الدراسات الصوتية ص ١٣٨

(٢) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ص ١٣٩

(٣) الأصوات اللغوية ص ٦٢

وإذا كان تعريف الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة عند علماء التجويد والقراءات هى هى عند علماء الصوتيات، فإنهم قد اختلفوا فى عددها.

فالمجهورة عند علماء التجويد عددها تسعة عشر صوتا، وهى ما عدا الأصوات المهموسة (سكت فحثه شخص) وقد جمعها بعضهم فى قوله : «عظم وزن قارئ ذى غض جد طلب»[1] .

أما علماء الصوتيات فلا يخفى أن «صوت القاف» وكذا «الطاء» عندهم من الأصوات المهموسة حسب النطق الفصيح اليوم، على حين عدّها القدماء من الأصوات المجهورة ، ويتضح عند إفرادهما بالحديث أن التغيّر الصوتى قد أصاب هذين الصوتين ، فتحوّلا من صوتين مجهورين قديما إلى صوتين مهموسين كما ننطق اليوم ، وكما أثبتت التحليلات الصوتية فى معامل الصوتيات[2] .

وبهذا تصبح الأصوات المهموسة اثنا عشر صوتا (سكت فحثه شخص + قط) فضلا عن الهمزة التى وصفها بعضهم بالهمس، وبعضهم وصفها بأنها لا مجهورة ولا مهموسة .

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل القول فى ذلك وإنما يراجع فى مظانه من كتب الأصوات .

وختاما ..

فإن علم التجويد هو علم هندسة الصوت العربى أو « علم الصوتيات» ، وهو علم إسلامى ظهر نتيجة الدراسات القرآنية، يبحث ـ كما يقول الأستاذ محمد المبارك[3] :فى الحروف التى تتركب منها الكلمات من الناحية الصوتية ، ويؤلف البحث الأول من مباحث فقه اللغة . . .

والعرب هم أول من أفرد هذا الموضوع بالبحث ، وذلك لضبط القرآن ، وأطلقوا عليه اسم «تجويد القرآن» أو علم التجويد .

(١) نهاية القول المفيد ص ٤٤ .

(٢) علم التجويد القرآنى د/ علام ص ١٢١ .

(٣) فقه اللغة وخصائص العربية ص ٥٦ .

وقد كان لعلم التجويد دور فعال فى حفظ القرآن الكريم واللغة العربية ، بحيث بقى القرآن الكريم يتلى كما نَزَل قبل أربعة عشر قرنا ، دون تحريف فى ألفاظه ومخارج وصفات حروفه، وظلت اللغة الفصحى محافظة على أصالتها، وهى تعبُر أربعة عشر قرنا ، وتجتاز مختلف المحن ، وظل جهازها الصوتى سليما ثابتا(١) .

ذلك أن القرآن الكريم والحضّ على ضبط حروفه والدقة فى تلفظها سبب فى بقاء الأصوات العربية الفصحى ثابتة ، فى حين أنها نفسها قد تبدلت فى لغة الكلام، أى فى اللهجة العامية نفسها(٢) .

إن ارتباط علم التجويد بالقرآن الكريم قد أعطاه قوة معنوية تجعل المشتغلين به يقبلون على البحث فيه دون كلل ، ويصبرون على متاعب البحث والتعليم حتى يتحقق لدى المتعلم المستوى النطقى المطلوب ، ويحتسبون ذلك الجهد عند الله تعالى .

وقد أثمرت تلك الجهود التى حظى بها علم التجويد فى ترسيخ النطق العربى الفصيح على مدى العصور التى أعقبت نزول القرآن الكريم حتى عصرنا الحاضر.

ولولا ذلك الارتباط بين اللغة العربية والقرآن ، وبالتحديد بين علم التجويد والقرآن، لكان حال اللغة العربية اليوم على غير ما هى عليه .

وثبات العربية الفصحى المستمر خلاف كل اللغات الأخرى ، لم يتحقق إلا بفضل تلك العلاقة بين علم التجويد، ممثلا لجوهر النطق العربى الأصيل، وبين نص القرآن الكريم .

وإن الواقع اليوم ليشهد أنه حيثما أهمل علم التجويد انتكس نطق العربية الفصحى ، ولو كان ذلك فى قلب بلاد العرب . وحيثما نال هذا العلم العناية الكافية درسا وتطبيقا صفا ذلك النطق وسما ، ولو كان ذلك فى أطراف آسيا أو فى قلب أفريقيا(٣) .

---

(١) نظرات فى علم التجويد (التمهيد وانظر ص ٢٨)

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية للمبارك ص ٥٦

(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم ص ٨٧

إضافة إلى ذلك .... فإن أداء القرآن الكريم على الصورة التى يتطلبها علم التجويد ويهدف إليها، يحقق التدبر لمعانى كتاب الله تعالى ، والتفكر فى غوامضه ، والتبحر فى مقاصده وتحقيق مراده جلّ اسمه من ذلك ، فإنه تعالى قال :

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

ولا تدبر بدون أداء يحرك العقل ، ويثير النفس ، ويحيى الفؤاد[2].

ولأن البحث موصول - كما ذكرت من قبل - فإنى أكتفى بهذا سائلا المولى - عز وجل - أن يعيننى بحوله وقوته ، وأن يرزقنى التوفيق والسداد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات،

د / رشاد محمد سالم

---

(١) سورة ص : الآية ٢٩

(٢) من قضايا علم التجويد ص ٢٧ ، ٢٨

أهم مراجع البحث

القرآن الكريم ..

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٣ مصطفى الحلبى ١٩٥١م ، وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى .

٢ - أحكام تجويد القرآن فى ضوء علم الأصوات الحديث د/عبد الله سويد الطبعة الثانية .

٣ - أحكام التجويد لمن أراد أن يجيد / أحمد بن محمد النوبى طبعة دار الفرقان.

٤ - أحكام قراءة القرآن الكريم للشيخ محمود خليل الحصرى طبعة (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، دراسات إسلامية ١١٤).

٥ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالى طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٩٥٦م.

٦ - أسس علم اللغة / ماريوباى ترجمة د/ أحمد مختار عمر منشورات جامعة طرابلس ليبيا ١٩٧٣م .

٧ - أصوات العربية والقرآن الكريم منهج دراستها وتعليمها عند مكى بن أبى طالب، د/ عبد الله ربيع (من قضايا علم التجويد).

٨ - أصوات القرآن الكريم منهج دراستها عند المرعشى د/ أبو السعود الفخرانى الطبعة الأولى مطبعة الأمانة ١٩٩١م .

٩ - الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس الطبعة الثالثة دار النهضة العربية ١٩٦١م.

١٠ - أصوات اللغة العربية د/ عبد الغفار هلال الطبعة الثانية ، مطبعة الجبلاوى ١٩٨٨ م.

١١ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٤ م.

١٢ - البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضى الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى ١٩٨١م .

١٣ - البرهان فى تجويد القرآن للشيخ محمد الصادق قمحاوى الطبعة الأولى مكتبة الجامعة الأزهرية ١٩٧١م.

١٤ - تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه - محمد طاهر الكردى الطبعة الثانية مصطفى الحلبى ١٩٥٣م.

١٥ - التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث د/ أبو السعود الفخرانى - رسالة دكتوراه - مخطوط رقم ٣٢٩ كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٦م.

١٦ - التجويد الميسر لأبى عاصم القارى مكتبة الدار بالمدينة المنورة الطبعة الثامنة ١٤٠٩هـ.

١٧ - تجويد القرآن الكريم : أسسه وتطبيقاته ورموز ضبطه / عامر سعيد الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م.

١٨ - التجويد للشيخ محمد عبد المنعم المسلمى طبعة جماعة أنصار السنة المحمدية .

١٩ - التحديد فى الإتقان والتجويد للدانى تحقيق د/ غانم قدورى حمد الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م.

٢٠ - التطور النحوى للغة العربية / برجستراسر طبعة المركز العربى للبحث والنشر ١٩٨١ م ، عن طبعة محمد حمدى البكرى ١٩٢٩م وطبعة الخانجى تحقيق د/ رمضان عبد التواب ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

٢١ - التمهيد فى علم التجويد لابن الجزرى الطبعة الأولى القاهرة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م.

٢٢ - تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين للصفاقسى مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولى ١٩٨٦م. القاهرة .

٢٣ - دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح الطبعة الخامسة دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣م.

٢٤ - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د/ غانم قدورى حمد الطبعة الأولى وزارة الأوقاف العراقية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

٢٥ - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكى بن أبى طالب تحقيق د/ أحمد فرحات - دار عمار بالأردن (الطبعة الثانية عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

٢٦ - زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٧٠م.

٢٧ - سر صناعة الإعراب لابن جنى تحقيق مصطفى السقا وآخرين طبعة الحلبى ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

٢٨ - شرح ابن يعيش للمفصل إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٢٩ - صحيح البخارى طبعة كتاب الشعب سنة ١٩٦٨م.

٣٠ - العربية الفصحى للأب هنرى فليش ترجمة د/ عبد الصبور شاهين بيروت ١٩٦٦م.

٣١ - العقد الفريد فى فن التجويد للشيخ على بن أحمد صبرة تحقيق د/ شعبان إسماعيل طبعة المكتبة الأزهرية للتراث .

٣٢ - عن علم التجويد القرآنى فى ضوء الدراسات الصوتية الحديثة د/ عبد العزيز علام الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٩٠م.

٣٣ - علم اللغة مقدمة للقارئ العربى د/ محمود السعران طبعة دار المعارف بمصر فرع الاسكندرية ١٩٦٢م.

٣٤ - علم اللغة العام (الأصوات) د/ كمال بشر - القاهرة ١٩٧٠م.

٣٥ - العميد فى علم التجويد للشيخ محمود على بسة - تحقيق الصادق قمحاوى مكتبة الكليات الأزهرية .

٣٦ - العين للخليل بن أحمد الفراهيدى تحقيق د/ عبد الله درويش الطبعة الأولى مطبعة العانى بغداد ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

٣٧ - غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى تحقيق برجستراسر مكتبة الخانجى ١٩٣٢م.

٣٨ - الفجر الجديد فى علم التجويد / أحمد شربينى سعودى طبعة دار المنار

١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
٣٩ - فقه اللغة وخصائص العربية للدكتور محمد المبارك الطبعة السادسة ١٣٩٥هـ.
٤٠ - القراءات القرآنية تاريخ وتعريف د/ عبد الهادى الفضلى الطبعة الثالثة - دار العلم بيروت ١٩٨٥م.
٤١ - القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية د/ رشاد سالم الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
٤٢ - القلقلة رؤية جديدة فى ضوء الدرس الصوتى د/ رشاد سالم (مجلة كلية اللغة العربية - القاهرة عدد ١٣/ ١٩٩٥م).
٤٣ - قواعد التجويد والإلقاء الصوتى للشيخ جلال الحنفى البغدادى طبعة وزارة الأوقاف العراقية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٤٤ - قواعد التجويد لأبى عاصم عبد العزيز بن عبد الفتاح القارى الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ.
٤٥ - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث / محمد جمال الدين القاسمى تحقيق محمد بهجة البيطار الطبعة الثانية ١٩٦١م عيسى الحلبى.
٤٦ - قواعد التلاوة وعلم التجويد / فرج توفيق الوليد الطبعة الأولى - دار الرسالة للطباعة بغداد ١٩٧٤م.
٤٧ - القول السديد فى بيان حكم التجويد للشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى الشهير بالحداد (ضمن ثلاثة كتب) ، المطبعة المصرية ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م.
٤٨ - الكتاب لسيبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
٤٩ - كيف يتلى القرآن للشيخ عامر عثمان (أملاه علي د/ حسنى حجازى) الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩.
٥٠ - لطائف الإشارات لفنون القراءات للشهاب القسطلانى تحقيق عامر

عثمان، ودكتور / عبد الصبور شاهين طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٥١ - مشكلاتنا الصوتية فى نطق العربية الفصحى وتعليمها د/ عبد الله ربيع (مجلة كلية اللغة العربية بالرياض عدد ٨).

٥٢ - المصباح المنير للفيومى تحقيق د/ عبد العظيم الشناوى طبعة دار المعارف بمصر.

٥٣ - مقدمة فى أصوات اللغة العربية د/ عبد الفتاح البركاوى طبع ١٩٩٢م.

٥٤ - ملخص أحكام التجويد د/ شعبان إسماعيل طبعة مكتبة نصير ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٥٥ - المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية لملا على بن سلطان القارى طبعة مصطفى الحلبى.

٥٦ - من قضايا علم التجويد د/ عبد الله ربيع محمود طبعة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٥٧ - النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ .

٥٨ - النشر فى القراءات العشر للإمام ابن الجزرى طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

٥٩ - نظرات فى علم التجويد لإدريس الكلاك الطبعة الأولى اللجنة الوطنية بغداد ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٦٠ - نهاية القول المفيد فى علم التجويد للشيخ محمد مكى نصر طبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩هـ.

القسم الخامس

قسم الصحافة

الاتجاه التغريبي في الصحافة المصرية

د. جمال الدين عبد الحى عمر النجار

الاتجاه التغريبي

في

الصحافة المصرية

بقلم الدكتور

جمال عبد الحي النجار

قسم الصحافة والاعلام



مقدمــــة :

مما لاشك فيه أن الصحافة تؤدى دوراً كبيراً فى التأثير على الرأى العام، وتشكيل اتجاهات الجماهير وآرائها وأفكارها ، وتزيد من حصيلتها المعرفية ، وترفع من مستوى وعيها بمحيطها الاجتماعى ، وما يدور فيه من مشكلات وقضايا وأراء ، كما تؤدى الدور نفسه فى تغيير الآراء والتقاليد والقيم والمعتقدات وتزداد أهمية الصحافة فى فترة البحث إذا عرفنا أن الصحافة كانت وسيلة الأعلام الأولى ، فلم تكن ثمة إذاعة أو تليفزيون أو أفلام تستغل فى نشر دعاية أو رسم خطة أو التعبير عن رأى أو مقاومة فكرة(١) .

وقد أدرك الاستعمار البريطانى هذه الحقيقة ، ووعى دور الصحافة جيدا حيث استغل الصحافة فى دعم أفكاره ونشر آرائه ، وبث مبادئه ، وتأكيد أهدافه وتثبيت سياسته . لذلك فقد حاول واستطاع أن يجذب إلى صفوفه طائفة من الصحفيين الشوام الذين جاءوا إلى مصر ، وأصدرو العديد من

---

(١) د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ص٥ .

الصحف ، وأغلبهم كان متشبعا بالثقافة الأوربية ، ذلك أنهم قد تلقوا دراساتهم فى أوربا أو فى المدارس الأوربية فى بلادهم أو مدارس التنصير.

وكان فى مقدمة هؤلاء شبلى شميل ويعقوب صروف، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس ، وغيرهم من المصريين الذين روجوا للفكر والثقافة الغربية فى مصر .

وتهدف هذه الدراسة إلي الكشف عن الظروف التى نمت فيها ظاهرة التغريب ، وبيان نشأة الاتجاه التغريبى ، ورموزه وصحفه .

كما يرصد هذا البحث مسيره التوجه التغريبى فى الصحافة المصرية ، وما أثاره من قضايا ومشكلات ورؤى وأفكار ، فى تلك الفترة التاريخية الهامة من تاريخ مصر الحديث منذ الاحتلال البريطانى على مصر ١٨٨٢ ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ، وردود الفعل تجاهه .

ولعل اختيارنا هذه الفترة للدراسة يرجع للأسباب التالية :

١ - إن الاحتلال الإنجليزى لمصر لم يكن احتلالا وحسب ، بل كان الهدف الأساسى هو القضاء على الثورة الوطنية المسلحة بقيادة عرابى ، ووأد التطور السياسى والاجتماعى فى مصر ، وإحكام طوق الهيمنة الغربية عسكريا وثقافيا بعد الهيمنة الاقتصادية(١) .

٢ - شهـ[illegible] الفترة صدور عدد من المجلات والجرائد التى اهتمت كثيرا بنشر الفكر الغربى ، وفى تقرير عن الصحافة المصرية نشرته مجلة «كل شئ» عام ١٩٣٠ أنه فى عام ١٨٩٨ ، كانت تصدر فى مصر ١٦٩ جريدة ومجلة وصلت عام ١٩١٣م ٢٨٢ (٢).

٣ - شهدت هذه الفترة ترجمة لأمهات الكتب والمؤلفات الغربية على نطاق واسع ، وتولى هذه العملية صحفيون مشهورون من أمثال أديب إسحاق، وسليم البستانى، وجورجى زيدان ، وفرح أنطون ، وأحمد فارس الشدياق ،

---

(١) / محمد سيد محمد ، الغزو الثقافى والمجتمع العربى المعاصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٩٤م ص٦٨.

(٢) أنور الجندى ، الصحافة السياسية فى مصر ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢م ص٦٣١ .

وخليل مطران ، ونجيب الحداد وغيرهم الذين ترجموا عددا من القصص العالمى وأعمال لافونتين، وموليير، وراسين وروسو ، وأناتول فرانس ، وغيرهم[1] .

٤ - تأسست فى القاهرة فى تلك الفترة ثلاث دور صحفية كبرى لبنانية مسيحية مارونية لعبت دورا كبيرا في مجال التغريب هى دار الأهرام لآل تقلا ، ودار المقطم لآل صروف ، ودار الهلال لآل زيدان[2] .

٥ - عمد الاحتلال الإنجليزى على تشجيع الصحافة التغريبية ، واستخدام مختلف الجنسيات لإصدار الصحف العربية فى مصر ، حتى كانت الصحافة فى مصر بعد الاحتلال صناعة أجنبية كاد أن ينساها المصرى[3] .

المقصود بالاتجاه التغريبى :

ونقصد بالاتجاه التغريبى فى هذه الدراسة : التيار الصحفى الذى حاول أن يروج للفكر الغربى فى الصحافة المصرية، وتحويل ولاء المصريين إلى الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده ، واقتباس الأفكار والآراء الاجتماعية والفكرية والسياسية من الغرب .

نوع الدراسة ومنهجها :

تنتمى هذه الدراسة إلى مجال الدراسات الاستطلاعية أو الكشفية التى تهدف أساسا إلى استطلاع الظروف المحيطة بالظاهره التى يرغب الباحث فى دراستها ، والتعرف على أهم الفروض والتساؤلات التى يمكن اخضاعها للبحث العلمى الدقيق ، أو ليتمكن من صياغة المشكلة صياغة دقيقة تمهيدا لبحثها بحثا متعمقا فى مرحلة تالية[4] .

(١) يونان لبيب رزق ، الحياة الحزبية فى مصر ١٨٨٢ - ١٩١٤ ، القاهرة مكتبة الكيلانى ١٩٧٠م ، ص ١٤ ، أحمد طاهر حسين، دور الشامين المهاجرين إلى مصر ، دمشق دار الوثبة ص٩٢ ، ٩٣ .

(٢) محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، السعودية ، مؤسسة المدينة للطبع والنشر ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٣) د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص١١١ .

(٤) د/ عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى، القاهرة ، مكتبة وهبه الطبعة الثامنة عام ١٩٨٨ ، ص ١٨٥- ١٨٦ .

وقد استخدمت هذه الدراسة المنهج التاريخى الذى أفاد البحث فى تتبع ورصد الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية ، والسياق التاريخى له ، والمراحل التى مر بها منذ نشأته وحتى قيام الحرب العالمية الأولى بقصد التوصل إلى معرفة أبعاد وأهداف الموضوع الذى أخضعناه للدراسة .

مشكلة البحث :

إذا كانت السمة الرئيسية لأى بحث علمى ، هى أن يكون لهذا البحث مشكلة فى حاجة إلى معالجة ، وإلى الكشف عن أبعادها وأهدافها والتصدى لها بالبحث والدراسة ، فإن مشكلة هذا البحث تتمحور حول الكشف عن الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية فى الفترة من ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ وفى إطار محاوله استكشاف هذا الاتجاه سوف يجيب البحث على التساؤلات التالية :

أولا : متى وكيف نشأ الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية ؟ وما العوامل التى ساعدت على ازدهاره وانتشاره ؟

ثانيا : ما طبيعة العلاقة بين الاتجاه التغريبى والاحتلال الإنجليزى ؟

ثالثا : من هم أبرز رموز الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية ؟ وما أهم الصحف التى روجت للأفكار التغريبية ؟

رابعا : ما صدى ما طرحه أنصار الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية من أفكار وآراء وهل كانت هناك مقاومة لهذا الفكر فى الصحافة المصرية أيضا أو لا ؟

هذه هى أهم التساؤلات التى تطرحها الدراسة ، وسوف يحاول الباحث الاجابة على هذه التساؤلات المطروحة من خلال عرض ومعالجة الموضوعات التالية :

١ - مفهوم الاتجاه التغريبى .

٢ - جذور الاتجاه التغريبى ونشأته .

٢ - الاتجاه التغريبى بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر .

٤ - أنصار الاتجاه التغريبى من الشوام وصحفهم .

٥ - الصحف وقضايا التغريب .

٦ - أنصار الاتجاه التغريبى من المصريين وصحفهم .

٧ - مقاومة الاتجاه التغريبى فى الصحافة المصرية وصحف المقاومة .

مصادر الدراسة :

١ - الكتب والمراجع التى ألفت عن فترة البحث فى شتى أنواعها السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية .

٢ - الرسائل الجامعية التى تناولت بعض جوانب الدراسة .

٣ - الجرائد والمجلات .

جذور الاتجاه التغريبى ونشأته :

ظل العالم الإسلامى فى غربى آسيا والجزيرة العربية ومصر قبل مجيئ الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ آمنا على نفسه من التأثير الأوربى وسيطرته ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف كولايات عثمانية تتمتع بحماية الامبراطورية العثمانية ، التى ظلت تسيطر على أجزاء واسعة من العالم الإسلامى تحت نظام الخلافة الإسلامية ، وإن كان يرى بعض المؤرخين أن العالم الإسلامى ، قد تعرض لبعض التأثيرات الأوربية قبل الغزو الفرنسى لمصر ... حيث إنه وبعد الهجمات التى شنها البرتغاليون على العالم الإسلامى ، وتعاونهم مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية . حمل فى طياته تأثيرات أوربية [(١)].

بدأت تباشير التغريب تظهر على استحياء بعد دخول القوات الفرنسية الغازية إلى مصر عند مطلع القرن التاسع عشر ، وإن كانت النتائج النهائية للتغريب لم تظهر إلا فى الربع الأخير من هذا القرن ، لقد كانت هذه الحمله أول اتصال حقيقى بين هذه الأمة ذات الجذور الإسلامية وبين الغرب ، وقد أصبح ذا حضارة مكنته من أن يغزو جزء من العالم الإسلامى .

وتجدر الإشارة هنا أن الفرنسيين كانوا على وعى بالتغريب كهدف حقيقى

---

(١) د/ إبراهيم العدوى ، مصر والشرق العربى درع الإسلام ، القاهرة ، الأنجلوا المصرية عام ١٩٨٥ ص٢١٣ ـ ٢١٥ .

وارد فى قائمة الغايات المنشودة من حملتهم يقول كريستوفر هيرولد فى كتابه «بونابرت فى مصر » : « أن الذى كان بونابرت يريد القضاء عليه هو جمود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة واستسلامهم لقضاء لم يكتب عليهم ، وكراهيتهم الخروج من العصور الوسطى وعدم رغبتهم فى مساعدته على النهوض بهم»(١).

وكذلك فقد حاول الفرنسييون استعداء المصريين على الأتراك المسلمين ، وذلك فى منشورات نابليون عن طريق بعث الروح القومية الفرعونية والعربية مثيرين بذلك لأول مرة فى مصر مفاهيم القومية العلمانية التى كانت قد برزت على سطح المجتمع الأوربى بعد هزيمة الكنيسة فى صراعها مع دعاه اللادينية فى أوربا(٢) .

ولقد كانت المرحلة التى تلت الحملة الفرنسية على مصر مرحلة محمد على وخلفائه امتدادا شبه طبيعى لها ، استهدفت نفس اهدافها ، وانتهت إلى ذات النتائج التى كانت مبتغاه لديها ، فحينما تولى محمد على الحكم فى مصر قرر إنشاء نظام تعليمى جديد ، ومؤسسات على النظم الغربى، فأوفد البعثات إلى أوربا وأنشأ جيشا على النمط الأوربى ، واعتمد فى ذلك على العناصر الغربية فى التعليم ، واستعان بمدرسين أجانب لما شيد من مدارس على نمط غربى وسمح لمدارس التبشير أن تمارس نشاطها فى مصر(٣) ، مما كان له أعظم الأثر فى التوجه التغريبى فى الفكر المصرى الحديث والصحافة المصرية ، وتهيئة التربة المصرية لما سيلقى فيها من بذور غربية .

فضلا عن ذلك وقف موقفا معاديا من علماء الأزهر ، واعتدى على المؤسسات الدينية حينما فرض الضرائب لأول مرة على الأراضى الموقوفة وأقام إلى جانب الأزهر نظاما تعليميا علمانيا كاملا ، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها، وإرسال البعثات التعليمية إلى أوربا (٤).

---

(١) عبد الجواد يس ، تطور الفكر السياسى فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ـ المختار الإسلامى بدون تاريخ ص ٥ .

(٢) المرجع السابق ص٥.

(٣) عبد الرحمن الرافعى مصر المجاهدة فى العصر الحديث من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد ـ القاهرة ، دار الهلال عام ١٩٨٩م ، ص٤٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص١١٨.

أفرز هذا عقلية غربية فرنسية بصفة خاصة - من أمثال رفاعه الطهطاوى - حملت على أكتافها بعد ذلك عبء عملية الإنتقال بالمجتمع المصرى من عصر إلى عصر ومن حال إلى حال .

فقد أنشأ رفاعه الطهطاوى فى مصر ١٨٣٦م مدرة الألسن التى تخرج فيها طائفة من المترجمين قامت على أكتافهم بقيادة الطهطاوى حركة واسة للترجمة عن الغرب فى كل ميدان من ميادين العلوم والفنون ، فقد ترجمت هذه الطائفة من الخريجين ألفين من الكتب فى فترة وجيزة ، وكانت اللغات التى تدرس بهذه المدرسة هى الفرنسية والتركية والإيطالية والإنجليزية وكان رفاعه يدرس فيها اللغات والآداب والقانون الفرنسى(١) .

بدأت التأثيرات الغربية وملامح التغريب تترك بصمات على فكر بعض المصريين ، وفى كتابات الذين أرسلوا إلى أوربا فى عهد محمد على ، وبدأ هذا التأثير واضحا فى كتاب «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» الذى نادى فيه الطهطاوى بالانفتاح على الغرب والمعرفة الأوربية ، وفى كتابه الثانى «المناهج» الذى نقل فيه بعض الأفكار الغربية ، ورغم أن أفكار الطهطاوى لم تجد قبولا من علماء الأزهر إلا أن الطهطاوى كان يحظى بتأييد ومباركة محمد على(٢) .

ثم يأتى عصر إسماعيل وتبدأ المحاكاة الحقيقية للغرب فى مصر، وبفعل النفوذ الأوربى الذى ظل يتسرب إلى البلاد ، والذى سمح له إسماعيل وسلفه محمد سعيد بالتوغل فى كل مجالات النشاط، وكان لمرحلة الستينات والسبعينات فى هذا الشأن دلالة واضحة، أتى الوافد الأوربى بطرق شتى، رجال مغامرون، ومؤسسات اقتصادية من بنوك وبيوت أقراض ورهونات وقروض للدولة، وبعثات تبشيرية تسعى لتكوين أقليات مصرية تدين بالولاء للغرب وكنائسه ثم المحاكاة فى وسائل العيش، وفى طراز المسكن والملبس وعادات الحياة، بما اقتحم البيئة المصرية اقتحامًا، وكانت النخبة السياسية الحاكمة مفصولة عن الجماهير وبذلك فقدت المناعة فى مقاومة الوافد الأجنبى(٣) .

(١) عبد الجواد يس ، تطور الفكر السياسى فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) طارق البشرى الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ القاهرة، دار الشروق ص٣٢.

وكانت الوظيفة الرئيسية للوفود الأوربية أو للأخذ عن الغرب فى تلك الفترة تتمثل فى تهيئة البيئة المصرية للهيمنة الأوربية عليها سياسيا ، وفكريا واجتماعيا واقتصاديا أيضا ، وإدخال النمط الغربى فى كل مناحى الحياة(١).

ومع تقدير كل ما كانت تعانى منه البيئة الاجتماعية والسياسية الثقافية المصرية على حد قول طارق البشرى فقد كان السبيل الطبيعى للإصلاح هو إصلاح القائم لا خلعه واجتثاثه ، وكان التحديث يعنى تطوير الموجود وإصلاحه ، وليس ادخال أنماط مغايرة لتقاليد المجتمع وثقافته وأعرافه ، إن التحديث وأخذ العلوم المفيدة عن الغرب كان مسألة ضرورية لنهضة المجتمع وتقدمه ، ولكن دون أن نفقد هويتنا الثقافية ومعالم حضارتنا الإسلامية ، وهذا ما فعلته دول أخرى كاليابان ـ مثلا ـ التى استطاعت أن تنقل العلوم الحديثة ومقومات التقدم عن الغرب دون أن تنساق أو تفقد هويتها وعاداتها وتقاليدها الأصيله .

الاتجاه التغريبى بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر :

ثم تأتى المرحلة الاستعمارية فى مصر منذ عام ١٨٨٢ ، بدخول الإنجليز مصر ، بعد أن كانت التوجهات الغربية قد اسفرت عن وجهها ونقل الخديو إسماعيل القوانين المختلطة من التشريعات الفرنسية تمهيدا لإلغاء الشريعة الإسلامية بصفة نهائية فى مصر عام ١٨٨٣ ، ولا شك أن هذه المرحلة الإستعمارية الإنجليزية والتى تشكل شوطا فى سياق المرحلة الغربية قد لعبت دورها الكبير فى تكريس التوجه التغريبى وتأكيده ، وفيها نضجت ثمار كثيرة مما كان سبق بذره فى بدايات المرحلة ، وبقيت آثاره حتى اليوم(٢) ويمكن القول من ثم بأنها كانت حقبة للتوجه التغريبى ، والهيمنة الفكرية .

إن قصة الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ليست قصة احتلال فحسب، وإنما هى قصة القضاء على ثورة وطنية مسلحة بقيادة عرابى ، وقصة وأد للتطور السياسى والاجتماعى فى مصر وإحكام طوق الهيمنة الغربية عسكريا وثقافيا بعد الهيمنة الاقتصادية(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) عبد الجواد يس ، تطور الفكر السياسى فى مصر ، مرجع سابق ص ٣٨٠.

(٣) د/ محمد سيد محمد ، الغزو الثقافى والمجتمع العربى المعاصر ص٦٩ مرجع سابق.

عمل الاستعمار الإنجليزى على الاستيلاء على مقدرات الشعب المصرى وعقله وتفكيره ، لأنه قد علم أن الاستيلاء على الأرض ليس معناه الاستيلاء على أهلها ، فالاستيلاء على الأرض يتم بقوة السلاح ، أما الاستيلاء على البشر فلا تجدى فيه الأسلحة ، فلابد إذن من عمل منظم لتغريب الشعب المصرى حتى يقبل الاستعمار الغربى ، ويتقبل حضارته وثقافته وتقاليده ويتتلمذ على أهله ، لذلك فقد اتجه إلى تدمير العقائد والأفكار ، وهدم القيم والأخلاق وتحطيم الآداب والتقاليد والثقافات الموروثة(١) .

ولا يجب أن يخفى عن كل ذى بصيره أن أوربا لم يكن هدفها الأساسى هو احتلال البلاد عسكريا أو السيطرة السياسية فقط ، إنما كان هذا التواجد العسكرى والسياسى هو المقدمة أو [illegible] الجسر لتنفيذ المخطط الأساسى غير المعلن بطبيعة الحال، وهو غزو [illegible] القضاء على مقوماته وعاداته وتقاليده الأصيلة المستمدة من تعاليم الإسلام، وجاء ذلك تحت دعوى العمل على تقدم المجتمع المصرى لوصوله إلى المدنية والحضارة، وأن هذا التقدم رهين بمدى تحولهم إلى أوربيين مع طرح القيم الإسلامية من الحساب(٢) .

وقد ذكر الدكتور إبراهيم عبده ، وهو يؤرخ للصحافة المصرية قبيل الاحتلال البريطانى لمصر أن الصحفيين المصريين لم تكن لهم الزعامة الصحفية فى بلادهم ، لأن محررى تلك الصحف وأصحابها فى أكثرهم غير مصريين . وأن بعض الصحف المصرية أو الممصره كانت تعتمد فى حياتها على القنصلية الإيطالية أو الفرنسية أو الروسية(٣) .

وقد أحصى أمين سامى باشا الصحف الصادره فى مصر إبان الاحتلال البريطانى احصاء يبرز بصورة واضحة قدر التدخل الأجنبى فى مصر تحت مظلة الامتيازات الأجنبية ، فقال : "إن الجرائد التى كانت منتشرة فى عصر الخديو

---

(١) د/ يوسف القرضاوى ، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا - القاهرة ١٩٧٣ ص١٧، ١٨ .

(٢) عباس على ، عبد الله نديم صحافته وفكره ، ماجستير كلية الأعلام جامعة القاهرة ص ٢٢٧-٣٢٢ .

(٣) د/ إبراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨، ١٩٨٠ الطبعة الرابعة القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٢م ص١٠٢ .

إسماعيل سبع وعشرون منها تسع باللغة العربية وواحدة بالعربية والتركية ، وواحدة بالعربية والعبرية والفرنسية ، وواحدة بالعربية والإيطالية ، والباقى خمس عشرة جريدة باللغات الفرنسية والإيطالية واليونانية والإنجليزية(١) .

تمخضمت تلك المرحلة السابقة عن تيار التحديث أو التغريب - إن صح القول - القائم على اختيار النمط الحضارى الغربى العام باعتباره نمط الحضارة المتمدينة، وبرز هذا النمط الغربى كخيار حضارى جذاب تسنده قوة المستعمر ونفوذه وأمواله .

أنصار الاتجاه التغريبى من الشوام وصحفهم :

فى الصحافة المصرية تشكل تيار تغريبى يقوده عدد من أصحاب الثقافات الأوروبية الذى كان يطلق عليهم آنذاك «المتفرنجون» وكان بعضهم من الشوام النصارى الذين تلقوا دراساتهم فى أوربا ، أو فى المدارس الأوربية ، ومدارس الارساليات التبشيرية «التنصيرية»، وكان هؤلاء الشوام موزعين بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى ، وكان أصحاب الأهرام سليم وبشارة تقلا يمثلان الاتجاه الأول بينما كان فارس نمر وشاهين مكاربوس وأصحاب المقطم والمقتطف يمثلون الاتجاه الثانى(٢).

تعمد - صحيفة الأهرام فى ظل الثورة العرابية ومخاطر التهديدالأجنبى لمصر متمثلا فى الإنجليز لمصر عسكريا - إلى نشر رأى الغرب فى الشئون المصرية، ثم تنشر [illegible] لحكومتين الإنجليزية والفرنسية فى الحركات السابقة على تأليف وزارة شريف باشا وموقفها الجديد لكبح كل حركةوطنية. وهى تنذر العرابيين وأحمد عرابى بالذات(٣) لتعلن إنحيازها للوجهة الغربية فى مصر .

جاء هؤلاء الشوام إلى مصر بعد عام ١٨٦٠ ، بعد أن أحكمت الدولة العثمانية قبضتها عليهم لنشاطهم الفكرى الهدام ، وقد وجد هؤلاء المهاجرون - وأغلبهم من النصارى- مرتعا خصبا تحت حماية النفوذ الأوربى قبل الاحتلال البريطانى لمصر ، وبعد الاحتلال الإنجليزى عام ١٨٨٢ أصبحوا فى حمايته.

---

(١) د/ محمد سيد محمد ، الغزو الثقافى ، مرجع سابق ص ٧٠ .

(٢) د/ محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٢٣٧ .

(٣) الأهرام بتاريخ ٨/ ١٠/ ١٨٨١ .

وقد أيد الإحتلال الصحف الموالية له ماديا وأدبيا ،حتى يضمن لها التوسع والانتشار فظهرت غنية بالمال والخير اللذين حبسهما عن الصحف الوطنية، كما أغدق على أصحاب هذه الصحف المال وأيدهم بنفوذه وسلطته(١).

وكان فى طليعة هؤلاء شبلى شميل وجورجى زيدان ويعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس ، وأنشأوا فى مصر عدة جرائد ومجلات بمعرفة الاستعمار الإنجليزى وتشجيعه وتوجيهه وبدأوا يكتبون فيها الأفكار الاستشراقية والتنصيرية ، وكان من أبرز هذه الصحف اللطائف ١٨٨٦ والمقطم ١٨٨٩ ، والهلال التى أسسها جورجى زيدان ١٨٩٢ ، وكانت تترجم لمشاهير الغرب مثل فيكتور هوجو وأرسطوا وهوميروس وجون ملتون وأفلاطون ، ونشرت أيضا كتب جورجى زيدان ورواياته ومثلها تاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الإسلامى التى ملئت بالأغاليط والشبهات التى رددها المستشرقون والمنصرون وأعداء الملة الإسلامية (٢).كما حفلت «الهلال» بمقالات عديده عن الغرب خاصة الثقافة الإغريقية والعصور الوسطى الأوربية والحديثة(٣) .

كما كان على رأس المجلات التى انحرفت عن أهدافها واتجهت نحو الدعاية لانجلترا مجلة اللطائف لصاحبها شاهين مكاريوس أحد أصحاب المقتطف والمقطم ، وكانت أعياد الملكة فكتوريا تجد نصيبا ضخما من التمجيد والإشادة بها ، فأفردت لها اللطائف عشر صفحات كاملة (بمناسبة مرور خمسين عاما على ترقيها سدة الملك)(٤).

ومرة ثانية تتحدث عن الملكة فكتوريا ومدح الشعب الإنجليزى وكيف تمكن من السيادة على ربع الكرة الأرضية ، والتقدم المادى والأدبى اللذين يتمتع بهم الإنجليز دون شعوب الدنيا كلها(٥) .

---

(١) د/ سامى عزيز «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى» ـ القاهرة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ ص ٩٣ ، ٩٨.

(٢) د/ أحمد طاهر حسنين ، دور الشاميين المهاجرين إلى مصر فى النهضة الأدبية الحديثة ـ دمشق ، دار الوثية ١٩٩٠ ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣) الهلال يولية ١٩٩٢ .

(٤) مجلة اللطائف عدد ١٥ مايو ١٨٨٦ .

(٥) مجلة اللطائف عدد ١٥ مايو ١٨٨٩ ، عدد ١٥ سبتمبر ١٨٨٩ .

وكانت اللطائف أول مجلة جاهرت بالتعاليم السرية الماسونية فى القطر المصرى ، وبهذا تم لهم ما أرادوا ذرعه من الإلحاد فى أرض مصر ، وكانت مقالات اللطائف تتميز بالحدة حتى فى عناوينها ومنها (الماسون الأحرار والجزويت المنافقون) وهى سلسلة مقالات استغرقت أربعة أعداد من المجلة[1].

وأصبح شاهين مكاريوس أحد أصحاب المقتطف والمقطم ورئيس تحرير اللطائف من كبار زعماء الماسونيين في مصر والشرق ، وتخصصت اللطائف فى نشر كل ما تزعم فائدته من المباحث والأخبار الماسونية مع الإفاضة فى شرح الدستور الماسونى العمومى ـ كما حاولت اللطائف إثبات فضل الماسونية فى الحياة العامة فى مصر[2] .

والمقتطف التى أنشئت فى عام ١٨٧٦ وصاحبها فارس نمر ويعقوب صروف[3] ، وكانت مجلة المقتطف هى الميدان الأول الذى التقى عنده الكتاب لنشر المعلومات والآراء والأفكار الغربية . وقد روج يعقوب صروف فى هذه المجلة لنظرية دارون وسبنسر ، وأعلى من شأن الثقافة الإنجليزية .

ومما يؤيد هذا الرأى أن فاتحة المقتطف لعام ١٨٨٢ كانت ترجمة شخصية لحياة دارون وتلخيصا لبعض أعماله واطراء للجهود التى بذلها فى ميدان العلم فقد قال فى صاحب نظريه التطورر ما يلى :

" ولم يقتصر فضل دارون على مصنفاته واكتشافاته التى خدم العلم بها بشخصه وإنما معظم فضله فى تحريك الخواطر وتوجيه الأذهان إلى العلم فإنه لم يقرع باب فن من الفنون إلا تقاطر العلماء إليه أفواجا وعادوا بالغنائم الوافره ، ولم يقم فى الناس غير نيوتين رجل كدارون استلم زمام الأذهان وحول إليه الأبصار وقاد البشر للبحث فى كل مبحث شاءه والكشف عن الغوامض التى أحب كشفها ، ولم يمتلك رجل الآراء بسطوة علمه واستعظام آرائه كما شاهد، فإن الكتب التى ألفت له وعليه فى كل أنحاء العالم تعد بالمئات والألوف وعدد

---

(١) مجلة اللطائف عدد ١٥ فبراير وعدد ١٥ مارس ، وعدد ١٥ مايو ١٨٨٨ ، ديسمبر ١٨٩٠ . سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ص ٣١٠ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق ٣١٢ ـ ٣١٣ .

(٣) تأسست فى بيروت ١٨٧٦ ثم انتقلت ١٨٨٦م إلى القاهرة .

الذين إنحازوا إلى مذهبه فى الارتقاء والتسلسل يكاد يعم العلماء ولذلك فإن مات فسلطانه يبقى دائما لأنه ليس لسلطان العلم زوال ، ولا عقاب ولا ملامه إن اطنب أهل العلم بالثناء عليه فإنه أهل لأطيب الثناء » (١).

وفى مقارنة بين هربرت سبنسر وابن خلدون تقول المقتطف «إن أكثر المواضيع التى طرقها ابن خلدون طرقها سبنسر أيضا حتى المواضيع العلمية واللغوية والطبيعية والرياضية . ولكن معارف البشر قد نمت فى هذا العصر ، وزادت زيادة بالغة ، وكذلك نرى الموضوع الذى كتب فيه ابن خلدون صفحة كتب فيه سبنسر فصلا أو كتابا كبيرا»(٢). وتحدث المقتطف عن مصادر الثروة وخصصت ست صفحات عن تقدم الإنجليز أو تقدم الصناعة والتجارة فى بريطانيا العظمى، وقوة الإنجليز واتساع أفاقهم وممالكهم(٣).

كما كان فارس نمر على صلة قوية ...يزى وقد تزوجت ابنته من المستر سمارث مستشار السفارة الإنجليزية بالقاهرة فمكن له هذا فى مصر(٤).

ومن هذه الصحف التغريبية أيضا المجلة المصرية الصادرة فى ٣ صفر ١٣١٨هـ يونيو ١٩٠٠م وكانت تصدر شهريا ، وكان صاحبها خليل مطران ، والتى حملت لواء الدعوة إلى تجديد الشعر ، وقدمت أمثلة من الشعر الفرنسى منقولا إلى العربية التماسا لتجديد الشعر العربى المعاصر(٥).

ومجلة الفتاة التى أصدرتها هند نوفل عام ١٨٩٢م ، واتخذت من مظاهر الحياة الإنجليزية مصدرًا للاقتباس والاستشهاد ودعت إلى التقليد والمحاكاة للنساء الفرنسيات(٦).

---

(١) مجلة المقتطف الطبعة الثانية الجزء الأول السنة السابعة ص ٦٠٥ . د/ عبد الله العمر وآخرون ، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة ، كتاب العربى الثالث يولية ١٩٨٤ ص ٣٨ .

(٢) مجلة المقتطف عدد يوليو ١٨٨٦م .

(٣) مجلة المقتطف عدد نوفمبر ١٨٨٩ .

(٤) د/ مصطفى رمضان ، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة دار الوفا للطباعة ١٩٨٤ .

(٥) محمود فياض «الصحابة الأدبية فى مصر» القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٢ .

(٦) مجلة الفتاة ـ أول مارس ١٨٩٣ .

ومجلة المحيط يناير ١٩٠٣م لصاحبها عوض واصف ، وكانت هذه المجلة ضالعة مع الاتجاه المحابى للغرب دون مواراة ، مواكبة للنزعة الفرعونية «الدعوة إلى الإقليمية» التى ظهرت أنذاك مجتهدة فى تأكيدها وإبرازها ، واستخراج الصور العديدة من التاريخ القديم لها، استمرت هذه المجلة فى الصدور تسعى فى ظل الاحتلال وتشايعه إلى أن شبت الحرب العالمية الأولى(١).

وفى مارس ١٨٨٨م أصدر خليل زينيه مجلة الراوى الشهرية مجلة أدبية صوتا من أصوات التغريب دعا إلى الأخذ بمدينة الغرب دون تحرز وتقوم بترجمة القصص وتنشر من الموضوعات السطحية والهزلية ، كالدعوة إلى تحرير المرأة ونزع الحجاب وتقليد المرأة الأوربية واعتبارها النموذج الذى يحتذى(٢).

ومجلة الجامعة ١٨٩٩م لصاحبها فرح أنطون الذى هاجم حرية الفكر فى الإسلام(٣).

وقد سارت «الجامعة» على غرار «رصيفاتها» من المجلات السورية فى التغريب داعية إلى الإلتفاف حول الثقافة الغربية ، وكان صاحبها متأثرا فى هذه المرحلة بالفيلسوف الفرنسى جول سيمون حتى أنه قال عن مجلته أنها لسان حال هذا الفيلسوف وقد عمرت صفحاتها بمقالات عن فلاسفة الشرق والغرب من بوذا إلى توليستوى وركسن ، وقد ناصر قاسم أمين فى الدعوة إلى تحرير المرأة وقابل بين آرائه وآراء جول سيمون ، ونشر آراء هوجو ولخص فلسفة ابن رشد ونشبت بيه وبين الشيخ محمد عبده معركة قلمية عنيفة بسبب هذا الفيلسوف(٤).

وتخصصت مجلة الجامعة أيضا فى نشر الأفكار الفرنسية خاصة آراء العقلانيين ، وحركات مقاومة الأكليروس فى القرن الثامن عشر ، وفى كثير من تلك الأبحاث التى كانت تنشرها مجلة الجامعة كان يمس الإسلام من ناحية ما ، ولم يبال ما يكون فى أبحاثه من سباب وطعن فى الإسلام وشريعته ،

---

(١) محمود فياض الصحافة الأدبية فى مصر ، مرجع سابق ص ٣٣.

(٢) مجلة الراوى أول مايو ١٨٨٨.

(٣) أنور الجندى ، يقظة الفكر العربى ، القاهرة مطبعة زهران ١٩٧٥ ص٩٩، ١٠٠ .

(٤) محمود فياض «الصحافة الأدبية» ، مرجع سابق ص ١٨ .

ولم تكن تلك المجلة وحدها هى التى حملت لواء الهجوم على الإسلام ، بل أكثر الصحفيين الشوام كانوا يقومون بذلك بين حين وحين ، ولعل الذى شجعهم على ذلك وجرأهم على غمز الإسلام هو ما رأوه من اتجاه سياسة أوربا المعادية للإسلام والمسلمين وما كان ينشره السياسيون الإنجليز والفرنسيون وغيرهم ، ثم صحف أوربا ، ثم ما تقوم به الحكومات المسيطرة على أمم إسلامية من محاولات لتهوين شأن الشرق بعامة والإسلام بخاصة[1].

ومن المجلات التى أمكن للاحتلال النجاح فى انحرافها عن وجهتها التى صدرت من أجلها بعض المجلات القضائية وعلى رأسها مجلة الحقوق لصاحبها أمين شميل الذى تلقى تعليمه فى مدرسة الأمريكان فى بيروت ثم سافر إلى إنجلترا للعمل فى التجارة ثم جاء إلى مصر وأصدر مجلة الحقوق التى سارت فى فلك الخط التغريبى والتبعية [illegible] «الحقوق» بتقدم مصر تحت الاحتلال مؤكده أن مصر لم ترتع منذ قرون عديده بما ترتع به فى الأزمنة الحاضرة من بحابح الأمن والعدالة ، ولم تشهد منذ نشأتها حرية شخصية ، وآمالا ونظاما قضائيا عادلا (و . . . .،و. . . مثل ما نراه الآن)[2].

كما كانت مناسبة الاحتفال بعيد جلوس الملكة فكتوريا على عرش إنجلترا فرصة أفردت لها مجلة الحقوق الصفحتين الأولى والثانية لهذه الملكة الجليلة وعهدها المملوء بالحوادث السعيدة "وفى عهدها نهضت البلاد الإنجليزية إلى قمة السلطة وقد نالت مصر من المسرات والمظاهرات الولائية قسما تحرزه التواريخ ما بين الإنجليز هنا وفى الأسكندرية"[3].

الصحف وقضايا التغريب :

لعبت هذه الصحف دورا فعالا فى الترجمة للثقافة الغربية ، فترجمت أعمال لافونتين ومولير وراسين وجاك روسو ، وأعمال كتاب المدرسة الفرنسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر خاصة أعمال أناتول فرانس وفيكتور

(١) د/ سعد الدين الجيزاوى أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث جـ ١ الطبعة الأولى القاهرة نهضة مصر ١٩٥٦ ص ١٩٠ ، ١٩٣ .

(٢) مجلة الحقوق، ٥ مارس ١٨٨٧ .

(٣) مجلة الحقوق ، ٢٥ يونيو ١٨٨٧ ، د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص١١٨ .

هوجو وغيرهم، ولقد أعقب حركة الترجمة هذه تمصير لبعض هذه الأعمال وتقليدها، حتى وصلت الحركة الفكرية فى مصر بعد ذلك إلى تأليف أعمال مستقلة على النمط الغربى[1] .

كانت معظم هذه الصحف لا تخلو من نشر القصص المترجمة عن الغرب، وتاريخ الغرب وعادات الشعوب غير العرَبية وكذا الأنباء العلمية التى لم يكن أصحابها عربا ، وأيضا تقديم أشهر الفصول التى كتبها علماء الغرب عن الشرق ، وتلخيص لبعض المؤلفات الغربية وتعريف بالماسونية ورجالها إلى غير ذلك[2] .

لقد كان من الملاحظ أن أغلب اللبنانين والسورين الذين استعان بهم الإنجليز فى الصحافة العربية فى مصر كانوا من أبناء المدارس والارساليات الأمريكية فى بيروت التى نشطت وأينعت جهودها وأثمرت، ولاسيما فى اطار الجو المصرى الذى تنسَّم فيه السوريون نسيم العدل والحرية وروح التسامح الذى أفادت منه البعثات التنصيرية الأمريكية، هذا إلى جانب اعتماد اليسوعيين على بيروت كمركز لنشاطهم الكاثوليكى[3].

ومن أبرز الذين نقلوا الفكر الغربى أيضا عن طريق الترجمة خليل النقاش ونجيب حداد وأديب إسحاق ، وخليل مطران ، وترجم خليل النقاش عن كورنى الفرنسى مسرحية «كاميل» باسم «مى» وأدخل فيها المترجم بعض المواقف الغرامية المبتذلة ، وترجم نجيب الحداد عن شكسبير مسرحية رميو وجوليت وأسماها شهداء الغرام ، وترجم عن الفرنسية لكورنى مسرحية أطلق عليها غرام وانتقام ، وترجم أديب إسحاق روايتين للمسرح: الأولى أندروماك، والثانية شارلمان عن الفارسية وكل هذه القصص تدور حول الحب والغرام ، وبث تقاليد وعادات غربية فى نفوس الشعب المصرى القارئ لهذه القصص[4].

---

(١) د/ أحمد طاهر حسنين ، دور الشاميين المهاجرين إلى مصر فى النهضة الأوربية الحديثة ص ٢١ ، ٢٢ ، مرجع سابق .

(٢) د/ أحمد طاهر حسنين ، دور الشاميين المهاجرين إلى مصر فى النهضة الأوربية الحديثة ص ٢١،٢٢ ، مرجع سابق .

(٣) د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص٢٨٢.

(٤) المرجع السابق ص ٥٥ .

وارتبطت ترجمة القصص عن الإنجليزية والفرنسية فى الصحافة المصرية بعد الاحتلال بوجود الصحفيين والأدباء من السوريين واللبنانيين الذين هاجروا إلى مصر ، هؤلاء هم الذين تولوا حركة الترجمة عن الأدب الإنجليزى والفرنسى ، ونشر هذا الأدب على شكل قصص ومسرحيات وروايات مسلسلة أو كملاحق ارفقت ببعض المجلات أو نشرت بمفردها صادره عن مطابع هذه المجلات(١).

وكان الهدف من نشر هذه القصص والمسرحيات على نطاق واسع هو القضاء على التقاليد الإسلامية ، التى تمنع الاختلاط وتنفر من الفاحشة والتحلل الخلقى(٢)، كما كانت هذه الصحف تعمل عن طريق خفى على اضعاف النزعة الدينية والوط[illegible] [illegible]يدة الإسلامية وبما تدعو إليه من نزعات [illegible] [illegible]ب الفوارق بين المصريين وبين [illegible] [illegible]ن ديارهم لكى يسكنوا إليهم ويألفوه[illegible]

تقول صحيفة الاتحاد المصرى [illegible] [illegible]ى تمثل الغرب وعاداته فى جميع نواحى الحياة حتى الخاصة منها: "لو اقتدى المصريون بالأفرنج واقتصروا على اظهار أفكارهم باختصار لأراحوا الناس"(٤). وقدمت مجلة الزهور ١٩١٠ - ١٩٠٣ لصاحبها أنطون الجميل فصولا من بعض المسرحيات لارمون روستان واسين وقطعا شعرية لهوجو ولا مارتين والفردى موسيه وبعض خطرات بسكال ومبادئ تولتستوى(٥).

---

(١) د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص٢٨٥.

(٢) محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، السعودية ، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر ١٤١٠ - ١٩٩٠ ، الطبعة الثالثة ، ص٢٣٦.

(٣) د/ محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، مرجع سابق ص٢٣٧.

(٤) جريدة الاتحاد المصرى ، ٥ مايو ١٨٨٩ .

(٥) د/ أحمد حسين الطماوى فصول من الصحافة الأدبية ـ القاهرة، دار الفرجانى ١٩٨٩ ص ٢٨١ .

وكان من ضمن الدعوات التغريبية الهدامة التى روجت لها هذه الصحف محاربة اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة والتراث الإسلامى ، وقد اقترحت صحيفة المقتطف أن تكتب العلوم بلغة الحديث «العامية» ودعت رجال الفكر والأدب إلى بحث اقتراحه ومناقشته ، وأيدت الدعوات التى راجت فى هده الفترة لكتابة العربية باللاتينية(١).

وكانت المقطم تشجع على تعليم اللغة الإنجليزية وتستحث المصريين على تعلمها ولم يكن عدد من أعدادها فى سنواتها الأولى يخلو من حديث أو إعلان عن القواميس باللغة الإنجليزية(٢).

وبعد أن تقرر أن تكون الإنجليزية من جملة اللغات الرسمية التى يترافع بها فى المحاكم المختلطة تشيد المقطم بالإنجليزية قائله : «هذا وإن اللغة الإنجليزية تنتشر انتشارا سريعا فى هذا القطر ، حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها وصارت مما لا يستغنى عنه عند فريق كبير من المصريين ، وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم؛ لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها»(٣). وتردد ذلك الحديث على صفحات اللطائف أيضا(٤). حيث كانت الحملة على اللغة العربية جزءا من محاولات الاستعمار الإنجليزى للقضاء على رافد من روافد الثقافة الإسلامية والعربية فى مصر ، ولهذا أعد الاستعمار الكثير من الخطط ليصل إلى هذا الهدف ، فيقضى على اللغة العربية الفصحى . وعلى كل أمل فى الوحدة العربية والإسلامية ، لأنه أدرك أن اللغة العربية هى الرباط الذى يوحد بين أقطار العروبة والإسلام، لذلك فقد حاول اقناع المصريين بأن سبب تأخرهم فى ميدان الحياة وتخلفهم عن الأوربيين فى الابتكار العلمى هو تمسكهم بأساليب العربية الفصحى ، وأن الأولى لهم أن ينهضوا بالعامية ، حتى يسايروا

---

(١) د/ محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، مرجع سابق ص٢٤١.

(٢) د/ سامى عزيز الصحافة المصرية موقفها من الاحتلال الإنجليزى، القاهرة ١٩٦٨ ص٢٧٩. جريدة المقطم ١٨ فبراير ١٨٩١.

(٣) المقطم ١٥ يوليو ١٨٩٠ .

(٤) اللطائف ١٥ سبتمبر ١٨٨٨ .

ركب الحضارة الحديثة [1]. لم يكن الهدف إذا هو الدعوة إلى تعليم واستخدام اللغة الأوربية فحسب، بل الهدف هو القضاء على اللغة العربية الفصحى، التى فى القضاء عليها قضاء على الدين والتراث، ومقومات الوحدة الإسلامية والعربية .

كان أنصار هذا الاتجاه التغريبى يتلقون دعما ماديا وأدبيا من السلطات الإنجليزية ، مقابل الولاء للاحتلال والترويج لأفكاره ودعم سياسته ، لقد عمل المقطم على الدفاع عن حق الإنجليز بمصر وحمل لواء الإشارة بحسنات الاستعمار ومدح أبطاله ، والمطالبة باستمراره ودعوة أهل مصر إلى قبوله [2].

وقد وصفت جريدة الشعب (لأمين الرافعى) «المقطم» فقالت : سياسته إنجليزية صرفة تكتب بحروف عربية ، ثم تشير إلى مساعدة الإنجليز لهم : "إن أصحاب المقطم أغنى الصحف مالا وأكثرهم أطيانا ، ورغم أن الصحافة فى مصر مجلبة للخسارة فإنهم جمعوا ثروة يعجز عن جمعها أكثر أرباب المشروعات" [3].

وتؤكد صحيفة الفلاح على صلة الاحتلال ومساعدته لأصحاب المقطم قائلة : "إن رجال الدولة المحتلة يقصدون أصحاب المقطم فى المطالب ويمدونهم بالمال ويساعدونهم فى الأشغال وينفعونهم بعلة المطبوعات وحسبنا أن جورنال وقائع البوليس يطبع منه فى كل أسبوعين ألف نسخة على نصف فرخ بحيث يكلف فى السنة خمسمائة جنيه ، ولو طبع فى غير مطبعة المقطم لم يكلف أكثر من ٥٠ جنيها فى السنة ، هذا فضلا عما يأخذه مقابل طبع أوامر البوليس، وقيمة مطبوعات من دفاتر وحوافظ كشوفات لأعمال الحفر مما يوازى ٣٠٠٠ جنيه أو يزيد عنها" [4].

---

(١) د/ عبد الرشيد سالم «مقدمات النهضة الأدبية وعوامله فى مصر» القاهرة مكتبة وهبه ١٩٧٧ ص ١٠٢ ، د/ عمر الدسوقى فى الأدب الحديث جـ٢ ص١٧١ ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧٠ ص٤٠ .

(٢) د/ أنيس صايغ الفكرة العربية فى مصر ، القاهرة مطبعة هيكل ١٩٧٠ ص١١٤ .

(٣) الشعب ١٩١٢/٥/٨ .

(٤) جريدة الفلاح عدد «١» يونيو ١٩٨٣ د/ سامى عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص٩٩ .

وقد بلغ من مساعدة الاحتلال للمقطم أن أعدت للصحيفة مطبعة خاصة في إنجلترا كانت تطبع المقطم ثم تقوم بطيه في طيات صغيرة حتى يسهل حملها وبخاصة في جيوب العمد ومشايخ البلاد وأطلق على هذا النوع من المطابع «مطبعة حجم المقطم»(١).

وعندما نفذ قانون الاصلاح الزراعي في مصر تسلمت الدولة من فارس نمر ثمانية آلاف فدان حصل عليها من عمله مع الإنجليز وفي المقطم(٢).

وكان أصحاب «المقطم» والمقتطف يعقوب صروف وفارس نمر على تناقض واضح مع تيار المجددين الإسلاميين هذا التيار الذي قاده جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رضا بعد ذلك والذي حاول أن يوفق بين الدين ومطالب الحياة العصرية ، كذلك كانوا على تناقض واضح مع تيار الحركة الوطنية المصرية المناهضة للاحتلال البريطاني؛ هذا التيار الذي قاده عرابي والبارودي والشيخ على يوسف وعبد الله النديم ومصطفى كامل(٣).

حاربت «المقطم» وبعض الصحف الأجنبية مثل لوبروجريه أجيسان صحيفة «المؤيد» وأنصار الفكرة الإسلامية في الصحافة المصرية ، واتهموهم بالرجعيه والتخلف ، ويرد الشيخ على يوسف على هذا الاتهام قائلا : " إن أصحاب الجرائد العربية من السوريين اتفقوا على أن يزهقوا روح «المؤيد» ، فصاروا يسدون عليه الطريق ويتعقبون له كل أثر لشدة ما كانوا يخشون من قيام صحافة مصرية إسلامية تأخذ بزمام الرأي العام ، فلا يكون لصحافتهم بعد ذلك سلطان "(٤).

يدعو المقطم صراحة إلى فصل الدين عن الدولة ويتبنى الدعوة إلى ما عرف باسم «العلمانية» وهذا نموذج مما كان ينشر جريدة المقطم :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٢) د/ عبد الله العمر وآخرون ، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة ص٥٥ ، مرجع سابق.

(٣) د/ عبد العظيم أنيس تعقيب على بحث قدمه الدكتور/ عبد الله العمر نشر في كتاب العربي الثالث ١٩٨٤ ، الكويت ص ٤٥ .

(٤) د/ سليمان صالح ، الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد ، تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن سلسلة تاريخ المصرين رقم ٣٧ ص٨١ .

"يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين وبين الدولة ، لأن هذا التمييز أصبح من مقتضيات الزمان والمكان فإن لم تدركه عامتنا كان الخطر محيطا أبدا بماضينا لو سألت عامتنا اليوم لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة والدولة لا تقوم إلا بالدين، وأنهما متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التى تسعى الدولة إليها فى زماننا هذا هى غاية دنيوية محضة هى أمن الناس على أرواحهم، أما الدين فالغاية المرجوه منه على اختلاف الزمان والمكان هى صلاح الناس فى هذه الدنيا ، حتى يدخلوا جنات النعيم فهو الصلة بين الأفراد الذين يتدينون وبين خالقهم ولكل إنسان دينه ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة" .

أما قيام الدولة بالدين فلا وجود له فى عصرنا بين الدول العزيزه المتمدينة إلا بمعنى أن هذه الدولة لا تكون إلا إسلامية وتلك لا تكون إلا مسيحية ، فإذا لم نميز بين الدولة والدين فى عصرنا فماذا نفعل لو سقطت ؟ أيسقط معها الدين؟(١)

فضلا عن ذلك فإن الاستعمار قد شجع المقطم والصحف الموالية له ليواجه حركة اليقظة الإسلامية التى فجرها جمال الدين الأفغانى فى مصر ، وسارت عليها الصحوة الإسلامية ، وليخلق حركة موازية توالى الغرب ، على الرغم من أن تيار التغريب قد ظهر فى الساحة الفكرية المصرية وفى الصحافة ومارس نشاطه بشكل كبير قبل أن تعرف مصر الصحافة الإسلامية ، أو قبل أن يتشكل فيها تيار صحفى إسلامى .

لكن الغريب أن جزء من الارستقراطية المصرية فى أوائل القرن العشرين، قد انضمت مع تيار التغريب ، وقاموا بتشكيل حزب موال للإنجليز ، ونشأ تيار تغريبى زعماؤه من المصريين المسلمين أنفسهم ، الأمر الذى يمثل انتصارا للاتجاه التغريبى فى مصر فى تلك الفترة .

لقد تركت النزعة العلمانية للمهاجرين الشوام أثرا واضحا عند بعض الكتاب المصريين اللاحقين ، فسلامة موسى على سبيل المثال كثيرا ما يصرح بانتمائه العلمى للمهاجرين الشوام حيث يقول : لقد كانت أفكار يعقوب صروف وفرح أنطون من أكبر المؤثرات التى صاغت شخصيتى الذهنية(٢).

---

(١) المقطم ٧ أغسطس ١٨٩٩ .

(٢) د/ محمد عبد السلام الشاذلى ، تطور الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٣ ص١٦٠ .

أنصار الاتجاه التغريبى من المصريين وصحفهم :

فى بدايات القرن العشرين فى مصر تولى الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية من المصريين، فريق من الذين بهرتهم الحضارة الغربية ، أو تربوا فى مدارسها المنتشرة فى مصر ، وبعض البلدان العربية واستمدوا مثلهم العليا فى حياتهم من الثقافة الغربية التى لا تمت بصلة إلى الحضارة الإسلامية أو العربية ، فهم يعرفون تاريخ إنجلترا وفرنسا والكنيسة الأوربية ، والمذاهب الأوربية أكثر ما يعرفون عن تاريخ الإسلام أو العرب ، وهم يعرفون أيضا أعلام الفكر الأوربى وشعراءه ، ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية العربية إلا القليل(١).

وقد كون هؤلاء فى مارس ١٩٠٧م جريدة لتكون منبرا لأفكارهم وهى جريدة «الجريدة» التى كان يراس تحريرها «أحمد لطفى السيد» الذى أسبغ عليه الإنجليز لقب أستاذ الجيل ، وكان لطفى السيد وجماعته قلة من الطامعين يخالفون روح الأمة الإسلامية وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فكان هؤلاء يسبحون ضد التيار الإسلامى(٢).

وكانت صلة لطفى السيد ، وحزب الأمة بالاستعمار قوية ، فهو الذى ساعد على إنشائه ، فعندما انكشف المخطط التغريبى الذى قام به الصحفيون الشوام ، رأى الإنجليز ضرورة إنشاء جناح جديد أكثر قدرة على التخفى والتمويه ، ويزد[illegible] أن يكون زعماؤه من المصريين المسلمين أنفسهم ، فانشأ الإنجليز حزب الأمة الدى ضم عند إنشائه مجموعة من الطامعين الذين أعطاهم الاستعمار بعض المكاسب ووزع عليهم أراضى الدولة السنية ، وخلق منهم طبقة مواليه له ، كان منهم لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، وعبد الخالق ثروت وطه حسين ، وعلى عبد الرازق وفتحى زغلول وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوى وغيرهم (٣).

---

(١) د/ محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ١ ، مرجع سابق ص٢٤٠ .

(٢) أنور الجندى ، اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة ١٩٧٨ ص١٨٧ .

(٣) مصطفى رمضان ، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ، القاهرة دار الوفاء.

ويؤكد الدكتور يونان لبيب رزق العلاقة بين ظهور الجريدة ، وما ترتب عليها من ظهور حزب الأمة وبين سلطات الاحتلال فيقول : " تجمع مصادر عابدين من جانب ودوائر الأحزاب المنافسة من جانب آخر على تأكيد هذه العلاقة ، وعلى أن الجريدة ، والحزب لم يتشكلا إلا بإيحاءات كرومية(١) ويستدل هؤلاء على ذلك بأن مساهمى شركة الجريدة كانوا إما من الأعيان المعروفين بصلاتهم الحسنة بالمحتلين ، وإما من كبار الموظفين فى وقت كان فيه الإنجليز أصحاب فضل على هؤلاء لسيطرتهم على الإدارة الحكومية ،كما يستدلون عليها من موقف الجريدة المبالغ فى الاعتدال من الوجود الاحتلالى منذ ظهورها فى مارس ١٩٠٧م ، ويستدلون أيضا بقبول شركة الجريدة لأقرب المقربين للوكالة البريطانية مساهما فيها وهو طلبة باشا سعودى والذى كان يسمى فى مجلس الشورى بنبض الوكالة البريطانية(٢).

وكانت الجريدة تعارض الفكرة الإسلامية ، وتروج للقومية المصرية ، وقد حمل لواء هذه الدعوة لطفى السيد فى الجريدة فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين المسلمين ومسيحى أوربا فى البلقان وشمال إفريقيا وتجلت فى هذا الصراع الروح الصليبية بأجلى مظاهرها ، فقد أهل مسيحو البلقان السيف فى رقاب المسلمين وقتلوا منهم الآلاف فى غير شفقة ولا رحمة ، وقد صادفت هذه الدعوة إلى المصرية معارضة قوية ، لأنها كانت تعنى إنعزال المصريين ووقوفهم موقفا سلبيا إزاء ما يقع على إخوانهم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فلا يمدون إليهم يد المساعدة ولا ينتصرون لهم ، وكانت هذه الدعوة فى صالح المستعمرين ، وقد انبرى طه حسين للدفاع عن دعوة لطفى السيد الذى تعرض للهجوم عليه من قبل أنصار الفكرة الإسلامية فكتب سلسلة مقالات فى الجريدة تحت عنوان «المصريون» ليدافع عن هذه الفكرة (٣).

فقد كان من رأى لطفى السيد وهو مستمد من مفاهيم كرومرو فلسفته أن المصريين يجب أن يعيشوا داخل وطنهم ، دون أن يأبهوا بأية رابطة تربطهم

---

(١) أى مساعدة اللورد كرود عميد الاحتلال فى مصر .

(٢) د/ يونان لبيب رزق ، الحياة الحربية فى مصر ١٨٨٢ ، ١٩١٤ ، القاهرة مكتبة الكيلانى ١٩٧٠ ، ص٥ .

(٣) نصر الدين عبد الحميد ، حركة الجامعة الإسلامية من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩١٤ ، القهرة ١٩٨٤ ، ص٧٨ ـ ٧٩ .

بالعرب كاملة أو بالعالم الإسلامى، وعليهم أن يشكلوا مجتمعهم على هذا الوضع منعزلا عن العالم القريب الذى اتصلوا به قرونا عديدة ، لكنه لا يرى بأسا أن يفتح المصريون طريقا بينهم وبين الغرب ، وما يتصل به من مفاهيم فى السياسة والاجتماع(١).

وكانت الجريدة تشترك مع المقطم فى مبدأين أساسين أولهما : مهادنة الاستعمار ، وثانيهما : محاربة الفكرة الإسلامية والدعوة إلى الإنفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز والغرب فى الفكر والثقافة والاجتماع(٢).

وتعلن الجريدة ولاءها للإنجليز قائلة : «الأمة المصرية أمة تحب السلام والطاعة ، كما تحب الاخلاص لحكومتها وهى تحترم السلطة الشرعية ، ولا تنكر السلطة الفعلية ، فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطتان بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات ، لكى لا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة فيما ينفعها من حيث هى أمة مستعدة ، لأن تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الأمم فى السعى فى تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية»(٣).

ونراها تهاجم فكرة الجامعة الإسلامية مؤكدة أن المسلمين طوال تاريخهم لم يتفقوا على شئ اسمه الجامعة الإسلامية ، فلم يتفقوا اتفاقا سياسيا بعد عهد عمر ولا اتفاقا دينيا بعد عهد على ، فما هى جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثانى إلى يومنا هذا ؟ ما هى جامعة قوم يسر ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ ما هى جامعة قوم حدثنا التاريخ أن «هولاكو» اكتسح بلادهم وهم فى عزهم فلم يتضامنوا على مقاتلته ولكنهم أقوياء على قتل بعضهم البعض (٤).

وبناء على ما سبق نستطيع القول أن هذه العملية التغريبية كانت عملية

---

(١) أنور الجندى الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى ، القاهرة دار الاعتصام ص٤٦٢.

(٢) د/ محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مرجع سابق ص٨٨

(٣) الجريدة ١٠ مارس ١٩٠٧.

(٤) الجريدة ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ .

منظمة لها أهدافها ودعائمها وقادتها الذي يقومون بالإشراف عليها وتوجهها وهى ليست إلا حلقة من مخطط استعمارى مدروس قصد به القضاء على معالم الشخصية المصرية والإسلامية ، وتحويلها إلى الصورة الغربية ، ونشر النظم والمذاهب والثقافات الغربية وتعميقها فى قلوب المصريين إضافة إلى ذلك القضاء على القيم والثقافات العربية والإسلامية الأصيلة ، حتى يتسنى لهم فصل المسلمين عن ماضيهم ، ومن ثم تقبل الأوضاع الحاضره التى يفرضونها ويروجون لها .

مقاومة الاتجاه التغريبى وصحف المقاومة :

عندما بلغ هذا الاتجاه أشده واستهدفت العملية التغريبية القيم الخلقية والسلوكية والثوابت الإسلامية ، وأ [illegible] ترى روج لها هنالك ظهرت حركة مقاومة من خلال الصحافة المصرية ايضا، تصدت هذه الحركة لرياح التغريب التى هبت فى سماء الفكر المصرى وحاولت أن تقتلع معها العادات والتعاليم والقيم ، ونالت من الدين الإسلامى .

ظهرت هذه المقاومة بعد الاحتلال الإنجليزى للبلاد وفى هذه المرحلة المبكرة كان يعبر عن المقاومة أحسن تعبير وأقومة صحيفة العروة الوثقى التى صدرت فى باريس ١٨٨٣م ، وكانت تقرأ فى مصر ومعظم البلاد العربية ، ولم يقدر لهذه الصحيفة البقاء طويلا ، فقد صدر العدد الأول منها فى ١١ مارس ١٨٨٣ ، والعدد الأخير فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، ولم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا .

وعلى الرغم من هذا العمر القصير لصحيفة ـ العروة الوثقى إلا أنها كانت ذات تأثير كبير ليس فقط على مستوى مصر ، بل على مستوى العالم الإسلامى فقد نددت بالاحتلال البريطانى ، وكتبت المقالات الملتهبة فى التشنيع على الاستعمار والمستعمرين ، وبيان خطورة الاحتلال الإنجليزى لمصر قلب العالم الإسلامى[1] .

تلى هذه الحركة حركة المقاومة التى ظهر فيها السيد على يوسف والشيخ رشيد ومحمد فريد وجدى ، وعبد الله النديم ، ومصطفى كامل[2] .

---

(١) محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الأمام ، القاهرة مطبعة المنار ١٩٣٩ ، ص٣٠٦ .

(٢) د/ عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ، الجزء الثالث الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ١٩٥١ ص١٢ .

كان الشيخ على يوسف قبل أن يصدر المؤيد قد أصدر مجلة الآداب ليكشف فيها عن مخطط الاستعمار ضد اللغة العربية التى لاقت هجوما شديدا من قبل أنصار التيار التغريبى، ثم أصدر الشيخ على يوسف المؤيد فكان صوتها هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة ، لم تكن سياسة المؤيد صريحة فى أول الأمر لأنه كتب عليها سياسية يومية تجارية ، وكان فى بداية صدورها تنحو المنحى السياسى الوطنى ، ولكن عندما بدأ الصراع بين الشيخ محمد عبده والمفكر الفرنسى هانوتو ، أفسحت المؤيد صدرها لنشر مقالات الإمام والتعليق عليها ، ثم عندما هاجم كرومر الإسلام فى تقاريره كانت المؤيد فى طليعة الصحف التى دحضت مفترياته(١) .

ولم يمض على صدور المؤيد أقل من ثلاث سنوات ، حتى ظهر العدد الأول من مجلة الأستاذ التي أصدرها عبد الله النديم ١٨٩٢م أسبوعية ، وكانت سياسة الأستاذ تهدف إلى الإصلاح الإجتماعى ، وإصلاح التربية والتعليم والدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب ومهاجمة الاحتلال البريطانى.

وقف النديم وجها لوجه أمام أنصار التيار التغريبى وصحف الاحتلال ومنها المقطم فاستعدت عليه هذه الصحيفة السلطات البريطانية ، فاضطر الاحتلال إلى تعطيل الأستاذ وإلى الحكم بالنفى على النديم(٢).

كذلك تصدى النديم فى مجلة الأستاذ للدفاع عن اللغة العربية ضد هذا الهجوم الذى [illegible] إكوكس فى مجلة الأزهر التى أستأجرها من صاحبها إبراهيم مصطفى وحسن رفقى فى عام ١٨٨٧م ، ليهاجم من خلالها الفصحى ويدعو إلى الكتابة والتحدث باللغة العامية ، ومما ذكره النديم : « إن فى ضعف كل أمة فقدان لغتها مهما كانت تامة الألفاظ واسعة المعانى والمبانى ، واللغة العربية نزل بها القرآن الشريف الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معشر المسلمين ، فهو الداعى لحياة اللغة العربية الصحيحة ، وهو المقصود لكل

---

(١) د/ سعد الدين الجيزاوى ، أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث ، الجزء الأول الطبعة الأولى ، القاهرة مطبعة نهضة مصر ، ص٢٠٢ .

(٢) د/ عبد اللطيف حمزة ، قصة الصحافة العربية فى مصر ، بغداد المعارف ١٩٦٧ ، ص١٠٣، ١٠٤ .

محارب ساع فى إماتتها ورأينا جريدة الأزهر[1] تدعونا إلى ما تسوء به عاقبتنا وتسوء به وجوهنا ونصير به أعجوبة بين الأمم»[2].

وتشير الأستاذ إلى مخططات التغريب للمجتمع المصرى ، وإلى إفساد الإنجليز لأخلاق المصريين وتقاليدهم : "قالت أوربا إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلابد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة ، وفتحت لنا البير والخمارات والمقامر وأباحت الزنا والقمار ووسعت دائرة اللهو والخسران فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف، وانكب الأغنياء والمغفلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعف عقولهم وفسدت عقائدهم . . . . ."[3].

ومن صحف المقاومة صحيـ [illegible] م أصدرها محمد رشيد رضا على غرار العروة الوثقى ، وعلى نهج الإمام محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى، ولاسيما فى السنوات الأولى من صدورها وذلك من واقع العلاقة الشخصية والفكرية الحميمة التى نشأت بين الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا الذى كان له صلة مبكرة بالأفغانى وبتطلعاته السياسية غير أنها صلة حجبها التأثير المتزايد لمحمد عبده على صاحب المنار[4].

وقد أعلن رشيد رضا أن المنار وافق العروة الوثقى فى تعاليمها الاجتماعية وقواعدها التى وضعتها للوحدة الإسلامية وخالفها فى وجهتها السياسية المصرية، وزاد عليها البحث فى جزئيات البدع ، وتفصيل القول فى التعاليم الفاسدة ، والعقائد الزائفة والتربية المفيدة ونحو ذلك[5] .

وتعتبر المنار من أقوى المنابر الفكرية التى قادت الهجوم ضد ما عرف بالمدرسة العلمانية أو التغريبية التى تشكلت فى مصر ، وكان لها صحف ودعاة

---

(١) جريدة الأزهر هنا ليست هى مجلة الأزهر الحالية .

(٢) الأستاذ ٣ يناير ١٨٩٣ .

(٣) الأستاذ ١٧ يناير ١٨٩٣ .

(٤)) د/ محمد جابر الأنصارى ، مجلة العروة الوثقى بحث منشور فى كتاب العربى الثالث يوليو ١٩٨٤ الكويت.

(٥) المنار عدد «٢٢» السنة الخامسة ، ربيع الثانى ١٣١٧هـ ، ١٢ أغسطس ١٨٩٩م.

يروجون للفكر الغربى والحضارة الغربية ولاسيما فى جانبها السئ كالرقص والاختلاط والسفور وعدم المبالاة بالدين فى حين أن مصر كانت فى حاجة شديدة إلى نقل النظريات العلمية والاختراعات الحديثة التى تمكن لها أسباب القوة.

لقد اتجه الفكر المقاوم للاستعمار الغربى فى مصر بدايات القرن العشرين إلى شعيتين ولاسيما بعد أن ظهر مصطفى كامل كزعيم لحركة المقاومة السياسية الشعبة الأولى اتجهت إلى التعبئة الروحية والإصلاح الدينى عن طريق عرض الإسلام عرضا واضحا، والعمل على جعله أساسا فى التربية الوطنية وسبيل ذلك إصلاح الأزهر وإحياء الكتب الدينية القديمة وقد مثلت المدرسة السلفية التى قادتها المنار هذه الشعبة بعد الشيخ محمد عبده.

والشعبة الثانية اتجهت إلى تعبئة الحماس القومى فى الجيل الناشئ ومحاربة مخططات الاستعمار عن طريق الصحافة والاجتماعات العامة[١]، وقد قاد هذا الاتجاه مدرسة الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش وأمين الرافعى .

وبذلك لم يستطيع الاستعمار أن ينفرد بالتوجه داخل مصر على الرغم مما بذله فى سبيل تفرده بذلك من سلطة ودهاء وسياسة وتبشير بالفكر الأوربى وبالنصرانية أيضا ، وتيئيس المسلمين فى صور شتى فى مستقبلهم وفى علاقاتهم باسلامهم ، بل وجد مقاومة ومعارضة لذلك الاتجاه الفكرى الغربى الذى خلقه ودعمه وساعد على رواجه.

وأخذت المقاومة للاستعمار طابعاً سياسيا ولكنها قامت على توجيه إسلامى وعلى فكر إسلامية أصلية[٢] ، وتكون من هذا التوجيه وهذه الفكرة الإسلامية الأصلية ما نسميه بالاتجاه الإسلامى المقاوم للتغريب فى الصحافة المصرية ، ذلك الخط الذى بدأ واضحا فى كتابات جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى «العروة الوثقى» ، ثم سانده على يوسف فى المؤيد وعبد الله النديم فى «الأستاذ» والشيخ محمد رشيد رضا فى «المنار» ١٨٩٨ ومحمد فريد

(١) د/ محمد البهى ، الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى ، القاهرة مكتبة وهبه ١٩٨١، ص٨، ٩.

(٢) د/ محمد البهى ، الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى ، مرجع سابق ص٥٥ .

وجدى فى مجلة الحياة ١٨٩٩م ومكارم الأخلاق الإسلامية يناير ١٩٠٠م ، الذى كان أول من أطلق على التغريب «الميكروب الأورباوى»[١].

ثم اشتد عود الاتجاه الإسلامى بصدور اللواء ٢ يناير ١٩٠٠م ومجلة الهداية ١٩١٠م ، والعلم لأمين الرافعى.

وقد كشف هؤلاء المفكرون المسلمون المخطط الاستعمارى للغزو الفكرى وتصدوا له وعملوا على تفنيد أفكاره فى الجرائد الإسلامية السابقة الذكر ، وكشفوا للمسلمين فى مصر وفى كل مكان عن منهج هؤلاء العملاء وأهدافهم واتهموهم بالخصومة لحركة اليقظة الإسلامية والعمالة للاستعمار .

وضيقوا الخناق والحصار على صحف الاتجاه العلمانى ، وكشفوا زيف ما كانت تدعو إليه هذه الصحف من قضايا وآراء دخيلة على مجتمعنا، ودعوا إلى تصحيح المفاهيم الإسلامية مما شابها من البدع والخرافات ، وإقامة النهضة الحديثة على أسس من مفاهيم الإسلام ، مع الأخذ بالنظريات والعلوم الحديثة التى تفيد أمتنا وتعمل على تقدمها ورقيها .

(١) مكارم الأخلاق الإسلامية عدد «٢٢» السنة الثامنة ١٣١٨ هـ ، ١٩٠٠م.

المراجـــــــع

١ - د/ إبراهيم امام، الأعلام والاتصال بالجماهير ، القاهرة ١٩٦٩.

٢ - د/ إبراهيم عبده تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨،١٩٨١ القاهرة مؤسسة سجل العرب ١٩٨٢.

٣ - د/ أحمد طاهر حسنين ، دور الشاميين المهاجرين إلى مصر فى النهضة الأدبية الحديثة ، دمشق ١٩٩٠.

٤ - أنور الجندى ، اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة ١٩٧٨.

٥ - أنور الجندى ، الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى ، القاهرة ١٩٨١.

٦ - د/ أنيس صايغ ، الفكرة العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

٧ - سعد الدين الجيزاوى ، أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث بالقاهرة ١٩٥٦م.

٨ - د/ سليمان صالح الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن سلسلة تاريخ المصريين رقم ٣٧ .

٩ - سامى عزيز ، الصحافة وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨.

١٠ - طارق البشرى الحركة السبياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ ، القاهرة ١٩٨٣م.

١١ - د/ عمر الدسوقى فى الأدب الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م.

١٢ - عبد الرحمن الرافعى ، مصر المجاهدة فى العصر الحديث من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد ، القاهر ١٩٨٩.

١٣ - د/ عبد الرشيد سالم ، مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى مصر ١٩٧١م.

١٤ - عبد الجواد يس ، تطور الفكر السياسى فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، المختار الإسلامى بدون تاريخ .

١٥ - د/ مصطفى رمضان ، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٨٤م.

١٦ - د/ محمد سيد محمد ، الغزو الثقافى والمجتمع العربى المعاصر ، القاهرة دار الفكر العربى ١٩٩٤م.

١٧ - محمود فياض ، الصحافة الأدبية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٦م.

١٨ - محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، السعودية ١٩٩٠م.

١٩ - د/ محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، القاهرة ١٩٨٠م.

٢٠ - نصر الدين عبد الحميد ، حركة الجامعة الإسلامية عام ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨٤م.

٢١ - د/ يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر ١٨٨٢ ـ ١٩١٤م.

ثانيا : رسائل جامعية

عباس على عباس ، عبد الله النديم صحافته وفكره، رسالة ماجستير ، كلية الأعلام جامعة القاهرة ١٩٨٤م.

ثالثا : الجرائد والمجلات .

- الاتحاد المصرى.
- الأهرام .
- الجامعة .
- الراوى .
- الفتاة .
- المقتطف .
- مكارم الأخلاق الإسلامية .
- الهلال .
- الأستاذ .
- الجريدة .
- الحقوق .
- الزهور .
- اللطائف .
- المقطم .
- المنار .

القسم السادس

قسم التاريخ والحضارة

الحرب والسلام الأمريكى الليبى بين الجهاد والقرصنة (١٧٩٦ - ١٨٠٥م) ٠

دكتور
حسين محمد عبد الله العنيدي

الحرب والسلام الأمريكى الليبى
بين الجهاد والقرصنة
(١٧٩٦ ـ ١٨٠٥م)

مقـــــدمة :

تعتبر طرابلس احـ [illegible] (طرابلس ـ الجزائر ـ مراكش).

وطرابلس الغرب هى التى تعرف «بليبيا» ذلك الأسم الذى أطلقه عليها الجغرافيون القدماء ، ويمتد من خليج قابس فى تونس حتى خليج سرت فى وسط ليبيا ، واقتصر الجغرافيون المحدثون اسم ليبيا على ما يتبع طرابلس (١) ، دون خليج قابس ، تلك الحدود التى كانت تعرف بها على عهد الأمبراطور أدريان ADERYN وفى زمن الأمبراطور قسطنطين ، أطلق على القسم الشرقى من طرابلس ، ويذكر أن اسم ليبيا محرف من كلمه لوبيا وهى مدينة كانت تقع بين الأسكندرية وبرقة ، ويرى البعض أنها تشمل المنطقة الواقعة بين حدود مرسى مطروح الغربية وشرقى برقة وكان يقطنها اللوبيون ، وهى عاصمة لوبيا(٢).

وفى دائرة المعارف الأيطالية:ان اسم ليبيا قديم منذ العصور الجغرافية القديمة وكان أول من استخدمه في العصور الحديثة هو العالم الجغرافى مينوتلى FMENOTTI فى كتابه جغرافية ليبيا المطبوع عام ١٩٠٣م ، وهو يضم الولاية العثمانية فى طرابلس الغرب وتوابعها وأطلقته إيطاليا على طرابلس بعد احتلالها لها فى يونيو ١٩١١م حيث أصبح علماً على المنطقة(٣).

ومن هنا رأيت أن استخدم اسم ليبيا أحيانا بدلاً عن طرابلس الغرب بعد أن أصبح شائعا لدى كل المؤرخين والكُتاب.

وليبيا تتميز بموقع استراتيجى على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط مما أتاح لها أن تلعب دورا رئيسياً فى أحداث البحر المتوسط على مر العصور (٤) فتمتلك ساحلا يبلغ طوله ١٧٠٠ ميلا من حدود تونش غربا . وندا المرحلة الواقعة غرب السلوم شرقاً وتمتد جنوباً حتى مداخل السودان ووسط أفريقيا (٥).

كان من الطبيعى أن تتأثر عرقيا وسياسياً بما يموج به حوَض البحرالمتوسط منذ آلاف السنين ، فمنذ ما يزيد عن الثلاثة الآف عام ، وقبل أن يتخيل الأنسان أو يحلم بالولايات المتحدة الأمريكية غربى الأطلنطى كانت شواطىء شمال أفريقيا تموج بالحركات البشرية ، وتشهد حضارات متعاقبة ، حيث تركت كل حضارة أثراً من آثارها عايشة السكان الأصليون الذين يغلب عليهم الجنس البربرى (٦) الحامى القوقازى ، وقد استمروا يحتفظون بشخصيتهم ولغاتهم وكثير من عاداتهم وتقاليدهم على الرغم من توالى الحضارات والشعوب واللغات عليهم ، منهم الفينيقيون والأغريق والفرس والرومان والوندال واليهود والنرمنديون والسلاف والعرب والإيطاليون والبرتغاليون والأسبان والأتراك والأفارقة والفرنسيون (٧) حيث تدفق سيل هؤلاء على المنطقة ليصمد السكان الأصليون فى وقت كانوا يقتربون قليلاً من هذه الأعراف والأجناس فأضفوا شيئاً من صفا تهم عليهم (٨)..

على إن أكثر الفاتحين تأثيراً على شمال أفريقيا إنما كان العرب المسلمون ففى وقت قصيراندمج وتأثر بهم السكان الأصليون عقيدة ولغة وعادات وتقاليد (٩) ،

فانخرطوا في سلك جنديتهم على أنهم حملة رسالة لا تفرق بين الشعوب على أساس الأعراق والأجناس أو الألوان فأقبلوا عليهأفواجا ، وحتى نهاية القرن السابع الميلادى كانت منطقة شمال أفريقيا قد اصطبغت بالصبغة العربية الأسلامية ، ومحى آخر أثر من آثار الحكم البيزنطى وحلت اللغة العربية محل اللغة البربرية القديمة ، أو نافستها كأداة للتفاهم والتخاطب (١٠) لقد كان لتلك الأحداث التى عايشها شمال أفريقيا من قبل الميلاد وبعده ، حتى

وقت دراستنا ـ أثرها فى ظهور ما عرف «بالقرصنة».

جذور القرصنة وشمال أفريقيا :

تحمل دراستنا عبارة «القرصنة» وهو المصطلح الذى دارت على أساسه العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وطرابلس «ليبيا» فى المدة ما بين (١٧٩٦ ـ ١٨٠٥م) وهو المصطلح الذى ورثه الأمريكيون عن بنى جلدتهم من الأوربيين ، وقد الصقوه ظلماً وعدواناً بسكان شمال أفريقيا ، دون تمييز ، وقد رأيت أن أوضح للقارىء « جذورها فى البحر المتوسط أو غيره ، ومن أول من اشتغل بها فى القديم والحديث ؟ ومن هم أربابها وأصحابها؟ ، وهل هى بالنسبة لهم جهاد أم قرصنة؟.

منذ القرن التاسع قبل الميلاد كانت السفن التجارية والحربية قد دارت حول الساحل الأفريقى عندما أسس الفينيقيون مدينة قرطاجه (١١) فى تونس ، وفيها أسسوا مركزاً تجارياً ومنها انطلقت عملياتهم البحرية على جزر البحر المتوسط والسواحل الأوربية شمالا (١٢) ،وتحدت قرطاجة روما نفسها ، وسرعان ما أدركت الأخرى أن حوضَ البحر المتوسط لا يتسع لهاتين القوتين (قرطاجة وروما)، وخاصة بعد أن أجتاح «هينيجلى» إيطاليا وأنزل بها خسائر فادحة مما جعل «كاتو» الإيطالى يذكر مواطنيه دائما بأن «قرطاجة» يجب أن تدمر ، وفعلاً تمكنت روما فى عام ١٤٦ق.م من احتلال الساحل الشمالى الأفريقى ـ وليس قرطاجة وحسب ـ ، بل توغلت فى الداخل (١٣).

ومما زاد الطين بلة ، تغلغل اليهود داخل المدن الساحلية لشمال أفريقيا قبل الفتح الرومانى وبعده ، وخاصة بعد أن احتل بيوس «القدس» عام ٧٠م. ومنذ ذلك التاريخ واليهود يمثلون جزءاً من السكان ، وكثيراً ما لعبوا دور الوسيط النشط بين المسلمين والمسيحين إبان القرن الثامن عشر ، كما أن قسماً كبيراً من التجارة التونسية والجزائرية والطرابلسية كان تحت سيطرة التجار والمرابين اليهود.

وأما الأغريق: فقد تقدموا على الرومان زمنيا وكان أهم مراكزهم فى شمال أفريقيا «سيراناكا»، وبخاصة فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم «برقة»

ـ شرقى خليج سرت ـ ، وخلال بحثهم الدؤوب عن طريق تنقلهم من طروادة إلى «إسكاكا» نزل رجال « أو ليس» على جزيرة «جربا» ـ على خليج قابس ـ وفى عام ٥٣٣م تغلب جنرالات اليونان البيزنطيون على الونداليين الذين كانوا قد قضوا على سلطة روما في أفريقيا ، من النيل شرَقاً حتى مراكشِ غربياً ولمدة من الزمن (١٤).

كان لا بد أن يصحب هذه الموجات المتحاربة من الأوربيين على ساحل شمال أفريقية استخدام سلاح القرصنة فيما بينهم فى أقصى معانيه.

لم ينعم الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، بل والشمالى بشيء من الهدوء إلا بعد أن امتدت الفتوحات الأسلامية على طوله ، حتى عبرت مضيق جبل طارق لتؤسس الدولة الاسلامية فى الأندلس (٧١١م ـ ٩٢هـ) ويؤكد هذا بعض المصادر الأوربية« :يبدو لنا بوضوح أن العرب كانوا شعبا طيب القلب وسامى الخلق ، اذ على الرغم من مناوشتهم المستمرة مع كل من البرتغال وإسبانيا فقد سمح العرب الاتجار مع أوربا ، كما أظهروا تسامحا ملحوظاً فى معاملتهم مع النصارى الذين كانوا يعيشون بينهم » (١٥).، ومع ذلك فإن صاحب هذه الشهادة يناقض نفسه فى موضع آخر من الكتاب نفسه ، فى حالة تبريره للقرصنة والحملات البحرية الامريكية ضد مسلمى شمال أفريقيا فيما بعد فيتناسى ما سجله من شهادة مديح فى حق مسلميه فيقول: «لقد كان الفتح العربى الإسلامى للساحل الأوربى نذيرشؤم وسوء بالنسبة لأوربا المسيحية ، فبعد حوالى اثنى عشر قرناً من الزمن كانت الجيوش المسيحية تلتحم مع جيوش الاسلام فى حروب متقطعة على طول الساحل الأفريقى» (١٦).

واذا كان انتشار الإسلام في شمال أفريقيا ، قد اقترن بالهدوء ، وصحبته هدنة للقرصنة ، فإن الأوربيين هم الذين أيقظوا فتنها فيما عرف بالحروب الصليبية فى العصور الوسطى فكان للساحل الشمالى لأفريقيا من نهرالنيل شرقاً حتى مراكش غرباً منها نصيب ، وكانت الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع الفرنسى «سانت لويس» قد توجهت عام ١٢٧٠م إلى تونس ، عملاً بـمبدأ: على النصرانية أن تصب جام غضبها على كل مسلم أينما وجد ، وفشلت الحملة على تونس بعد موت لويس التاسع مصاباً بالطاعون ، ليتولى

مهنة القرصنة الأوربية وبشراسة« فرسان القديس يوحنا » بعد انتقال نشاطهم فى عام ١٣١٠م . من جزيرة قبرص إلى جزيرة رودس ، وبنوا فيهاحصنا منيعاً هاجموا منه المدن والموانىء الإسلامية على جميع شواطىء البحرالمتوسط وخاصة شاطىء شمال أفريقيا ، ومع قلة عدد سفنهم الشراعية التي يملكونها إلا أن تمرسهم على ركوب البحر جعلهم يشكلون خطراً كبيراً فى عمليات القرصنة ضد المرافىء الإسلامية المواجهة لهم.

وفى خلال ذلك كانت حملات الإسبانيين والبرتغاليين تتواصل على شمال إفريقيا ، تلك التى بدأت بمسلمى الأندلس ، ومن ثم ضد سائر المرافىء الأفريقية ،وقد تمكن هنرى الملاح البرتغالى من احتلال مدينة سبتة عام ١٤١٥م فكانت التمهيد لإحتلال طنجة وسواها من المواقع الاستراتيجية (١٧) .

وعندما سقط فى أسبانيا آخر معقل للمسلمين فى غرناطة عام ١٤٩٢م، لم يكتف الاسبان بذلك بل تابعوا هجومهم على المسلمين المهجرين عبر البحر المتوسط إلى ساحل شمال إفريقيا ، وحتى أواسط القرن السادس عشر تمكنوا من احتلال وهران وبونة ، وجليطة وبعض المواقع الأخرى ، مستخدمين غاية الوحشية ، مما لا يكتفى عند تشخيصه بالقرصنة (١٨).

الجهاد الاسلامى ضد القرصنة الأوربية

ماذا كان ينتظر الأوربيون من مسلمى شمال إفريقيا أمام الهجمات الصليبية والقرصنة الأوربية المتوالية ، والتى احتلت أهم مدن سواحلهم ؟ واقتحمت عليهم دورهم؟.

لا بد أن يكون هناك رد فعل قوى لدى مسلمين شمال إفريقيا وأن يعلنوا الجهاد العام فهو الآن «فرض عين » ومع عدم التكافؤ بين القوتين ، كان عليهم، وهم لم يتقنوا بعد فن القرصنة وحروبها أن يستعينوا بمن يجدوا عنده العون من العرب المسلمين ، دولاً أو جماعات ، فتشهد المدة الواقعة بين سنتى (١٥١٨ ـ ١٥٧٣م) إسهام العثمانيين فى مهمة الدفاع عن سكان شمال إفريقيا الذين استنجدوا بهم ، حيث إن اسطولهم اصبح منذ أوائل القرن السادس عشر عند القمة ، حتى أرغم مراكب جنوه والبندقية المتعجرفين على

الرضوخ والاستسلام ، وفي عام ١٥٢٢م نجح السلطان سليمان القانونى فى توجيه ضربة إلى «فرسان القديس يوحنا» فى ردرس (١٩) وقد كانت تلك المحاولة الثانية للعثمانيين ، أما المحاولة الأولى فقد وقعت فى عام ١٤٨٠م على عهد السلطان محمد الفاتح ، ولذا كان السلطان سليمان القانونى مصمماً، على تأديبهم ، فأعد أسطولاً مكونا من أربعمائة مركب وتولى بنفسه القيادة واستطاع أن يقهر المراكب الرود يسية القليلة بعد أن أمطر الجزيرة بوابل من النيران وبعد حصار دام ستة أشهر أدرك الفرسان والذين يزيد عددهم عن مائة ألف أن مؤنهم وعتادهم وذخائرهم ، قاب قوسين أو أدنى من النفاد فأرغموا على الرضوخ لشروط الإستسلام التى كانوا يرفضونها من قبل (٢٠).

وفي ٢١ من ديسمبر ١٥٢٢م استسلم فرنسا جزيرة رودس وسمح لهم السلطان بكل شجاعة وشهامة مغادرة رودس إلى حيث يشاؤون فأخذوا يتنقلون حتى استقروا عام ١٥٣٠م فى جزيرة مالطة التى منحها إياهم الأمبراطور شارل الخامس ، مقابل أن يتخذ منهم جنداً لحرب العصابات ضد القوات العثمانية والبلاد الإسلامية ، ولقد أثبت التاريخ أن «فرسان القديس يوحنا» لم يكونوا على مستوى أخلاق وكرم السلطان سليمان معهم ما شرعوا فى تجهيز أسطول صغير غدو يهددون به السفن الإسلامية من شواطىء أفريقيا حتى البسفور شمالاً (٢١) ، ووقع في ايديهم عدد كثير من أسرى المسلمين ، سخروهم فى تسيير السفن الشراعية دون رحمة مما جعل السلطان سليمان يبدى الندم على تساهله معهم وأخذ يعد العدة لمعاودة الانتقام منهم وجهزا أسطولاً قوامه ١٠٨ مركبا على متنه أكثر من ثلاثين ألف محارب مدربة للهجوم على فرسان مالطة(٢٢) .

أما الجبهة الأسلامية فى شمال افريقيا والتى ذاقت الأمرين من العدوان والقرصنة الصليبية الإسبانية ومعاوينها الأوربين فكان يتزعمهم فى الدفاع الشقيقان عروج وخير الدين برباروسا (٢٣) ويليهما فى الشجاعة والإقدام درغوث (٢٤) ومراد ومع شجاعة برباروسا إلاأنهما لم يستطيعا مواجهة الضغط الأوربى فاستنجد خير الدين بالدولة العثمانية (٢٥).

كان خير الدين محارباً جزائرياً نال شهرة عالية وتقلد منصب الاميرال

الأول فى اسطول السلطان العثمانى سليمان القانونى حتى صار أسطورة عمل له القراصنة الأربيون ألف حساب ، فاستطاع فى عام ١٥٣٤م أن يجوب شواطىء جزر صقلية وإيطاليا ، وأن يرد صاع المعتدين صاعين ، وعلى يديه خضعت تونس لسلطان الدولة العثمانية كما تحدى الأمبراطور شارل الخامس وقائده دوريا إبان نزاعهما على تونس« عام ١٥٣٥م عندما انتزعها منه فاستردها فى نفس« العام وعجز شارل الخامس وقائد جنده أن يصمدا له أو يستميلاه أو يقبضا عليه واستمر أحد عشر عاماً أخرى مما تبقى فى حياته ، وهو خصم عنيد، يقلص كل يوم من قوة العدوان الصليبى ، وقرصنة الدول البحرية الأوربية ضد سفن البلاد الإسلامية وموانيها فى شواطئها ،وانتقل من الدفاع إلى الهجوم ضد السواحل الأوربية حتى خطب ملك فرنسا فرانسوا الأول (١٤٩٤ـ ١٥٤٧م) وده واستعان به أمبراطور ألمانيا شارل الخامس فيما عرف بالحروب الإيطالية في أوربا (١٤٩٤ـ ١٥٥٩م) (٢٦) أو لتحييده وإيقاف نشاطاته ضد أوربا فعقد معه معاهدة عام ١٥٤٣م ، ومع ذلك فإن خير الدين لم يعط للقراصنة الأوربيين فرصة ، ولم تنطل عليه مها دنتهم ، ففى مسيره للاجتماع بالفرنسيين فى مرسيليا هاجم الساحل الإيطالى ، ونزل على مصب نهر التيبر مهدداً روما ،كما أنه استطاع فى شتاء ١٥٤٣م أن يقتحم بأسطوله ميناء طولون مما جعل بعض المؤرخين الأوربين يقولون شماتة فى ملك فرنسا:«وفى حين كان الفرنسيون يسلمون القرصان ـ خير الدين ـ الأموال ويقيمون علي شرفه احتفالات مهيبة لا تقام إلا للملوك ... وأن هذه المصاهرة .. تجلب لفرانسوا الأول إلا الحزن والهم ، ولذلك فقد طلب من خير الدين [illegible] رحل فى فصل الربيع بعد أن حمله مبلغاً محترماً من المال»(٢٧).

وإذا كان المؤرخون الأوربيون ينظرون إلى كل تحرك من قواد شمال إفريقيا ومن يعاونهم من العثمانيين ينظرون إليه على أنه عمل قرصانى وعدوانى، وينعتونه بأسخف النعوت «أعمالاً مخزية ، وفضائح عديدة . وأن استعانة ملك فرنسا بخير الدين لم تجلب له سوى الهم والحزن أعمال نهب ، حرق ، سرقة والأسر عندهم سبى ومن يقوم به من المسلمين إنما هم جماعة من السفاحين يروعون الآمنين على شواطىء أوربا» (٢٧) علماً بأن ما كان يقوم

به خير الدين آنذاك إنما كان رد فعل وجهادا مشروعاً ، ضد ما قام به الإمبراطور شارل الخامس ، هذا فى الوقت الذى يعتبر فيه الأوربيون ما يقوم به قراصنتهم من عدوان بأنه عمل بطولى ومشروع وأن شارل الخامس (المجاهد الأكبر ضد الاسلام) (٢٩) بينما هو فى طريقه لاحتلال الجزائر فى عام ١٥٤١م وأعد لذلك حملة قوامها (٣٦ ألف جندى) وعلى قيادتها «دوريا» تلك الحملة التى تصدت لها العناية الألهية فما أن تحركت اتجاه ميناء الجزائر حتى هبت الأعاصير والعواصف وصحبتها الأمطار والرعود والبرق فحطمت غرور شارل الخامس الذى لم يسمع لنصيحة البابا بعدم المغامرة فأضطرت الحملة إلى الأحتماء بجزيرة كوستاريكا بعد رجوعها عن الجزائر ، وقد غرقت مساحيق البارود والذخائر والطلقات وهرب معظم الجنود الايطاليين والألمان مذعورين كالأرانب ، ولم يبق سوى قلة من المشاة الذين التفوا حول قائدهم بعد أن أجبرهم على الصمود إلا أن الأيام لم ترحمه ففى الخامس والعشرين من اكتوبر ١٥٤١م تكررت العواصف مرة أخرى فحملت المواكب على غير إرادتها إلى الشاطىء وفقد منها مائة وخمسون مركبا ، علاوة على مئات من الجنود ، يقول لويس رايت: « وأخيراً عندما هدأت العاصفة أدرك شارل أن الحظ قد خانه وأن النبى محمد ﷺ قد هزمه فعاد جيشه المكسور حول الخليج وراء رأس «ماتيجو» و[illegible] يوم ٢٢ من نوفمبر سار رجاله تاركين جميع ذخائرهم ومعداتهم لأعد[illegible] ٢) وفي طريق عودة ما تبقى من الحملة إلى أسبانيا داهمته العاصفة للمرة الثالثة فحطمت بعض المراكب الأخرى وأعادت مراكب الأمدادات السليمة خربة ، قبل أن تشترك فى مهمتها العسكرية العدوانية (٣١)

ومن المعتقد أن الأمبراطور الإسبانى باتفاقه مع البابوية فى حملته التى ضمت الخليط من جنود أسبانسين وإيطالين وألمان والتى أقل ما يمكن أن توصف به بأنها حملة صليبية ،لولا ما تعرضت له من ظواهر ، فلا أقل من أنها كانت ستنزل بمن يتصدى لها أقصى صنوف القرصنة ، بل إن كلمة قرصنة لا تكفى ، ومع ذلك فلم يطلق الأوربيون عليها كلمة مشينة أو إشارة اتهام أو عتاب !!

إذاً فلا حرج أن يدافع المغاربة عن أنفسهم ، ولا عجب أن يستقبل العثمانيون طلب اخوانهم فى شمال إفريقيا المعونة منهم ، وأن يقلد السلطان سليمان رئاسة الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط لخير الدين برباروسا ، للدفاع عن شمال إفريقيا ضد قراصنة البحر من فرسان القديس يوحنا ، وضد الحلف الصليبى الذى لم تفتأ أسبانيا أن تعمل على تجميعه وتباركه الكنيسة وينجح خير الدين - كما أسلفنا - فى التصدى له غير مبال بما يرميه وينعته به الأوربيون ولم تتوقف عملية الجهاد الأسلامى بعد رحيله ١٥٤٦م بل تستمر وخاصة: ضد فرسان القديس يوحنا ، ناقضى العهود مع السلطان سليمان القانونى ، وينجح السلطان العثمانى سليمان فى إعداد أسطول عثمانى يصاحبه درغوث الذى خلف خير الدين وتوجه الأسطول العثمانى المغربى وهاجم بضراوة فى مايو من عام ١٥٦٥ «فرسان القديس يوحنا» (٣٢)

وقد دافع الفرسان بكل براعة وشجاعة واختلط الجيشان تشاركهما مياه البحر فى دمائها وكادت القوات العثمانية المغربية أن تحقق النصر ، لولا أن انهمرت المساعدات الاسبانية على المالطين من أول ديسمبر مما اضطر المسلمين إلى تعديل مواقعهم والإنسحاب إلى مراكبهم ، وبقيت مالطة بيد قوات «فرسان القديس يوحنا» مركزاً ومنطلقاً للقرصنة فى حوض البحر المتوسط ضد العالم الاسلامى إلى أن احتلها نابليون إبان حملته على مصر ١٧٩٨م ليتخذ منها قاعدة حربية عدوانية أشد خطراً من القرصنة على مصرلتنتقل ملكيتها إلى انجلترا بعد ذلك بقليل فى عام ١٨٠٢م لاستخدامها فى نفس الهدف دون أن يشير مؤرخ أو كاتب أوربى إلى ما يجرى فى مالطة ، وإنها قاعدة ومدرسة قرصنية صليبية ضد المسلمين على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط(٣٣) .

إن صمود الحلف المالطى الإسبانى فى عام ١٥٦٥م ووفاة درغوث الذى كان يبلغ من العمر ثمانين عاماً آنذاك لم يكن مدعاة لأن يلقى المسلمون أسلحتهم ويستسلموا ، فالأمر فى مالطة لم يحسم بعد وكذلك فى تونس ، فتصدت نيابة الجزائر للمهمة بعد درغوث فيما يتعلق بتونس فخلصته من قبضة الأسبان وضمته إلى حماية العثمانيين ، وقد لمعت أسماء عدة بحارة ممن تولوا النيابة فى الجزائر بعد خير الدين مثل صالح ريس (٣٤) وحسن بن خير الدين

(١٥٥٧ ـ ١٥٦٨م)، وعلج على ، وقد وقع على عهد الأخير أحداث أذ بدأ عهده بمحاولة إرجاع الحكم الإسلامى إلى أسبانيا ، عندما اتفق سراً مع الثوار المسلمين فى إسبانيا والذين كانوا قد احتموا بجبال الأندلس ، ونجح فعلاً فى إنزال الأسلحة وبعض المتطوعين على الساحل الإسبانى ١٥٦٩م لولا أن ترامى إلى أسماعه باستعداد «دون جوان» أمير النمسا لغزو الجزاذر فعاد مسرعاً لإحباط هذه المحاولة وأعقبها التخلص نهائياً من بقايا القواعد الإسبانية فى تونس(٣٥). .

لقد كانت الدول الأوربية تخشى أشد الخشية توحيد شمال إفريقيا تحت قيادتها وحتى فرنسا ، حليفة العثمانيين ، يلح سفيرها فى الآستانة على الدولة العثمانية أن تعزل عن نيابة الجزائر «حسن خير الدين برباروسا »، نظراً لما عرف عنه شدة ميوله لتوحيد نيابات المغرب العربى (٣٦) ، لذا ظهر رد فعل أوربى عنيف عندما سيطر العثمانيون على تونس عام ١٥٦٩م فجن جنون البابا «بيوس الخامس» (١٥٦٦ـ ١٥٧٢م) ودعا إلى تأليف حلف صليبى لاحتفاظ أوربا بمراكز أمامية على الساحل الإسلامى الإفريقى (٣٧) ، فهل هناك قرصنة أكثر مما يدعوا إليه الزعماء الروحيون فى أوربا ضد شمال أفريقيا ، وحتى اغسطس ١٥٧١م كانت القوات الإسلامية تحت خلفاء درعوث «علج على» قد نجحت فى الاستيلاء على قبرص فكانت الفرصة التى اغتنمها البابا ليجدد دعوته ، ولم يمض أكثر من شهرين حتى كانت الحملة الصليبية الأوربية قد تجمعت تحت قيادة «دون جوان» النمساوى ، وفى ٧ من أكتوبر ١٥٧١م التقت القوتان قرب المدخل الغربى ل «خليج بطرس» فى معركة قرب سواحل مالطة ، تعد من أهم معارك البحر المتوسط فيما عرفت خطأ باسم معركة «ليبانتـو» وقد حقق فيها الحلف الصليبى الأوربى انتصاراً حاسماً على القوات العثمانية (٣٨) مما ترتب عليه توقف النشاط البحرى العثمانى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واحتفاظ الأسبان ببعض الجيوب الساحلية وبقاء جزيرة مالطة بيد «فرسان القديس يوحنا »حتى حملة نابليون ، كما أن هذه المعركة تعتبر نقطة انطلاق جديدة لحركة جهاد نيابات شمال إفريقيا وفى الوقت نفسه كانت الجبهة الأوربية قد اعتراها التغيير فى ظل سلسلة الحروب المتوالية التى كانت تعيشها أوربا آنذاك

فيما بينها ، ومع ذلك فإن المؤرخرين والكتاب الأوربين ما زالت أقلامهم تحمل على المسلمين المدافعين عن ديارهم ، بقولهم «ولكن على الرغم من الانتصار الذى أحرزه الجيش البابوى المسيحى على العثمانين وسفنهم ـ١٥٧١م ـ فإن قراصنة (كذا) إفريقيا وساحل أسيا الصغرى ظلوا يشكلون الخطر الذى طالما شكلوه للعالم المسيحى (٣٩) ، دون أن يشير هؤلاء إلي أن الحلف البابوى قد شجع الإسبان على معاودة هجومهم للساحل الإفريقى واحتلال تونس ١٥٤٣م وأن العثمانين استعادوها مرة أخرى فى العام التالى ،لتقوم بها النيابة العثمانية الثالثة فى شمال إفريقيا (٤٠) ، ولم يفلح الحفصيون حلفاء الأسبان فى استعادة حكمهم على تونس ١٥٨١م ، ذلك العام الذى وقع فيه ملك أسبانيا فيليب الثانى مع الباب العالى مهادنة حسبما أملت الظروف الداخلية على كل منها ، فأسبانيا شغلت بمستعمراتها [illegible] تتعرض له مصالحها من القراصنة الأنجليز [illegible] الأوربى بعد معركة «ليبانتو» والنزاع الذى دب بين السلطتين المدنية والعسكرية حول إدارة حاميتها فى الجيوب الإسبانية الإفريقية والتى تعرف عندهمSESPRIDINS وصعوبة تموينها نظراً لامتناع السكان المغاربة عن التعاون معهم ، مما جعلهم يعمدون إلى نقل المؤن عن طريق البحر المتوسط ، فيتحملون نفقات باهظة فوق طاقة ميزانية الدولة ، مما جعل إسبانيا تفضل الجلاء عنها (٤١) ، ونفس الحال بالنسبة للدولة العثمانية فلم تعد تهتم بأكثر من علاقتها بنياباتها الثلاث فى شمال أفريقيا وهى حسب ترتيب أهميتها الجزائر ، فطرابلس ، فتونس ، وكانت تنظر إلى الجزائر أنها أكبر تلك النيابات فاتخذت منها عاصمة لادارة شمال إفريقيا وخلعت على ممثله لقب «البيلر بك» أى رئيس البكوات (٤٢) ، وقرب نهاية القرن ١٦ وفى عام [illegible]م انفصلت تونس لتصبح ولاية مستقلة يحكمها ديوان يتصل بالآستانة مباشرة.

على الرغم من توقيع الهدنة الإسبانية العثمانية ١٦٥٨م والتى بمقتضاها انسحبت إسبانيا من كل الجيوب فى شمال إفريقيا (طرابلس ـ تونس) إلا أنها ظلت تحتفظ ببعضها فى الجزائر مما جعل القرنين السابع عشر والثامن عشر يشهدان جولات من الجهاد الجزائرى ضد الأسبان ومن يعاونهم ، وعندما يدافعون عن أنفسهم ينعتهم الأوربيون بالقراصنة ، مع أنهم فى كثير من

كتاباتهم يعترفون «عرضا» بمدى عنف القراصنة الأوربين ضد مسلمى شمال إفريقيا ، فيقول أحدهم ما ترجمته: «كانت الأساطيل البرتغالية والفرنسية والإيطالية تشن من وقت لآخر هجوماً مضاداً على القوات المعادية لها ، كما إنه كان هناك بعض المراكب المسيحية الأشبه بالرمح الطليق والتي كانت تنطلق من المرافىء المسيحية ، لتدمر الممتلكات الإسلامية (٤٣) ، وإذا لم يكن هذا التدمير قرصنة!! أليس هناك قرصنة فى قولهم «الحقيقة إن القراصنة النصارى كانوا يظهرون أحيانا شراسة وضراوة لا توصفان ، تفوقان شراسة أعنف رجال الأتراك وشراستهم» (٤٤) ، ويعترف الأوربيون بأن القرصنة نتاج وصناعة أوروبية ، تقوم على عدم احترام المواثيق: « ومن ناحية أخرى لم يكن المسيحيون -- الأوروبيون - يقصرون هجماتهم على المسلمين ، إن القراصنة فى البحر المتوسط لم تكن لتحترم المواثيق ، وكان من أبرز القراصنة المسيحين، «فرسان القديس يوحنا» (٤٥) .

إن الكتاب الغربيين - الذين دأبوا يتحاملون على مجاهدى شمال أفريقيا - لم يلبثوا أن يسجلوا بين ثنايا حملاتهم ، ما فيه صريح اعترافاتهم بأن سكان شمال إفريقيا المسلمين - ومع التسليم بأنهم أصبحو قراصنة - ولكنهم تعلموها وطوروها على أيدى القراصنة الأوروبين عندما اندمج فريق منهم بالمجتمع الأسلامى فى شمال أفريقيا واعتنقوا الأسلام وانخرطوا فى صفوف المجاهدين! إبان القرن السابع عشر حيث كانت الجزائر بصفة خاصة قاعدة نشاط للاجىء الأوروبين الذين عملوا فى القرصنةوالذين لم يقتصر نشاطهم على البحر المتوسط بل امتد إلى المحيط الأطلسى شمالاً متخطيا حدود القنال الأنجليزى(٤٦) ومن المعتقد أن أمثال هؤلاء الكتاب ، نسوا أو تناسوا أن الجزائر ، كما ـأشرنا ـ كان ميناء وهران بها ما زال تحت احتلال إسبانيا ولم يتم تحريره إلا عام ١٧٩٢م(٤٧) ، إذاً فجهادها مشروع وليس كما يقولون عنها « ولم تلبث الجزائر أن غصت بسفاحى أوربا اليائسين الذين تحول معظمهم إلى أتراك ، أعنى أنهم تحولوا عن نصرانيتهم وأعلنوا إسلامهم (٤٨) » فكيف يحاسب الجزائريون على أناس يأسوا فى بلدانهم ووجدوا الرحابة فى مسلمى شمال إفريقية وفى سماحة دينهم ، فمن المعتقد أنهم - على الأقل أو فريقاً منهم شعروا بمدى الظلم الذى أوقعه بهم بنو جلدتهم من الأوروبين متفرقين ومجتمعين أو أوقعوه بشعوب شمال أفريقيا ، وراح المؤرخون الأوروبيون يصفون هؤلاء اليائسين الأوربين

الذين لجأوا إلى الجزائر ، ووجدوا فيها طيب مقام بقولهم « وكان بعض أولئك ارقاء قبلوا اعتناق الأسلام على أمل أن يحسنوا وضعيتهم اليائسة - على حد تعبيرهم - فى آن واحد ومنهم من اكتسب الجنسية التركية فى سبيل الربح ليس إلا » (٤٩) .

وأمام الخطر الذى غدا يشكله الجزائريون ضد أوربا ! إبان مرحلة التفوق لمجاهدى شمال إفريقيا - راحت الدول الأوروبية تعمل من أجل التقارب لمواجهةالجزائريين فتصاهر أعداء الأمس « ولكى تفهم الخطر الذى كانت تمثله الجزائر يكفى أن نعلم أن السير فرانسيس بيكون أعلن لدى زواج الأمير تشارلزمن أنفنتا الأسبانية عام ١٦٢٣م : إن مثل هذا الأتحادبين كل من إنجلترا وأسبانيا سوف تمكن هاتين الدولتين من التعاون على دحر القراصنة فى شمال أفريقية (٥٠) .

ويعترف المؤرخون الأوروبين بأن أبناءهم هم الذين طوروا عملية أعمال البحر لدى سكان شمال أفريقية « ولقد علم المرتدون الأوروبيون القراصنة وأكسبوهم خبرة جديدة ، فى بناء السفن والأبحار - ، ساعدتهم فى أوائل القرن السابع عشر على أن يتخلوا عن قواربهم الشراعية ذات المجاديف وبنوا نوعا معينا من السفن ذات الأشرعة والصوارى وكانت تلك الخطوة مرحلة عظيمه من التقدم الحربى ، إن النوع الجديد من السفن لم يكن يتطلب عدداً كبيرا من المجدفين فصار فى استطاعة المراكب أن تبقى فى البحر لأسابيع عديدة، بل ولأشهر ، دون حاجة ما لعدد كبير من الرجال (٥١) .

تفوق شامل إفريقيا على أوروبا فى البحر المتوسط:

إبان أواخر القرنين ١٧ ، ١٨م حقق مجاهدو شمال أفريقيا ، سواء فى ظل السيطرة العثمانية المباشرة أو التبعية الأسمية تفوقا على الأوربيين ، حتى أنهم غ[illegible] لجأ [illegible] الأوربين أنفسهم - كما أ[illegible]لفنا - كل حسب معتقده بغيته ، فانتقل عدد كبير من القراصنة الأنجليز على عهد الملك جميس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٤م) إلى شمال أفريقيا ، نظرا لأن جميس الأول حال دون ممارسة هوايتهم ضد السفن الأسبانية القادمة من العالم الجديد بعدأن تعودوا

على احتراف تلك المهنة ، مما أصاب بعضهم بالأفلاس ، فهدد هؤلاء شواطىء إنجلترا وأيرلندا ، وقد يكون برفقتهم بعض من بحارة شمال أفريقية والذين استهوتهم الحرفة والربح فوصلت حملاتهم البحرية إلى الدنمارك وأيسلاندا (٥٢) وتعددت جنسيات القراصنة الأوربيين المهاجرين إلى شمال إفريقية من إنجلترا مثل النقيب «جون» وورد و«السيرفرانسيس فرنى» سليل احدى الأسر النبيلة فى إنجلترا والألمانى الشهير «سيمون دان سيكر» الذين كتب عنهما المؤلفون الأوربيون كتبا ومنها كتاب تحت عنوان «أخبار البحار عن قرصانيين شقيين» ، وورد الأنجليزى ودان سيكر الألمانى(٥٣) وفى سنة ١٦٣١م تمكن أحد البحارة الفلامنكيين العاملين فى الجزائر من مهاجمة عدة مدن على الشواطيء الأنجليزية والأيرلندية ، وأسرمايربو على مائتين من الرجال والنساء والأطفال(٥٤) ومع ان السلب والنهب يجرى بأيد أوربية ، أو تحت أشرافها الأ أن المتضررين راحوا يلصقون التهمة بالعثمانية « يتذمرون ويشكون لدى البرلمان الأنجليزى من ان العثمانيين يحطمون سفنهم ، مئات السفن الأنجليزية تحطمت وسلبت فى تلك الحقبةو منها أيضا ما كان يسلب على مرأى ومسمع من أصحابهما القابعين فى مرافئهم »(٥٥) كما راحوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، فكل ما يقوم به مجاهدوا شمال إفريقية ، يقابل بالأستنكار من الأوربيين على عكس ما يحدث من القراصنة الأوربيين ولو كان أقسى واقزع فمن أجل دق الأسافين بين العرب والعثمانيين راحوا يقولون « لقد حلت الوحشية العثمانية محل الفروسية العربية، وتمكن الخوف من الأسر فى قلوب البحارة المسيحيين ، وقاسوا ذل العبودية فى السفن الشراعية العثمانية أكثر مما يقاسيه الكفار فى نار جهنم » واستمروا فى القول « إن البحارة العثمانيين الذين كانوا يقودون المراكب والسفن التركية هم الذين ضاعفوا من قوة القراصنه لدرجة أصبح معها كل مركب مسيحى فى البحر المتوسط مهددا بالخطر » (٥٦) وفى معرض أحاديثهم عن أسرى كل فريق لدي الأخر يكتبون عن أسرى البحارة الأوربين عند المسلمين بقولهم « كان القرن السادس عشر ... فقد كانت السفن الشراعية المسيحية التى يسيرها أسرى مسلمون تشتبك مع سفن المسلمين الشراعية ، التى كان يجدف عليها أسري نصارى مكبلين ومقيدين الى مجاديفهم ، وتحت لسع سياط عريِّف الملاحين الذى لا يعرف شفقة ، ولا رحمة ، كان العبيد يجدفون

حتى تتوقف قلوبهم عن الحركة ، ولم يكن داع أو حاجة إلى تغيير العبد المنهوك القوى والأتيان بآخر ليحل محله ! الا حين كان يلفظ النفس الأخير وتجر جثته جثة هامدة لا حراك فيها ، عندها فقط كان المسكين يتحلل من قيوده التى تشده إلى مجدافه الأصم (٥٧) .

نلاحظ أنهم عند حديثهم عن أسرى المسلمين يمرون عليها مر الكرام وعند الحديث عن أسرى بحارة الأوربيين لدى المسلمين يبالغون فيما يرونه واقعاً بهم (٥٨) وتتكون الجمعيات الأوربية الأنسانية التى تدعوا إلى الرفق بالأسرى ، ولكن الأسرى الأوربيين مثل «جمعية الماثوريين» ، وهو ما يؤكده أحد أعضاء جمعيه الماثورين «الأب بيار دان» والذى كان قد أرسل إلى إفريقية الشمالية ونشر فى كتاب اسماه: « تاريخ شمال إفريقية وقراصنته عام ١٦٣٧م سجل فيه ملاحظاته ومشاهدته وحسب تقديراته - ومع [illegible] فإن الجزائر تضم وحدها خمسة وعشرين ألف مسيحى فى الأسر مضافا إليهم حوالى ثمانية آلاف أوربى مرتد عن دينه » (٥٩) ففيه ما يبرهن على مدى تفوق مسلمى شمال أفريقيا ، حتى هابتهم الدول البحرية الشهيرة بقوتها العسكريه وانكمشت قراصنتهم وصاحب ذلك تداعى الهيبة الأوربية منذ أواخر القرن االسابع عشر وطوال القرن الثامن عشر ففى عام ١٦٦٢ م تنازلت البرتغال مرغمة عن طنجة لأنجلترا ، كجزء من المهر ، بمناسبة زواج كاترين من تشارلز الثانى غير أنه سرعان ما اكتشف الأنجليز أن تكاليف حماية طنجة من أصحابها المغاربة ، باهظة الثمن فتنازلت عنها بدوررها لأمبراطور مراكش عام ١٦٨٤ م وفيما بين عامى (١٧٦٩ -١٧٩١ م) محت البرتغال آخر أثر من عدوانها على مراكش وتخلت أسبانيا عن أخر خصونها فى وهران ، ولعل وهران وغيرها من الجيوب و المرافىء التى كانت لازالت تحت احتلال الأيبريين الأوربيين كانت وراء إذكاء روح الجهاد لدى سكان شمال أفريقيا ، والذى جعله يصبح فى المرحلة المتأخرة فريضة فى نظر البعض وعملاً مشروعا وعقابا يجب أن يستمر ضد المعتدين الأوربيين ، ووقر هذا فى النفوس تتوارثه الأجيال (٦٠) .

هذا فى الوقت الذى أقبل الأوربيون على حكام شمال أفريقية يخطبون ودهم ويعقدون معهم المعاهدات ويدفعون لهم ما يطلبون نظير حماية وتأمين

مصالحهم ومراكبهم فى البحر المتوسط وجزء من المحيط الأطلسى ، هذا بالأضافة إلى محاولة بعض الدول الأوربية الاعتماد على حكام نيابات شمال إفريقية من دايات وبيات (٦١) لمساندتها فى الحروب ضد بعضها البعض ، وقد أبدى هؤلاء المستجار بهم شجاعة وبسالة ، ونجحوا فى المهمات التى اسندت إليهم فإذا كان فرانسوا الأول قد استعان - كما أسلفنا - بخير الدين بربا روسا فى عام ١٥٣٤م ضد ملك أسبانيا ، ونجح خير الدين فى إنقاذ مدينة نيس الفرنسية فإن الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا (فى منتصف القرن السابع عشر) يصرح ذات مرة بقوله: « إنه لو لم يكن هناك دولة الجزائر لكان أبدع وأوجد واحدة » (٦٢) ويؤكد هذا المعنى «اللورد شيفيلد» فى عام ١٧٨٣ ، فى كتيب صغير هاجم فيه اقتراحات «وليم بت» رئيس الوزراء البريطانى عندما أقترح بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية واعتراف إنجلتر بهذا الاستقلال ببدأ علاقات ودية مع الولايات المتحدة وفتح علاقات تجارية حرة معها ولكن شيفيلد اعترض معولا على أهمية دول شمال أفريقية وملوحا بأنها عامل توازن لمستوى التنافس فى البحار ، وأنه يستحيل على الولايات المتحده أن تتحدى دول شمال أفريقية . وعندما تلوح فرنسا بفرض سلام مسلح فى البحر المتوسط ، علق شيفلد على هذا بقوله: « ذلك السلام المسلح ، خطره بالنسبه للقوى البحرية عظيم جداً ، مثلما يعتبر وجود دول شمال إفريقية عظيما جدا أيضا(٦٣) ومن هنا يتبين أن الدول الأوربية ومنها إنجلتر ، تعول على ما يربطها من معاهدات مع نيابات شمال افريقية ، منذ الثلث الأخير للقرن السابع عشر ، وفى الوقت الذى تعمل فيه إنجلترا على احتكار الملاحة فى البحر المتوسط وما يتصل به من مياه المحيط الأطلسى ، وخاصة ضد الولايات المتحدة الأمريكية وهو مجال تحرك السفن الحربية لشمال أفريقيا ، تضع فى برنامجها ، أفضلية التعويل على محاربى وبحارة شمال إفريقية للقيام بهذه المهمة ، فتعمد الى استمالتهم واسترضائهم ، وتبعد بقدر الأمكان عن عدائهم إلا بعد أن خاضت البحرية للولايات المتحدة الأمريكية حملاتها فى أوائل القرن التاسع عشر ، حيث أدركت إنجلترا أن دورهم قد تقلص فرأت أن من مصلحتها المساهمة فى الإجراءات ، فقلبت لأصدقاء الأمس ظهر المجن وعلى هذا المنوال كانت وما تزال الصداقات المصلحية الأوربية ، فأين طرابلس من هذه الأحداث وكيف

تطورت، علاقات الحرب والسلام بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية ؟ هذا ما سيوضحه ما تبقى من هذه الدراسة إن شاء الله .

طرابلس بين نيابات المغرب العربى العثمانى:

كانت طرابلس إحدى نيابات شمال أفريقية التى استجارت بالدولة العثمانية منذ عام ١٥١٠ م عندما وصل وفد يمثل سكان تاجورا الى إسلامبول والتمس من سليم الأول المساعدة العسكرية فاستجاب السلطان لطلب الوفد بعطف ، فأرسل الى طرابلس أسلحة وفصيل من المتطوعين ، وعين ممثلا عنه فى تاجورا ، مالبث أن اعترفت به قيادة مقاومة السكان المحليين (٦٤) وبذلك تحولت طرابلس الى ولاية تابعه للسلطان العثمانى ، وعندما طلب السلطان الحفصى مولاي حسن الذى اعتلى العرش ١٥٢٦م بحقه فى حكم ليبيا رفض سكان تاجورا الاعتراف بسلطته واستنجدوا بالسلطان العثمانى (٦٥) وقد تزعم نيابه طرابلس خير الدين كرمان القائد العثمانى الذى تمتع بثقة خير الدين برباروسا فناب عنه فى طرابلس ، وأطلقت عليه المصادر الأوربية اسم « ملك تاجورا » (٦٦) وقد تولى خير الدين كرمان الدفاع عن طرابلس ضد القرصنة الأوربية وخاصة فرسان «القديس يوحنا» ، فى رودس أو فى مالطة ، ومن هنا كانت نيابة طرابلس شريكا كاملا لجيرانها من النيابات الأخرى المجاورة (الجزائر - تونس) ، شريكا معهن فى أفراحهن وأتراحهن ، وفى مواجهة العدوان القرصنى الأوربى عندما تزعم خير الدين كرمان حركة النضال ضد الوجود الأسبانى فى طرابلس فى عشرينات القرن السادس عشر ، فحول تاجورا الى قلعة جيدة التحصين معززة بالمدفعية والأبراج الحصينة ، كما جهز مرفأ صغيرا قادرا على استقبال سفن الدفاع البحرى وتلقى الأسلحة والذخائر من خير الدين بربروسا حاكم الجزائر ، إضافة إلى ما كان يريده من الحكومة العثمانية ، وتشكل جيشة من العثمانيين والمغاربة من أهل البلاد ، وبمساعدة هؤلاء قام خير الدين كرمان بمحاصرة الحاميات الأسبانية على سواحل ليبا فبات يقض مضاجعها بهجماته المتلاحقة (٦٧).

أصبح وضع الأسبان بالغ الصعوبة وتركز جل اهتمامهم على الاحتفاظ

بمدينه طرابلس أو بصورة أدق عدم السماح بانتقالها إلى أيدى أصحابها ، لكن الاحتفاظ بها بعد أن باتت فقيره وخاوية ، وعرضة لهجات المجاهدين المتلاحقة، كان مستحيلا من الناحية العملية حيال ذلك المحافظة عليها ، وكانت أسبانيا قد تم استيلاؤها على طرابلس فى مايو ١٥١٠م ، (٦٨) ومنها مارسوا القرصنة البحرية ، فاستولوا على عدةمراكب راسية فى الميناء ، كما استولوا على مركب عثمانى لم يكن يعلم باحتلاله لطرابلس ثم على عدة مراكب أخرى قادمة من الأسكندرية ومن اليونان وكلها لم تكن تعلم بسقوطها فى يدى الأسبان (٦٩)واستقبلت الدول الأوربية والبابوية تلك الأبناء بكل ارتياح وسرور(٧٠).

لقد عان الليبيون كما أشرنا طوال الحكم الأسبانى لطرابلس أشد المعاناة حتى يمكن أن يقال أنها وضعت بذور الجهاد فى نفوس أهالى البلاد ضد كل أوربى وعلى رأسهم أسبانيا ومن جانب آخر عان الأسبانيون من حركة الجهاد الدائبة ضدهم حتى برزت لديهم فكرة تسليمها الى فرسان القديس يوحنا ، وذلك فى مارس ١٥٣٠ م عندما قدمت إليهم كهدية من شارل الخامس ملك أسبانيا شريطة ان يتولوا مهمة الدفاع عنها وعن مالطة ضد البربروسا والعثمانيين (٧١) .

فى شهر ديسمبر ١٥٢٢ م سحقت قوات سليمان القانونى فرسان يوحنا فى جزيرة رودس ،ففقدوا آخر قاعدة لهم فى الشرق ، وهرب من تبقى منهم الى « مسينا » حيث وجدوا أنفسهم دون عمل ، وأصبح مصير الجماعة نفسها موضع تساؤل ، وفى أكتوبر من العام التالى وبإلحاح من البابا فى روما ، وافق شارل الخامس على إعطاء مالطة وطرابلس إلى فرسان يوحنا وفى ٢٤ مارس ١٥٣٠م وبعد ٦ سنوات من المفاوضات الشاقة وقع شارل الخامس صكا يمنح بموجبة فرسان القديس يوحنا حقوق الملكية على مالطة وطرابلس مع كل القصور والقلاع والأراضى التابعة ، ولاثبات ولائهم للأمبراطور تعهد الفرسان أن يرسلو له كل عام صقراً ، فيجددوا بذلك حقه فى السيادة (٧٢) .

وفى الحقيقة فإن الليبين ، لم يتقاعسوا لحظة عن مقاومة فرسان القديس يوحنا وخاصة بعد أن تمكن القائد العثمانى خير الدين بربروسا من طرد الأسبان من تونس ١٥٣٥م وأعقبها فشل حملة شارل الخامس على الجزائر

١٥٤١م واستشهد على طريق الجهاد القائد العثمانى خير الدين كرمان فى بداية- عام ١٥٣٨م ، ثم أعقبه القائد العثمانى مراد أغا (٧٣) وهو أحد التلاميذ النجباء لخير الدين بربا روسا ويعتبر وصول مراد أغا وطرد لفرسان القديس يوحنا فى ١٥٥١م بداية لامتداد الحكم العثمانى من تاجورا إلى طرابلس (ليبيا) ودخولها رسميا في ظل الدولة العثمانية ، وجاء طرد الفرسان من طرابلس فى وقت كان فيه خير الدين بربا روسا قد توفى منذ ٤ يوليو ١٥٤٦ وتولى بعده أميراً للبحر درغوث باشا ، فكان خير خلف لخير سلف حتى لقبه مسلمو شمال أفريقيا بسيف الإسلام فلم ... يترك جيبا للأوربيين فى ساحل شمال أفريقيا - ما عدا القيس - إلا وهاجمه ، وفى أغسطس تمكن الثلاثى العثمانى: سنان باشا القائد العام للقوات العثمانية ودرغوث باشا أمير البحر العثمانى فى البحر المتوسط ومراد أغا قائد وحاكم قلعة تاجورا من إجبار حامية فرسان القديس يوحنا على الرحيل عن طرابلس فى صورة لا تقل رحمة وحضارة ، عما سبق أن عاملهم بها السلطان سليمان القانونى يوم انتصاره عليهم فى جزيرة رودس ١٥٢٢م - وكما قلنا أسندت الدولة العثمانية ولاية طرابلس إلى مراد أغا بالأضافة إلى تاجورا وقد نجح فى تحصينها ، وضم الأقاليم المتفرقة عنها من زوارة ، جربة ، ومصراته إليها وتوغل فى الداخل حتى سفو الجبال ، وضم كثيراً من المناطق التى تناثرت فى ظل حكم الأسبان والفرسان! إلى طرابلس (٧٤) كما تصدى للحملات المضادة التى حاولها فرسان القديس يوحنا لاستعادة طرابلس أو احتلال زوارة منذ عام ١٥٥٢ (٧٥) والتى كانت بإيعاز من أسبانيا ، فتصدى مراد أغا لهم وشتت شملهم وأجبرهم على الفرار لا يلوون على شىء بل إن بعضهم ألقى بنفسه فى الماء فمات كثيرون منهم قبل أن يدركوا سفنهم (٧٦) وفى مارس ١٥٥٣م تولى درغوث باشا نيابة طرابلس ، خلفاً لمراد أغا الذى طعن فى السن ، وفرح بقدومه الأهالى واستقبل بترحاب وكان فى مقدمة المستقبلين له مراد أغا ، وعلى عهد درغوث قوية شوكة مسلمى شمال أفريقيا واتسعت حدود ليبيا لتشمل زيادة على ما سبق نفوذاً على مدينه المهدية بعد أن طرد منها الأسبان كما استولى على قيردان، التى استنجد به أهلها ضد ظلم حاكمها محمد بن الطيب الشاذلى فأسند حكمها إلى «حيدر باشا» كما دخلت صفاقس تحت حكمه فى طرابلس (٧٧).

اتخذ درغوث من طرابلسس قاعدة عثمانية حصينة وأعد فيها مخزناً للبارود وقوة عسكرية يعمل لها ألف حساب حتى أصبحت على عهده إحدى أقوى قواعد الجهاد المقدس فى البحر المتوسط (٧٨) وأصبحت ردفاً للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط وتسهم فى ملاحقة كل قراصنة أوربا من كل شاطىء وجزيرة وتصدت لأخطر حمله لفرسان مالطة فى عام ١٥٦٠م وأخرى فى مارس من نفس العام وكان درغوث أحد القادة الذين أسهموا فى الحملة العثمانية الثالثة على فرسان القديس يوحنا فى مالطة فى عام ١٥٦٥م وهى حملة أعدها السلطان سليمان القانونى لردعهم وكان إلى جانب : «مصطفى باشا بيالى» القائد العام للأسطول العثمانى وحسن باشا الجزائرلى عن الجزائر ، وعلج على من عثمانى الأسكندرية ، ومع أن درغوث كان قد بلغ الثمانين من عمره ولكنه لم يهدأ فبينما يتفقد أحوال الأسطول المحاصر للجزيرة سقط شهيداً أثر أصابة شديدة أودت بحياته فى الحال (٧٩) فخسر العثمانيون والمسلمون بوفاته خسارة كبيرة ، وخلفه فى حكم طرابلس علج على ، ولم يصبر طويلا فتولى بعده جعفر باشا وهو الذى وقعت على عهده موقعة «ليبانتو»ت ١٥٧١م وأسهم فيها بقوة بحرية طرابلسية ـ كما أسلفنا ـ وكاد ميزان القوى البحرية فى البحر المتوسط أن يرجح لكفة أوربا مما جعل الدولة العثمانية ، تسرع فى اعادة بناء أسطولها ، وصاحب هذا انقسام فى الحلف الصليبى الأوربى مما يجعل أسبانيا تعول [illegible] ها فى إتمام الزحف على ساحل شمال أفريقيا ، ظناً منها أن العثمانين وحدمهم فى شمال أفريقيا لم تقم لها بعد «ليبانتو» قائمة ، فشهد عام ١٥٧٣م احتلال أسبانيا لتونس تمهيداً للأستيلاء علي بقية سواحل شمال إفريقيا (٨٠) وعندما خرج الأسطول العثمانى من إسلامبول يقوده «سنان باشا» فى ربيع عام ١٥٧٣ ـ ١٥٧٤م كان حاكم طرابلس «علج» قد أعد حملة قوامها خمسة الآف جندى ، ثلاثة منها من الليبين وألفان من العثمانيين ، وأمرهم بالمسير براً ،أما هو فقد انضم إلى سنان باشا في قيادة الأسطول العثمانى ليعملوا بالتنسيق مع القوات البرية ونجحت هذه الحملة فى طرد الأسبان واستعادة تونس كما كانت هذه آخر المواقع الحربية بين الأسبانيين والعثمانيين ، وتقاسموا شواطىء البحر المتوسط ، فشماله وغربه غداً أوربيا مسيحياً وجنوبه بشرقه إسلاميا عربيا ، تابعاً للدولة العثمانية بنياباته الثلاث الجزائر وتونس وطرابلس التى تولى إدارة دفة الدفاع عن نفسها ضد القرصنة الأوربية منذ

١٥٧٥م.

أما من حيث التبعية فإن طرابلس كما رأينا ظلت تابعة للدولة العثمانية حتى هذا الوقت يتولى عليها حاكم بفرمان من الباب العالى شأن غيرها من نيابات شمال أفريقيا ولكن بمرور الوقت غدت تستقل عن التبعية الكاملة للدولة العثمانية إلى تبعية - روحية اسمية حتى أطلق علـيـــها الكتاب الأوربيون Regences BarbaresqueS أى نيابات بلاد البربر باعتبار أن حاكمها يشبه نائب الملك ، فهو يتمتع بسلطات تامة داخل ولايته ، حتى أن تعيين القناصل الأجانب لم يكن ليتم إلا بموا[illegible]لغ معينة من المال وما زال هذا النظام حتى تأسست أسر[illegible]لاية العريش مثل الحسينين فى تونس والقرمانليين فى [illegible]تامة على نيابة ا لجزائر.

وفى غضون القرن السابع عشر شهدت ليبيا صراعا عنيفا ومريرا تجاه القرصنة الأنجليز ية والأيطالية والفرنسية تقلبت فيها ليبيا من حالات القوة والضعف فتضاعف لهديها عدد الأسرى الأوربيين وتضاعف منها عدد الأسرى الليبيين وتخللتها معاهدات ومهادنات تبدو ليبيا فى بعضها صاحبة اليد العليا وتبدو فى البعض الآخر أنها مكبلة فى الأغلال والأصفاد فشهدت مدة حكم «محمد باشا الساقوزلى» « ١٦٣٢ - ١٦٤٦م » مرحلة من مراحل التفوق فقوى فيها الأسطول الليبى والقوات البرية واستطاعت ليبيا أن تتصدى للمراكب المعتدية الأوربية و نجح اسطولها البحرى فى الأستيلاء على كورسيكا وقطع المواصلات بين البندقية وكريت واصطدم مع فرسان القديس يوحنا فى عام ١٦٣٤م وامتد حدود ليبيا إلى بنغازى، شرقا وعقدت ليبيا عدة معاهدات وعلاقات تجارية مع بعض الدويلات الأيطالية (البندقية - جنوة) ورست سفنهم فى ميناءى طرابلس وزوراة (٨١) وهبت طرابلس فى التضامن مع تونس عندما تعرضت الأخرى للعدوان الأوربى عام ١٦٤٣م (٨٢) ونجحا سويا فى نقل ميدان المعركه إلى الشواطىء والجزر الأوربية فى البحر المتوسط (٨٣) .

بدأت ليبيا منذ أواخر عهد محمد الساقوزلى فى استقبال قـناصـل الـــدول الأوربية وعندما مات مسموما اثر مؤامرة دبرت له تولى بعده خليفته محمد عثمان باشا الساقوزلى ١٦٤٩ - ١٦٧٢م فسار على نهج سلفه فى

الأهتمام بأسطول واستقبال القناصل والدفاع والجهاد وتمكن من التصدى لأسطول هولندى أغار على ليبيا ١٦٦٢م ، وعقد مع هولندا أول معاهدة صداقة فى نفس العام أصبح لهولندا بمقتضاها قنصلا فى ليبيا (٨٤) ،تكرر نفس الموقف مع فرنسا عام ١٦٦٩م ، ولقى حتفه بعد أنَ شرب السم ١٦٧٢م . فلم تتوقف بعده الأضطرابات فى ليبيا من عام ١٦٧٢م حتى عام ١٧١١م اذ بلغ عدد الولاة فى هذه المرحلة ٢٤ واليا ، كان بطبيعة الحال أن تصبح البلاد عرضة للنهب والعدوان الأوربى مما جعل نيابات شمال أفريقيا تعمل متضامنه لمواجهة هذا العدوان ، كما أن الدولة العثمانية بدورها تدخلت لردع حملة فرنسية بحرية كادت أن تدمر الأسطول الليبى بأكمله فى البحر المتوسط عام ١٦٨١م ، وفى ٢٧ نوفمبر من نفس العام وقع معاهدة صلح بين ليبيا وفرنسا كان أغلب شروطها فى مصلحة فرنسا ومع (٨٥) ذلك فإن فرنسا عادت لتعتدى على طرابلس مرة أخرى بعد سنوات أربع وأجبرتها على توقيع معاهدة أخرى فى ٢٩ يونيو ١٦٨٥م واعترف دراى طرابلس الحاج عبد الله الأزمرلى بها كتابيا فى رسالة بعث بها إلى ملك فرنسا ١٧ يوليو ١٦٨٥م (٨٦)..

ومن المعتقد أن مرور ذلك يرجع إلى عدم الاستقرار فى طرابلس من جهة وانشغال الدولة العثمانية بحروبها فى الجهة الأوربية ضد النمسا من ناحية أخرى ، ورغبة جامحة لدى فرنسا فى السيطرة على البحر المتوسط آنذاك من جهة ثالثة وبعد توقيع المعاهدة الأخيرة التزم الجانبان الهدوء حتى نهاية حكم الداى عبد الله الأزمرلى عام ١٦٨٧م وطوال مدة حكم الداى ابراهيم الترزى ١٦٨٧م وهز يعاً من ولاية الداى محمد كرادلى « ١٦٨٨م - ١٦٩٣م »لتعود العلاقات الى التردى مرة أخرى بين طرابلس وفرنسا فى عام ١٦٩١م بسبب حماقات بعض المسئولين الفرنسيين فى طرابلس لتنقطع العلاقات فى ٣١ يناير ١٦٩٢م ويلقى الداى القبض على القنصل الفرنسى ويودعه السجن وعادت كفة السفن الليبية للرجحان من جديد لتمارس ما كانت تقوم به من قبل ضد السفن الفرنسية وفشلت حملة فرنسية مضادة على طرابلس لتهديد داى طرابلس، وكادت أن تحدث أزمة وتتفاقم لولا تدخل الدولة العثمانية لأطلاق سراح القنصل الفرنسى السجين فى مارس ١٦٩٣م لتعود العلاقات بين البلدين وبعد وساطة قنصل فرنسا فى الجزائر الذى وفد إلى طرابلس وتقابل مع الداى

محمد الأمام كرادلى وتعاتبا واعتذر كل منهما عما صدر من ناحيته وأبعدت فرنسا قنصلها فى طرابلس استرضاءً لليبيين وعقدت معاهدة صلح بين البلدين فى ٢٧ يوليوا ١٦٩٣م . ويبدوا أن فرنسا كانت فى تطلع إلى ما حققه قنصلها فى الجزائر « دنيس دوزو » حيث خلع عليه ملك فرنسا لقب مندوب الملك مكافأة له وأسند اليه بشكل مؤقت مهام قنصل فرنسا فى ليبيا (٨٧).

ومع أن أهتمام إنجلترا بالبحر المتوسط وصل متأخراً - منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر - فإن العلاقات الليبية الأنجليزية سارت فى نفس الأتجاه الفرنسى تقريبا من حرب وسلم وتدخلات من الدول العثمانية ومعاهدات كان أبرزها معاهدة ٢٥ مارس ١٦٧٦على عهد الداى عثمان الساقوزلى (٨٨) ، وكان جل شروطها فى صالح إنجلترا وتم تجديدها على عهد الداى مصطفى قوبدان فى ١٦٩٩م .

أما أسبانيا فقد عقدت أول معاهداتها مع ليبيا ١٦٨٨م مع تمثيل أول قنصل عام لها فى طرابلس ويبدوا انها كانت مجحفة مما ترتب عليها عزل الداى، وعندما ألغاها خلفه هاجمت السفن الأسبانية موانى ليبيا ولكن الأسطول الليبى تصدى لها وردها على أعقابها لتعود أسبانيا بأسطول أكبر أرغمت به داى طرابلس على إعادة العمل بموجب المعاهدة التى سبق أن الغاها(٨٩) .

وتعود وتقول أن مرد الضعف الليبى الذى شهدته تلك الحقبة هو الفرقة والتنازع على الحكم وهو أفة كل عصر وجيل وزمان !

ويعتبر القرن القرن الثامن عشر وخاصة منذ اسيتلاء القرمانليين على السلطة فى طرابلس منذ عام ١٧١١م مرحلة عودة الروح إلى ليبيا بكل صورها: العسكرية والأقتصادية والتفوق فى عالم الجهاد البحرى والتى عرفها الأوربيون بالقرصنة .

ويرجع السبب فى النهضة الليبية إلى أن القرمانليين جاءوا بعد عقد من الزمان (١٧٠٢ م- ١٧١١م) شهدت فيه البلاد كثيراً من الأضطربات و الفتن الداخلية ، سيطر خلالها جند الأنكشارية على زمام الأمور وتطاحن فيه الحكام مع العصبيات المحلية رغبة فى الوصول إلى السلطة ، ويكفى خير مؤشرا على

ذلك أن تولى خلال هذا العقد تسعة من الولاةشغلتهم جميعهم المصلحة الشخصية ، دون العمل لما تعانية البلاد .

وفى ٢٧ يوليو ١٧١١م نحج مؤسس الأسرة القرمانليه أحمد القره ما نلى فى الأنفراد بالحكم وكانت تلك أول أسرة تتوارث الحكم فى أبنائها حتى عام ١٨٣٥م فى ظل التبعية العثمانية الأسمية (٩٠).

وعلى الرغم من صغر سن أحمد القرمانلى حيث كان فى الخامسة والعشرين من عمره إلا أن ارادته القوية مكنته أن يثبت دعائم حكمه ، فتخلص من العديد من أعدائه وأخطرهم خليل باشا « الذى كان الباب العالى قد عينه بفرمان فتصدى له أحمد القرمانى وانتهى الصراع بينهما بقتل خليل باشا فى أغسطس من العام نفسه (٩١) ليصبح أحمد القرمانلى دون منافس .

أدرك أحمد القرمانلى أهمية اخد الشرعية على حكمه فعمل جاهدا على ارضاء الباب العالى ، مستخدما كافة الوسائل ، فأعلن تنصله من مقتل خليل باشا ، وما زال حتى نجح فى إرضاء السلطان فأقر فى نفس العام بولايته (٩٢) فى حالة مشابهة لما حدث عند تولية محمد على فى مصر بعد قرن من الزمان - كما نجح فى أن يستصدر فرمانا يجعل الحكم فى أسرته ورابنا ، وتخلص من خصومه السياسين بنفس الأسلوب الذى تخلص به محمد على من المماليك فى مذبحه القلعة ١٨١١ م ، فشهدت البلاد على عهده رخاء لم تشهده منذ زمن بعيد ، وأحبته خطبت وده الدول الأوربية وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية (٩٣)، ىولا جفاف وتصحر مفاجىء أصاب البلاد والعباد فعم الجوع والقحط حتى هاجر البلاد الأوربيون ومات الكثيرون من الرعية بعد هلاك زرعهم وضرعهم وكان أحد القرمانلى قد أصيب بالعمى فاسند لأبنه محمد الحكم ومات احمد القرمانلى إثر إطلاق الرصاص على نفسه فى٤نوفمبر١٧٤٥م . جاء محمد (١٧٤٥م - ١٧٥٤م) ليخلف والده فى صفاته فأجمع على حبه الأهلون والعثمانيون وقضى على معارضة أعدائه واحترمه الأوربيون واهتم باتمام بناء الأسطول الليبى ، ففاق أكثر مما كان عليه على عهد والده فخطبت الدول الأوربية وده وعقدت معه مزيدا من الأنفاقات لتأمين سفنهم ومصالحهم فى البحر المتوسط وبوفاته فى عام ١٧٥٤م استخلف ابنه عليا حاكما على البلاد (١٧٥٤م - ١٧٩٣م) فسار على منهج جده ووالده

فى الحكم والسياسة واهتم بالشئون الداخلية وخاصة الأسطول ، ولكن فى المدة ما بين (١٧٧٤م - ١٧٨٥م) عادت المجاعة تجتاح البلاد وفتك الطاعون بالكثيرين ، فعجز عن تسديد رواتب الجند ، ففقد سيطرته على البلاد وفر الجند من الخدمة ومما زاد الطين بلة اشتداد الصراع بين أبنائه (آحمد -حسن يوسف) على الحكم حتى ضاف الأهالى بالأوضاع الداخلية ذرعا فاستنجدوا بالسلطان العثمانى طالبين تنصيب حاكم عليهم من قبله وعندما أحس أصغر أبنائه « يوسف القرمانلى » بما تراسل عليه الأهالى مع السلطان خشى ان يستجيب السلطان وأن يولى عليهم من الآستانة ، هجم ذات يوم على أخيه الأكبر «حسن » ومنافسه بينما هو جالس مع والدته فقتله وقطع يد والدته عندما ارادت الذود عنه(٦٥) وأخذ يتصل بزعماء القبائل ويتودد اليهم ويستعين بهم وأعلن عزل والده عن الحكم وإبان تحرك بعض القبائل لنهرته ١٧٩٣م كان على الجانب الأخر أسطول عثمانى يحمل واليا من الآستانة هو « على برغل » (٩٦) يحمل فرمانا من السلطان بتوليته طرابلس ، فهرب عل القرمانلى وابناه أحمد ويوسف ودخل «على برغل » طرابلس ، وأراد الاستيلاء على جربة وانتزاعها من باي تونس القوى « حموده باشا » ، فد فع تصرفه هذا إتحاد باى تونس والقرمانلية ضده ونجح هذا التحالف فى هزيمة على برغل فى العام التالى وطرده من جربة وعاد القرمانليون إلى طرابلس فى ٢٩ يناير ١٧٩٥ ، وعين أحمد القرمانلى واليا رسميا من قبل والده على طرابلس ، إلا أن أخاه يوسف، عاد للثورة عليه كما ثار على أخيه من قبل واستطاع أن ينتزع منه الحكم وأن يلجأه للفرار إلى مصراته ، ومنها غادر ليبيا نهائيا إلى مالطة على أمل العودة متى واتته الظروف وكانت إحداها اتفاقه مع القنصل الأمريكى فى تونس.(W.EATON)فى عام ١٨٠٥م كما سيأتى تفصيله فى حينه (٩٧) .

تولى يوسف القرمانلى الحكم والغزو بالسلطة وهو فى سن الأربعين وكان نظيف المظهر يعلوه الوقار والحشمة يتحدث الأيطالية بطلاقة فأحبه الشعب الليبى (٩٨) وشهد وانفرد منذ بداية حكمة مع الولايات المتحدة الأمريكية الحملات البحرية على طرابلس حكم يوسف القرمانلى حوالى سبعة وعشرين عاما (١٧٩٥م - ١٨٣٣م) ففى خلال العقدين الأولين ، نجح على غير المتوقع فى أن ينهض بالبلاد وأن يعيد لها وحدتها ، وسمعتها بين الدول المجاورة والأوربية ، فاهتم بالزراعة والصناعة والتعليم وبلغ الأسطول على عهده ما لا

يبلغه على عهد أحد من أسلافه ، اذ قارن أساطيل الجزائر وتونس ، حتى اعتبر انه المؤسس الحقيقى لحكم القرمانلى ، - لو أن الرياح أتت بما تشتهى السفن ! ! ، فزادت موارد البلاد ، من شتى النواحى ومنها ما كان يتم تحصيله من السفن الأوربية فى البحر المتوسط نظير حراستها،وهوما اعتبره الأوربيون - عند الاستغناء - «قرصنه» ،ولكن فى أواخر مدة حكمه تبدلت الحال غير الحال ، فتدخلت الدول الأوربية فى شئونه ، وامتنع بعضها عن دفع ماسبق أن التزمت به ، بل هاجمت أساطيلهم طرابلس ، ناهيك عن استخدام سلاح الدسائس من ذويه ضده ، وكان على رأس هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية ، فقلت إيرادات الدولة ، واضطر إلى الأستدانة من الخارج ومن رعايا الدول الأوربية فى طرابلس وخاصة من إنجلترا وفرنسا ، فكان بطبيعة الحال أن انعكس هذا على الوضع الداخلى ، حيث أثقل كاهل الأهالى بالضرائب فأصبحوا غير قادرين على مزاولة نشاطاتهم فى البحر فاندلعت الانتفاضات ضده ولم يفلح تنازله عن الحكم لأبنه «على» فى أغسطس ١٨٣٢م، اذ جاء هذا والأمور مدبرة ، فلم يستمر أكثر من عامين إلا القليل شهدت البلاد فيها سوءا يسبقه سوءا ، فازدادت المشاغبات والحروب الأهلية ، وعلى الجانب الآخر هناك إنجلترا وفرنسا ترقبان الموقف عن كثب وتمنى كل منهما النفس الأستيلاء على ليبيا ، فلم يكن أمام الأهالى ، سوى الطريق التقليدى عندما تلم بهم النوائب ، أن عاودوا الاستنجاد بالسلطان العثمانى ، أملا فى أن ينقذهم مما هم فيه ، فأجابهم بأسطول عثمانى على متنه وال ليعيد الحكم العثمانى المباشر إلى البلاد منذ عام ١٨٣٥م ، وليتأجل احتلالها من أوربا حتى بداية العقد الثانى من القرن العشرين ولكن من ايطاليا وليس من إنجلترا وفرنسا (٩٩) .

طرابلس بين الجهاد البحرى والقرصنة:

قلنا أن العمل البحرى الذى نشط فيه وجاقات الغرب الأفريقى ومنها طرابلس « ليبيا» بدأ جهادا ضد المعتدين ليتطور إبان القرنين السابع عشر ، والثامن عشر إلى عمل بحرى امتداد للجهاد من ناحية وكمصدر رئيسى للرزق من ناحية أخرى مقابل ما يقومون به من حماية للسفن ،والمتاجر الأوربية فى

البحر المتوسط يزكيهم فى ذلك الدول الأوربية لما يقع بينها من حروب وتكالب فيما بينها آنذاك ، وقد تطور هذا العمل البحرى إلى أن أصبحت ممارسته ضرورية ، ولاغنى عنها سواء للحاكم أو للرعايا ، وقد غدا حرفة ومهنة ، انخرط فى سلكها الكثيرون حتى من الأوربيين أنفسهم (١٠٠)·

لقد غدا انضمام سفينة بعد بنائها إلى اخوتها فى البحر يمثل فرحا ومهرجانا ، يتم فى حفل مهيب يحضره كبار القوم ، وقناصل الدول الأوربية فى طرابلس ، وفق مراسيم خاصة ، وتعلق عليها التمائم عند إنزالها وتشغيلها وتستقبلها السفن الأخرى بإطلاق المدافع لتحيتها كما ترفع جميع السفن الراسية فى الميناء الأعلام (١٠١) · وتستقبل بنفس المهرجان عند عودتها ، وقبل أن تفرغ حمولتها ، يسرع قبطانها بالتوجه إلى السراى تحية للباشا ، ويقدم تقريرا عن رحلته (١٠٢) وما تم تحصيله والحصول عليه وتحصل الحكومة نصيبها بما قيمته الثمن من جملة ما تحمله قبل توزيع الأنصبة ، ولاتفرغ شيئا من حمولتهاقبل إجراء مندوب الحكومة حصرا لكل ما تحمل ، أما ما تحمله من غنائم السلاح والذخيرة فهو من نصيب الحكومة ولايترك لصاحبها إلا القدر اليسير الذى يساعدها فى الدفاع عن نفسها عند العودة إلى البحر ، وبقدر ما يقوم به أصحاب هذه السفن من نشاط بقدر ما يزداد دخل الحكومة والأفراد ، والذين اتخذوا من البحر ميدانا رئيسيا لجمع أرزاقهم (١٠٣) أما السفن المستولى عليها فإنها تضم إلى الأسطول الليبى بعد رفع العلم عليها ، وأحيانا يتصرف الباشا فى بيع بعضها لليبيين أو غيرهم ، كما يتم التصرف كذلك فى بعض البضائع من الغنائم حيث يتم بيعها فى الأسواق العامة أو يصدر جزء منها إلى البلاد الأفريقية المجاورة ·

أما الأسرى ، فإذا لم تفدهم بلادهم ، وخاصة إذا كانوا مرتزقة يعملون لدى الدول التى أسرت مراكبهم فإنهم يعرضون للبيع (١٠٤) ·

لقد وصل الأسطول الليبى فى ظل الأسر القرمانلية وفى أسوأ حالاته – كما أسلفنا – مرحلة خضعت له فيها الدول الأجنبية وخطبت ود حكامه ودفعت الأتاوات والهدايا فى المناسبات الرسمية ، كاستبدال قنصل بغيره أو تعيين قنصل جديد أو عند عقد معاهدة من المعاهدات أو تجديدها ، وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، والعشرينات من القرن التاسع عشر ، وعند دخول

الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط ، كانت الدول الأوربية ، وخاصة إنجلترا ، تشجع هذا النشاط ، لحاجة فى نفسها ، وإن كانت هى وفرنسا كثيرا ما كشرت عن أنيابهما لطرابلس ، عندما تزول حاجتهما إلى حكام طرابلس أو يشعران بضعف فى الحاكم ، ومع ذلك فإن حكام طَرابلس من القرنامللين لم يرضخوا باستمرار للإرهاب الأنجليزى الفرنسى كما حدث فى سنوات ١٧١٤م، ١٧١٥ م فى بداية حكم أحمد القرمانلى عندما ساءت العلاقات بينه وبين فرنسا فأنزل العلم الفرنسى من على القنصلية واستمر الحال من التوتر حتى سويت الخلافات ١٧٢٠ م وجددت معاهدة ١٦٩٣م بشروط جديدة أضيفت إليها لصالح طرابلس ، وهو ان يتعهد ملك فرنسا بمسئوليته مسئولية مباشرة لما يقع للتجار الليبين فى البحر المتوسط ، فى مقابل أن يتعهد والى طرابلس بأمن الرهبان وبقية رجال الأرساليات فى طرابلس ومعاملتهم من الآن فصاعدا كرعايا ملك فرنسا وأن يتعهد الباشا بنفس ما يتعهد به ملف فرنسا للتجار الليبيين (١٠٥) .

ومع هذه المعاهدات فإن عملية الاعتداء على السفن من كلا الجانبين لم تنقطع على عهد أحمد القرمانلى الذى لم يكن يعبأ كثيرا بتهديدات الفرنسيين مما كان يضطر الفرنسيين إلى مهاجمة طرابلس بالمدافع والقنابل مثلما وقع فى عام ١٧٢٨م عندما ألقى الأسطول الفرنسى على طرابلس حوالى ١٨٠٠ قنبلة دمرت أكثر من [illegible] المدينة وقتل كثير من الأبرياء ، فكان الرد الليبى عليها أن حاصر الأسطول [illegible] السفن الفرنسية ، فلم يعد بإمكانهم أن تتخطى مالطة جنوبا ، ولم يكن بإمكانها أن تسير الإجماعات والجدير بالذكر أن السفن الجزائرية والتونسية اسهمت مع طرابلس فى هذه الحملات الانتقامية ضد فرنسا حيث خرجت تحمل العلم الليبى ، وكثرت البلاغات الفرنسية عن وقوع كوارث بسفنها البحرية (١٠٦) ، وشهد عام ١٧٢٩م من بدايته تهديدات فرنسية خطيرة ضد طرابلس ، واتصالات مع الباب العالى واقتراحات من رجال الحكم والسياسة الفرنسية ، تدعوا كلها لوضع حد لما يجري من البحرية الليبية ، هذا بينما المفاوضات تجرى مع أحمد باشا القرمانلى حتى عقدت معاهدة للصلح والسلام بين البلدين فى ٩ يوليو ١٧٢٩م ، ليعود السلام البحرى بين الدولتين، وتبادل رئيسا البلدين الهدايا وتزاور مندوبهما ، واستمرت تلك سمة العلاقات

حتى وفاة أحمد باشا القرمانلى ١٧٤٥م ودامت كذلك على عهد خليفته محمد القرمانلى (١٧٤٥م - ١٧٥٤م) الذى كان يسرع إذا ما حدث عدوان ليبى على السفن الفرنسية لتهدئة الموقف وإرجاع ما حصل عليه البحارة الليبيون من السفن الفرنسية (١٠٧) أما بريطانيا ، فنظراً لنزولها البحر المتوسط متأخرة بعض الشيء عن فرنسا فإن أحمد باشا القرمانلى استهل علاقاته معها بعقد معاهدة صداقة فى ١٠ إبريل ١٧٣٠م ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات ، طوال ما تبقى من حياته فى الحكم (١٠٨) واستطاعت فى ١٩ سبتمبر ١٧٥١م أن تجدد نفس المعاهدة مع ابنه محمد ، ومن يومها لم يحدث احتكاك بحرى بين السفن الليبية والبريطانية حتى عهد يوسف باشا القرمانلى (١٧٩٥ـ ١٨٣٢م) مروراً بعهد والده على القرمانلى (١٧٥٤ـ ١٧٩٣م).

أما الظروف التى ساعدت ودعمت النشاط الليبى فى البحر المتوسط فهى اندلاع الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، أبان حرب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٨م ، إذ عمدت الدولتان فى التقارب من البحارة الليبيين ، فى محاولة كل منهما الاستعانة بهم ضد الأخرى فى البحر المتوسط وهو الأمر الذى فتح مجالاً جديداً . أمام التحركات البحرية الليبية فى البحر المتوسط (١٠٩) أما فرنسا فدخلت فى مفاوضات مع باشا طرابلس على باشا القرمانلى تمخضت عن اتفاق جرى بين الباشا والقنصل الفرنسى فى طرابلس D'ANDRE تم توقيعه فى ٢٠ مايو ١٧٨١م ، أضيف بمقتضاه شروطاً جديدة لآخر اتفاقية كانت قد وقعت بين طرابلس وفرنسا ، وأهمها تعهد طرابلس بعدم اعتداء سفنها البحرية فى البحر المتوسط علي السفن الفرنسية أو فى ميناء طرابلس ، أو التواطؤ مع سفن أخرى - إنجليزية - تعمل ضد السفن الفرنسية فى طرابلس ، مع جعل قنصل فرنسا فى طرابلس من القناصل الأكثر امتيازاً (١١٠) ، هذا فى الوقت الذى كان فيه الباشا يعانى من الاضطرابات الداخلية نتيجة تنازع الورثة على العرش - قبل الأوان - والأزمة الأقتصادية تمسك بتلابيبه حتى أنه اضطر إلى صهر أوانيه الفضية وسكها نقوداً (١١١) وبدلاً من أن يستفيد الباشا من الحرب البريطانية الفرنسية راحت فرنسا تستغل ظروف طرابلس لتضغط على الباشا بشتى الوسائل ، ولما كان بطبيعة الحال ، والباشا فيما هو فيه ، أن تعمل بعض السفن البحرية الليبية الخاصة فى ممارسة هوايتها لتحصيل أرزاقها من البحر ضد

السفن الأوربية ومنها فرنسا ، فاستغلت فرنسا هذه الأحداث ، فمارست على الباشا ضغطاً للتنازل عن حق احتكار بودرة الصودا مقابل ما كان لرعايا فرنسا عليه من ديون ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الباشا اضطر إلى رهن جواهره لدى القنصلية الفرنسية مقابل سلفة حصل عليها منها ، لسداد ما عليه من ثمن سلع كان قد ابتاعها من تجار أجانب (١١٢) ، فماذا ينتظر من الليبيين؟ وقد أطبق عليهم الفرنسيون حتى احتكروا عليهم مواردهم الطبيعية؟ حتى الروسيا راحت أبان هذه السنوات العجاف تساوم الدولة العثمانية للحصول على امتيازات اقتصادية ومواقع استراتيجية فى ليبيا! كاستخراج الملح من ملاحات بوكناش وإقامة حصن لها بها ، وشراء مدينة بمبا شرق درنة ومع أن الدولة العثمانية عارضت المقترحات الروسية وعارضها الديوان أيضاً ، إلا أن الباشا أبدى استعداده لإقامة علاقات تجارية مع الروسيا ، تلك الرغبة التى لم تترجم إلى واقع نظراً لمعارضة الدولة العثمانية ومعارضة الديوان فى ليبيا هذا بالأضافة إلى انتشارالأوبئة فى ليبيا والتى راح ضحيتها «٢٧ ألف نفس»، ووصل الباشا إلى حاله العوز والفقر واعتلت صحته ، وزاد من همومه تنازع أبنائه على الحكم فى حياته وقد أصيب بمرض الشلل ، وترددت الأشاعات بتنازله عن العرش لأكبر أبنائه حسن مما أودى بحياته كما أسلفنا على يد أخيه يوسف الذى لم يتخل عن تطلعه للحكم حتى وصل اليه.

ومن المعتقد لو أن الدول الأوربية تعاملت إبان أزمات القرمانليين بأخلاق لما اضطرتهم وبحارتهم إلى الاعتماد على الأعمال البحرية بشتى أشكالها.

كان على يوسف باشا القرمانلى وقد تسلم زمام السلطة فى ليبيا ، أن يعمل فى عجل على علاج ما أفسدته الأحداث السابقة ـ كما أسلفنا ـ ، فكان أول الأصلاح هو الجانب الاقتصادى وإعادة بناء الأسطول الليبى لأنه عماد الليبيين ، وإنذار للدول الأوربية بالأسراع بتسديد ما كانت قد التزمت به للحكام السابقين ، تلك الدول التى كان قد توقفت عن الدفع منتهزة فرصة تداعى الأوضاع الداخلية فى ليبيا ، فلم يكن أمامها إلا أن سارعت بتسديد ما عليها من التزامات مالية مما مكنه من إعادة السيطرة على البلاد ، وبناء الأسطول الذى جعل على قيادته بحاراً إنجليزياً يدعى بيترليلس"Beter Lyl" اعتنق الأسلام وتسمى «مراد ريس» وزوجه احدى قريباته ورصد له كل

الأموال اللازمة لتقوية الأسطول الليبى فزادت حصيلة الغنائم البحرية وسيطر الأسطول الليبى على العمليات البحرية (١١٣) يشجعه على ذلك تلك الفوضى التي كان يموج بها البحر المتوسط آنذاك.

أعاد يوسف باشا إلى ليبيا سابق هيبتها التى فقدتها حتى توليه السلطة مما برهن على أنه رجل حكم من الطراز الأول (١١٤) ومع أن كل الدول الأوربية وفت بكل ما التزمت به ، إلا فرنسا فقد راحت تماطل وتسوف ، ونجح يوسف باشا فى تجنب الصدام العسكرى المدمر معها وعالج الموقف بحنكة وخبرة حيث كانت فرنسا بدورها فى حاجة ماسة لمسالمة ليبيا ، فهى فى حالة حرب مع بـريطانيا التي كانت قد استولت على جزيرة كوستاريكا فـى غرب البـحر المتوسط ،وهو الأمر الذى زاد من أهمية طرابلس فى نظر فرنسا حيث عولت على إمكانية اتخاذ مينائها ملجأ لسفنها ، وأرضها مصدراً لتموينها بالحبوب والمواد الغذائية متى أقتضت الحاجة لذلك (١١٥) ولعل هذا ما أتاح الفرصة للسفن الليبية لأن تتجول أكثر فى البحر المتوسط دون اعتراض من الأسطول الفرنسى ، الذى زودته حكومته بتعليمات بذلك (١١٦) ، وراحت فرنسا كذلك تسارع إلى حل المشاكل التى تظهر مع ليبيا بالوسائل الدبلوماسية ، ففى أكتوبر ١٧٩٥م أرسلت فرنسا اللوتس Alltots Herculaies لتسوية الخلافات مع ليبيا واستقبله الباشا على جواده الخاص (١١٧) ومما يبرهن على قمة ما وصلت إليه علاقات التفاهم بين فرنسا وطرابلس آنذاك أنه عندما أخذ القنصل الفرنسى «جيس» فى وضع العراقيل أمام السفن الليبية ، بعدم إعطائها تأشيرات دخول الموانى الفرنسية ، وفاتح يوسف باشا وزير الخارجية الفرنسى فى هذا الشأن بل وطالب بتغيير هذا القنصل حتى لا تؤدى تصرفاته إلى توتر العلاقات بين البلدين استجابت الخارجية الفرنسية لمطلبه (١١٨)، خاصة وأن ـ نابليون كان قد اعتزم إرسال حمله إلى مصر لقطع الطريق على إنجلترا إلى الهند ، وكان هذا يستدعى أن يبدأ نابليون باحتلال جزيرة مالطة ليتخذ منها قاعدة إلى مصر،ولا بد أن يكون هناك تأمين لمالطة على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط وهذا يمكن أن يتحقق فى طرابلس دون غيرها ـ ولذلك ما أن بدأ نابليون فى تنفيذ مشروعه فى أغسطس ١٧٩٨م بادر بارسال رسالة إلى يوسف القرمانلى يبلغه فيها

باحتلاله لمالطة ، واستيلائه على معاقل فرسان القديس يوحنا ويوصيه خيرا بأسرى مالطة ، ويهدده باحتلال طرابلس إن هو قصر فى احترام الجمهورية الفرنسية.

ومن المعتقد أن نابليون كان يخشى أن تسبقه إنجلترا إلى التحالف مع يوسف باشا والقيام بعمل مشترك ضده ، فمع أن رسالته جاءت مفعمة بالتهديد ، إلا أنه فى نفس الوقت ضمنها أساليب الترغيب واستعداده فى المحافظة على العلاقات الودية والسلام بين البلدين ، ولكى يبرهن على هذا عملياً بادر بإرسال الأسرى المحتجزين فى مالطة على متن السفينة التى حملت الرسالة إلى قنصله فى طرابلس ، مما لقى ترحيبا من يوسف باشا والرأى العام فى ليبيا ، فجاء جواب الباشا عليه: يتضمن التعهد بمعاملة كل الأسرى المالطيين من ذلك الوقت فصاعداً بنفس الاحترام الذى يلقاه الفرنسيين (١١٩) . وحافظ يوسف باشا على عهوده ووعوده التى قطعها لفرنسا ، وتحمل فى سبيلها كل أنواع الضغط والتهديد العثمانى والبريطانى ، وقابل كل هذا بالتسويف تارة ، وبالتمويه والمخادعة تارة أخرى (١٢٠) وحتى إذا اضطر إلى اظهار تغيير سياسته أمام مزيد من الضغط العثمانى والبريطانى ، راح من جانب آخر يعتذر للفرنسيين (١٢١) ويؤكد لهم استمرار محافظته على صداقته لهم ، وكان الفرنسيون يقدرون موقفه ومدى ما يتعرض له من ضغوط عثمانية بريطانية ومن ضغط الرأى العام الليبى ، الذى كان يرى ضرورة إعلانه الحرب على فرنسا التى تحتل مصر (١٢٢) .

والواقع فإن يوسف القرمانلى تحمل فى سبيل المحافظة على علاقته الودية مع فرنسا الكثير من الضغوط والتهديدات العثمانية والأنجليزية المباشرة حيث وصلت بعض قطع الأسطول الأنجليزى إلى ميناء طرابلس ، ومع هذا كله استمر فى المحافظة على سياسة المحالفة مع فرنسا ، ضاربا بذلك عرض الحائط بسياسة كل من الجزائر وتونس اللتين أعلنتا الحرب على فرنسا تضامناً مع الدولة العثمانية . (١٢٣)

لقد كان من أعصب الأوقات على يوسف باشا عامى(١٧٩٩ , ١٨٠٠م) لذا أصبح يوسف باشا - فوق الضغط العثمانى البريطانى - يتعرض للضغط الداخلى من أهالى البلاد ومن الديوان ، حتى قبل أن يدفع للأسطول

الأنجليزى دية قدرها أحد عشر ألف قرش لسفينة ليبية كان الأسطول قد أسرها فى ميناء طرابلس ، وتعويضا عن خسائر لسفينتين بريطانيتين كانت السفن الليبية قد أسرتهما فى البحر المتوسط (١٢٤) ومع ذلك فقد استمر طوال عام ١٨٠٠م يقدم للفرنسيين خدماته ، ويسهل عملية نقل البريد إلى قائد الحملة « مينو » فى مصر بعد رحيل نابليون ومقتل كليبر ، وكانت أوامره صريحة إلى البحرية الليبية بعدم الاعتداء على السفن الفرنسية التى هاجمت الجزائر وتونس ، وغض الطرف عن الأضرار التى لحقت به نتيجة ذلك عندما أصيب لطرابلس سفينتان احترقت احداهما ، واضطرت الأخرى للجوء الى مالطة (١٢٥).

واستمرت تلك هى السمة الغالبة على علاقته مع فرنسا حتى بعد عودة نابليون إلى فرنسا رئيسا لها متجاهلا بذلك الضغط العثمانى والبريطانى والرآى العام الليبى الذى تصدى للفر[illegible] إنزال قواتهم على السواحل الليبية ، وكان بعضهم قد رحل إلى دلتا مصر لمشاركة أهالى البحيرة فى التصدى للحملة الفرنسية (١٢٦) ، وهذا فى الوقت الذى كان فيه نابليون فى أمس الحاجة للتعرف على أخبار حملته التى خلّفها فى مصر وتوصيل الأمدادات إليها ، ولم يعد أمامه من منفذ أكثر أمنا من ليبيا حيث يدرك أن يوسف باشا ليس لديه مانع ، وحرصا من نابليون على أن يستمر يوسف باشا فى تقديم خدماته لفرنسا ، دون أن يلفت إليه أنظار خصومه أو يعرضه للضغط العثمانى البريطانى أكثر ، فعمد الى الاتصال به عن طريق غير مباشر ، فأرسل إليه رجلا مالطى الأصل يدعى سافريو ناودى SAVWRO NAUDi فالتقى به فى مايو ١٨٠١م وعرض عليه الغرض من مهمته ، فلم يجد منه معارضة ، بل ان يوسف باشا أبدى اعتذاره عما صدر منه ضد فرنسا آنفا وأبدى استعداده لعقد صلح دائم مع فرنسا والموافقة على أى إجراء تراه فرنسا كفيلاً بتأمين طريق المواصلات البرية إلى الجنود الفرنسيين فى مصر (١٢٧) ، وحتى يبرهن يوسف باشا عمليا على حسن نواياه أمر بتسهيل مهمة إرسال البريد إلى الجنرال مينوفى مصر وفى نفس الوقت أصدر أوامره إلى حاكمى بنغازى ودرنة لاستقبال السفن البحرية الفرنسية فى موانيهما وفى ميناء بمبا (١٢٨) وبذلك نجح المفاوض الفرنسى - غير الرسمى - «ناوندى» من تجديد الهدنة الليبية مع يوسف باشا وزاد عليها بنود ثلاثة حسب مستجدات الأحوال، وهى فى

مضمونها تشمل التعهد بحرية التنقل بين مصر وليبيا ، سواء بالنسبة للمتاجر أو الأشخاص أو قوافل الحج الليبى على أن تتولى القوات الفرنسية حمايتها ذهابا وأيابا ، ويتعهد باشا طرابلس بالمثل فيما يتعلق بالأمدادات الفرنسية إلى مصر عند مرورها فى بنغازى ، ودرنة ، بمبا ، ولكن المعارضة الليبية تصدت لنزول امدادات فرنسية فى درنة ودرنة وفى الموانى الليبية ، ولما يمض على توقيع المعاهدة أكثر من خمسة أيام ، مما اضطر قائد الأسطول الفرنسى «غانتوم» للعودة الى ميناء طولون الفرنسى (١٢٩) مما ترتب عليه عزل يوسف باشا لحاكم درنة الذى فشل فى حماية الأسطول الفرنسى إرضاء لفرنسا وتطييبا لخاطرها ، وكانت فرنسا بدورها قد طلبت من يوسف باشا إلغاء ما أضيف إلى المعاهدة من مواد بعدتوقيعها اتفاقية عثمانية بريطانية فى ١٢ اكتوبر ١٨٠١ م ، وقد أدركت أن رحيلها عن مصر قد بات مؤكدا ، وهى لم تعد بحاجة إلى تأمين مواصلاتها إلى مصر ، كما كان ذى قبل ، وأظهر يوسف باشا عدم موافقته للمطالب الفرنسية ، إصرارا منه على استمرارية المحافظة على الصداقة الفرنسية الليبية فقام بزيارة لمبعوث نابليون غير الرسمى «ناندى » مرتين فى مقر أقامته ، كما عارض مطلب أسبانيا فرض حمايتها على الأباء الفرنسيسكان فى طرابلس باعتبار ذلك من شئون فرنسا ، حسبما تنص المادة «٢٩» من المعاهدة المبرمة بينه وبين فرنسا ، وبادلته فرنسا آنذاك بعض الشعور وتقديرا لدوره أ رسلت إليه هدايا ثمينة مع قنصلها « بوسيبه» الذى عاد إلى طرابلس وعوضته عن السفينة الليبية التى احترقت أثناء قصفها للسفن الجزائرية والتونسية منذ عامين بسفينة غيرها هى « لسبيرانس LESPERANCE أما عن دوافع حرص يوسف باشا على استمرار صداقته مع فرنسا فقد يبدو أنه ما كان له أن يضحى بولائه للدولة العثمانية ويعرض نفسه لنقمتها ونقمة بريطانيا ونقمة الرأى العام فى ليبيا وسمعته فى أوساط الرأي العام الأسلامى خاصة إبان عدوان فرنسا على مصر، ومن قبلها ، إلا لأنه يبحث له ولرعيته عن قنوات أكثر ملاءمة لزيادة دخله عن طريق العلاقات التجارية ، أو نظير ما يمكن أن يقدمه لفرنسا من خدمات إبان الحملة أو غيرها ، حتى ينأى عن أعمال البحر وكثيرا ما خطب ود إنجلترا فى سبيل فتح قنوات شرعية لزياة دخله ، وحتى وإن كان البعض يذهب إلى أنه كان يبغى من فرنسا ، أن تساندہ ضد الدولة العثمانية فى المحافظة على استمرار حكمه لليبيا ولورثته ، فمع ذلك يتبين أن الأوربيين بصفة عامة وفرنسا وإنجلترا

بصفة خاصة أجمعوا على أن يجعلوا من ولايات الغرب الأفريقى ومنها طرابلس فى مقام الدفاع الدائم عن نفسها والجهاد فى تحصيل أرزاقها بالطريقة التى تلائهم وخاصة عندما توايتهم الظروف ، فالأوربيون - كما رأينا - فى حالة قوتهم وتفوقهم يضغطون على هذه النيابات بكل ما أوتو من قوة ويضيقون عليها أرزاقها رحمة فكالوا لأعمالهم البحرية التهم جزافا ، وإذا ما احتاجوهم لحاجة فى أنفسهم استمالوهم ، وخلعوا على أعمالهم لباس الشرعية ، تلك السياسة التى مازالت تستخدم فى معاملتهم مع الشرق عامة والمسلمين خاصة ، فما يعتبرونه عند حاجتهم إليه ، جهادا ، ويجرون إليه شباب المسلمين ، فحتى إذا قضوا منه وطرهم ، غدا عندهم وفى مسمياتهم إرهابا، ما هو عمل بحرى مشروع ريثما فى مصطلاحاتهم قرصنة ، عندهم أو عند فريق منهم ، وقد يظل على نفس المسمى الأول عند ذى الحاجة اليه - أما كل ما يقوم به جلادوهم وارها بيوهم وقراصنتهم ومتطرفوهم فهو عمل مشروع ومقدس ، وما أشبه اليوم بالبارحة!!!

وعلى الرغم من إدراك يوسف باشا من أن الفرنسيين فى ظل نابليون إنما يتلاعبون بمقدرات بلاده ، وأنه لم يحصل منهم على ما كان يبتغيه ، فلن يتوانى فى أن يبادلهم المعاملة بالمثل بحثا عن مصلحة بلاده ، تحت أية مسمى يشاءون ويتطلب بما تمليه عليه المصلحة والظروف الدولية خاصة بعدما بادرت بإلغاء بعض بنود معاهدتها معه ، عند زوال مصلحتها معه وفى الوقت نفسه بدأ يظهر فى الآفاق البحرية عالم جديد متمثلا فى المزاحمة الأمريكية للأوربيين فى البحر المتوسط فكان عليه أن يتعامل وفق المستجدات على الساحة الدولية وقد بدأ ذلك بوضوح عندما لقيت فرنسا هزيمة فى موقعة الطرف الآخر فى عام ١٨٠٥م (١٣٠) وما تلاها من حروب ومع أن فرنسا حققت فيها انتصارات ، ولكن كلفها هذا ثمنا باهظا مما كان له تأثيره السلبى على الخزينه الليبية عندما أدت الانتصارات الفرنسية فى البداية إلى تغيير شكل الخريطة السياسية فى أوربا ودخلت كثير من الدويلات الصغيرة والتى كانت تدفع التزامات مالية لطرابلس دخلت فى حوزة النفوذ والحماية الفرنسية ، وبالتالى أصبحت تتمتع بما تتمتع به الدولة الأم فرنسا من امتيازات عدم الدفع ، ولذلك أخذ يوسف باشا فى محادثاته مع القنصل الفرنسى فى طرابلس «بوسييه» يعول على أن

تستمر كل من هولندا ونابولى فى دفع ما سبق أن التزمت به لدفعه لطرابلس من قبل (١٣١) وأصر يوسف باشا على رأيه ، فبادر بالقبض على قنصل هولندا ولم يطلق سراحه ، حتى دفع «بوسييه » مبلغا وقدره خمسة الآف قرش ، استيفاء لما كانت تلتزم هولندا لدفعه وقد تأخرت هولندا عن سداده فى موعده (١٣٢) وأخذت العلاقات الليبية الفرنسية فى التدهور فيما تبقى من حكم نابليون، فالقنصل الفرنسى « بوسييه» صديق الأمس الحميم ليوسف باشا ، تتأخر مكانته ، وأصبح موضع الإهانات من يوسف باشا ، ولم تعد احتجاجاته ولا مطالبه موضع قبول ، فأرسل إلى حكومته يطلب إعفاءه من محصته وكتب إلى وزير خارجيته الدون « دياسو » فى ٢٤ ديسمبر ١٨١٢م ، بأنه غير محترم الكلمة وأن الباشا لم يعد يعره أدنى اهتمام ، بل إنه يسخر من كل تهديدات فرنسا بقوله: « إن رمال مملكته طرابلس المتنقلة ليست غنيمة جذابة فى نظر بونابرت » (١٣٣) ووصل الحال بالباشا الى أنه غدا يعتبر كل الغنائم التى يلجأ بها قراصنة فرنسا إلى ميناء طرابلس بأنها غير مشروعة ، ويأمر بإعادتها لأصحابها هذا فى الوقت الذى يعتبر ما يسلب من مراكب فرنسا غنائم وعملامشروعا (١٣٤) .

وبسقوط نابليون عام ١٨١٤م وموت القنصل « بوسييه» عادت العلاقات الليبية الفرنسية سـرتها الأولى من المودة فى ظل عودة أسرة البربون والتى التزمت بما كانت [illegible] رنسا من قبل إلى حاكم طرابلس القرمانلى .

وعلى كل حال فإن المحرك الأساسى للعلاقات آنذاك كان المصلحة الخاصة للدول وبطبيعة الحال أن يكون منهم يوسف باشا ، وهى مصالح قابلة للمد والجزر - وهى سجايا وطبائع تعلمها حكام نيابات شمال الغرب الأفريقى من الأوربيين ، من كثرة احتكاكاتهم بهم ومعاملاتهم معهم ، مما انعكس تماما على سياستهم حتى فى أوهن أحوالهم هذا فى الوقت الذى بدأ يطل فيه مؤثر جديد متمثلا فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى لعبت بطريق غير مباشر أو بطريق مباشر دورا فى الحرب والسلم فى البحر المتوسط مع كل نيابات شمال إفريقيا ومنها طرابلس الغرب .

الحرب والسلم بين الولايات المتحدة الأمريكية وطرابلس الغرب:

عند بداية علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بحوض البحر المتوسط كان حاكم طرابلس الغرب يوسف القره ما نلى «١٧٩٥ - ١٨٣٢م » آخر حكام الأسرة القرمانلية ·

أما سكان مستعمرات أمريكا ، فقد عرفوا الأبحار بمتاجرهم من قبل استقلالهم عن الوطن الأم إنجلترا منذ عام ١٧٧٦م ، حيث بدأوا بالأتجاه نحو موانى الصين والهند ، وفيها [illegible] الأرباح الوفيرة ، مما جعلهم فى شغف لخوض غمار ا[illegible] قت كانت الدول الأوربية فى حالة من الحر[illegible] البريطانية -، فكان فى هذا ما شجع تجار [illegible] ، على نقل ما كان يلقى رواجا من منتجاتهم الأمريكية [illegible] من الحبوب ، والمعدات البحرية والقد (١٣٥) والرم (١٣٦) [illegible] تتم تحت حراسة إنجلترا لها ، كان بطبيعة الحال أن تتوقف ، بزوال الحماية [illegible] ، بل وعدائها لها منذ أعلنت المستعمرات الأمريكية الثورة من أجل الأستقلال وخاضت فى سبيل ذلك حربا ضد إنجلترا فى (١٧٧٦ - ١٧٨٣م) (١٣٧) ·

لقد ارتبط نجاح الولايات الثلاثة عشرة الأمريكية فى تحقيق نصر على القوات البريطانية فى سراتوجا عام ١٧٨١م ، وقبل توقيع معاهدة الصلح النهائية فى باريس ١٧٨٣م (١٣٨) ارتبط ذلك ببداية المتاعب الأمريكية خارج حدودها ومنها البحر المتوسط للاعتبارات الأتية:

أولاً :

إن الولايات المتحدة الأمريكية فقدت الحماية البريطانية التى كانت تتوفر لها قبل الأستقلال ، ومسافة الأبحار التى تفصلها عن الأسواق العالمية بعيدة وشاقة ·

ثانيا:

إن الولايات المتحدة الأمريكية ، قد بدأت - فيما يتعلق بالأقتصاد - من حيث

انتهت أوربا ، فازدادت منتجاتها الصناعية والزراعية هذا اذا أضفنا وفرة الموارد الطبيعية للقارة الأمريكية ، وهو أمر لا قيمة له ، اذا لم يوجد لها أسواق خارجية ، وليس هناك سوقا أروج - أنذاك - مَن أسواق البحر المتوسط على جميع جوانبه (١٣٩) ابل هو المدخل إلى اقامة علاقات أمريكية بالدولة العثمانية ، ولم لا وقد بلغ ما تحمله السفن الأمريكية إلى أسواق البحر المتوسط ما يعادل سدس انتاجها من الفحم ومثيله من الأسماك والأرز ، وحتى عام ١٧٩٠م بلغ عدد السفن الأمريكية العاملة فى هذه المنطقة، من (٨٠/ ١٠٠سفينة) تتجول فى مختلف أرجاء البحر المتوسط (١٤٠)

ثالثا:

إن الوضع القائم فى البحر المتوسط ، والذى فرضته الظروف السياسيةوالدولية ، ليس وليد دخول الولايات المتحدةالأمريكية فى المنطقة ، وإنما هو من قبل أن يؤسس الأوربيون أولى مستعمراتهم فى العالم الجديد ، وقد وصلت السفن الأمريكية إلى البحر المتوسط بينما تجرى طرابلس وجاراتها أعمالهم البحرية التى تمثل - كما اشرنا - العمود الفقرى فى اقتصاديتها ، ودول أوربا جميعها ، تلتزم بتقديم الألتزامات المالية والهدايا لحكامها ، بايات ودايات ، وما الولايات المتحدة الا احدى الدول الأوربية التى يجب أن تلتزم به الدول الأخرى ، بل أن لها وضعا خاصا ، إذ كل الدول الأوربية وفى مقدمتها إنجلترا تتوجس منها وتعمل جاهدة للحيلولة دون تثبيت أقدامها في هذه المنطقة وعدم اشتراكها فى أرباحها ، بعد أن نجحت هذه الدول الغنية فى حرمان إنجلترا بالذات من استمرارها فى العالم الجديد ، ومن المعتقد أن دول أوربا ، دون استثناء كانت تقف على مدى ما يمكن أن يحمله المستقبل للتجارة وللتجار الأمريكيين ، نظرا لما تحتويه بلادهم من خيرات طبيعية وفيرة ، وهى بعيدة كل البعد عن مشاكل القارة الأوربية ، بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية على لسان أول رئيس لها (جورج واشنطن)التزامها بمبدأ الحياد التام بشان ما تعج فيه أوربا من حروب ومشاحنات وجاء من بعده رؤساء يؤثرون هذا المنهج (١٤١) .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعلم حق العلم أن بحارتها فى خطر ، وأنه سيكون لها يوما ما لدى نيابات الغرب أسرى وقد كانت تعلم أيضا بأنه سيكون سمين سفنها وتجارتها أسرى وقد كان ٠

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية خطة تأمين مصالحها فى البحر المتوسط قبل توقيع معاهدتها الأخيرة مع إنجلترا فى ٣ سبتمر ١٧٨٣ م حينما عولت على حليفتها فى حرب الاستقلال «فرنسا» فى أن تؤمن لها حماية مماثلة مع حكام نيابات شمال الغرب الأفريقى ، ولكن فرنسا اعتذرت عن الوساطة ، باسلوب مهذب وفى عام ١٧٨٢م ، وحسب المعاهدة التى كان «جون أدامز» قد وقعها مع البلاد المنخفضة ، وافق الهولنديون على مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية فى عقد معاهدة ، مع نيابات شمال أفريقيا [illegible] يضمن أيه حماية معينة ، وحاول الأ[illegible] إنجلترا والتى انهت الحرب بينها فى [illegible]م فى ان تستانف إنجلترا القيام بمهمه تامين مصالحها ، كما ك[illegible]ون جدوى (١٤٢) ٠

وفى عام ١٧٨٤م رأت الأدارة الأمريكية حسبما قرر الكونجرس أن تتولى بنفسها عقد معاهداتها مع نيابات شمال أفريقيا ، فعهد الكونجرس بهذه المهمة إلى كل من « جون ادامز » «وبنيامين فرانكلين » ، «وتوماس جفرسن » (١٣٤) لدراسة الأوضاع ، ووضع تقرير حولها ويرفع حال الأنتهاء منه الى الكونجرس، وكان ديفيد هامفرز سكرتيرا للجنة وبعد مضى سنة منح الكونجرس اللجنة إياها سلطان جديدة للبدء فى مفاوضات مع السلطان شمال أفريقيا ، ومن لندن وباريس اتخذ أعضاء اللجنه مقارا ، يوفدون منها مبعوثيهم للتفاوض ، فأرسلوا «توماس باركلى » إلى مراكش ونجح فى عقد معاهدة مع إمبراطورها فى عام ١٧٨٦م ، تعهدت أمريكا بمقتضاها دفع مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترلينى ثم ركزت اللجنة جهودها على أقوى نيابات الغرب وهما الجزائر، وكانت الجزائر قد تمكنت فى عام ١٧٨٥م من أسر سفينتى إمريكيتين (ماريا ، دوفين)وعلى متنهما واحد وعشرون رجلا (١٤٤) وكان من بينهم كان كارث ، ريتشارد أويراين (١٥٤) . وكان مما شجع الجزائر على التمادى فى الأعمال البحرية ضد الولايات المتحدة الأمريكية تلك الوساطة الأنجليزية المربية فى التقريب بين أسبانيا والجزائر مما تمخض عنه عقد معاهدة

بينهما فـى مـايـو ١٧٨٥م ، سمح بمقتضاها للجزائر بالإيجار فى المحيط الأطلنطى ، ووساطة أخرى بين الجزائر والبرتغال تمخضت عن عقد معاهدة مماثلة ١٧٩٣م (١٤٦) ، مع همس بريطانيا من القنصل الإنجليزى فى الجزائر ، فى آذان داى الجزائر بأن المراكب الأمريكية فى البحر المتوسط تمثل غنائم قيمة، مما جعل الجزائريين يبالغون فى تقدير قيمة فدية الأسرى الأمريكيين لديهم ، حتى امتدت المفاوضات بشأنهم أحد عشر عاما ، بل إن الجزائريين أضافوا الى حصيلة الأسرى الأمريكين خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٧٩٣م أحد عشر مركبا أمريكيا على متنها مائة وتسعة عشر بحارا ، وتلك حصيلة من شأنها جعلت الجزائريين ليسوا بحاجه إلى توقيع معاهدات مع الولايات المتحدة مما أصاب الكونجرس الأمريكى بالزعر وجعله يقرر فى ٤ مارس ١٧٩٤م انشاء اسطول بحرى أمريكى قوامه ٤ سفن ذات ٤٤ مدفعا واثنان ذات ٣٦ مدفعا على أن يتم التخلى عن الفكرة من أساسها إذا ما تم التوصل إلى سلام مع الجزائر (١٤٧) ، وفعلا كانت الثانية عند ما نجح مبعوث اللجنة الأمريكية «همفريز » ونائبه « جوزيف» «دونالدسون» فى التوصل لعقد معاهدة سلام أمريكية « اتفاقية صداقـة » فـى ٩ سبتمبر ١٧٩٥م نتعهد فيها الولايات المتحدة بدفع مبلغ وقدره ٦٤٢٥٠٠ دولار نقديا وجزية سنوية بضاعة سنوية قيمتها ٢٧٦٠٠ دولار ومعدات بحرية تعادل قيمتها ١٢٠٠٠ بالعملة الجزائرية وصادق الكونجرس عليها فى ٢ مارس ١٧٩٦م وتبادل كل من «همفريز » والداى الهدايا تعبيرا عن سرورهما لما توصلا إليه (١٤٨) .

أما طرابلس والتى كان ينظر إليها الأمريكيون على انها اضعف نيابات شمال أفريقيا وكانوا يرون أن أى اتفاق مع الجزائر الشقيقة الكبرى كفيل بإلزام طرابلس به ولكن يوسف باشا القرمانلى فاجأها بأنه لايقل فى مطالبة عن الجزائر ، وبينما المفاوضات تجرى بين اللجنة الأمريكية والجزائريين فى كل من لندن وباريس كانت هناك مباحثات أمريكية طرابلسية تجرى على المسار الآخر ، بصورة غير رسمية بين ممثل « يوسف باشا» فى لندن وبين « جون آدامز» عضو اللجنة الأمريكية منذ بداية ١٧٨٦م ، حول عملية السلام وتبادل القناصل بين البلدين ، وقدم مندوب «يوسف باشا » مطالب سيده وبمحتوياتها أرسل جون آدامز الى وزارة الخارجية الأمريكية يقول: «لقد اجتمعت مساء الأثنين بالسفير

الطرابلسى الذى شرح طلبات بلاده قائلاإنها طلبات ستختلف حسب المدد التى وقع عليها فى الأوتقاق فإذا كان السلم سلما دائما فإن الطلبات ستكون كبيرة وان لمدة محدوده فإنها بالطبع ستكون أقل ونصحنى أن توقع مع بلاده سلما دائما وأكد أن الأتفاق الذى توقعه مع الباشا سيكون تعهدا ساريا على من قد يخلفة ، أما إن كان لمدة محدودة فإن مسألة ضمانه من غير الباشا مسألة صعبة وضرب لى مثلا عن التكاليف بالأتفاقية التى عقدت مع أسبانيا بمبلغ ثلاثين ألف جنيه وأبدى أستعداده لأيفاد سكرتيره لما رسليا ومنها الى طرابلس رأسا بنسخة من الأتفاق حتى يوقع الباشا والباى عن كل من طرابلس وتونس وعرض أن ندفع مبلغ ۱۲٥۰۰۰ جنيه كدفعة أولى وتقسط المبالغ الباقيه الى ۳۰۰۰ جنيه سنويا واتضح لى بإن المبالغ عالية » وتعلل المندوب الأمريكى بأنه ذا صلاحية محدودة ويجب عليه العودة إلى [illegible] حصول على الموافقة، وكان يحضر اللقاء «الكولونيل «سميث» الذى [illegible] على جون أدامز أن يسافر إلى باريس لكى ينقل العرض إلى المستر جفرسن وكان عرض السفير الطرابلسى نيابة عن كل من طرابلس وتونس والمغرب وقال إنه لا يستطيع أن يتكلم نيابة عن الجزائر لأن مطالبها ضخمة (١٤٩).

ونظراً لاختلاف وجهات النظر داخل الأدارة الأمريكية بين مؤيد لشراء السلام مع نيابات الغرب بأى ثمن وبين الصقور الداعين إلى استخدام الولايات المتحدة القوة العسكرية ، توقفت المفاوضات بين طرابلس و الولايات المتحدة سنوات أخرى ، لتعود مرة أخرى عندما تمكن الطرابلسيون من أسر القنصل الأمريكى فى الجزائر «ريتشارد أوبراين ، عندما كان يقوم بمهمة نقل الأموال المتفق عليها مع داى الجزائر ، وهى الأموال التى كانت الولايات المتحدة تماطل فى دفعها عى الرغم من توقيع الأتفاق ، وبعد مفاوضات أطلق باشا طرابلس سراحه مع ما يحمل من أموال وذلك فى يونيو ١٧٩٦م لتصل الأموال إلى داى الجزائر «حسان باشا» الذى كان قد اشتاط غضباً من تصرفات باشا طرابلس، ووعد المسئولين الأمريكيين أن يضغط عليه من أجل صالح الولايات المتحدة الأمريكية واستمر يوسف باشا فى التمسك بشروطه الصعبة مع الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنه فى نوفمبر ١٧٩٦م اقتنع بعقد معاهدة على أساس أن تتعهد الولايات المتحدة الأمريكية بدفع مبلغاً وقدره ٥٦٤٨٦ دولاراً

أمريكيا وتعهد داى الجزائر بضمان تنفيذها وفى العاشر من يونيو ١٧٩٧م وافق الكونجرس الأمريكى عليها وأقرها (١٥٠).

ويبدوا أن باشا طرابلس كان يرى أن ما اتفق عليه مع الولايات المتحدة الأمريكية قليلاً بالنسبة لما حصلت عليه الجزائر ، وأنه قبلها لتعرضه لضغط من داى الجزائر ، كما أن الأتفاقية لم تنص صراحة على تعهد الولايات بدفع مخصصات سنوية ، لذلك أخذ يتصيد الأعذار ليتحلل منها ، وتصادف أن توفى داى الجزائر «حسان باشا» ١٧٩٨م فى الوقت الذى قدم فيه القنصل الأمريكى «كاثكرت» لتسلم عمله فى طرابلس حاملاً معه رسالة من الرئيس الأمريكى «جون ادامز» يرافقه القنصل البريطانى نظراً لعدم وجود تمثيل دبلوماسى سابق لأمريكا فى طرابلس ، وكان القنصل البريطانى قد أبلغ كاثكرت بأن العادة جرت أن يتم أبلاغ الباشا مسبقاً بصورة رسمية بقدومه ، ولكنه ـ القنصل البريطانى ـ أخبره بأنه سيعالج الموضوع ، ومع ذلك فإن الباشا أبى مقابلته متعللاً بأن الولايات المتحدة لم تف بالتزاماتها عند عقدها الصلح معه ، وأعلن أنه إذا لم يتسلم ما اتفق عليه معها بالأضافة إلى عتاد وسفينة خلال أربعين يوماً فإنه سيأمر بحارته بمهاجمة السفن الأمريكية ، فأجاب القنصل الأمريكى ، بأنه على استعداد لدفع قيمة الأعتدة أما السفينة المطلوبة فإنه لم يفوض الحديث عنها (١٥١).

لقد كان ينتاب الباشا دائماً شعور بأن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر اليه على أنه أقل درجة من جيرانه ، فكان يشدد النكير على «كاثكرت» ومع أن الأخير تعهد بدفع مبلغ قيمته ٢٣٥٥٠ دولاراً أمريكياً نقديا وعطايا ومماثلة مستقبلاً إلا أنه راح يشكو إليه موقف بلاده منه وأنها تهضم حقوقه ، وأنه مستاء من تصرفاتها حياله وأنه يود أن يعامل بمثل ما تعامل به غيره من حكام شمال افريقيا ومع أن كاثكرت انتهز فرصة وفاة الرئيس الأمريكى جورج واشنطن فى أوائل عام ١٨٠٠م فأرسل إلى يوسف باشا يعلمه سزكث علم الولايات المتحدة الأمريكية ورد الباشا « مبديا عميق الأسف عن الخسارة التى الحقت بنا فى وفاته » وشكر «كاثكرت» الباشا على لسان مبعوثه «فرفارة اليهودى» على الاتفاق الذى تم فى السنة الماضية وأبلغه بأن الأدارة الأمريكية أنما تنظر إليه دائما كنظرة– أمير مستقل على مستوى الآخرين ورد الباشا الجواب

بالشكر على الرئيس الأمريكى (١٥٢) ، إلا أن الباشا كان يحتد غضبه كلما ترامى إلى أسماعه أنباء وصول أموال أو هدايا أمريكية إلى جيرانه فى الجزائر وتونس ، ويعاود استجواب القنصل الأمريكى ولما لم يرسل له هدايا مثلهما؟ واستمر طوال عام ١٧٩٩م لم يترك مناسبة تمر دون أن يذكر القنصل الأمريكى بمدى ظلم حكومته له وإنه قد مضى على توقيع المعاهدة معها عامان وأنه رضى بأقل مما رضى به جارتاه ، حتى وصل هو - أى القنصل - دون أن يحمل معه البضائع والأموال المتفق عليها ، وحتى أواخر العام أرسل الباشا إلى الرئيس الأمريكى جون أدامز يقول «لقد وطدتنا علاقتنا معكم ، ومهدنا لها الطريق لكى تدوم إلى الأبد وأفيدكم بأن قنصل بلادكم بديارنا قد نقل لنا اعتباركم لنا على نفس المستوى الذى تعاملون به الآخرين وإننا نؤمن بأن هذا الاعتبار سيزيد روابط الصداقة بيننا بأذن الله تعالى ولكن أيها الصديق تعتقد أن الأفعال يجب أن تلحق الكلام وأن تقوموا بإرضائنا بأن عبارات المجاملة والود الفارغ ستعطى كلأحد حرية التصرف إننا نرجو منكم رداً سريعاً لأن التأخير لا يخدم مصالحكم » (١٥٣).

بداية الأزمة الليبية الأمريكية :

لم يفوت يوسف القرمانلى فرصة دون أن يسمع صوته للأدارة الأمريكية عن طريق قنصلها فى طرابلس ، آخذاً فى التصعيد فلم يكتف برسالته السابقة إلى الرئيس الأمريكى باعتبار أنه لم يتلق رداً شافياً والواقع فإن الرئيس الأمريكى كانت تشغله آنذاك عدة أمور منها انتخابات الرئاسة ، والجدل الدائر فى الكونجرس حول الأسلوب الأمثل حيال مشاكل البحر المتوسط ووفاة الرئيس الأمريكى السابق جورج واشنطن ، ومنها شهدت الشهور الأربعة الأول من عام ١٨٠٠م بداية حرارة لهجة التخاطب وخاصة من جانب باشا طرابلس، فراح يقنع كاثكرت ، بأنه حليف للولايات المتحدة وذاتية حسنة ، وهو يعلم بمدى ما تقدمه أمريكا لتونس من هدايا ، وفى معرض التهديد: أن لديه قوات بحرية بنفس مقدرة قوات تونس وأنه أمير مستقل مثل أميرها وبأمكانه إلحاق الضرر بتجارة الولايات ا لمتحدة الأمريكية «التى لا يعرف لماذا تقوم هى بسياسة

التفضيل» (١٥٤) وبطبيعة الحال كان جواب كاثكرت على الباشا بقوله: «ولكنى أبلغت اليهودى ـ فرفارة رسول الباشا ـ أن الرئيس الأمريكى غير مستعد لقبول التضحيات التى لا تتلاءم وسمعة الولايات المتحدة (١٥٥) وقد حاول كاثكرت أن يقابل الباشا شخصياً لأنه كان يتشكك فى نيات فرفارة اليهودى ولكن الباشا أصر على أن يستمر فرفارة بالقيام بالمهمة ولم يجد كاثكرت أمامه إلا أن يوضح لفرفارة بأن الباخرة التى وصلت الجزائر لم تكن هدية كما توهم الباشا وفهم خطأ وإنما كانت محملة بهديتنا مقابل إطلاق سراح مواطنينا وحالما سمع الباشا جواب كاثكرت رد قائلاً بأنه قد وقع صلحاً مع الولايات المتحدة مقابل مبلغ مالي أقل من المبلغ الذى يفرضه على دول أخرى وأنه يقدر أصدقاءه بما يتسلمه من هدايا منهم (١٥٦).

وكان هذا ا لحوار يدور بخصوص باخرة أمريكية وصلت إلى الجزائر محملة بالهدايا وأن باشا طرابلس كان يعتبر أن أمراء البربر يقدرون أصدقاءهم بقيمة الهدايا التى يقدمونها لهم ، ومع ذلك فإن الباشا لم يكن لديه استعداد ، لخلق باب المجادلة مع كاثكرت فراح بعد سماعه لوجهة نظره يقول: «انه قد وقع صلحاً مع الولايات المتحدة مقابل مبلغ أقل من المبلغ الذى يفرضه على دول أخرى . . إلـخ كما أسلفنا ، حتى إن كاثكرت تميز غيظاً وشعر بمزيد من الأهانة فكتب يحث حكومته على استخدام القوة «آمل أن يؤثر وصول قطـعنا ـ الأسطول ـ قفه (١٥٧).

وبينما المو... يتأزم بين الولايات المتحدة وطرابلس ، وتقارير القنصل الأمريكى تتوافد على وزارة الخارجية ، والباشا ما زال ينتهز كل فرصة ليوجه تحذيراته ، تصريحاً وتلميحاً للولايات المتحدة الأمريكية ، فبينما كانت الحرب تدور بين طرابلس والسويد فى خريف عام ١٨٠٠م عندما رفضت الأخيرة الوفاء بالتزاماتها المالية اتجاه طرابلس وعقد الباشا اجتماعاً لقناصل الدول وحملهم رسائل لدولهم ، قال فى حديثه «أنه لم ينتقم من اى دولة أو يعلن الحرب عليها إلا بعد أن أراها تخل بعهودها أو تعامله معاملة أقل من معاملتها لدول البربر الأخرى كتونس والجزائر ، أو تسلم لها هدايا أكثر من هداياهم وكان يعنى بهذه المقدمة الولايات المتحدة الأمريكية» (١٥٨) كما فهمها كاثكرت.

لقد تبين أن الباشا وضع كل تصرفات كاثكرت وحكومته تحت المراقبة فهو

يعلم مقدار ما تقدمه الولايات المتحدة من هدايا لتونس والجزائر وموعد وصولها وتفاصيل ما يدور بينها وبينهم من مفاوضات «وأن لديه قائمة بكل الهدايا التى قدمتاها إلى تونس ، وهى تعادل «خزينته» (١٥٩) ويكرر كثيراً حديثه عن المعاملة غير المتوازنة معه ، وحاول كاثكرت توضيح الوضع للباشا وتصحيحه وبأن الولايات المتحدة لا تدفع اتاوات وإنما تدفع مقابل صداقات ، وانه لو قبل ذلك سلفاً لوصل اليه بسرعة ، ولو صبر وقبل تسليم بضائع بدلاً من النقد لما توانت الولايات المتحدة فى تسليمها اليه ، ولكن الباشا كان مصراً على مطالبه ، وانفض النقاش عند قوله: «إن الوقت قد أصبح متأخراً لمزيد من النقاش وأنه سيعود للحديث فى نفس الموضوع فى مناسبة أخرى» (١٦٠).

وفى ٤ مايو ١٨٠٠م أرسل الباشا السيد محمد الداغيس ، وفرفارة اليهودى إلى كاثكرت وتحدثا [illegible] ـديث الباشا معه، فأجابهما بأنه لم يتخذ ولن يتخذ فراراً ، وأنه سبق وأن أوضح وجهة نظره للباشا وقد حاول إقناعه أن من مصلحة الولايات المتحدة أن ترضى بشىء من التضحية فى الوقت الذى ظل فيه كاثكرت على موقفه ، وغادراه حيث عادا فى حوالى الساعة السادسة مساء نفس اليوم وقالا له أن الباشا كان فى منتهى الغضب ، حيث أبلغه أن الوزراء التونسيين قد تسلموا حوالى أربعين ألف دولار لكل واحد منهم ، بالأضافة إلى هدايا أخرى وأن هذا يعنى أن الباشا قد فسر هذا الأجراء بأن مقامه لم يعد يصل إلى مقام وزير فى تونس ، فراح القنصل الأمريكى يكذب تلك الأخبار «وبأن الشخص الذى نقل هذه الأخبار إلى الباشا شخص كاذب يريد أن يقرب نفسه منه ويزج به فى مشاكل لا فائدة منها »، وفتح لهما كشف حساب الباشا فى خلال سنوات ثلاث: فى السنة الأولى تسلم الباشا أربعين ألف دولار نقداً وهدايا تعادل قيمتها ٨٠٠٠ دولار ثم استلم هدايا أخرى تعادل قيمتها أربعة الآف دولار ، وهدية من القنصل شخصياً تفوق كل هدايا قناصل الدول الأخرى بطرابلس بمناسبة ختان «سيدى على»، ومجموع ما وصل له خلال السنوات الثلاث هو ٨٣٠٠٠ دولار بالأضافة إلى عشرة آلاف جوال قمح كان قد قدمها له حسن باشا » حتى يقبل الاتفاق مع الولايات المتحدة ، وتقدر قيمة هذا القمح إلى بحوالى ٢٠٠٠٠ دولار ، هذا علاوة على تقدير الولايات المتحدة له واحترامه ، ولو

راجع الباشا حساباته لرأى العدالة واضحة أمام عينه وانصرف المبعوثان ليعودا فى نفس الليلة من جديد يحملا رسالة من الباشا فحواها: أن الباشا لا يستطيع أن يصدق بأن القنصل لا يملك سلطة إعطاء وعد بهدية نيابة عن دولته ، لأنه استلم هدايا من قناصل دول أخرى ولم تعارضهم حكوماتهم» وكان ؛كاثكرت عند موقفه ، بل إنه ضربا لهما مثلاً عن موقف قنصل السويد أثناء المفاوضات التى جرت بين بلاده وطرابلس عندما أعطى وعوداً دون العودة إلى حكومتة مما تسبب فى توبيخه من ملك بلاده واحتجاج السويد على تصرفاته ، وعزله من عمله ، وقال كاثكرت إننى لا أريد أن أزج بنفسى فى مثل هذه المواقف ، ولما كان الباشا سبق أن كتب إلى الرئيس الأمريكى وداى الجزائر يشكرهما علي ما قدمته الولايات المتحده وأنه راض كل الرضا وطلب مبعوثاه من كاثكرت أن يكتب لحكومته «بأن الباشا، ما قصد من مراسلاته إلى الرئيس الأمريكى بأنه مقتنع بما تسلمه منه ، بل لأنه اعتقد بأن ما دفعه له كان مجرد مجاملة له بمناسبة تقديم الهدايا لتونس ، أما الآن فإنه يشعر بخيبة الأمل إذ يرى نفسه يعامل بدون اكتراث ، وأنه لن يقبل صداقة الولايات المتحدة ما لم تقدم له مثل الهدايا التى قدمتها إلى الغير ، ثم غادر الضيفان ووعدانى بأنهما سيعملان ما فى وسعهما لخدمة مصالح الولايات المتحدة وطلبا منى عدم ارسال مراسلاتى قبل أن يتصل بى الباشا إما رأسا أو عن طريق أحدهما (١٦١) وبعد يومين حل العيد الأضحى فقام كاثكرت بزيارة الباشا ومع أنه قوبل باحترام ، ولكنه لاحظ عليه علامات عدم الرضى ، وفى يوم ١٠ مايو أرسل الباشا مبعوثه فرفارة ليخبر القنصل بأن الباشا سيقوم بالكتابة إلى الرئيس الأمريكى بنفسه لأنه يشك فى اللغة التى سيكتب بها القنصل ، ووعد بأن الرسالة وصورتها ستسلم له فى أقرب وقت ممكن ، وحتى ١٢ مايو لم تكن - رسالة الباشا قد وصلت إلى كاثكرت (١٦٢) بل إلى يوم ٢٥ مايو حين أرسل محمد الداغيس من مكتب الباشا رسالة يوضح فيها بأن الباشا يسعى وراء هدية له ويعلق كاثكرت عليها بقوله: وأعتقد أنه ما لم يتحصل عليها فإن سيلحق ضرراً بممتلكات المواطنين التجارية ، وإن هذه الرسالة إحدى الوسائل للمحافظة على هدوئه الآن حتى يصله رد من الرئيس لأنه يتأمل أن يصله شىء بهذا الرد» (١٦٣) ويعطى كاثكرت رأيه بعدم تشجيع تقديم هدايا أمريكية لباشا طرابلس والرأى عنده هو «وأريد أن

أذكركم أنه إن قررت حكومتنا إعطاءه هدية فإن مفعولها سوف لا يدوم لأطول من سنة والحل الوحيد أمامنا هو أن تبقى قواتنا بالمتوسط حتى لا تتعرض للأهانة مثل السويد وبريطانيا والدنمارك» (١٦٤).

وللمرة الثانية يشير كاثكرت على حكومته باستخدام القوة ضد طرابلس، وهى الإجراءات التى أخذ كاثكرت يمهد لها على المستوى الدولى فيشهِّر بحاكم طرابلس ، ويوضح موقفه على العالم فى نداء وجهه وفيه يقول «أنا جيمس كاثكرت قنصل الولايات المتحدة بطرابلس أشكو سوء معاملة الباشا ووزرائه لمواطنى بلادى وحكومتها وأرى أن من واجبى أن أعترض على هذه المعاملة وفيمايلى أقوالى: ليكن معلوماً لدى الجميع بأن احتجاجي ، ما هو إلا نتيجة لعدم عدالة يوسف باشا القرمانلى ووزارئه ومستشاريه ، وإنى أحتج نيابة عن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب الآتية:

أولاً :

فى يوم ١٧ أغسطس ١٧٩٩م رفض يوسف باشا الاعتراف بجوازات السفر التى منحها قنصل الولايات ا لمتحدة بناءً على الأوامر الحكومية وكان هذا الرفض ناتجاً عن تحريضات «الرئيس مراد» قائد البحرية الذى طلب منى أن أضع بجوازات السفر ، عبارات يريدها هو وعبارات مثل العبارات التى تحملها جوازات سفر السفن البريطانية ، وقال أنه ما لم أضع هذه العبارات فإنه سيطلب من السفن الطرابلسية القبض على السفن الأمريكية وقد اعترفت دول البربر الأخرى بهذه الجوازات ، أما طرابلس فإنها تريد أن تجد ذريعة تمنع بها السفن الأمريكية من دخول مينائها وطلبت من الباشا استعمال سلطاته ضد «مراد ريس» فرفض وعرفت أنه هو شخصياً وراء التخطيط كله.

ثانياً :

وفى شهر اكتوبر ١٧٩٩م كانت لدى كمية من القماش ، وكنت - أريد بيعها وسمع بها الباشا وأرسل «اليون فرفارة اليهودى» لكى يطلب بيع القماش لصديق من أصدقائه وأريد ثمنه حالاً حتى أحوله له وكنت أحاول بهذا الأدعاء

أن أتفادى الوقوع فى فخ كما وقع قنصلا فيينسا والسويد من قبل ، ووعد فرفارة أن الباشا سيدفع الثمن لأنه أمير وسيد بلاده ، وسلمته القماش لأنى أعرف عادة الوفاء بالعهد أحدى خصال الدين الأسلامى ، وكانت قيمة القماش تعادل ٢٣١٣ دولاراً أسبانياً (٥٧٨٠ بالعملة الطَرابلسية) وقد طالبت بتلك القيمة مرات ومرات ، ولكن بدون طائل حتى سمعت يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٠٠م أن الباشا كان يبيع زيته ، فأرسلت مراسلى ببرميل لكى يملأه زيتاً لاستعماله بمنزلى ولكن بائع الزيت رفض ما لم يؤت له بالقيمة التى كانت تعادل ١٨ دولاراً فأرسلت المراسل إلي الباشا لكى يسأله عن هذا التصرف ورد الباشا قائلاً: بأن الزيت إنما هو لبحارة سفنه ، وإن كنت أحتاج إلى زيت فما علىّ إلا أرسال الثمن وطالبته بقيمة القماش من جديد فماطلنى.

ثالثاً :

قام يوسف باشا فى أشهر مايو ، سبتمبر ، أكتوبر ١٨٠٠م يطلب أشياء من الولايات المتحدة الأمريكية تتعارض وما نصت عليه المادة العاشرة من الإتفاقية المعقودة معه ورأى قنصل الولايات المتحدة بأن هذه الأشياء تهين كرامة بلاده ، وقرر يوسف باشا أن ينتظر لمدة من الزمن حتى يصل له رد من الحكومة الأمريكية وهدد بإعلان الحرب إن لم يصله رد فى خلال تلك المدة ،وهذا التهديد [illegible] مخالفة صريحة للمادة ١٢ من الأتفاقية ، وتنص المادة العاشرة من الأتفـ[illegible] أن المبلغ المدفوع للباشا هو المبلغ المحدد لتوطيد أركان السلم ، وأنهى مسألة فتح الهبات السنوية ، وسلم المبلغ المقرر إلى الباشا ، وإنى أرى نفسى أمينا أمام الله والعالم ، وأرفض أن أذعن لأى طلب من طلبات يوسف باشا لأنها لا تليق بمكان بلادى واشهدوا أيها الناس بأنى جيمس كاثكرت قنصل الولايات المتحدة بطرابلس أحتج وأصرخ والله لن أقبل شروط الباشا لأنى سأخدع نفسى وواجبى الرسمى ، وأغش أصدقاء شرفاء لنا فى بلاط الجزائر.

رابعا :

ليعرف العالم أنه فى ٢٥ سبتمبر ١٨٠٠م قامت باخرة طرابلسية ذات ١٨

مدفعاً تحت قيادة الضابط عمر الشلى ، بالتعرض للباخرة الأمريكية «كاترين» التى كانت تحت قيادة «جيمس كارينتر» وأجبرها على الأتجاه نحو ميناء طرابلس وبقيت بالميناء حتى يوم ١٥ أكتوبر عندما كتب الباشا إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقد أصيبت هذه الباخرة وحمولتها بأضرار (١٦٥).

ويفهم من محتويات أحداث هذه الرسالة أن وراء كل هذه المشاكل هو ذلك الرسول «فرفارة» كما أنه يفهم منها من جانب آخر إشارة إلى ما قالوا «وأن الحرب أولها كلام »(١٦٦) ومع ذلك فإن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تؤثر السلامة فى الوقت الذى يتصعد تخوفها من تطوير يوسف القرمانلى الأسطول فى البحر المتوسط منذ عام ١٧٩٨م وبدون توقف (١٦٧) إذ بلغ أحد عشر سفينة ذات ٢٤ مدفعاً وسفينة متوسطة ذات ١٦ مدفعاً وثلاث سفن بكل منها ٦ ما [illegible] رقاً بكل منها مدفع واحد (١٦٨) ، وانصرم عام ١٨٠٠ [illegible] البلدين ولا ينكر بأن قناصل أمريكا فى شمال أفريقيا كاثكرت فى طرابلس وايتون فى تونس وأوبراين فى الجزائر يجدون فى جميع المعلومات عن إمكانات هذه النيابات العسكرية وجغرافيتها وقدراتها (١٦٩) لتشهدالشهور الأربعة الأول من عام ١٨٠١م قلاقل واضطرابات وترتفع درجة حرارة الحرب الباردة ، فيوسف باشا لم يتنازل عن مطالبه ، والتى لا تقل عن مبلغ أربعة الآلاف قرش بينما يعرض الأمريكيون دفع مبلغ ١٢ ألف دولار لا غير ويماطلون فى الدفع ، وقناصلهم عاجزون عن التصرف والتأثير ، ويتبادل أوبراين وكاثكرت الاتهامات فيما بينهما فى وقت كانت فيه وسائل المواصلات بطيئة (١٧٠) حتى أن وليم إيتون - القنصل الأمريكى فى تونس - والذى أصبح قنصلاً عاماً فى شمال أفرقيا منذ يناير ١٨٠١م بديلاً عن أوبراين ، شرع يخطط للحرب مع طرابلس ، وقدم نصائحه لكاثكرت ، أن ينتقل وأهله إلى تونس ، هذا العرض الذى قابله باى تونس بالرفض لأنه كان يتهم كاثكرت بالمشاغبة ، فعزم كاثكرت على التوجه إلى ليجورن عند الضرورة ، وفى ٢٣ مارس كلف إيتون قنصل الدنمارك «ليكولاس نيسان» مهمة تولى القيام بأعمال القنصلية الأمريكية لو اندلعت الحرب وأن يتهم «نيسان »بالجنود الأمريكين المعتقلين فى طرابلس وتزويد كل منهم بثمن دولار أسبانى فى اليوم ، أما كبار البحارة والمسافرين فيصرف لهم

ضعف ذلك المبلغ ، وهى نفس المهمة التي كلفه بها كاثكرت ، هذا فى الوقت الذى كان فيه القناصل الأمريكيون الآخرون يجرون ا تصالات ومشاورات مع وزارة الخارجية الأمريكية ومع السفراء الأمريكين فى كل من لندن ولشبونة وإلى كل من يتوقع منه المشورة أو النصيحة فيما لو اندلعت الحرب مع طرابلس، حيث كان المتوقع أن تعلن تونس الحرب على الولايات ا لمتحدة ، وقد ظهر ذلك فى تصرفاتها وتجديد مطالبها العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية وذلك عندما التقى باى تونس بوليم إيتون فى ٥ ابريل ١٨٠١م ، هذا في الوقت الذى كان إيتون يخطط لتدمير باى تونس والقضاء عليه لو اندلعت الحرب الأمريكية مع طرابلس ، والواقع فإنه فى الوقت الذى كانت تعمل فيه جميع الأطراف وخاصة الأمريكية لتجنب اندلاع الحرب كان لإيتون نظرة تشاؤمية ، ويدق طبول الحرب ويواصل كتاباته إلى واشنطن بذلك ، وكان من أنصار اعتماد الولايات المتحدة على قواتها الذاتية ، لتشككه فى نوايا الدول الأوربية الأخرى مثل إنجلترا وفرنسا والسويد والدنمارك تجاه بلاده (١٧١).

وأمام هذه المناورات الأمريكية وفى ١٤ من مايو ١٨٠١م أعلن يوسف القرمانلى الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية من جانب واحد حيث أمر جنوده بتحطيم سارية العلم الأمريكى أمام قنصلية أمريكا وبعد عشرة أيام غادر كاثكرت وأسرته طرابلس إلى ليجورن ، وكان الباشا قد أرسل إليه مبعوثه (الحاج محمد) ليعلمه بذلك وأنه يمكنه البقاء بطرابلس إن شاء ، ولكنه رد عليه بأنه لا يرغب فى البقاء وأنه سيحاول ترك طرابلس ، وعند إنزال العلم الأمريكى فى يوم ١٤ من مايو - بعث إليه بنفس الرسول ليعلمه بذلك (١٧٢) .

أما رد الفعل الأمريكى فقد سمع له صديان: احدهما لدى الشعب الأمريكى حيث كان شديداً إذ خرجت المظاهرات فى شوارع العاصمة الجديدة - واشنطن - تطالب باتخاذ الاجراءات الحازمة ، دون دفع ولو سنتاً كجزية مفروضة وكانت هناك عبارة واحدة تجرى على ألسنة الجميع وهى آلاف الآلاف للدفاع ولا سنتا واحداً للجزية (١٧٣).

أما على المستوى الحكومى فقد مضت مدة من الزمن دون أن يكون هناك دليل على نشوب الحرب ويرجع السبب فى ذلك إلى أن السفن الطرابلسية لم

تترجم إعلان الحرب الى واقع ، ولذا قابلت الحكومة الأمريكية الأمر وكأنها لم تعلم بعد بأن طرابلس أعلنت الحرب عليها ، واستمرت فى دراسة مشاريع توطيد السلام فى البحر المتوسط ، ولا يمنع ذلك من استعدادها لأرسال أسطول ليساند فى عملية المفاوضات ، وليؤمن التجارة الأمريكية ، وصدرت أوامر وزير البحرية إلى قائد الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط «ديل»مزودة بمعلومات مستقاة من التقارير التى بعث بها القناصل الأمريكيون فى كل من طرابلس وتونس والجزائر بما يفيد بأن التجارة الأمريكية معرضة للهجوم من هذه الدول وخاصة من باشا طرابلس ، وعندها «رأت حكومتنا أن تبعث بقطع بحرية إلى ذلك البحر » وغايتها « حتى ترى هذه الدول اهتمامنا بسلامة تجارتنا ولا تعطيها فرصة فتتجرأ على خرق الاتفاقيات المعقودة معها» ولأجل هذا «رأت حكومتنا ان قائداً نش[illegible] سيناوتجارتهم
وقد أمرنى الرئيس - توماس جفرسون - أن أبلغكم باختياره لكم لهذه القيادة» وأشار وزير البحرية على «ديل» أن يتخذ من جبل طارق مصدرا للمؤن ومنه ينظر إن كانت دول شمال إفريقيا قد أعلنت الحرب أو أنها ما زالت فى حالة سلام ويتصل بالقنصل « أوبراين » فى الجزائر وبباى تونس - حمودة باشا - ويحاول أن يتصل بالجزائر لزيارة الميناء وأن يصطحب معه هدايا « أما إحدى السفن التى ستكون معك فستكون محملة ببضائع تعادل قيمتها ما يساوى سنة وبالإضافة لهذه البضائع نسلم لك مبلغ ثلاثين الف دولار لكى تغطى بها قيمة سنة أخرى ، وإن رفض الباشا النقد بدلاً من البضائع فيجب عليك الاحتفاظ بمبلغ اللهم إلا ما قد يطلبه «اوبراين» فى حدود خمسة الأف دولار وعشرة آلاف أخرى لباشا طرابلس ، وهناك سفينه اخرى محملة بالبضائع فى طريقها لباى تونس ، أما طرابلس «وبعد ذلك اتجه لطرابلس وحاول الاتصال بقنصلها كاثكرت لتسليمه المبلغ الذى هو هدية من الرئيس الأمريكى للباشا يوسف القرمانلى ونترك للدولة حرية التصرف فى طريقة تقديم الهدية وفى تقدير مدى فاعليتها ، ونحذرك بأن دول البربر ستطلب منك برميلاً من البارود عن كل طلقة يطلقونها لك ولاسطولك ولذلك فلا داعى أن تقبل منهم التحية » ويوصيه ويوصى جنوده « ما يطلب منك ومن قواتك أن تكون فى مستوى المسئولية فى تصرفكم مع هذه الدول لأننا نريد السلم معها ، وان وجدت أن

باشا طرابلس فى سلم معنا فاستمر فى رحلتك إلى مصر فسوريا وبعدها عد إلى طرابلس حتى تتأكد من هدوئها » وهذا الأسطول وقائده «ديل» قد زود بمعلومات مفادها ، أن يتجول فى البحر المتوسط وأن تكون عودته فى ١٥ أكتوبر إلى الولايات المتحدة ، وإن وجد تهديدات من دول شمال إفريقيا يعود مرة أخرى « وإن وصلت جبل طارق ووجدت دول البربر معلنة الحرب ، فابدأ حالا فى تدميرها وحرق سفنها أينما تجدها حتى تحفظ كرامة بلادنا وللأسطول مهمة أخرى هى « نريدك أن تعرف مدى قوة هذه الدول وعلى كل حال فإن الجزائر هى صاحبة القوة ، أما تونس وطرابلس فلا خوف منهما ، ولا تحتاجان لأكثر من سفينه للقضاء على قواتهما: وفى حالة أن تكون طرابلس فقط فى الميدان فيجب أن نتجه رأسا نحوها ونضرب عليها الحصار ، وإن كانت تونس وطرابلس فى الميدان ... فابدأ بالتركيز على تحطيم قواتهما ، وإن وقع تحت سلطاننا أيه أسرى فيجب أن تعاملهم معاملة إنسانية تامه بل ويجب اطلاق سراحهم فى أى ميناء بربرى تختاره حتى يعودوا إلى ذويهم ويعلموا حسن نيتنا وإن كان من بين هؤلاء الأسرى مسيحيون فأطلق سراحهم بالموانى المسيحية أو انقلهم فى الأسطول أن شاءوا خدمتنا » (١٧٤).

ومن هذه الرسالة يتبين لنا مدى استعداد الحكومة الأمريكية غير المتحمس للحرب وأنها مازالت تفضل السلم وتخطب ود حكام شمال إفريقيا بالهدايا ويوضح ذلك تلك الرسالة التى بعثت بها وزارة الخارجية إلى ممثل الولايات المتحدة الأمريكية فى لندن ولشبونه ولاهاى ومدريد وتقول الرسالة إن الباشا طرابلس كان يخطط لنوايا عدوانية ضد الولايات المتحدة منذ أمد بعيد وقد ظهر التخطيط فى المدة القريبة ، وأن الرئيس الأمريكى قد قرر ارسال قطع بحرية للبحر المتوسط للدفاع عن تجارتنا إن قرر هذا الباشا للاعتداء عليها تحت قيادة «ديل» ، وإن لم تعلن أى حرب ضدنا فإن هذه القطع ستبقى فى البحر المتوسط بعض الوقت ، ثم تعود للولايات المتحدة ، وسواء أعلنت الحرب أم لم تعلن «فإن وجود هذه السفن فى تلك المياه سيعود بالنفع علينا لأن قناصلنا طالما طالبوا بوجود قوة لنا هناك حتى ترى دول البربر مدى استعدادنا وسيتمكن عدد من رجال إسطولنا من التدريب فى بحر غريب قد لا تسنح لهم فرصةللتعرف عليه» (١٧٥).

وبهذا المعنى أرسلت وزارة الخارجية فى نفس التاريخ رسالة الى كاثكرت قنصلها فى طرابلس ، تؤكد فيها لكاثكرت أن الباشا نفسه وراء ما يجرى ضد الفنص ليه الأمريكية فى طرابلس ، وتورد ذكرى اسم فرفارة اليهودى وتعلمه بأن الرئيس قرر ارسال قوات بحرية مكونة من ثلاث قطع تحت قيادة «ديل» حيث سيحمل رسالة الى الباشا ، أما إن أعلنت طرابلس الحرب قبل وصوله فإنه سيدخلها كحرب دفاعية ضد أعمال القرصنه«وإن لم تعلن الحرب فإن الرئيس يود ان تقوم بشرح مهمة هذه القطع لحماية السلام، ونريد أن تكون هذه القطع هناك للبرهنة لدول البربر على أننا قادرون على تحديها خاصة ٠٠وسيدفع لكم «ديل» مبلغ للاستعانه به فى اتصالاتكم مع الباشا إن رايتم ذلك مفيدا ٠٠٠» (١٧٦)٠

كما أرسل الرئيس الأمريكى «توماس جفرسون» برسالة شخصية إلى يوسف باشا القرمانلى وسنورد منها مقتطفات طويلة نظرلأهميتها إلى الصديق الجليل باشا طرابلس حفظه الله ورعاه ٠ أيها الصديق المحترم العظيم: «لقد رفع لكم قنصلنا تأكيدات تدل على رغبتنا فى إقامه علاقات ود وصداقة معكم ومع رعاياكم ، وإن هذه التأكيدات تعتبر تعبير صادقا عن عزمنا على ربط علاقاتنا مع دول العالم على أسس الأصول القائمة بين جميع الأمم٠ ٠ ولكن رسالتكم المؤرخة فى ٢٥ مايو الماضى قد جاءت فى لهجة ولغة تدل على أن هدفكم ليس متفقا مع الاتفاقية ، ولكننا لازلنا نفسر هذه اللهجة تفسيرا حسن النية ، وها أنا أعرض عليكم من جديد اقامه علاقات طيبة لا تشوبها شائبة ٠ ٠لقد قمنا بإرسال قوة بحرية إلى البحر المتوسط لكى تقوم بحماية تجارتنا ، وتاكيد سلا مها ، وفى نفس الوقت لكى نمكن رجالنا من التدريب ولكننا لم ننس أن نذكر بهذه القوة كرم معاملتكم وحسن استقبالكم حتى تكون على علم بذلك ، إن قدر لها زيارة موانيكم وآمل ألاً يساء تفسير وجود هذه القوة من قبل أى دولة لأننا لا نهدف من ورائها إلا حماية تجارتنا ، وأعطينا أوامر واضحة لقائدها .. يكون حكيما فى تصرفاته تجاه كل الدول التى تؤمن بالمساواة والعدالة٠ ٠ابتهل الى الله أن يحفظكم ويرعاكم أيها الصديق» (١٧٧)٠

بما أن هذه الرسائل وخاصة رسالة الرئيس الأمريكى ترجح جانب السلم وخاصة بعد أن أعلن يوسف باشا الحرب كان ينبغى أن يراجع نفسه وألا

يتمادى فى دق طبول الحرب مهما بلغت به الدسائس اليهودية أو الإنجليزيه .

لقد كانت أحداث عام ١٨٠١م خاتمة سنوات طويلة ، من المناورات والمباحثات العقيمة بين طرابلس والولايات المتحده الأمريكية ، حتى أنه فى ربيع ذلك العام كانت كل المؤشرات تحمل الأمريكيين فى شمال أفريقيا ، على الأيمان بأن دولتهم سوف تضطر لاستعمال القوة مع طرابلس ، لأحراز السلم معها ، اذ أن المطالب المالية لباشا طرابلس ، قد بلغت حد الألحاح - كما أوضحنا - وكان الباشا يقاوم بعناد من أجل عقد معاهدة جديدة دون تدخل من الجزائر ، ليضمن لنفسه مبلغا من المال دفعته الأولى «٢٢٥ الف دولار»، ومخصصات سنوية تقدر بعشرين الف اخرى ، وكسبا للوقت تابع كاثكرت مفاوضاته ، فعرض على يوسف القرمانلى مبلغ ثلاثين الف دولار لمدة عام ونصف ، كل ذلك فى انتظار ورود جواب من رئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ!

وعلى الرغم من أن الأسطول الأمريكى كان قد اتجه الى البحر المتوسط إلا أنه كان اسطولا لا يرقى إلى مستوى المواجهة العسكرية الشاملة ، فهو الأسطول الهزيل الذى ورثه « توماس جفرسون» الذى تقلد الرئاسة ١٨٠١م من سلفه «جون آدامز » الذى لم يكن ميالا للحرب ، كما أن «جفرسون» لم يكن قد حصل بعد من الكونجرس على تفويض لشن الحرب (١٧٨) .

وعندما وصل الأسطول الأمريكى إلى البحر المتوسط وجد أن طرابلس قد أعلنت الحرب وأن السفن الطرابلسية تحت قيادة «مراد ريس» تتحرك وكان من خطط قائد الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط القبض على «مراد ريس» وكان مراد ريس يعرف ذلك وكان يتعمد اغاظة قناصل الولايات المتحدة فى شمال افريقيا ، حتى وليم ايتون فى تونس كان لايتحمل رؤيته ، وكان يعتقد أنه إذا ما استطاعت بلاده أن تقهر مراد نفسه وتلقى القبض عليه ، فإن الحرب سوف تنتهى بسرعة البرق وكثيراً ما حاول الأحتيال للقبض عليه ، وفى ٢٥ يوليه وصل قائد الأسطول الأمريكى إلى طرابلس وبعث برسالة إلى يوسف القرمانلى يعبر فيها عن أسف بلاده لقراره إعلان الحرب ، وأنه إذا ما كان فى نية الباشا أن يعود إلى سلام فإن القائد الأمريكى ، سيتعاون معه لتحقيق ذلك كما طلب منه أن يعرض له الأسباب التى حملته على إعلان الحرب(١٧٩) ،

نعلم منه أنه يتألم من ضمان داى الجزائر لتنفيذ شروط معاهدة ١٧٩٦م ، هذا فى الوقت الذى كان القنصل الأمريكى العام فى شمال أفريقيا وليم ايتون يشيع فيه أن طرابلس تحت المحاصرة ، وفى ٢٣ يوليو عمم انذاراً على جميع الدول الصغيرة يعلمها بعدم دخول ميناء طرابلس مما آثار حفيظة بعض الدول مثل إنجلترا علما بأن الأسطول الأمريكى لم يقم بعمل فعلى ضد ميناء طرابلس لأنه غير مزود بتفويض من الرئيس الأمريكى « توماس جفرسن» بشن الحرب وكل ما قام به أن بعض سفنه تمكنت فى أول أغسطس ١٨٠١ م من الاستيلاء على باخرة طرابلسية اسمها «طرابلس» عليها ١٤ مدفعاً يقودها «محمد سوس» بعد معركة دامت ثلاث ساعات قتل خلالها عشرون من رجالها وجرح ثلاثون وكان من بين الجرحى ضابط وملازم ، وقد جردت هذه الباخرة من كل شىء وتم أسرها(١٨٠) ، وقد عذّر الباشا قائد السفينه كما أن سفينة أخرى تحت قيادة «ديل» قائد الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط هاجمت مركبا يونانيا قرب مالطة كان بداخله مجموعة من الطرابلسيين ، بما فيهم جنود وتجار وعائلات ، وحاول الأمريكيون استخدامهم للضغط على الباشا لقبول تحقيق السلام ، وعندما أظهر الباشا عدم اكتراثه ، اطلق ديل سراحهم ، أما الوعد الوحيد الذى استطاع انتزاعه من الباشا فكان استعداده لأعادة واحد وعشرين أسيرا الواقعين فى قبضة ديل ، بأية ثلاثة من الأسرى الأمريكيين الموجودين فى طرابلس(١٨١) وثلاثة آخرين مقابل ثمانية تجار (١٨٢) تلك الحرب السلبيه بين الطرفين لم يحقق أحدهما نصرا حاسما على الآخر ، ولعل غياب «مراد ريس» كان السبب فى تكاسل الطرادات الطرابلسية أما الباشا فلم يكن ليبحث عن مشروع عقد هدنه ، مع أن ديل كان يعتقد أن الباشا إنما يماطل عن عمد أملا فى أسر عدد كبير من الأمريكيين ، ليتمكن من فرض شروطه ، وفى ٣ سبتمبر ١٨٠١م قرر ديل الخروج من هذه المغامرة والعودة إلى جبل طارق حيث أن ظروف جنوده قد أصبحت فى حالة لا يحسدون عليها ، فأربعة وتسعون رجلا منهم شعروا بالمرض وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الموت بسبب الجوع وتفشى الأمراض فيما بينهم (١٨٣) وفساد ما كانوا يحملون من أطعمه ، ولم يبق من مراكبهم فى البحر المتوسط إلاّ القليل وحتى أكتوبر من نفس العام كان الأسطول الأمريكى مضطر للعوده إلى الولايات المتحدة الأمريكية أما قائد الأسطول نفسه«ديل» فاضطر أن يبقى فى طولون حتى العاشر من فبراير

١٨٠٢م لإصلاح بعض سفن الأسطول ، وقد حاول فى يناير من نفس العام أن يتحالف مع السويد لضرب طرابلس ، ولكن المحاولة انتهت بالأتفاق على فرض الحصار فقط هذا فى الوقت الذى كانت حكومة الولايات المتحدة مازالت لم تعلن الحرب رسميا على طرابلس ، على الرغم من الألحاح الدوؤب من قنصلها العام فى شمال أفريقيا «وليم إيتون»على اعلان الحرب رسميا وما زال يصر على أن ذلك عمل يجب أن تقوم به الولايات المتحدة بمفردها مما جعله يخترع ويبتكر الوسائل والذرائع لشن حرب على باشا طرابلس ولو بإثاره سلاح العصبية الأسرية ضده ، وقد وجد ضالته المنشودة وتمخضت قريحته عن استخدام أخ الباشا أحمد القرمانلى منذ خريف(١٨٠١م) (١٨٤) - كما سيأتى تفصيله :-

ولم يكن رحيل اسطول «ريتشارد ديل » يعنى نهاية مطاف الوجود البحرى الأمريكى فى البحر المتوسط ، بل بقى بعضها لأداء المهمة ، وكان رحيل بعضها حسب خطة موضوعة (١٨٥)٠

وعلى الرغم من أن العام الجديد ١٨٠٢م حمل مؤشرات جديدة بالنسبة للوضع الأمريكى فى البحرالمتوسط باعلان موافقة الكونجرس على شن الحرب ضد طرابلس إلا أن الطرابلسيين نجحوا فى تهديد المصالح الأمريكية وبالاسيتلاء على بعض السفن بحمولاتها ، وهدد الباشا بانه سيحرق كل امريكى أو سويدى يقع فى قبضته حيا ٠ اذا ما أطلقت سفن الأعداء نيرانها على طرابلس، وكان ذلك فى يوليو ١٨٠٢م ، واعتقد الأمريكيون ، بأنه يتعمد إهانتهم فكتب اوبراين إلى حكومته :« ورايت بأم عينى علمنا منكثا على باخرتنا ، والباخرة الطرابلسية داخلة الميناء تطلق مدافعها ، واتصلت بوزير البحرية الجزائرى ثم بوزير الخارجية وناشدتهما باسم الولايات المتحدة فقال وزير الخارجية ان بلاده قد تدخلت لكفل طرابلس لأحترام الإنفاقية ولكن الكفالة لا تفرض استعمال القوة على الجزائر (١٨٦)٠ ولدى وصول قائد البحر الأمريكى «مورس» الى البحر المتوسط كان كاثكرت عين قنصلاً فى الجزائر ومفوضامن وزارة الخارجية الأمريكية بالتفاوض الكامل للوصول الى السلم مع باشا طرابلس ، وكانت تلك التعليمات قد صدرت فى ١٨ ابريل ١٨٠٢م إلا أنها وصلت بعد ٦ أشهر ،على أمل أن يتعاون كاثكرت مع القائد « مورس »

فى استخدام اسلوبى الترغيب والترهيب لأحلال السلام « حمل غصن الزيتون فى يد ، واستعرض الوسائل والعمليات الهجوميه ، قد يولد شعورا فى نفس الباشا ، مما يساعد بصورة اساسية على عقد معاهدة مناسبة معه» ،كانت التعليمات الى «مورس» «ان يستعمل كل أنواع الضغط وأن يبذل جهد المستطاع لأنهاء القضية الطرابلسية» هذا فى الوقت الذى كانت هناك السفينه الأمريكية «نيويورك» تتجه نحو مراكش وتونس وطرابلس (١٨٧) ·

وطال أمد المفاوضات والعروض دون الوصول إلى حل حذرى والولايات المتحدة الأمريكية تتعرض لضغط كبير من قناصلها فى شمال أفريقيا، وخاصة «إيتون»فى تونس بضرورة شن الحرب والحكومة الأمريكية تحت رئاسة جون آدامز (١٧٩٦م - ١٨٠٠م) والعامين الأولين من رئاسة «توماس جفرسن» ما زالت تصر على موقفها من عدم خوض حرب فى البحر المتوسط وكذلك باشا طرابلس والذى أعلن الحرب من جانب واحد كما اسلفنا منذ مايو١٨٠١م ، لم يقدم على ترجمة ذلك عمليا إلا فى ٥ يونيو ١٨٠٢م عندما استولت باخرة ليبية على السفينه الأمريكية«فرانكلين (FRANKLAN)وقائدها مورس » الذى تولى خلفاً «لريتشارد ديل » قيادة الأسطول الأمريكى ، بالقرب من قرطاج(١٨٨) حيث اقتادوها إلى الجزائر وعلى متنها بحارتها التسعة ونكس علمها تحت العلم الليبيى وحاولت الولايات المتحدة أن توسط الجزائر مقابل دفع مبلغ خمسة آلاف دولار إلا أن البحارة الليبيين رفضوا ، حتى يتلقوا أوامر من طرابلس بالموافقة ، وحملت السفينه والأسرى إلى طرابلس حيث إن وجودهم سيعطى الباشا سندا قويا إبان مفاوضاته مع الولايات المتحدة (١٨٩) ومع ذلك فان أمريكا لم تعلن الحرب واستمرت فى المفاوضات والأحتجاج على الأهانه التى الحقت بالعلم الأمريكى والمطالبة باعادة البضائع التى كانت محملة فى السفينه والباشا يتنصل من المسئولية وبأنه لم يعط أى أوامر إلى مراد ريس» للتعرض للسفن الأمريكية وانه قد اصدر أوامره باعادتها بما تحمل ، ولكن عينه الأخرى تطلب أن تدفع له أمريكا الأموال مقابل السلام وعلى الأقل مثلما تدفع للجزائر ولتونس وفى مقابلة مع كاثكرت قال الباشا «إنى أطلب من حكومتك ان تعطينى مبلغا سنويا وسأكتفى بذلك وعلى أى حال فإنكم ستدفعون بطريقة أو بأخرى » وراح يهدد ويذكر بأن بريطانيا وفرنسا

والبرتغال والسويد كلهم يبعثون له بهدايا من آن لآخر، وإن لم تفعل أمريكا مثلهن فأنه سيأمر قواته البحرية بالاستيلاء على سفنها أينما تجدها ،وإلا سيرسل إلى الرئيس الأمريكى بنفسه (١٩٠).

وحتى ٢٦ يونية ١٨٠٢م كانت لهجة تصعيد الحرب من جانب أمريكا قد توقفت وتبددت سحب الحرب على أثر انسحاب الأسطول الأمريكى من اتجاه طرابلس بأمر من القائد مورس « الذى أيقن بأن الحصار عملية غير مجدية(١٩١) وصدرت الأوامر من واشنطن بعزل « مورس» من مركز القيادة وتأمره بالعودة فورا إلى واشنطن حيث واجه هناك تحقيقات وعزلا بأمر من الرئيس الأمريكى نفسه .

الحرب الأمريكية الليبية

كانت واشنطن قد قررت فى خطتها الجديدة استبدال «مورس» بقائد أقدر وأكفأ فى وقت كانت الأمور تتأزم بين الولايات المتحدة الأمريكية وطرابلس ذلك القائد وهو «أدوارد بيربل» حيث تم اسناد المهمة اليه فى ٢٣ مايو ١٨٠٣م، كما عين الرئيس « توماس جفرسن »ضابط مدنيا آخر هو « توبياس لير » ليتولى مهمة القنصل العام فى الجزائر بدلا من أوبراين ، ومنحه صلاحية التفاوض مع دول شمال أفريقيا وطرابلس من أجل التوصل الى سلام فى الوقت المناسب كما أصدر الكونجرس الأمريكى فى ٢٨ / ٢/ ١٨٠٣م قرارا بانتشال الأسطول من وضعه المتردى وخول الرئيس الأمريكى الحق فى أن يحسن وضع الأسطول واعتمدت الميزانية اللازمه للشراء أو البناء ، على أن تكون مواصفات السفن مناسبه لطبيعة البحر المتوسط ومرافىء دوله الجنوبية(١٩٢) .

ومنذ سبتمبر ١٨٠٣م كان الأسطول الأمريكى الجديد يتوافد على جبل طارق يتقدمه قائده «بيربل» على ظهر السفينه كوستنيوشيس حيث لم يكن هناك سوى قسم قليل من الأسطول السابق ، كما وصل الربانىء باين برونج . بالسفينه فيلادلفيا وأجرى هذا الأسطول الجديد مناورة فى شواطىء مراكش نجح فى اخماد ثورة ضده ، فاستبشر خيرا وانهال الثناء من الكولونيل « لير» فى تقرير بعث به الى وزارة الخارجية الأمريكية ، يمدح فيه شجاعة « بيربل»

وثباته فى أول عمليه له ، ومن البديهى أن يطلب كل من لير وبيريل تدعيم الأسطول لأنجاز المهمة الرئيسية التى جاء من أجلها وهى ارغام طرابلس على احترام العلم الأمريكى فى البحر المتوسط مهما كلفهم ذلك ، وكانت المهمه بالنسبة لبيربل شاقة إذ أن الحرب ما زالت قائمة بين انجلترا وفرنسا ، مما يصعب الحصول على تموين السفن الأمريكية وتأمين المؤن والذخائر من جبل طارق ومن هنا أرسل وزير البحرية الأمريكية يطلب من بيربل البحث عن قاعدة بديلة تكون الى الشرق فى البحر المتوسط فوقع الأختيار على سيراكوزا ، وفى منتصف اكتوبر ١٨٠١م كانت بعض مراكب الأسطول قد اتجهت الى هذه القاعدة (١٩٣).

وفى اكتوبر ١٠٨٣م [illegible] طرابلس عندما أبحر الربان بينبر يدج على [illegible] كس» الا أن مهمتها كانت [illegible] رماها قصير على الرغم من انها [illegible] ما قوامه ثلاث مائة وسبعه من المقاتلين [illegible].

وفى ٢١ اكتوبر بينما كانت فيلاد لفيا تطادر مركبا طرابلسيا اذ بها ترطم بسلسة صخور قرب سطح الماء على بعد حوالى خمسة أميال شرق طرابلس ، فخلدت فى الأرض ، ومالت الى جنبها ، وفقدت أهمية مدافعها وأصبحت عرضة لضرب قوات الدفاع الطرابلسية ، ويذكر البعض انها كانت قد قصفت المدينه بالقنابل منذ الحادية عشر صباحا وأن ما حدث لها وقع بعد ذلك (١٩٥) بينما يذكر مصدر آخر سبب غرقها أنما لرياح شديدة هبت فى ٢ نوفمبر بينما تذكر [illegible] اصادر الأمريكية ، أن الربان بينبربدح عندما وجد ان السفينه قد وقعت تحت ر[illegible] الطرابلسيين عقد اجتماعا لضابطه للتشاور فلم يكن أمامهم سوى أمرين : اما الأستسلام أو تفجير السفينة ، وانتهت المشورة على الأستسلام وعند غروب شمس نفس اليوم ألقى الليبيون القبض على السفينة وعلى متنها ٣٠٨ من الأمريكيين دون أن يصب منهم أحد بسوء (١٩٦).

ليس المهم الكيفية التى تم على أسسها أسر السفينة وانما المهم هو أن الحملة البحرية الأمريكية « الثالثه» تلفت أكبر أهانة وأعظم خسارة ، فالليبيون قد استولوا على مركب بحرى من الصنف الأول بمن عليه وهو عدد يمكنهم من

المساومة بصلابة وهكذا متى بيريل بهزيمة منكرة اذ لم يكن هو سببها ، فهو حتى ذلك الوقت مازال فى جبل طارق ينتظر رفقة القنصل العام «لير» إلى طرابلس ولم يعلم بنبأ الفاجعه إلاً فى ٢٤ نوفمبر عندما التقى قرب مالطة بسفينة بريطانية ، فأبحر مسرعا الى قاعدة سيراكوزا للتفكير فيما سيفعل لأنقاذ سمعه الولايات المتحدة ، إن من يطلع على التقرير الذى كتبه قائد فيلادلفيا وليم بينبريدج يقف على مدى ما أصاب الأمريكيين كتب يقول « أسوأ خبر رأيته فى حياتى ، وانه من المؤلم بأن أقول ان هذا الخبر هو فقدان الباخرة فيلادلفيا التى كانت تحت قيادتى» ويصف وقوع الحادث « بعد ان اصطدمت بالصخور على بعد خمسة أميال من طرابلس » أما تفصيل الكارثة فكانت عند الساعة التاسعة صباحا » «عند ماكنا على مقربة من طرابلس ورأينا باخرة على مقربة من الشاطىء متجهه مع الرياح غربا ورفعت هذه الباخرةالعلم الطرابلسى واستمرت بابحارها بمجاراة الشاطىء واطلقنا عليهاالنار وأعطينا لسفينتنا العنان فى ابحارها حتى الساعة الحادية عشر صباحا عندما وجدنا أنفسنا فى مياه ضحلة ... واضطررنا للدخول عندما راينا أنفسنا فى خطر واكتشفنا بأن الماء غير عميق وبدأنا محاولة جر السفينه الى الوراء حتى نعيدها المياه العميقة ولكن لم نفلح ... فقررنا نصب مدافعنا للدفاع عن سفينتنا التى بدأت نيران الطرابلسيين تركز عليها ولم يصادفنا الحظ فوقع لنا ما وقع وأصبنا بالكارثة» ويصف بيربدج مشاعره ،ومن معه«وأنى فى منتهى الحزن والأسى لما لحق ببلادى وأمتى ، وإنى أتألم لما قد يجره هدا الحادث من عواقب علينا من الطرابلسيين ، ويؤسفنى ما حل بزملائى فى السلاح من خيبة امل لأنهم عملوا كل مايمليه الشرف والواجب»ويستطرد فى وصف أحوالهم ويرسل بتعاريه ومشاركة مواطنيه الأحزان ويستسمحهم وكيف قابلهم الباشا وأطلق سراحهم وخاصة الضباط تركهم ليذهبوا مع كاثكرت اما الجنود « فانهم باقون الآن على نفقة طرابلس ولقد فقد كل شىء ، اللهم إلاً ملابسنا التى كانت على ظهورنا بل إن بعضه فقدناه ايضا» وكتب شهادة من زملائه بمدى ما قدموه من جهـــد (١٦٧) .

يتضح من هذه الرسالة أن الباشا إنما احتفظ بالأسرى من الجنود ليقوى بهم جانبه عند المفاوضة خاصة وهو يعلم ان البحرية الأمريكية لن تتورع فى

الأنتقام لما وقع لها ، ولذلك رفض كل الأقتراحات التى قد مها له جتيانو شمبرى (GATANO SCHEMBRI) وكيل بيريل فى مالطة فى الأفراج عن الأسرى بل شرع فى تقوية حصون المدينه والميناء وكان يشرف على هذه الأعمال بنفسه (١٩٨).

أما بيربل فكانت صدمته عنيفة وكتب الى وزير البحرية الأمريكية بصف له شعوره وخشيته من تلويث سمعته وسمعة بلاده عالميا ، وكانت تنازعه الأفكار والخطط والحرب والسلام والأسرى ، ولابد من عمل يحفظ عليه ما وجهه ، وحتى ١٣ ديسمبر ١٨٠٣ نجح اسطوله فى معاودة مهاجمة ميناء طرابلس واستولى على سفينه ليبية كما استولى على ستين اسيرا يمكن أن يستخدمهم فى عملية تبادل الأسرى ، وانهالت عروض الوساطة من الدول الأوربية بين طرابلس وأمريكا ، بعد ما حاول السفراء الأمريكيون فى كل من أسبانيا وفرنسا وروسيا دفع تلك الدول للتوسط ، كما سيطر الهم على الرئيس الأمريكى « توماس جفرسن» نفسه ، وفى ٣١ يناير ١٨٠٤م نجحت فرقة أمريكية فى تدمير السفينه فيلادلفيا الرابضة فى ميناء طرابلس حرقا وبدأ بعدها بيربل فى شن حرب على طرابلس وعاد الى ذهنه عملية استخدام البديل لشن حرب برية ، وذلك باستخدام مشروع وليم ايتون فى استخدام أحمد القرمانلى، ولكن ما كان بيربل أن يقدم على عمل حربى قبل حل مشكلة الأسرى الأمريكيين والتى أخذت تتعقد بعد حرق الباخرة فيلادلفيا ، حيث قوبل هذا العمل بهياج الرأى العام الليبى وخرجت المظاهرات العنيفة فى طرابلس تردد هتافات عدائية ويطالبون الباشا فى التشدد مع الأسرى الأمريكيين كما توقفت المساعى السلمية ولكن الأنتصارات التى اخذ يحققها بيربل عادت باب المفاوضات والوساطة فمنذ النصف الثانى من مارس عاد القنصل البريطانى فى القيام بالوساطة فبينما كان باشا طرابلس يطلب فديه لفيلادلفيا قبل حرقها ٣ مليون دولار وجزية سنوية كثمن السلام ، خفضت من ٥٠٠ دولار عن كل أسير ، الى ٤٠٠ دولار عن الأسير الواحد لم يتبق بعد المبادلة كما تدخل القنصل الفرنسى فى طرابلس « بوسيه» وانتهي العرض الأمريكى عند دفع ٤٠ ألف دولار كفدية الضابط والملاحين و١٠ آلاف دولار كمكافأة للوزير الأول وسواه ممن يساعدة فى الترتيبات ، عند وصول أول قنصل أمريكى إلى

عشرة سنوات إذا ما استمر السلام ، وكل هذا قوبل بالرفض من قبل الباشا مما جعل «بيربل » يلوح فى ١٤ من يونيو ١٨٠٤م باستخدام الحرب وفى ٤ يوليو بدأ الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط يناور باطلاق مدافعه بحجة مناسبة استقلال بلاده ، وفى ٢٥ من يونيو كانت السفن الأمريكية تطلق مختلف نيرانها على طرابلس و استولوا خلالها على غنائم وانزلوا خسائر بميناء طرابلس ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام الميناء بل ومنى رجال الأسطول البحرى الأمريكى بخسائر ما بين قتلى وجرحى ، وفى ٢٩ يوليو نجح الطرابلسيون فى تفجير مخزن أمريكى للذخيرة فقتل ضابطين وثمانية رجال وجرح ٦ آخرون (١٩٩).

يبدو أن القدرة العسكريةلبيربل لم ترق فى نظر الادارة الأمريكية فأرسلت إليه ليعود لبلاده لإعداد أسطول « رابع » تحت قيادة صموئيل بارون وهو أعلى رتبة من بيربل فيتولى القيادة وقبل بيربل الأمر على مضض وكان ذلك بسبب حادث فيلادلفيا وكان الرئيس الأمريكى قد عرض على الكونجرس فى عشرين مارس ١٨٠٤م وضع الأسطول البحرى فى البحر المتوسط فوافق الكونجرس فورا على انشاء « صندوق البحر المتوسط » بمبلغ مليون دولار لتدعيم البحرية الأمريكية فى البحر المتوسط على أن يبدأ العمل بتلك الزيادة اعتبارا من ٣٠ يوليو ويمتد ثلاثة أشهر من عقد الاتفاقية مع طرابلس وفعلا عمل الرئيس الأمريكى على تدعيم الأسطول وتزويده بأربعة فرقاطات لتبحر تحت قيادة «بارون» فى الوقت الذى يتربص به بيربل بطرابلس الداوئر ، وفى ٢٥ من أغسطس ١٨٠٤م كان بيربل يهاجم طرابلس هجوماً شاملاً على الميناء وعلى المدينة وكان بيربل يحتم القضاء على السفن الطرابلسية وجهز بذلك السفينة «أنترانتربيز» وشحنها بالألغام والبارود والقذائف لتفجيرها داخل الميناء واستمرت محاصرته لطرابلس ٦ أسابيع دون طائل ، حتى أخذت العواصف تهدد أسطوله ، وتطرق الخلل إلى كثير من المراكب والواقع أن بيربل كاد أن يقضى على آمال طرابلس فى الحرب وأن يدمرها ولكنه لم يفلح . . . وهذا ما قاد الطرابلسيون إلى الاستخفاف بالاسطول الأمريكى وأظهروا رغبتهم فى السلم (٢٠٠) مما جعل بيربل يصدر أوامره فى ٧ سبتمبر بإبحار غالبية الأسطول ومعداته وزوارقه إلى سيراكوزا وبقى البعض الآخر لينتظر وصول الفرقاطة الجديدة تحت قيادة صموئيل بارون.

بخصوص لأسرى تجرى علي قدم وساق والعمليات العسكرية من بيربل ما زالت قائمة طوال شهر أغسطس حتى ١٧ سبتمبر ١٨٠٤ (٢٠٣) ، دون أن يحقق نصراً للباشا .

فالباشا ما زال على موقفه ، وقد لا يرجع ذلك إلى عدم تأثره بالعمليات العسكرية الأمريكية « ولكن الباشا هو الذى يقف عقبة فى طريق السلام إن المنازل بهذه المدينة مبنية من الطين وأساسها معدم ، ولذلك لا يتسبب القصف فى أضرار بالغة ، وأرجو أن تسمح لى بإبداء ملاحظة ، وهى أن تحريرى وزملائى بدون أن تدفع [illegible] غرامة عنا لأمر مستحيل ما لم تكن تحت قيادتكم قوات برية ، وإ[illegible] مؤمن أن هدفكم هو تحريرنا كمواطنين وقعنا فى ذل الأستعباد ونحن نخدم [illegible] (٢٠٤) ، [illegible] التعويل على استخدام أحمد باشا [illegible] على يوسف القر مانلى، وقد تحقق [illegible] ...حة .

امريكا والحرب [illegible]

ما كان يخفى على أحد ما يجرى من صراع على الحكم في طرابلس بين الأخوة القرمانليين ، وكيف انفرد بها يوسف باشا.

والواقع بأن عملية استقطاب أحمد القرمانلى واستخدامه كسلاح ضد أخيه كانت تراود القنصل الأمريكى فى تونس وليم ايتون Willam Eton منذ توليه هذا المنصب ١٧٩٩م مع بقية أخوته فى طرابلس والجزائر.

كان ايتون قد بدأ يراسل حكومته بهذا الشأن منذ عام ١٨٠١م ويشرح لها الظروف التى تحيط بأحمد القرمانلى وأن أخاه قد طرده من الحكم منذ ٨ سنوات، و أنه يعيش الآن فى تونس وأن الوضع ملائم لتحقيق أهدافنا ، وأن باى تونس يؤيدنا ، ولكن من وراء الستار لأنه يحب أحمد القرمانلى وأن يخلع يوسف يحسن الوضع ويعطى درساً لدول المغرب الأخرى وهذه خلاصة الأراء وكلها ليست بمستحيلة التحقيق (٢٠٥) ،فى الطريق إلى تونس بتاريخ ٥ سبتمبر ١٨٠١م وراح أيتون يسهل لحكومته المهمة: «إن الحرب غير شعبية أبداً وأن الشعب جاهز للثورة ضدالباشا ... ويتمنى أن يعود إليه قائده الشرعى ،

«أحمد» لأنه رجل حكيم ... وبمجرد ظهوره سيجعل الشعب يهب هبة رجل واحد لمقابلته» وأن حكومة الدنمارك على استعداد فى التحالف معنا فى حرب ضد طرابلس ، وأن أحمد القرمانلى منذ نوفمبر ١٨٠١م يبدى رغبته فى القيام بهذه المهمة ، ويعول على مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية فى استرجاع عرشه «وسألنى هل فى أمكانه أن يعتمد عل مساعدة أمريكية فنصحته بالصبر والسكوت لأن ما سيحدث فى العام القادم سيجعل كل شيء ملائماً (٢٠٦) ومع أن الجواب كان دبلوماسياً فلم يقطع أمراً ، فلعل ايتون كان يأمل أن تحقق الحملات الأمريكية أهدافها.

أما يوسف القرمانلى فبمجرد أن علم ببكورة التحرك الأمريكى أرسل إلى أخيه يطلب منه عودته إلى طرابلس من تونس ويتولى منصب والى «درنه»، وهنا انبرى ايتون فى الاسراع للإتصال بأحمد يطمئنه ويخوفه فى نفس الوقت من أخيه أن يسفك دمه وأرسل له مبلغاً وقدره الفين دولار (٢٠٧) وكتبت إليه لمقابلة القائد الأمريكى «مورس» ولم يلق مشروع ايتون آنذاك قبولاً من البحرية الأمريكية هذا فى الوقت الذي قبل فيه أحمد القرمانلى عرض أخيه وانتقل إلى درنه عن طريق مالطة في أواخر ١٨٠٢م ، وربما كانت تداعبه أحلام العودة كحاكم لعرش طرابلس تنفيذاً لـمفاوضاته السرية مع ايتون ، هذا فى الوقت الذى كان أخوه يوسف يتشكك فى نواياه وصدق حدسه عندما وقع في يده خطاب كتبه أخوه إلى قائد الاسطول الأمريكى فى البحر المتوسط «مورس» فأمر بعزله وخشية من أحمد على حياته غادر درنة إلى مصر فى الوقت الذى حال أخيه يوسف دون اصطحابه لزوجه وأولاده ، ومن هنا انتقل الصراع إلى العائلية ، هذا وما زالت الأدارة الأمريكية لا تبدى كثير من الاهتمام بمشروع ايتون ، ويظهر ذلك من تقارير القادة البحريين فى البحر المتوسط «لقد اتصل بى بعض الوكلاء هنا وطلبوا التعاون مع أخ باشا طرابلس ، وكانت طلباتهم تتراوح بين خمسين ، وألف دولار بالأضافة إلى عشرة آلاف دولار للأسلحة ، ورفضت كل العروض ، ولكن وافقت لهم على اظهار اسطولنا على مقربة من طرابلس واعطائهم عشرون برميل من البارود شريطة أن يقبلوا الولايات المتحدة كسند لهم إن نجحوا فى عزل باشا طرابلس ووعدونى

أنهم سيمكنون بلادى من عقد اتفاقية ، لكنى غير مرتاح لهم ولو عودهم (٢٠٨) .

هذا لا يمنع من أن يجد القنصل الأمريكى فى طرابلس كاثكرت فى جمع المعلومات عن أحمد القرمانلى منذ أغسطس ١٨٠٢م وكلها مشجعة وأن الرأى العام فى طرابلس مهيأ لعودة أحمد القرمانلى ، وأن أخاه يوسف باشا يشعر بذلك ولا يخرج من طرابلس الا ومعه كل أمواله وجواهره فى صناديق يحملها خدمه وأتباعه الذين لا يقل عددهم عن خمسمائة رجل كلهم من الزنوج والباحثين عن العطاء ولا شك بأنهم سيتخلون عنه فى اليوم الذى يرون فيه ماله قد نضب «والوضع بطرابلس اليوم يشجع تماماً على اتخاذ اجراء ضد الباشا بعد أن اتحد مع دول أخرى فتركيا تشعر بقلق من وجود يوسف لأنه خرج من سيطرتها وما منعها من مهاجمته هو انشغالها بالحرب وهى الآن مستعدة له والآن حان الوقت لأن يعود حامد «كذا» إلى عرش آبائه وأجداده حتى تقوم تركيا بمعاقبة يوسف وسوف لن تكلفنا عودة يوسف أحمد عناءً كثيراً وأن عودته هذه ستجعل أمورنا مستقرة هنا وتنهى الجبروت الذى أمامنا الآن . . . وأقسم بأعز المقدسات لدى بأنى شخصياً قادر على اشعال نار فى طرابلس لإعادة حامد «كذا» إلى الحكم لأنه رجل مثقف وقدير وأضمن للولايات المتحدة صديقاً مخلصاً ولتجارتها أمناً واستقراراً (٢٠٩) .

ويبدو أن كاثكرت كان متحمساً لهذا المشروع ويؤيده فى ذلك قائد الأسطول الأمريكى موارى (٢١٠) وأن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تتعامل مع هذا المشروع بحذر وتوصي رجالها اذا حدث التعاون مع أحمد القرمانلى وقدر لهم الفشل أن يتعاملوا معهم بكل تقدير واحترام وأن يخففوا من وطاءة الفشل وأن يعيدوه إلى بلاده أو أى بلاد يريدها هو وإذا توصلوا إلى اتفاق مع باشا طرابلس العالى فيجب أن يكفلوا بطريق رسمى أو غير رسمى مسألة تقديم عون مادى له منه حتى يخففوا عنه مصائب دهره (٢١١) .

وأمام تغيير القيادات للأسطول الأمريكى والنتيجة لم تتغير حتى منتصف عام ١٨٠٤م وفى قيادة صمويل بارون بدأت الأرادة الأمريكية لإحياء مشروع أحمد القرمانلى الذى أشار به من قبل وليم ايتون القنصل الأمريكى فى تونس

والمستشار البحرى لقائد الأسطول بارون (٢١٢) حيث أخذت تعليمات الخارجية إلى القائد بارون فى تفويضه مع لير فى تقدير موضوع التعاون مع أحمد القرمانلى ، بالتشاور مع ايتون (٢١٣) ويظهر الحذر من الخارجية الأمريكية فى توصياتها إلى رجالها «أصدرنا التعليمات لبارون لكى يلتحق عند البدء فى المفاوضات مع طرابلس ونتوقع أن يساعدكم انضمام هذا الضابط وقواته فى عقد اتفاق مع الباشا ، دون دفع أى شىء له» وكذلك فيما يتعلق بموضوع الأسرى وبأن المبلغ المحرر هو ٥٠٠ دولار عن كل رجل شريطة أن يخفض من مجموع ما يعادل الأسرى الذين وعد بهم ديل عندما وقع تحت يده عدد الأسرى من رعايا الباشا ، وما يعادل عدد رعايا الباشا الذين أسرهم بيربل ، وتحبذ الخارجية الأمريكية أن تدفع هذا المبلغ على دفعات سنوية (٢١٤) .

ومن هذه الرسالة والتى سبقتها يتضح أن الخارجية ما زالت تبحث عن حل وليس عندها أن يكون يوسف القرمانلى أو أحمد القرمانلى

وحتى منتصف شهر نوفمبر ١٠٨٤م كانت خطط ايتون فيما يتعلق بالمؤامرة قد اكتملت وانتقل إلى الأسكندرية بحثاً عن أحمد القرمانلى أولاً وتشكيل نواة جيش برى وتزويده بالسلاح لمهاجمة درنة فطرابلس فى الربيع القادم ، وفى الوقت نفسه كان يعول على انضمام الكثيرين من المتذمرين الليبيين إلى أنصار أحمد ونقل أحمد وجماعته إلى بنغازى إذا ما تبين سهولة الأستيلاء عليها ، وعلى الرغم من الظروف التى كانت تمر بها مصر آنذاك عقب جلاء الحملة الفرنسية إلا أنه أنطلق من الأسكندرية في ٤ من ديسمبر ، وكان ايتون قد أجرى فى مصر عدة اتصالات مع مسئولين أنجليز وعثمانيين والتقى بالوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا وفى ٩ يناير ١٨٠٥م أرسل أحمد باشا القرمانلى رسالة إلى اسحاق هل قائد إحدى سفن الأسطول البحرى الأمريكى وفيها يقول: «الحمد لله إلى صديقنا العزيز ايتون وكيل الولايات المتحدة: لقد استلمت رسالتكم وحمدت الله على أنكم بخير واؤكد لك بأننى لا زلت نفس الشخص الذى عرفتموه فى تونس ، ولا زالت صداقتى حية أما صداقتكم فهى التى فترت ولا بد أن يكون فتورها لأسباب معروفة سأغادر حالاً للبحيرة لكى أقيم فى بيت الزعيم العربى عبد الغفار الكرش لألتقى بك هناك وقد كتبت إلى

كل رعاياى وإلى السيد محمد الخوجة وزير خارجتى وإلى رئيس البوليس السيد محمد عبد الرحمن لكى يتعاونوا معكم ،أنى موافق على ما تتفق عليه معهم ستواجه قواتكم من البحر وقواتى من البر والله يـعيننا على إعادة توطيد أركان السلام (٢١٥) وكان هذا رداً على رسالة بعث بها ايتون إلى هل للتوجه إلى الأسكندرية للبحث عن مكان تواجد أحمد القرمانلى (٢١٦) .

وفى ٥ فبراير ١٨٠٥م تقابل ايتون مع أحمد القرمانلى فى دمنهور استعداداً للإنطلاق إلى الأسكندرية ، حيث ترابض هناك بعض سفن الأسطول الأمريكى حيث كانت خطة ايتون تقوم على أساس التحرك البرى المدعوم من البحر وكان أحمد القرمانلى يأمل أن يضم إليه فى الطريق عدد كبير من العرب الموالين له ، وأعد أحمد وايتون للحملة اعداداً جيداً بحراً وبراً فانضم عدد من البحارة اليونانيين إلي البحر وعدد من الجمالة والجمال والأدلاء بلغوا قرابة ٤٠٠ شخص ، يقول ايتون «وكانت قافلتنا تتألف من ١٠٧ جمال وبعض الحمير وضم المشاة خليطاً من اليونانيين ومواطنين بريطانيين وألمان وايطاليين وأسبانيين أما عدد الأمريكيين فلم يزد عن عشرة أشخاص ، وقبل أن تتحرك القافلة فى الساعة الحادية عشر من صباح ٨ مارس ١٨٠٥م كان ايتون قد وقع اتفاقية بينه وبين أحمد القرمانلى فى فبراير من الشهر السابق ونظراً لأهميتها سنورد مضمون موادها الأربعة عشر:

اتفاقية ايتون أحمد EATON - Ahamed ٢ فبراير ١٨٠٥الله هو الباقى

المادة الأولى :

يكون هناك سلم دائم مستمر وتعامل حر بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وبين سمو السيد القانونى لمملكة طرابلس أحمد قرة مانلى باشا وبين مواطنى كل منهما ورعايا بعضهم البعض

المادة الثانيــــة :

ستبذل حكومة الولايات المتحدة أقصى جهدها ، وذلك وفق مقامها

الرفيع ووفق المعاهدة الحالية المستمرة والقوانين الدولية المعترف بها ، بأن تعيد ملك أحمد باشا لسيادة طرابلس وذلك ضد طموحات يوسف باشا الذى امتلك السيادة بالخيانة ويترصدها الآن كمغتصب للعرش ، والذى يدخل فى حرب علنية ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

المادة الثالثة :

وفضلاً عن الأعمال التى تقوم بها الولايات المتحدة عن طريق البحر فسوف تمد أحمد باشا المذكور - حسب ما تقتضيه الأحوال بقرض نقدى وسلاح وإذا اقتضته الضرورة بالجنود ، كل هذا لدعم وتحقيق الجهود التى يقوم بها برياً ضد العدو ا لمعلوم.

المادة الرابعة :

ونظراً لما يكون من توليه المنصب فإن سموه - أحمد قرمانلى باشا - قد تكفل برد الأسرى الأمريكيين إلى القائد الأعلى لقوات الولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة البحر المتوسط وجميع السجناء الأمريكيين الذين أو سيكونون فى يد الخائن يوسف باشا ، أن يردهم بدون فدية .

المادة الخامسة :

ولكى تؤمن [illegible] ت المتحدة حصولها على النفقة التى دفعتها أو ستنفقها وفى حالة وضع تعهداتها موضع التنفيذ والتى أشير إليها فى المادتين الثانية والثالثة من هذه الاتفاقية فإن أحمد باشا المذكور ، يسلم الولايات المتحدة ما أنفقته من الجزية التى تدفعها الدول الأوربية بمقتضى المعاهدات الأخيرة لطرابلس ، وهذه الدول هى:الدانمارك والسويد و جمهورية باتا فيان/ Batavian ، ويكون هذا شرط للسلم مع مجلس الوصاية على العرش فى طرابلس حتى تستوفى الولايات المتحدة حقوقها المالية ، والجدير بالذكر أن إيتون كان قد قدر جميع المصاريف والنفقات النقدية التى ستتحملها الولايات المتحدة بما فى ذلك الأموال التى نفقت فى مصر بحوالى عشرين ألف دولار ، ويقول «لتطمئن الولايات المتحدة فإنى سوف أعوض لها خسارتها ، لا

سيما بعد أن توصلت إلى عقد إتفاقية مع أحمد باشا تنص على أن اتعهد بنفسى جمع جزية كل من السويد والدانمارك وجمهورية باتافيان (الهولنديين) (٢١٧).

المادة السادسة :

ولكى يتحقق التعهد والالتزام الموضح فى المادة السابقة بالتنفيذ فقد عبر أحمد باشا المذكور عن صدق إيمانه ، وشرف مقامه بأن يتابع تحقيق المعاهدة المستمرة الحالية بين مجلس الوصاية على العرش بطرابلس وبين عظمة ملوك الدانمارك والسويد ومع الجمهورية الهولندية (الباتافيانية).

المادة السابعة :

ونظراً للتصرف الودى لعظمة ملك الصقليتين Kingof the two sicilieS نحو الأسطول الأمريكى فإن سمو أحمد باشا يدعو ملك الصقلتين المذكور لتجديد ودهم القديم السابق ويعرض عليه سلماً نفس ما سوف يتحقق مع الولايات المتحدة الأمريكية بمقتضى هذه الأتفاقية.

ومن المعلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ كما أسلفنا ـ كانت قد نقلت مركز قيادتها من جبل طارق إلى سيراكوزا فى صقلية ، وهناك لقى أسطولها كل تقدير ومعاونة.

أما المادة الثامنة :

فقد إلتزم بمقتضاها أحمد القرة مانلى بإعترافه بوليم إيتون Willam Ea-ton ، وهو مواطن أمريكى وفى مصر حالياً اعترف به كلواء وقائد أعلى للقوات البرية التى طولبت وسوف تطالب بعمل ما ضد العدو المشترك ، وقد تعهد أحمد باشا أنه هو وأتباعه يطيعونه ويحترمونه ومن المعتقد أن إيتون حقق بمقتضى هذا البند أحلاماً كانت تراوده ، إذ هو جندى وعسكرى النشأة والثقافة وعضو فى الملشيا الأمريكية ، ووصل فى نهاية حرب التحرير الأمريكية إلى رتبة رقيب ، وانخرط مدة من الزمن فى التجنيد وقاتل ضد الهنود الحمر فى

منطقة أوهايو فى الولايات المتحدة ، وعزل من الجيش الأمريكى فى عام ١٧٩٦م بعد محاكمة عسكرية بتهمة الربح غير الشرعى ، فلم يترق إلى مناصب عسكرية ، وعلى الرغم من إنه عمل فى السلك السياسى إلاّ أنه لم ينس أنه كان يتوق لمنصب عسكرى (٢١٨) ، ونجح ايتون فى أن يحمل لقب جنرال باقى حياته (٢١٩) .

أما المادة التاسعة :

فتعهد فيها أحمد القرة مانلى بالعفو الكامل والدائم والمستمر نحو سلوك وتصرف أتباعه الذين كان يغريهم الخائن (يوسف باشا) والذين عادوا لولائهم إليه.

وتعرضت المادة العاشرة :

لأسرى الطرفين فى احتمالات المستقبل «وفى حالة وقوع الحرب فى المستقبل بين الجوانب المتعاقدة ، يعامل سجناء الحرب من كل جانب معاملة الأسرى لا معاملة الرقيق ، ويتم تبادلهم رجلاً برجل وكمية بكمية ، ولا يطالب بفدية فى شأن الأسرى بأى حال من الأحوال ، ولا يجزيه على أن تكون المطالبة شرطاً فى السلم ، وتحرم هذه المطالبة على كل من الجانبين ، ويتم تسليم الأسرى من كل جانب بإتمام عقد السلم»، وأن تبقى القنصلية الأمريكية وعلمها فى طرابلس ملجأ محترماً لكل من أراد اللجوء إليه أبداً ودائماً ، ما خلا الذين يفعلون ذلك فى جرائم الخيانة والقتل العمد (٢٢٠) وكان هذا مضمون المادة الحادية عشرة .

المـادة الثانيـة عشـــرة :

فقد إلتزم فيها القائد لأعلى للقوات الأمريكية فى منطقة البحر المتوسط بأن يتخلى لأحمد باشا ومجلس الوصايا عن العرش عن طرابلس دون ان يفكك حصونها وهذا شرط لصحة تحقيق ما التزم به أحمد القرة مانلى فى البنود السابقة.

أمــا المــادة الثالثـة عشــرة :

فقد تركت الباب مفتوحاً لإضافة كل ما يحقق السلم أو يحقق مصلحة للجانبين «كل مادة ملائمة لأن تنشأ فى معاهدة سلم ثابت بين الجانبين المتعاقدين والتى لم توجد فى هذه الأتفاقية ، سوف تضاف بالتسوية فى المعاهدات المستمرة مع الدول المسموح لها.

المــادة الرابعــة عشــرة :

تقدم هذه الإتفاقية إلى رئيس الولايات المتحدة ليصدق عليها فى وقت لا يوجد تعليق لتنفيذها - أى لا يوجد موانع.

تمت الأتفاقية بالأسكندرية فى مصر ٢٣ فبراير ١٨٠٥م ووقع عليها أحمد باشا عن نفسه وتابعيه ، كما وقع عليها وليم إيتون willam Eaton عن الولايات المتحدةالأمريكية.

والجدير بالذكر أن الإتفاقية ضمت مادة إضافية سرية تعهد أحمد باشا بمقتضاها أن يسلم شقيقه يوسف باشا وأسرته،وأمير البحر المدعو « مراد ريس» والمعروف « بيتر لسلى إلى القائد الأعلى للقوات الأمريكية بمنطقة البحر المتوسط ليرسلواكرهائن إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكضمان لصحة الأشراف والبنود المتفق عليها آنفا(٢٢١) .

أما الحملة البرية - كما أسلفنا - تحركت من الأسكندرية فى ٣ مارس ١٨٠٥م ووصلت مشارف درنة فى ٢٥ ابريل ، استغرقت الرحلة ٥٣ يوماً مزدحمة بالأحداث والمتاعب والمشاكل ونقص فى الثمرات والأموال والجمال ، تخللها تردد الكثيرين وعلى رأسهم أحمد القرة مانلى لخوفه من المقاومة العنيفة من جنود أخيه ، وخشية أن تكون معاهدته مع إيتون مجر معبر تصل أمريكا عن طريقه إلى مآربها من أخيه يوسف - وقد صدق حدسه - ، هذا فى وقت تراءت فيه سفن الإسطول الأمريكى من ناحية البحر وحتى ٢٦ إبريل كانت درنة قد سقطت على الرغم من بسالة المدافعين عنها من أهلها الليبيين وعلى رأسهم حاكمها «مصطفى بك »، حيث أخذ ايتون يستعد فى الزحف إلى

طرابلس ، وكتب بذلك إلى «بارون» قائد الأسطول الأمريكى بأن يدعم خطته من ناحية البحر ، ولكن «بارون» و«لير» كانا يدبران أمراً آخر وهو استغلال الظروف الحالية لندخول فى تفاوض مع يوسف القرة مانلى من أجل التوصل إلى عقد معاهدة سلمية ، وقد أعطى هذا التراخى الفرصة لقوات يوسف باشا تحت قيادة مصطفى بك لأن تشن هجوماً مضاداً على درنة فى ١٣ مايو ١٨٠٥م ، ونجحت فعلاً فى ضرب حصار حول درنة.

وعلى الرغم من محاولة إيتون الاستماتة فى الدفاع إلاَّ أن القوات الطرابلسية استطاعتت فى ٢٩ من مايو أن تحتل الهضاب والمرتفعات المحيطة بدرنة وغدت قوات ايتون فى حالة لا يحسدون عليها وحتى ١٠ يونيه كان ايتون وأحمد القرمانلى قد وصلا إلى حالة من اليأس المصحوب بخيبة الأمل ويعزى ايتون سبب الفشل إلى القائد البحرى «بارون» فيقول «ولم يكن بالمستطاع تحقيق تلك الغاية إلا بمغادرتنا مراكزنا وتركنا إياها بدون حماية تذكر فى حالة التراجع والهزيمة . . . وأنا أعترف بذلك شخصياً أنى كنت أشك فى أن الخطوات التى اتخذها مبعوث الولايات المتحدة الأمريكية للمفاوضة السلمية سوف تبرر لى فى أن أظل أعمل على الصعيد الهجومى مدة أطول فى هذه المنطقة (٢٢٢) .

ومن المعتقد أن ايتون كان يعيش داخل الصحراء منفصلاً تماما عما يجرى بين البحر واليا[illegible] على الجانب الآخر بين بارون ولير من ناحية ويوسف باشا من ناحية أخرى من مفاوضات بدليل أن ايتون وأحمد القرمانلى ظلا بعد توقيع المعاهدة مع يوسف القرمانلى وهم يمنون النفس بالتنسيق مع البحرية الأمريكية على الرغم من أن هناك ما يدل على علم ايتون بما كان يجرى من وراء ظهره ، ولكنه يبدو أنه لم يكن مستوثقاً من الوصول إلى نتيجة إيجابية ، أو أنه كان يريد أن يسبق فى تحقيق النصر ولذلك يعيب على لير بقوله «وأن الحملة التى بها أنا الآن يراها لير مجازفة (٢٢٣) .

مفاوضات سرية ومعاهدة أمريكية مع يوسف باشا :

وبينما الحملة البرية تتخذ طريقها نحو درنة ويحتدم القتال بين الطرفين

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

(١٩٢) لويس رايت نفس المرجع ص ص ٢٢٦,٢٢٤ .

(١٩٣) لويس رايت نفس المرجع ص ص ٢٢٩,٢٢٨ .

(١٩٤) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية المنشورة: خطاب من القنصل الفرنسى فى طرابلس بوسييه إلى وزير الخارجية الفرنسى تاليران بتاريخ ٢ نوفمبر ١٨٠٣م نقلاً عن محمد أبو عجيلة ص ١٤٣ .

(١٩٥) المصدر السابق نفسه والرسالة نفسها .

(١٩٦) لويس رايت مرجع سبق ذكره ص ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(١٩٧) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من وليم برينبريدج قائد السفينة فيلادلفيا إلى وزير البحرية الأمريكى طرابلس فى ١ فبراير ١٨٠٣م .

(١٩٨) رود لفو ميكاكى: مرجع سبق ذكره ص ص ١٥٩,١٥٨ .

(١٩٩) وثائق مجلس الأمة المنشورة: رسالة أدوارد بيريل إلى وزير البحرية الأمريكى ، مالطة فى ١٨ سبتمبر ١٨٠٤م .

(٢٠٠) لويس رايت: مرجع ما سبق ذكره ص ص ٢٤٧,٢٤٦ .

(٢٠١) لويس رايت المرجع نفسه ص ص ٢٥٠,٢٤٩ .

(٢٠٢) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من وزير البحرية الأمريكى إلى وليم إيتون فى ٣٠ مايو ١٨٠٣م .

(٢٠٣) وثائق مجلس الأمة الأمريكي المنشورة: رسسالة من إدوارد بيريل إلى وزير البحرية الأمريكى ١٨ سبتمبر ١٨٠٤م مصدر سبق ذكره .

(٢٠٤) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من يرينبريدج إلى صمويل بارون قائد الأسطول الأمريكى طرابلس بدون تاريخ .

(٢٠٥) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من إيتون إلى وزارة الخارجية الأمريكية تونس ١٣ ديسمبر ١٨٠١م .

(٢٠٧) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ١٩٤، ١٩٥ .

(٢٠٨) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من موريس إلى وزارة البحرية الأمريكية الباخرة تشيزابيك بتاريخ ٣ مارس ١٨٠٣م.

(٢٠٩) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة رسالة من كاثكارت إلى وزارة الخارجية الأمريكية ليجورن فى أغسطس ١٨٠٢.

(٢١٠) وثائق مجلس الأمة المنشورة: رسالة من موراى إلى إيتون ، الباخرة كونستيوشن فى ١٨ أغسطس ١٨٠٢م.

(٢١١) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من وزير الخارجية الأمريكية إلى كاثكارت فى ٢٢ أغسطس ١٨٠٢م.

(٢١٢) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من وزير البحرية الأمريكى إلى إيتون ٣٠ مايو ١٨٠٤م.

(٢١٣) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشور: رسالة وزير البحرية الأمريكى «سميث» إلى القائد بارون ، وزارة البحرية ٦ يوليو ١٨٠٤م.

(٢١٤) وثائق مجلس الأمة المنشورة رسالة من وزير الخارجية الأمريكى إلى ديل وزارةالخارجيةفى ٦ يوليو ١٨٠٤م.

(٢١٥) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من أحمد باشا بن على القره مانلى إلى أهل القاهرة العظيمة ٩ يناير ١٨٠٣م الساعة ٣ مساء.

(٢١٦) و... مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: تعليمات شفوية من قائد الأسطول الأمريكى إلى اسحاق هل، شهادة اسحاق هل ووليم إيتون.

(٢١٧) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ٢٦٢.

(٢١٨) لويس رايت مرجع سبق ذكره ص ص ٣٩, ٤٠.

(٢١٩) لويس رايت مرجع سبق ذكره ص ٢٦٣.

(٢٢٠) لويس رايت نفس المرجع والصفحة.

(٢٢١) الشرق الأوسط شمال أفريقيا فى السياسة العالمية

The middle east and north Africa in world politics 47 "WAR" and

peace: the united states andGarrison of tripoli 23 February - 10 June 1805.p.p. 156.161.

(٢٢٢) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ٣٠٣.

(٢٢٣) وثائق مجلس الأمة الأمريكى: رسالة إيتون إلى بارون درنة ٢ يونيو ١٨٠٥م.

(٢٢٤) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة رسالة من وليم برينبريدج إلى جورج دافيز ، طرابلس ٢٧ يناير ١٨٠٥م.

(٢٢٥) وثائق مجلس الأمة المنشورة رسالة وليم برينبريدج إلى صمويل بارون طرابلس ١٦ مارس ١٨٠٥م.

(٢٢٦) نفس المصدر: رسالة نيسين قنصل الدنمارك فى طرابلس إلى القائد بارون طرابلس فى ١٨ مارس ١٨٠٥م.

(٢٢٧) نفس المصدر السابق والرسالة.

(٢٢٨) نفس المصدر: رسالة من بارون إلى إيتون مالطة ٢٢ مارس ١٨٠٥.

(٢٢٩) نفس المصدر: رسالة من وزارة الخارجية الأمريكية إلى قنصلها فى الجزائر «لير» بتاريخ ٦ يونيه ١٨٠٤م.

(٢٣٠) نفس المصدر: رسالة من رود جيرز قائد الباخرة كونسينتوشن إلى بارون ، كونستيوشن ٣٠ مايو ١٨٠٥م.

(٢٣١) نفس المصدر: رسالة من رودجيرز إلى بارون طرابلس فى ٣ يونيو ١٨٠٥م.

(٢٣٢) محمد أبو عجيلة: مرجع سبق ذكره ص ص ٣٥٦,٣٥٥.

(٢٣٣) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية: خطاب من القنصل الفرنسى فى طرابلس بوسييه إلى وزير الخارجية الفرنسى بتاريخ ٤ يونيو ١٨٠٥م مجلد ٣٢ نقلا عن أبى عجيلة مرجع سبق ذكره ص ٣٥٧.

(٢٣٤) المصدر السابق: رسالة من القنصل الفرنسى فى طرابلس بوسييه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٣ يوليو مجلد ٣٢ نقلاً عن أبى عجيلة مرجع سبق ذكره ٥ ٣٥٨.

(٢٣٥) وثائق مجلة الأمة الأمريكى المنشور: رسالة مطولة من لير إلى وزير الخارجية الأمريكى ، ساراكوزه فى ٥ يوليه ١٨٠٥م.

(٢٣٦) The middle East and North Africa in world Politics op.cit

p,p 156,167;

(٢٣٧) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ١١٠.

(٢٣٩) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ٣٠.

(٢٤٠) لويس رايت نفس المرجع ص ص ١٤١, ١٤٢.

(٢٤١) لويس رايت نفس المرجع ص ١٤٤.

(٢٤٢) لويس رايت نفس المرجع ص ١٥٤.

(٢٤٣) لويس رايت نفس المرجع ص ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢٤٤) لويس رايت نفس المرجع ص ١٦٦.

(٢٤٥) لويس رايت نفس المرجع ص ٨٠.

(٢٤٦) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من أوبراين إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الجزائر فى ٥ نوفمبر ١٧٩٣م.

(٢٤٧) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من إيتون القنصل الأمريكى فى تونس إلى وزير الخارجية الأمريكى بيكرينج الخميس ١٠ يونو ١٧٩٩م نقلاً عن لويس رايت ص ص ٨٠, ٨١.

(٢٤٨) لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ٨١.

(٢٤٩) لويس رايت: المرجع نفسه ص ٨٢.

(٢٥٠) لويس رايت المرجع نفسه ونفس الصفحة.

(٢٥٢) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشور: رسالة من حامد على قره مانلى للشعب الأمريكى ساراكوزه ١ سبتمبر ١٨٠٥م

(١٥٣) نفس المصدر: من خطاب الاتحاد والذى ألقاه الرئيس الأمريكى توماس جيفرسن فيلادلفيا ٣ ديسمبر ١٨٠٥م.

(٢٥٤) المصدر نفسه: رسالة من إيتون إلى وزير البحرية الأمريكى تونس ٥ ديسمبر ١٨٠٥م.

(٢٥٥) المصدر السابق: رسالة من حامد باشا القره مانلى إلى أصحاب المعالى أعضاء مجلس الأمه الأمريكى ساراكوزة ١٨ فبراير ١٨٠٧م.

(٢٥٦) المصدر نفسه: رسالة من إيتون إلى مجلس الأمة الأمريكى بدون تاريخ.

(٢٥٧) المصدر السابق: تقرير من اللجنة الأمريكية المكلفة بدراسة وضع باشا طرابلس المعزول (أحمد القرمانلى)، بعد رسالة ملحة من وليم إيتون فى ٢٨ ديسمبر ١٨٠٧م.

٩٢٥٨٠ لويس رايت: مرجع سبق ذكره ص ص ٣٤٢,٣٤١.

(٢٥٩) وثائق مجلس الأمة الأمريكى المنشورة: رسالة من أحمد القرمانلى إلى الشعب الأمريكى ساراكوزة فى ١ سبتمبر ١٨٠٥م.

***

لم يبق فى الدوح ما يغرى بتغريد

إلى أستاذى الراحل

الدكتور الشاعر/حسن جاد

مع كل الألم والحزن والشعور الأسيف

دكتور/ سعد ظلام

لم يبق فى الدوح ما يغرى بتغريد ... إلاّ بقايا البقايا من أغاريدى

نامت على كبدى الحرى موزعة ... كأنها فى محيطات من البيد

يلفّها الصمتُ والآلام تعصفها ... عصفَ الأعاصير فى عسفٍ وتهديد

قد شفّها الحزنُ فارتاعت بَواسِقُها ... واستلمنا لخريفٍ .. من مناكيد

لا الحسن فيما أراه فى الرؤى (حسن) ... ولا سفائنُه أرست على الجودى

شيخى .. وكل خطوبٍ هان موقعُها ... إلا مُصابى فيكم غير محدود

قد لَفّنى ما يلفُّ النفس من غسقٍ ... لمّا تُراع بتصويب .. وتسديد

إذا تراءَت بأبياتى دُجىً ولظىً ... فالسهم فى القلب .. والنيران فى العود

وإن بدت فى ثبات القهرِ راسفةً

ففقدُها العيدَ خلاَّها من العيد

خُطى المنايا لأطيارى مفزعة

تسير نحوى بأقدامٍ رعاديد

وتخطف الصادحَ العملاق من غَدنا

وكان منجُمه مَهْدَا المواليد

***

يا لَلوداعِ .. وما أقسى تحمَّله

والنّفسُ من أسرِه فى قيد مفقُود

هذا النَّديُّ .. ولكن أين شاعره ؟

وكان زهرتَه فى كل تغريد

وأين يا شيخَنا شعرٌ توقُّعه

كالبحتريِّ يِوَشْيِ غير مقصود ؟

نرى على وقعه الشادى خواطرنا

مصوَّرات لحالٍ غير مسعود

وأين .. أين شداة الشعر ؟ قدر حلوا

وخلَّفوه بأيدٍ .. كالرّدى سود

قد ألبسوه لباساً غير ملبسه

وبعثروهُ على إيقاع عربيد

قد كنتَ يا «حسن» يا «جاد» مِزهرَه

والفنُّ بعض التزامات الأماجيد

***

وللفنون كما للنّاسِ آصرةٌ
بكلِّ أصلٍ ثرىٍّ بالتقاليد

يا قيِّمَ الشعر هذى الضاد ملعبها
خاوٍ .. وليس به إطلالة الجيد؟

فأين لمسةُ راعيه وحارسِهِ؟
وأين للشعر منه صولةُ الجُود؟

وأين كل جديدٍ من قريضكم؟
قد كان خُبزىَ فى فَنِّى وعنقودى

أصبو إليه وأُسقَى من مناهله
فنّاً شهىَّ الرؤَى .. حُلوَ الأناشيد

ياما شدونا وكان الشعر أغصنا
فى دوحة الضّاد .. معسولَ العنَاقيد

نذودُ كلَّ دَعِىٍّ عن أصالَتنا
شلّت يداه على غىٍّ .. وتَقليدِ

وكم عزفْنَا بها صافِى مودّتنا
أهازجاً .. كثُرَيّاتِ المساجيد

نبوح بالشعر .. نفنى فى تذكُّرِه
بَوحَ العصافير فى نجوى التحاميد

وذكرياتٍ لنا مازلتُ أحفظها
كالغيد فى العيد، أو كالعيد فى الغِيد

***

يا أيها الراحل الغالى .. على كبدى
سلبتَ عذب أحاسيسى وتنفيدى

قد كنتُ من شعركم فى محفلٍ عَجبٍ
ومهرجــانٍ من الإنفصــاح مشــهود
يهزّنِي حَرْفُـكَ الفنـّان ٠٠ مَقتبَســاً
من مهجة الحسن والوجدان مـولود
وتستحـــم ثريــّاتى بِعــــالمه
وتشرئبٌ لإيقــاع الأغــــاريـــد
ورنَةُ اللحن فى القيثار أسمعها
فتشرق الروح فى ترنيمة العــود
ما كنتُ احسبنى أحيا الى زمن
أنعى بناةَ القوافى فى أناشيدى
ومن أكون؟ وما شعرى؟ وما نغَمى؟
إلاّ احتشـــــادةُ معمــود بِمَعْمُودِ
إن أجفلوا ٠٠أوتراخَوْا فى وفائهم
فلم أزل من وفائى فى مقاييدى
***
يا أيها الشــــاعر المزجى يراعتَه
نحو السماء ٠٠ خيالاً غير مـكدود
مازال فنّـك فينا ٠٠ وهــو مؤتلــق
فى رونَقِ الحسن مخصلّ الأماليد
كـل البـراعة فـى أبياتـه سكنـت
وَاستَوْثَقَتْ بأصــالاَت ٠٠ وتجـديـد
لولاَ التَّحيزُ٠٠ قلــت: الـشعر شعركـم
هذا الجمال بـــه ضخـم الأســانيد

ورعشـــة الواهب الفنّـان نلمســها

في كــل فنٍ بتــاج الحسن معــقود

يــد صــناعٌ ·· وروح جــدّ ملهمة

ولفظها البكر في نظمٍ·· وتقـصيد

« أبو الشمقمق» « ديك الجن » « أخطلهم »

بكل مـا لبـدعوا ·· حتى التجـاعيد

صــوّرتهم أطوا ر شـــعريّة عَـــذُبت

وانــت منهــم بيــان الألسُـن الصِّـيد

قدّمَت فيهم قريـضا ·· لــم يزل غـرداً

منه الضحـايا ·· وصـرعـى كـل تغريــد

***

جَــسَّدت فــى صــوَرٍ غُــرٌ منـضَّدَة

بعضَ الشُخوص رماها الخَطُّ فـى بيدِ

أضحــكتَنــا ثــم أبــكانا تَــخيُّلها

فكنــت ناقِــلنَا فــى كـل منقــود

فــأيــن يــا شيــخى الأشعارُ مطــهمةٌ

كالخيل فى الركض ، أو كالسيف فى الجيد

رحلــتَ عنــا ·· ولكــن لا يــودّعــنا

خفــقُ الكــمان ·· ولا نبض المواجــيد

وبَـوحةُ الـنَّاى نــامت فــوق مــزهــرها

لحــناً ســبوحا ·· بِتوقيعٍ ·· وتَنضيـــدِ

قــد كــنتَ منــظومةً للــفنّ مــزُهــرةً

مــا بــين شــعرٍ ·· وتلــحين ·· وتَجــويد

وكُنتَ في روضة الآداب · باسقة

من النّشاط بتزهير ونوريد

أنجبتَ في درسكَ مَلحمةً

من الأئمة غُداً · · والصناديد

وكلهُم في سماء الضاد أجنحةٌ

تعلو بإسهامها في كلِّ موجود

***

ما أغرب الفنَّ والفنّان في بلدى

وفى جوانحه أصحاب أخدود

تدعهُ عن سماه كل ناعبة

فتلتقى فيه إحساسات مجلود

لكم أسفتُ لهذى الحال · · واسفى

وكم رثيت لموهوب · · ومجهود

هى الحياة ، وكم ضاقت بموهبة

وطوّقت بالسنا هام المطاريد

لم يأتِ فذٌّ من الأفذاذ مثلكم

بمثل مَا جِئْتُمُ · · إلاّ به عُودى

قد حطّموه أحاسيساً وأجنحةً

وحاصروهُ بمفئودٍ وموءُودِ

وَضرَّجُوا وربَه إفكًا · · ومنْقَصةً

ما بين حمقٍ وإيلامٍ وتنكيد

حتى إذا ما ثوى هَامُوا بسيرته

وأمطروه بإطراءٍ وتمجيد

لـو كـنـتَ يا شـيخنا فـى غير شاطئنا

لأتْـرَعـوُك بأضــواء وقـنـديـد

وأطلـقوا نجـمك اللألاءَ مفـخـرةً

فى كل محفلـةٍ مَـهرِيَّةٍ ٠٠ قـودِ

لـكنَّ شاطـئَك الموعودَ شاطـئنا

فكـنتَ فـيه غـنيًّا بالمواعيـد

***

بكيتُ فيـك أباً لا ينـتهـى أبـداً

عطاؤه العذب ٠٠ باقٍ غيْر محـدود

إلـى اللقاء غـداً فـى ظـل مغفرةٍ

وفى نعيم ٠٠ وفى خلـدٍ ٠٠ وتَخْليدِ

الاستاذ دكتور

سعد عبد المقصود ظلام

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

ورذيس قسم الأدب والنقد

جامعة االازهر

القاهرة

الفهرس

رقم الإيداع ١٩٩٦/٣٢٦٧
بتاريخ ١٩٩٦/١/٢م

دار الإتحاد التعاوني للطباعة
شارع سيدى بلال من ش مصطفى حافظ
جسر السويس